جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

المعاجم

LARB2213

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011

المحتويات

الدرس الأول	: مقدمة عن المعجم	٧-٢٥
الدرس الثاني	: تاريخ المعجم عند العرب وغيرهم	٢٧-٤٩
الدرس الثالث	: تابع: تاريخ المعجم عند العرب	٥١-٦٦
الدرس الرابع	: تعريف بمدارس المعجم العربي	٦٧-٨٩
الدرس الخامس	: دراسة في بعض معاجم الموضوعات: (الغريب المصنَّف)	٩١-١١٠
الدرس السادس	: تابع: دراسة في بعض معاجم الموضوعات: (فقه اللغة)	١١١-١٢٩
الدرس السابع	: تابع: دراسة في بعض معاجم الموضوعات: (المخصّص في اللغة)	١٣١-١٤٩
الدرس الثامن	: معاجم مدرسة التقليبات: مدرسة التقليبات الصوتية	١٥١-١٦٩
الدرس التاسع	: تابع: مدرسة التقليبات الصوتية: دراسة تطبيقية في معجم (تهذيب اللغة) للأزهري	١٧١-١٨٩
الدرس العاشر	: مدرسة التقليبات الهجائية: دراسة تطبيقية في معجم (جمهرة اللغة) لابن دريد	١٩١-٢١٠
الدرس الحادي عشر	: مدرسة القافية	٢١١-٢٢٦
الدرس الثاني عشر	: تابع: مدرسة القافية: دراسة تطبيقية في معجم (لسان العرب) لابن منظور	٢٢٧-٢٤٥

المعاجم

الدرس الثالث عشر :	مدرسة الهجائية العادية: دراسة تطبيقية في معجم (مجمل اللغة) لابن فارس	٢٤٧-٢٦٤
الدرس الرابع عشر :	تابع: مدرسة الهجائية العادية: دراسة تطبيقية في: (المعجم الكبير)، و(المعجم الوسيط) لمجمع اللغة العربية في القاهرة	٢٦٥-٢٨٤
الدرس الخامس عشر :	طُرق شرح المعنى عند اللغويين، والمآخِذ على المعاجم العربية	٢٨٥-٣٠١
الدرس السادس عشر :	جهود العرب في علم الدلالة: جهود الجاحظ وابن فارس	٣٠٣-٣٢٣
الدرس السابع عشر :	تابع: جهود العرب في علم الدلالة: جهود ابن جني	٣٢٥-٣٤٢
الدرس الثامن عشر :	من الظواهر الدلالية: الاشتراك اللفظي	٣٤٣-٣٦٢
الدرس التاسع عشر :	تغيُّر الدلالة وتطوُّرها	٣٦٣-٣٨٠
الدرس العشرون :	أنواع المعنى	٣٨١-٣٩٩
الدرس الحادي والعشرون :	الأضداد والترادف	٤٠١-٤٢٥
قائمة المراجع العامة :		٤٢٧-٤٣٣

مقدمة عن المعجم

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	معنى كلمة "المعجم" لغةً واصطلاحًا	٩
العنصر الثاني	:	شروط المعجم	١٩
العنصر الثالث	:	وظائف المعجم، وأهميته	٢٠
العنصر الرابع	:	أنواع المعاجم العربية	٢٢

معنى كلمة "المعجم" لغة واصطلاحًا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فالمعجم: واحد المعاجم، والأصل أن يُجمع المعجم على معجمات، ويتمسَّك بعض العلماء بهذا، لكنَّ المجمع اللغوي أجاز الجمعين، فيقال في جمع المعجم: معجمات، ومعاجم. ينظر في هذا (المعجم الوسيط): "ع - ج - م".

والمعجم: اسم مفعول من أعجمت الكتاب؛ أي: أزلت إبهامه وخفاءه. ويرجع هذا اللفظ إلى مادة "ع - ج - م"، التي يقول عنها ابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب):

"اعلم أن "ع ج م" إنما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء، وضد البيان والإفصاح، من ذلك قولهم: رجل أعجم، وامرأة عجماء: إذا كانا لا يفصحان ولا يبينان كلامهما. وكذلك العُجم والعَجم، ومن ذلك قولهم: عَجَم الزبيب وغيره -وعَجَم الزبيب: حَبُّه الذي في جوفه- إنما سمي عجمًا؛ لاستتاره وخفائه بما هو عجم له. ومن ذلك قوله # : ((جرحُ العجْماءِ جُبار)) -معنى ((جُبار)) أي: هدر. معناه كما قال الأزهري: أن البهيمة العجماء تنفلتُ فتتلف شيئًا فهو هدر- يراد به -كما قال ابن جني-: البهيمة -يراد بالعجماء البهيمة-؛ لأنها لا توضح عما في نفسها. ومن ذلك تسميتهم صلاتَي الظهر والعصر: العجماوين؛ لما كانتا لا يُفصح فيهما بالقراءة. قال أبو علي: ومن ذلك قولهم: عجمت العود، ونحوه، إذا عضضته. قال: وهو يحتمل أمرين، كل واحد منهما راجع إلى ما قدمناه:

أحدهمَا: أنه قيل: عجمت؛ لأنك لما أدخلته فاك لتعضَّه، فقد أخفيته في فيك.

والآخرُ: أنك قد ضغطت بعض أجزائه بالعجم، فأدخلت بعضها في بعض، فأخفيتها، وربما سمَّت العرب الأخرس أعجمَ من هذا. فأما قول ذي الرمة:

حتى إذا جعلتْه بين أظهرها ❖ من عجمة الرمل أنقاء لها حبب

فالعجمة: معظم الرمل وأشده تراكمًا؛ سُمي بذلك لتداخله واستبهام أمره على سالكه".

والأنقاء: جمع نقن، وهو الرمل المحدودب المنقات.

والحبب: جمع حبة، ومعناها: الطريقة في الرمل.

والهاء في قوله: "جعلتْه" ضمير راجع إلى الثور الوحشي.

المعنى الإجمالي للبيت: حتى إذا صار الثور وسط الرمال أدركه الليل، وضم الظلام عليه حُلَّته والمقصود أن الليل ستره، كما يفهم من البيت بعده -الذي أضافه أو أشار إليه محققو (سر صناعة الإعراب) وهم مصطفى السقا وآخرون- وهو:

ضم الظلام على الوحشي شملتَه ❖ ورائح من نشاص الدلو منسكب

ويتابع ابن جني كلامه قائلًا:

ومنه قولهم: استعجمت الدار إذا صمَّتْ، فلم تجب سائلها، قال امرؤ القيس:

صم صداها وعفا رسمها ❖ واستعجمت عن منطق السائل

والصمم -كما هو معروف-: انسداد الأذن، وثقل السمع، والفعل منه صم، والصدى: ما يرجع عليك من صوت الجبل، وإسناد الصمم إلى الصدى في البيت؛ لتخيل أن الصدى يسمع المتكلم فيجيب، فإذا لم يجب فكأن به صممًا،

ومعنى استعجمت الدار؛ أي: سكتت؛ ولذلك عداه بـ"عن"، والمراد أن هذه الدار لم تجب السائل عما يسأل، وذهبت آثارها التي تدل على أصحابها.

والذي جاء في المعاجم لا يكاد يخرج عما ذكره ابن جني، فقد ذكر ابن فارس في (مقاييس اللغة) في مادة "ع ج م": أن للعين والجيم والميم ثلاثة أصول أحدها يدل على سكوت وصمت، ومثل له بالرجل الذي لا يفصح، ومثل له أيضًا بالمرأة العجماء بينة العجمة، ومثل له أيضًا بالصبي الأعجم الذي لا يتكلم ولا يفصح.

وقد ذكر الجوهري في (مختار الصحاح) أن الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، وإن كان من العرب، فالإعجام غير الإعراب في (الصحاح) و(اللسان)؛ ولذلك ذكروا قول رؤبة:

الشعر صعب وطويل سلمه ❖ إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه ❖ والشعر لا يسطيعه من يظلمه
يريد أن يعربه فيعجمه ❖ ....

ومعنى الإعجام هنا: أنه يحاول تبيانه وتوضيحه ولكنه يخفق في ذلك، أو أنه يأتي به ملحونًا شأنه في ذلك شأن العجم، أو أنه يريد أن يبين عنه فلا يقدر على ذلك؛ فيأتي به غير فصيح.

وحينما يضاف إلى ذلك المعنى السابق، معنى الإفصاح والإبانة وإزالة الإبهام والخفاء على نحو ما يقول ابن فارس: "وكتاب معجم وتعجيمه تنقيطه حتى تستبين عجمته"، فإن القضية تحتاج في هذه الحالة إلى تعليل وتوضيح، وقد تولى ذلك ابن جني من قبل فقال في كتابه (سر صناعة الإعراب) أيضًا:

"فإن قائل فيما بعد: إن جميع ما قدمته يدل على أن تصريف "ع ج م" في كلامهم موضوع للإبهام وخلاف الإيضاح، وأنت إذا قلت: "أعجمت الكتاب" فإنما معناه: أوضحته وبينته، فقد ترى هذا الفصل مخالفًا لجميع ما ذكرته، فمن أين لك الجمع بينه وبين ما قدمته؟

فالجواب أن قولهم: "أعجمت" وزنه: أفعلت، و"أفعلت" هذه وإن كانت في غالب أمرها إنما تأتي للإثبات والإيجاب؛ نحو: أكرمت زيدًا أي: أوجبت له الكرامة، وأحسنت إليه: أثبت الإحسان إليه، وكذلك أعطيته وأدنيته وأسعدته وأنقذته، فقد أوجبت جميع هذه الأشياء له، فقد تأتي "أفعلت" أيضًا يراد بها السلب والنفي، وذلك نحو: أشكيت زيدًا: إذا زلتَ له عما يشكوه، أنشدنا أبو علي قال: أنشدنا أبو زيد:

تمد بالأعناق أو تلويها ❖ وتشتكي لو أننا نشكيها

أي: لو أننا نزول لها عما تشكوه".

والراجز هنا يصف إبلًا قد أتعبها السير فهي تلوي أعناقها تارة وتمدها أخرى، وتشتكي إلينا فلا ننزع لها عن شكايتها. ومعنى شكواها: ما غلبها من سوء الحال والهزال، وهذا يقوم مقام كلامها.

يقول ابن جني: "ومثله قوله -عز اسمه-: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥] تأويله -والله أعلم- عند أهل النظر: "أكاد أظهرها". وتلخيص حال هذه اللفظة أي: أكاد أزيل عنها خفاءها، وخفاء كل شيء غطاؤه".

ثم يقول ابن جني: "فكذلك أيضًا يكون قولنا: أعجمت الكتاب؛ أي: أزلت عنه استعجامه". كما كان أخفيها: أزيل خفاءها أو خفاءها. ونشكيها بمنزلة: ندع

لها ما تشكوه. ونظيره أيضًا: أشكلت الكتاب؛ أي: أزلت عنه إشكاله، وقد قالوا أيضًا: عجَّمت الكتاب فجاءت "فعلت" بالسلب أيضًا كما جاءت "أفعلت".

وقد ذكروا في هذا المقام حروف المعجم، واختلفوا في تعليل هذا التركيب، ومعناه كما يقول ابن فارس: "قال الخليل: حروف المعجم هي الحروف المقطعة؛ لأنها أعجمية". ثم يقول: "وأظن الخليل أراد بالأعجمية أنها لا تدل على شيء".

والذي عندنا في ذلك أنه أريد بحروف المعجم هي حروف الخط المعجمي، وهو الخط العربي؛ لأنا لا نعلم خطًّا من الخطوط يعجم هذا الإعجام؛ حتى يدل على المعاني الكثيرة، ومعنى هذا أن كلمة المعجم هنا صفة المحذوف هو "الخط"، وأنها اسم مفعول من "أعجم"، ويكون المعنى كما ذهب إليه ابن فارس: حروف الخط الذي حدث به الإعجام.

وهذا الرأي لا يروق ولا يعجب ابن جني، فقد أنكر أن يكون المعجم صفة لحروف من وجهين:

أحدهمَا: أن "حروفًا" هذه لو كانت غير مضافة إلى المعجم لكانت نكرة، والمعجم كما ترى معرفة، ومحال وصف النكرة بالمعرفة.

والآخرُ: أن الحروف مضافة إلى المعجم، ومحال أيضًا إضافة الموصوف إلى صفته؛ والعلة في امتناع ذلك أن الصفة هي الموصوف على قول النحويين في المعنى، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة.

ثم بعد أن استطرد ابن جني ذاكرًا أمثلة أخرى لتوضيح ما قال، انتهى قائلًا:

"فكذلك لو كان المعجم صفة لـ"حروف"؛ لما جازت إضافتها إليه. وأيضًا فلو كان المعجم صفة لـ"حروف"؛ لقلت: المعجمة؛ يعني: الحروف المعجمة. كما تقول:

"تعلمت الحروف المعجمة"، فقد صح بما ذكرنا أن المعجم ليس وصفًا لحروف. والصواب في ذلك عندنا -والكلام لابن جني-: ما ذهب إليه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد -رحمه الله تعالى- من أن المعجم مصدر بمنزلة الإعجام كما تقول: أدخلته مُدخلًا، وأخرجته مُخرجًا؛ أي: إدخالًا، وإخراجًا.

وحكى أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش أن بعضهم قرأ: "ومن يهن الله فما له من مُكرَم" بفتح الراء؛ أي: من إكرام. فكأنهم قالوا: هذه حروف الإعجام، فهذا أسدُّ وأصوب من أن يُذهب إلى أن قولهم: "حروف المعجم" بمنزلة قولهم: "صلاة الأولى" و"مسجد الجامع"؛ لأن معنى ذلك: صلاة الساعة الأولى أو الفريضة الأولى، ومسجد اليوم الجامع، فالأولى غير الصلاة في المعنى، والجامع غير المسجد في المعنى أيضًا، وإنما هما صفتان حذف موصوفاهما، وأقيمتا مقامهما، وليس كذلك حروف المعجم؛ لأنه ليس معناه: حروف الكلام المعجم، ولا حروف اللفظ المعجم، وإنما المعنى: أن الحروف هي المعجمة، فصار قولنا: "حروف المعجم" من باب إضافة المفعول إلى المصدر، كقولهم: هذه مطيَّة ركوب؛ أي: من شأنها أن تركب، وهذا سهم نضال؛ أي: من شأنه أن يناضل به، وكذلك حروف المعجم أي: من شأنها أن تعجم؛ فاعرف ذلك".

انتهى كلام ابن جني.

ونخلص من كل هذا إلى: أن الإعجام يدل على التوضيح والتبيين للدلالة التي يمكن أن نسمِّيها: الدلالة الصرفية أو دلالة الصيغة، وهي تختلف عن دلالة المادة التي ارتبطت بالخفاء والإبهام، وأنه يمكن اشتقاق لفظ المعجم بهذا المعنى من ذلك المصدر، فيكون معناه: الموضَّح، أو المبين، أو الذي حدث فيه التوضيح والتبيين، بعد أن كان ذا خفاء وإبهام، كما تشير إليه المادة الأصلية.

وإذا أصح هذا فإننا لا نجد عناءً كبيرًا في الربط بين المعنى اللغوي للفظ "معجم"، وذلك المعنى الاصطلاحي الذي شاع استخدامه فيه منذ زمن طويل، وربما لا نحتاج في ذلك إلى افتراض أنَّ هذا الاصطلاح قد لوحظ فيه دائمًا الترتيب على حروف المعجم، على نحو ما ذهب إليه بعضهم من أن هذه التسمية الاصطلاحية كانت من قولهم: "كتاب كذا على حروف المعجم". فاختصروها وساروا في طريقين، قالوا: "كتاب كذا على الحروف لفلان" بحذف كلمة المعجم. وقالوا: "معجم كذا لفلان" بحذف كلمة حروف، وتغيير ترتيب الكلمات.

وربما أيدنا في هذا أن تلك الدواوين الجامعة لمفردات اللغة في العربية لم يطلق أحد من مؤلفيها على مؤلَّف له تلك التسمية، وإنما كانوا يسمونها بأسماء مختلفة، على نحو ما سنراه، إن شاء الله.

ولا يعرف أحد إلى الآن متى أُطلق هذا الوصف على المعجمات اللغوية؛ ومن ثم فقد افترض أن يكون ذلك الإطلاق قد تم في الوقت الذي أطلق فيه على الكتب الحديثية -أعني: كتب الحديث- مثل كتابي عبد الله بن محمد البغوي: المعجمين الكبير والصغير، ومعروف أنه قد وُلِدَ في سنة أربعة عشرة ومائتين من الهجرة. وهذا افتراض غير مسلَّم به؛ لأنه لا يجيب عن سؤال مهم، ملخصه:

لماذا بقي اسم المعجم بالنسبة لكتب الحديث وغيرها مما أُلِّف في هذه الفترة، ولم يصل إلينا معجم لغوي بتلك التسمية، ما دام الملاحظ في التسمية هو الترتيب على حسب الحروف؟

لقد وردت إلينا أسماء كتب كثيرة مما أطلق عليها اسم المعجم في العصور السالفة منها: كتابا البغوي السالفا الذكر، ومنها أيضًا كتاب أبي بكر النقاش المتوفَّى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة في أسماء القراء، وقد ألف إبراهيم بن أحمد

البلخي المعروف بالمستملي المتوفَّى سنة ست وسبعين وثلاثمائة معجمًا للشيوخ، كما وضع أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفَّى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة معجمًا للشعراء، وذكر فيه أسماء نحو من خمسة آلاف شاعر رتَّب أسماءهم بترتيب حروف المعجم.

وتوالى التأليف في سائر العلوم على هذا النحو حتى وصل إلى العصور الحديثة، وشاع إطلاق لفظ المعجم على كل كتاب تتبع فيه هذه الطريقة، وترتب معلوماته على هذا النحو.

ومهما يكن فقد شاع إطلاق لفظ المعجم على كل كتاب أو ديوان يجمع بين دفتيه ألفاظ لغة أو أكثر أو جزءًا من تلك الألفاظ، مع ملاحظة ترتيبها ترتيبًا ما، وتعريفها وشرحها وتأييدها بالشواهد، وقد يطلق على شكل تلك الكتب أيضًا لفظ "القاموس"، ويقال: إن ذلك كان نتيجة لما حازه (معجم القاموس) للفيروزآبادي من شهرة وانتشار بين الناس.

وهذا الاسم لا شك فيه ولا غموض، ومعنى "القاموس": البحر الواسع الشامل، وقد كثر تداول (القاموس المحيط) للفيروزآبادي، ولما كثر تداوله في أيدي المتأخرين، وقصروا جهودهم عليه؛ اكتفوا بتسميته بـ"القاموس"، ثم ذاع هذا الاستعمال حتى أصبح مرادفًا لكلمة "معجم لغويّ"، وأطلق على جميع المعاجم اللغوية الأخرى المتقدمة والمتأخرة.

وقد أقرَّ مجمع اللغة العربية هذا الإطلاق الذي شاع في عصرنا، فقد جاء في (المعجم الوسيط) القاموس: البحر العظيم، والقاموس: عَلَم على معجم الفيروزآبادي، والقاموس: كل معجمٍ لغويٍّ على التوسع.

ولما كانت كلمة "القاموس" تعني: البحر؛ فقد حرص بعض اللغويين على إطلاق اسم البحر أو صفة من صفاته على مؤلفاتهم، فقد أطلق الصاحب ابن عباد على معجمه اسم (المحيط)، وأطلق ابن سيده على معجمه اسم (المحكم والمحيط الأعظم) وسمى الصاغاني معجمه (العباب) أو (مجمع البحرين)، وسمى الفيروزآبادي -المتوفَّى سنة ست عشرة وثمانمائة- معجمه (القاموس المحيط). كما أسهم أحمد فارس الشدياق المتوفَّى سنة سبع وثمانين وثمانمائة وألف من الميلاد في شيوع كلمة "قاموس" بمعناها المولَّد؛ أي: بمعنى كلمة معجم، عندما وضع كتابه (الجاسوس على القاموس).

واللافت للنظر أن ابن خلدون المتوفى سنة ثمان وثمانمائة من الهجرة، عندما تحدث عن علم اللغة، وذكر الكتب المصنفة فيه، لم يستعمل لفظ "المعجم"، وإنما ذكر هذه المؤلفات على أنها كتب أو دواوين.

ومما ينبغي ملاحظته: أن لفظ "المعجم" الذي يطلقه اليوم على الكتب اللغوية الجامعة للمفردات، وعلى ما يشبهها مثل: كتب الأعلام والمصطلحات... وما إليها، تتسع دلالته أحيانًا فيطلق على ألفاظ أو مفردات اللغة نفسها؛ فيقال: معجم العربية، أو معجم الإنجليزية... إلى آخره، ويعبر به حينئذ عن الثروة اللفظية التي تتمتع بها لغة من اللغات، أو عما كان القدماء يسمونه باللغة أو بمتن اللغة، وقد يطلقون عليه أحيانًا مصطلح: (فقه اللغة)؛ ومن ثم يكون اللفظ مستعملًا في الموضوع وفي الكتاب المؤلَّف فيه، وهنا تختلف وتتنوع النظرة الدراسية، فنراها تتجه أحيانًا إلى دراسة مفردات وألفاظ اللغة أو متنها، بينما تتجه في أحيان أخرى إلى دراسة فن ونظم، وجمع تلك المفردات والمحافظة عليها وتوضيحها لفظًا ودلالة.

وإذا كانت النظرة الأولى تعني دراسة المعجم اللغوي للغة بالمعنى الواسع ؛ فإن النظرة الثانية سوف تعني دراسة المعجم اللغوي للغة بالمعنى الضيق ، فالدراسة الأولى تتجه إلى المنهج على حين تأخذ الدراسة الثانية جانب التطبيق والتنفيذ ، فهي أقرب إلى الممارسة والواقع ؛ ولذا يميل بعضهم إلى إطلاق لفظ "الفن" وإضافته إليها ، فيتردد أحيانًا مصطلح : "فن المعجم" أو "فن المعاجم" في هذا المجال.

يتلخصُ لنا من كل ما سبقَ: أن لفظ "المعجم" قد جرى استعماله في عدة أمور من أهمها :

أولًا : مصدر بمعنى الإعجام ، أو إزالة الخفاء ، والغموض بالنقط ، كما في قولهم : حروف المعجم ، أو اسم مفعول من ذلك المعنى.

ثانيًا : المعجم اسم لكل كتاب في فن من الفنون ، يرتب مادته تبعًا لترتيب حروف المعجم : أ ، ب ، ت ، ث... إلى آخره.

ثالثًا : المعجم تعبير عن الثروة اللفظية لأية لغة من اللغات.

رابعًا : المعجم تعبير عن جانب أو منهج من مناهج دراسة اللغات.

خامسًا : المعجم اسم أو وصف لكل مؤلف يجمع ألفاظ لغة أو أكثر أو بعضها ، مع ترتيبها وشرحها وتأييدها بالشواهد.

ومن الملاحظ : أن الاستعمالات الثلاثة الأخيرة تتصل باللغة جمعًا ودراسة وتأليفًا ، أعني : حينما يكون المعجم تعبيرًا عن الثروة اللفظة لأية لغة ، وحينما يكون المعجم تعبيرًا عن جانب أو منهج من مناهج دراسة اللغة ، أو حينما يكون المعجم اسمًا أو وصفًا لكل مؤلف يجمع ألفاظ لغة أو أكثر أو بعضها ، هذه

الاستعمالات الثلاثة تتصل باللغة جمعًا ودراسة وتأليفًا ؛ ومن ثم فهي مترابطة وينصرف الذهن سريعًا عند ذكر لفظ "المعجم" إلى أحدها.

والاستعمال الخامس والأخير أكثرها شيوعًا.

أقول : ينصرف الذهن سريعًا عند ذكر اللفظ المعجم بهذا المعنى ، وبخاصة عندما نذكر صيغة الجمع فيقال : معاجم اللغة أو معجماتها ، وكذلك عندما يجري التمييز في مجالات علم اللغة فيقال : علم المعاجم ، أو فن المعاجم ، أو المعجمات.

وهذا هو المعنى الاصطلاحي للمعجم ، المعنى الأخير هذا هو المعنى الاصطلاحي للمعجم.

فالمعجم : كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشروحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبًا خاصًّا ، إما على حروف الهجاء أو الموضوع ، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها ، مع الترتيب المشار إليه آنفًا. ولا يطلق المعجم على غير هذا ، فإذا جمعنا كل ألفاظ اللغة في كتاب ، ولم نقرن ذلك بالشرح والتفسير فإنه لا يسمى معجمًا ، وكذلك لا يسمى معجمًا إذا وضعنا فيه كلمات معدودة مشروحة ، كما لا يسمى معجمًا إذا وضعنا فيه كلمات اللغة مشروحة دون ترتيب ، بل لا بد أن يكون المعجم كما عرَّفناه ووصفناه.

شـــــــروط المعجـــــــم

المعجم -بالتعريف الاصطلاحي- يتضمن الشروط التي ينبغي أن تراعى في إعداد المعجم ، فالمعجم : كتاب يضم ألفاظ اللغة على وجه الحصر مرتبة ترتيبًا ما ، مقرونة بالشرح والشواهد والاشتقاقات وطريقة النطق ومواضع استعمال هذه الألفاظ.

أولًا: المعجم كتاب.

ثانيًا: يضم ألفاظ اللغة على وجه الحصر.

ثالثًا: له ترتيب ما.

رابعًا: فيه شواهد لاستعمالات الألفاظ، وقبل الشواهد شروح، فيه شرح وشواهد.

خامسًا: يوضح طريقة نطق الألفاظ عن طريق الضبط بالشكل، أو بالنظير، أو بالنص على الضبط.

فإذا فقد ركن من هذه الأركان الخمسة فلا يصح كونه معجمًا، وإن كان فيه قصور في أحد هذه الأركان فهو معجم ناقص توجه إليه المآخذ ويتناوله الكتاب واللغويون بالنقد.

وظائف المعجم وأهميته

إن للمعجم أهمية ووظائف وفوائد جسيمة:

أولًا: المحافظة على سلامة اللغة.

ثانيًا: جعل اللغة قادرة على مواكبة العلوم والفنون.

ثالثًا: الكشف عن معاني الألفاظ المجهولة والغامضة.

رابعًا: معرفة ظواهر لغوية كالمشترك اللفظي والأضداد.

سادسًا: معرفة كون اللفظة عامية أو فصيحة.

سابعًا: الوقوف على ألفاظ مهجورة غير مستعملة.

ثامنًا: العثور على شاهد من الشواهد اللغوية والنحوية.

تاسعًا: معرفة قائل شاهد من الشواهد.

عاشرًا: ضبط اللفظة ضبطًا صحيحًا في أصلها وتصاريفها.

ويضاف إلى ذلك كله وظيفة مهمة لها شأن جسيم: إن المعجم اللغوي يرصد كل الدلالات، التي ترتبط بالكلمة في حياة أصحاب اللغة، سواء أكانت دلالة صوتيةً، أم نحويةً، أم صرفيةً، أم سياقيةً، أم اجتماعيةً، أم نفسيةً، أم عسكريةً... أو ما إليها، وبيان هذه الدلالات من حيث نشأتها وعلاقاتها باللفظ ذاته، ومن حيث الفروق بينها، وأخيرًا من حيث تطورها، بل وصلت المعاجم الحديثة في بعض اللغات الأوربية إلى بيان الصورة الأدائية، التي تكون عليها الكلمة في أفواه أبنائها وتحديد طرائق نطقها، من ذلك (القاموس النطقي للغة الإنجليزية) للعالم الإنجليزي "دانيال جونز".

إذا تصورنا أن وظيفة المعجم هي هذه: تاريخ اللفظ أو معرفة تاريخ اللفظ وتطوره واختلاف استعماله، ... إلى آخر ما ذكرت، الأمر الذي يجعل المعجم ضروريًّا لكل عصر من عصور اللغة؛ لأن اللغة التي تستجيب لحياة الناس المتطورة والمتغيرة غالبًا تكتسب مفرداتها دلالات جديدة، ربما لم تكن موجودة من قبل، أو كانت موجودة لكنها تغيرت بالتعميم أو التخصيص أو ما شابه ذلك، فيأتي المعجم ليسجِّل هذا التطور. إذا تصورنا ذلك، فإننا نستطيع من خلال الحركة المعجمية الدائبة والمستمرة عبر العصور والأجيال في أية لغة من اللغات أن نرصد حركة التطور اللغوي ونحدد مساراتها، ونقف على أسبابها ودوافعها... إلى آخر هذا كله.

لكن هذا الأمر لم يحدث بالنسبة للمعاجم العربية، لا في العصور المتتابعة التي مرت بها اللغة العربية حتى اليوم، بل ولا في أول نشأتها وتدوينها، وهذا لا يعد قصورًا في حركة التأليف المعجمي، وإن كان بعض الباحثين يرونه قصورًا إلا أن

ذلك كان خيرًا كبيرًا ؛ لأن قيام اللغويين وأصحاب المعاجم الأولى بطرح وإسقاط كل الخصائص اللهجية ، وأخذ كل ما هو فصيح كان الوسيلة الوحيدة في جمع الفصحى ، ووضعها في إطار كلي متكامل ارتبط به السابقون وتمسكوا به ، وقاس عليه اللاحقون واحتكموا إليه وحافظوا عليه حتى اليوم ، فلولا هذا الذي عابه البعض لما تحدَّدت الفصحى بهذه الصورة المحفوظة والمدروسة في كتب تراثنا التليد ، ولجاءتنا متنوعة مختلفة ممزوجة بلهجاتها.

إذًا المعجم العربي ظل محافظًا على الثورة اللغوية التي وقف عليها من خلال جمع اللغة ، والتي تمثل المستوى الفصيح ، وأخذت المعاجم تتعاقب هذه الثروة اللغوية بالشرح والتوضيح والتعديل والتغيير والتطوير في كل ما يتصل بالترتيب والتبويب والاتساع أو الضيق ؛ لهذا فللمعاجم العربية مزية المحافظة على الأصل العربي الفصيح ، وعلى الرغم من القيام بهذه المهمة إلا أنها لم تخلُ من التطوير ومواكبة الحياة المتغيرة ، ولعلَّ الجهد الكبير الذي بذله مجمع اللغة العربية في القاهرة حين أصدر المعجمين الكبير والصغير ، يكون قد غطى هذا الجانب ؛ ولذلك فإنهما أعني (المعجم الكبير) و(المعجم الوسيط) بعد ذكر المادة منتقاة من المعاجم العربية الأصيلة يذكران المعاني الجديدة ، ويرمزان أمامها بالرمز "م و" أي : مولد.

أنواع المعاجم العربية

لقد تنوع موضوع المعجم فتعددت أنواع المعاجم وكثرت أصنافها ، وقد تنوَّعت تبعًا لكثرة الاحتياجات ، وتقدم العلوم والفنون ، وانتشار التخصص ، وسيادة التعميق والتدقيق ، وساعد على كل ذلك ما يحس به الإنسان الواعي من ضيق الوقت أمام ما يسمى بـ"انفجار الفكر" أو "ثورة المعلومات" ، ويمكننا بالنظر

السريع أن نرى فيما يسمى بالمعاجم أو المعجمات اليوم، وهو كمٌّ كبيرٌ، أن نرى أصنافًا عديدةً وأنواعًا مختلفةً تبعًا لعدة اعتبارات يراعيها الناظر أو الدارس، فعندما ننظر في تلك المعاجم من ناحية المادة أو الموضوع نرى أننا أمام صنفين كبيرين:

أولهمَا: المعاجم اللغوية.

وثانيهمَا: المعاجم العلمية.

وإذا كان الصنف الأول -وهو المعاجم اللغوية- يهتم باللغة ذاتها ولذاتها، فإن الصنف الثاني -وهو المعاجم العلمية- يجعل همَّه العناية بالفكرة أو المعلومة أو المصطلح العلمي، ومن الواضح أننا ندرك ما في هذا التقسيم من تجاوز، أي أن التصنيف ليس تصنيفًا صارمًا.

ونعلم أن اللغة والعلم أو الفكر لا يكادان ينفصلان؛ ومن ثم فإن الصنف الأول وهو اللغوي؛ المعاجم اللغوية لا يخلو من العلم؛ ولذلك كان يسمى عن علمائنا القدماء بـ"علم اللغة"، وكذلك الصنف الثاني أعني المعاجم العلمية لا ينفك ولا ينفصل عن اللغة، حتى إنه ليسمى بلغة العلم عند أهل الفقه والفكر، وسوف نفصل القول في المعاجم اللغوية في طول المنهج وعرضه، فالمنهج الذي ندرسه مخصص لتوضيح وتفصيل المعاجم المنبثقة من هذا الصنف؛ أعني المعاجم اللغوية، ولا بأس أن نشير في عجالة إلى هذا الصنف الثاني، والذي يتمثل في تلك المعجمات أو القواميس العلمية العديدة، وربما يضاف إليها في رأي بعض الباحثين تلك الموسوعات المسماة بدوائر المعارف في عصرنا الحديث.

والناظر في تراثنا القديم يرى أمثلة كثيرة لتلك المعجمات العلمية مثل: معاجم الرجال والأعلام، ومعاجم البلدان والأمكنة والبقاع، ومعاجم المصطلحات

والعلوم... وغيرها، وقد تابع المحدثون هذا الجانب، فجاءوا فيه بكثير مما يخدم العلم ويوضح مفرداته ومصطلحاته، وهذه المعجمات تخدم بوجه عام الجانب العلمي، وإن كانت لا تنفك عن الجانب اللغوي، وبخاصة في جانب الضبط وإحكام النطق والاشتقاق، وتشتمل على فوائد لغوية تساعد على تنمية اللغة واتساع دائرتها، وبخاصة في عصرنا الحديث، فقد ألف القدماء في معاجم الرجال والأعلام، فرأينا المعاجم الخاصة لرجال الحديث على نحو ما فعل البخاري وغيره، ورأينا معاجم الفقهاء والعلماء والأطباء والمغنيين والشعراء والأدباء وغيرهم من أرباب الفنون والعلوم والحرف والصناعات.

كما رأينا معاجم في البلدان والأمكنة، ورأينا معاجم أكثر في العلوم والمصطلحات مثل: (التعريفات) للجرجاني، و(الكليات) لأبي البقاء، و(كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي، ومجموعات المصطلحات العلمية والفنية التي تصدرها مجامع اللغة في وطننا العربي، وعلى رأسها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فالمعاجم في هذا القسم العلمي عديدة قديمًا وحديثًا.

أما الصنف الآخر -وهو المعاجم اللغوية- فأنواعه أيضًا عديدة، فهنالك المعاجم الثنائية اللغة أو المتعددة اللغات، وهناك المعاجم الأحادية اللغة، والمعاجم الأحادية اللغة أيضًا تصنف إلى: معاجم خاصة وأخرى عامة. بل المعاجم العامة تصنَّف أيضًا إلى: معاجم معان وموضوعات، ومعاجم ألفاظ. ومعاجم الألفاظ تتنوع إلى: معاجم كلمات، ومعاجم مواد. ومعاجم المواد تتنوع إلى: معاجم ترتيب هجائي، وأخرى معاجم ترتيب صوتي. وتتنوع كذلك إلى: معاجم ترتيب هجائي مع التقليب، ومعاجم ترتيب هجائي مع التقفية، وأيضًا تتنوع إلى: معاجم ترتيب هجائي ألف بائي.

والمعاجم الثنائية أو المتعددة اللغة يهمنا منها تلك المعاجم التي تستعمل العربية مترجمة إلى غيرها، أو تستعمل ترجمة لسواها، فهناك معاجم عربية أردية، والعكس؛ أي: أردية عربية، وأخرى غربية أسبانية، والعكس، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن تلك المعاجم التي تجمع بين العربية ولغات أخرى كالإنجليزية، أو الألمانية، أو الفارسية، أو الأندونيسية، أو الإيطالية، أو التركية، أو الروسية، أو السريانية، أو العبرية، أو الفرنسية، أو القبطية، أو الكردية، أو اللاتينية، أو اليونانية، أو المالوية.

وبعض هذه المعاجم يشتمل على أكثر من لغتين، ومعاجم الترجمة كانت من أسبق أنواع المعاجم ظهورًا في عالم التأليف؛ نظرًا لشدة الحاجة واهتمام الإنسان بوسائل الاتصال بأبناء جنسه الذين تختلف ألسنتهم عن لسانه.

أما بالنسبة للمعاجم الأحادية اللغة، فسوف نتحدث عن الخاص منها والعام في الدروس القادمة.

تاريخ المعجم عند العرب وغيرهم

عناصر الدرس

العنصر الأول : تاريخ المعجم عند الساميين، والصينيِّين، والهنود، والرومان ٢٩
العنصر الثاني : تاريخ المعجم عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ٣١
العنصر الثالث : الجهود المعجمية عند العرب في القرن السادس وما تلاه ٤٦

تاريخ المعجم عند الساميين، والصينيين، والهنود والرومان

من المعلوم أن الإنسان قد أحسَّ منذ عهدٍ قديمٍ بأهمية الكلمة، وأن كثيرًا من تفكيره اللغوي قد دار حولها، وأن الحاجة قد دفعته إلى محاولة تصويرها وتسجيلها، وبخاصة عندما أحسَّ باختلاف صورها النطقية باختلاف الأمم والشعوب، فهو يرى الشيء الواحد يُعبَّر عنه بصور نطقية مختلفة تبعًا لاختلاف بيئات ومناطق الناطقين.

ولما كانت أسباب الحياة ودواعيها تقتضي أن يتصل الناس بعضهم ببعض، وأن تكون لهم لقاءات واجتماعات سلمية أو حربية أو اقتصادية أو سياسية، فقد حتم ذلك أن توجد وسيلة للتفاهم بين تلك الأمم التي اختلفت لغاتها وتبلبلت ألسنتها، ولم تكن هذه الوسيلة غير الترجمة، وتفسير لغة بأخرى؛ حتى يلتقي الطرفان المتباعدان على كلمة سواء وعبارة مشتركة، تتيح الفهم والإفهام وتهيئ سبل البيان.

والذي لا شك فيه أن القيام بتلك الترجمة يقتضي وجود عددٍ لا بأس به ممن يجمعون بين لغتين أو أكثر، وهؤلاء ربما لا يتوفرون في كل الأحيان ولا في كل الظروف، ومن ثم فقد لجأ الإنسان مستعينًا بالفكر والنظر إلى وسيلة مساعدة، وأداة تهيئ سبل الاتصال عندما لا يتوفر ذلك العدد الكبير من الناقلين والمترجمين البشريين.

قد لجأ الإنسان إلى ما نسميه اليوم "بالمعاجم" و"القواميس الثنائية أو المتعددة اللغات"، وقد ظهرت تلك المعاجم لأول مرة عند الساميين الذين دخلوا بلاد العراق في غضون الألف الثالث قبل الميلاد، وأسسوا حضارة سامية اضطرتهم

إلى نقل ما عند الشوماريين من أهل البلاد الأصليين، وإلى الاختلاط بهم وتبادل الكلام معهم؛ ولذلك فقد حرصوا على صُنع بعض القوائم اللغوية التي تجمع بين اللغتين؛ الآكدية والشومرية، وقد وصل بعضها إلينا في صورة ألواح من الفُخَّار، مُقسمة إلى أعمدة؛ أولها للشوماري، والثاني للعلامة المسمارية العامة التي تُعبِّر عنها في اللغتين؛ لأن هذه العلامة كانت ذات قيمة دلالية لا صوتية، بقيت في الخط المسماري منذ أن كان هيروغلوفيًا، أي: تصويريًّا لا مقطعيًّا كما هو الشأن فيه بعد ذلك.

وأيضًا، في عمود ثالث يسجِّل معنى ذلك باللغة السامية الآكّدية ثم البابلية والآشورية، وقد وُجدت من هذه الألواح نماذج قيمة جدًّا في مكتبة الإمبراطور الآشوري في مدينة "نينوى"، وكذلك عُثر على قواميس بأربعة لغات كانت عند الفينيقيين من أهل "أُجْرِيت".

لكن التفكير المعجمي لم يقف عند هذا الحد؛ إذ أنه كان يرمي إلى محاولة حصر ألفاظ اللغات أو بعض جوانبها وتفسيرها أو شرحها على نحو ما.

ومن ثَمَّ، فإن الفكرة المعجمية لم تقتصر على ما يخدم هدف الاتصال والترجمة، وإنما تعدَّت ذلك إلى تلك المحاولة الكبرى لجمع ألفاظ اللغة، والقيام بتوضيحها والكشف عن معانيها واستعمالاتها، وقد ظهرت إلى الوجود قديمًا محاولات كثيرة من هذا النوع، كان أهم ما عُرِف منها المعاجم الصينية، ومنها معجم يرجع إلى سنة مائة وخمسين قبل الميلاد، ومعجم آخر من سنة ثلاثين وخمسمائة بعد الميلاد.

ويرى بعض العلماء أن الصينيين كانوا أول واضعي المعاجم في العالم، وكان ذلك قبل المسيح بقرون عديدة، وقد وضعوا معاجمهم على أساس أشكال الرموز الصينية.

وكان لليونانيين والرومان أيضًا دور كبير؛ فقد ظهرت عندهم معاجم كثيرة يونانية ولاتينية، فُقد معظمها، وقد عرف منها بعض المعاجم في القرن الرابع الميلادي، وقد رتبت بحسب الموضوعات، وفي عهد ميلاد المسيح # ظهر معجم يكشف عن معاني الألفاظ، وفي القرن الرابع الميلادي ظهر معجم للهجات، كما أُلِّفت معاجم أخرى للألفاظ ذات المعاني المشتركة، ولم يغفل الهنود أيضًا الأعمال المعجمية، لقد وضعوا معجمات لألفاظ اللغة السنسكريتية مرتبة على الحروف، وقد نُسب إلى هذه اللغة أنها كانت ترتب حروفها بحسب مخارجها، كما وضعوا معجمات خاصة بالمترادف والمشترك.

ومهما قيل عن عناية الأمم السابقة بلغاتها وبالكلمة في تلك اللغات؛ فإن أحدًا لا يستطيع ادعاء أن أمة من الأمم قد أعطت للغتها، وللكلمة فيها ما أعطته أمة العرب للعربية ولمفرداتها.

تاريخ المعجم عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري

لقد عرف العرب -قبل الإسلام- للكلمة أهميتها، وعرفوا للمفردة في لغتهم قدرها ووظيفتها، وكانوا حريصين على كل ما يتصل بالكلمة نطقًا وصنعة وحسن اختيار، وإن لم يصل إلينا تدوين ذلك، ويشهد بذلك ما وصلت إليه لغتهم من رقيهم في ذلك الجانب، وما بلغته من مرونة واتساع، هيأ لها أن تستوعب في زمن يسير كل ما جاء به الإسلام دينًا وسياسة وحضارة، لم يدوِّن العرب في جاهليتهم مفردات لغتهم، وذلك للأمية التي كانت تغطي الجزيرة العربية بظلمات كثيفة حرمتها العلم حقبة طويلة من الزمان، وذلك أن البداوة كانت غالبة على طباعهم، والكتابة من الفنون الحضرية؛ حيث لم تكن الكتابة شائعة حينئذٍ، ومع أن العرب لم يدونوا مفردات لغتهم في جاهليتهم، بل وفي

صدر إسلامهم أيضًا -أعني: الأيام الأولى للإسلام- فإننا نجد الفكر المعجمي واضحًا جليًّا عندهم، فقد كان التفكير المعجم من أول ألوان التفكير اللغوي ظهورًا عندما وضع العرب لغتهم أمام البحث وحاولوا دراستها وتقنين نظمها حرصًا عليها ودفاعا عنها أمام تيارات اللحن، التي تعرضت لها في القرن الأول الهجري بعد انتشار الإسلام واتساع بيئته العربية شرقا وغربًا، ولا شك أن الدافع الديني كان من أهم الدوافع، التي هيأت لذلك التفكير ولغيره من مجالات التفكير اللغوي الأخرى.

وقد ظهر هذا بصورة عامة في تلك المحاولات الأولى لتفسير وتوضيح بعض معاني الكلمات والألفاظ التي وردت بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وأقوال أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين.

فقد ورد أن الرسول ﷺ تحدث إلى وفد بني نهد بألفاظ سمعها الإمام علي بن أبي طالب > ولم يعرف معناها، وطلب توضيحها من الرسول ﷺ فأفهمه إياها، ويقول ﷺ: ((إن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون المتشدِّقون المتفيهِقُون)) قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا الثرثارين المتشدقين؛ فمن المتفيهقون؟ قال: ((المتكبرون))، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الكلالة فقال: ((أما سمعت الآية التي أنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، فمن لا يترك ولدًا ولا والدًا فورثته كلالة)).

وروى البخاري: سئلت عائشة > عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم.

وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب؛ فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه.

ورُوي عنه أيضًا أنه قال: "إذا سألتوني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب".

ولقد كان عمل هذا الإمام الحَبر عبد الله بن عباس { في تفسير ما ورد بالقرآن الكريم من غريب الألفاظ أول عمل لغوي ومعجمي، كما بدأ هذا العمل اللغوي أيضًا بعمل أبي الأسود الدؤلي، المتوفى سنة تسع وستين من الهجرة في الجانب النحوي والصوتي.

إذا كان عمل أبي الأسود الدؤلي في هذا الجانب النحوي والصوتي أول تفكير لغوي منظم في العربية؛ فإن ما صنعه عبد الله عباس -حينما فسر ما ورد بالقرآن الكريم من غريب الألفاظ ما صنعه- يُعدَّ أيضًا أول عمل لغويٍّ ومعجميٍّ.

فلقد سأل نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر عبد الله بن عباس مسائل كثيرة في التفسير، واشترطا عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام العرب، فأجابهما، وفسر كل لفظة سألاه عنه، وأتى بمصادقة من كلام العرب؛ ولذلك نُسِب إلى ابن عباس أنه ألَّف في غريب القرآن، وسواء صح ما نسب إلى ابن عباس من تأليف في غريب القرآن أو لم يصح؛ فإن الذي صح عند المفكرين أنه قام بعمل معجمي جيد، وأنه لفت نظر الدارسين إلى ديوان العرب غير المدون، وهو الشعر الذي يحفظه الناس ويتداولونه؛ فيسجلون بذلك أعدادًا كبيرة من الألفاظ والمفردات المستعملة في معانيها الحقيقية أو المجازية تبعًا لما يقتضيه البيان، وحسب هذا العالم الحَبر أنه جمع بين مصدرين من أهم المصادر التي حفظت مفردات العربية، وربط بينهما قبل أن يفكر العلماء في المصادر الأخرى؛ كأقوال العرب،

وأمثالها، وما يصح عندهم من حديث رسول الله ﷺ وأقوال صحابته يوم أرادوا جمع اللغة وتدوين مفرداتها.

وأذكر بعض المسائل التي أجاب عنها ابن عباس ؛ لتقف على حقيقة هذا الفكر المعجمي والذي كان يؤدي ما تؤديه المعاجم للسائلين والمنقبين عن العويص من الشعر، والأعوص من الكلم وتفسيره تفسيرًا لغويًّا دقيقًا.

قال نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس } : أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج: ٣٧] قال: العزين في الآية: حلق الرفاق، وهي الفرقة من الناس، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى ❖ يكونوا حول منبره عزين

قال أخبرني عن قوله: ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] قال: والوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة، وهو يقول:

إن الرجال هم إليك وسيلة ❖ إن يأخذوك تكحلي وتخضب

قال: أخبرني عن قوله: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] قال: الشرعة: الدين، والمنهاج: هو الطريق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى ❖ وبيَّن للإسلام دينًا ومنهاجًا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩] وفسرها بالنضج والبلاغ، وكذلك سأله عن الريش حين قال له أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف: ٢٦] قال: الريش: المال.

وإني أوجز هذه المسائل، وأظهر الألفاظ بمعانيها في عجالة:

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]، قال: خلقنا الإنسان في كبد، أي: في اعتدال واستقامة.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣] قال: السنا: الضوء.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الرعد: ٣١] قال: أفلم ييأس أي: أفلم يعلم، بلغة بني مالك.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] قال: "مثبورًا" أي: ملعونًا محبوسًا من الخير.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ [مريم: ٢٣] فأجاءها المخاض قال: ألجأها.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ نَدِيًّا ﴾ [مريم: ٧٣] قال: النادي: المجلس.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم: ٧٤] قال: الأثاث: المتاع والرئي من الشراب.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [طه: ١٠٦] قال: القاع: الأملس، والصفصف: المستوي.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٩] قال: لا تعرق فيها من شدة حرِّ الشمس.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ [الحج: ٣٦] قال: القانع: الذي يقنع بما أعطي، والمعتر: الذي يعترض الأبواب.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] قال: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ [البقرة: ٦١] قال: الفوم: الحنطة.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]، قال: السمود: اللهو والباطل.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] قال: ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنيا.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]. قال: اتساقه: اجتماعه.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] قال: القط: الجزاء.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] قال: الحمأ: السواد، والمسنون: المُصوَّر.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. قال: الرمز: الإشارة باليد، والإيماء بالرأس.

أخبرني عن قوله تعالى: .﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [ق: ٣٦] قال: هربوا بلغة عمان، وهم من اليمن، أما سمعت قول عدي بن زيد:

فنقبوا في البلاد من حذر الموت ❖ وجالوا في الأرض أي مجال

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢] قال: جائرة.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] قال: هلكى بلغة عمان، وهم من اليمن، أما سمعت قول الشاعر:

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم ❖ وكانوا به فالكفر بور لصانعه

وهكذا تدل هذه الإجابات على ما كان يتمتع به عبد الله بن عباس من إحاطة بمعاني كلام العرب من خلال ما رزقه الله من حفظٍ لشعر العرب وآثارهم، وقد كان بعض الصحابة يصنعون صنيع ابن عباس في حدود ضيقة، والمعروف أن الأمويين في العصر الأموي كانوا يستحثون الأدباء على هذا الفكر بمناقشات يثيرونها بين أيديهم، كما فعل عبد الملك في مجلس من مجالسه؛ ضم جماعة من خاصته ومسامريه، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليَّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، فقال: ما عندك، قال: "أنف، بطن، ترقوة، ثغر، جمجمة، حلق، خد، دماغ، ذكر، رقبة، زند، ساق، شفة، صدر، ضلع، طحال، ظهر، عَين، فم، قفا، كتف، لسان، منخر، هامة، وجه يد". فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين".

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين، فقال أمير المؤمنين لسويد: أما سمعت ما قال؟ قال: نعم، قال: أنا أقولها ثلاثًا؛ فقال له: لك ما تتمنى، فقال: "أنف أذن أسنان، ثغرة ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خصر خاصرة، دبر دماغ دردر وهو مغرز السن، ذكر ذقن ذراع، رقبة رأس ركبة، ساق سرة سبابة، شفة شعر شارب، صدر صدغ صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، عين عنق عاتق، فم فك فؤاد، قلب قدم قفا، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، مرفق منكب منخر، وجنة وجه ورق، يمين يسار يافوخ"، ثم نهض مسرعًا وقبَّل الأرض بين يدي عبد الملك، فقال: والله ما نزيد عليها، أعطوه ما تمنى، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

كل هذا يدل على أن الفكر المعجمي كان موجودًا عند العرب، وكان كالطود الشامخ راسخًا واضحًا عم نوره الآفاق، وقد توالى العمل المعجمي بعد ابن عباس، وظهر في صورة جمع المفردات اللغوية على سبيل الرواية والحفظ قبل أن يظهر في صورة التسجيل والتدوين، ومما يلاحظ أنه كان في أول أمره مختلطًا بغيره من الدراسات اللغوية، شأن غيره مما عُنِيَ به علماء العربية من مستويات تلك اللغة وجوانبها، وإن كان متصلًا بالدراسات القرآنية والحديثية والفقهية وغيرها، لكن هذا الاختلاط وذلك الاتصال لم يمنعا من ظهور الأعمال المعجمية واستقلالها وبروز دور القائمين بها وتميزهم عن غيرهم فيما بعد.

لقد استقلت تلك الأعمال تحت اسم "اللغة"، وذلك ما يدل على مزيد الاهتمام بها، وصار الذين يشتغلون بها هم الذين يسمون باللغويين، وأصبحت العربية مقسمة بينهم تنصيفًا أو تثليثًا إلى آخره وإلى آخر ما يُروى في ذلك، كقولهم: فلان يحفظ ثلث اللغة، وفلان يحفظ نصفها، وهكذا.

واختص البحث في جانب المفردات والألفاظ -من جوانب اللغة- بذلك الاسم الكبير على اللغة، فما إن يطلق هذا الاسم؛ حتى يعلم السامع أن المقصود به "علم المفردات"، وما يتصل بها من التفكير والنظر الدلالي والمعجمي، ولا بأس أن يُشار إليه أحيانًا "بمتن اللغة" أو "اللغة"، والمرء يجد نفسه مضطرًّا إلى تجاوز جهود كثيرة من التفكير المعجمي لم يحفظها لنا التدوين، ولم تسجلها الكتابة؛ لأن الكتابة تمثل الواقع المادي في مجال البحث، ونحن هنا لا نهتم إلا بالجهود المدوَّنة والمسجلة كتابة؛ لذلك يجد المرء نفسه مضطرًّا إلى تجاوز جهود كثيرة من التفكير المعجمي، أسهمت -بدون شك- في إبراز هذا التفكير وارتفاع شأنه في اللغة العربية، لكنها لم تدوَّن في وقتها، أو أنها دوِّنت وضاعت أسماؤها، وربما

تكون أيضًا ما زالت إلى اليوم مختلطة في الكتب والدراسات اللغوية أو القرآنية العامة.

وفي ضوء ما سبق: فإننا نستطيع تقديم عرض سريع لأهم المجهودات المعجمية عبر القرون الإسلامية، دون أن نقف على موضوعاتها، ومناهجها، وتقييمها، وتقويمها، فإن لذلك دروسًا أخرى في طول المنهج المقرر وعرضه.

لقد أسهم في بناء المعجم العربي وفي خدمته علماء كثيرون، يمكن ترتيبهم تاريخيًّا مع الإشارة إلى أهم أعمالهم على النحو الآتي:

القرنُ الأولُ الهجريُّ:

من علمائه: عبد الله بن عباس { المتوفى سنة ثمان وستين من الهجرة، وقد قدم لنا أول تفكير معجمي في تفسير غريب القرآن في مسائل أو سؤالات نافع بن الأزرق، وفيما نسب إلى ابن عباس من جهود في تفسير ألفاظ القرآن الكريم في صورة كتاب أو رواية.

ومنهم: نصر بن عاصم الليثي، المتوفى سنة تسع وثمانين من الهجرة، حين قام بترتيب حروف الهجاء: "ألف باء تاء ثاء جيم حاء خاء ... إلى آخره.

القرنُ الثاني الهجريُّ:

من علمائه: أبو مالك عمرو بن كركرة النويريِّ: وأهم كتبه (خلق الإنسان) و(الخيل) و(النوادر).

ومنهم: أبو خيرة الأعرابي العدويُّ، وأهم كتبه (الحشرات).

ومنهم: أبو عمرو زبان بن العلاء عمار التميمي، المتوفى سنة أربع وخمسين ومائة من الهجرة، ألَّف كتاب (النوادر).

ومنهم: الخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى سنة سبعين ومائة من الهجرة، صاحب كتاب (العين)، ورائد التفكير المعجمي المنظم عند العرب.

ومنهم: الليث بن المظفر الخراساني، المتوفى سنة ثمانين ومائة من الهجرة، ويقال: إنه أتم كتاب (العين)، ويظهر اسمه كثيرًا في (العين) و(لسان العرب) وغيرهما من المعاجم.

ومنهم: يونس بن حبيب الضبي، المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة من الهجرة، صاحب كتاب (اللغات) و(معاني القرآن).

ومنهم: الكسائي، علي بن حمزة، المتوفى سنة تسع وثمانين ومائة من الهجرة، أحد القراء السبعة، وله: (معاني القرآن)، و(الحروف) و(المصادر) و(ما تلحن فيه العامة).

ويُلاحظُ: أن هذا القرن قد شهد أول معجم كامل في العربية؛ حيث هدى الله الخليل بن أحمد إلى وضع النظام المعجمي للعربية، وبناء وتأليف أول معجم كامل فيها وهو معجم (العين).

القرنُ الثالثُ الهجريُّ:

ومن علمائه: النضر بن شميل، المتوفى سنة ثلاث ومائتين، وأشهر كتبه: (السلاح) و(الصفات) و(غريب الحديث).

ومنهم: أبو عمرو الشَّيباني، المتوفى سنة ستة ومائتين، وله معجم (الجيم) وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء من مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو مرتب على حسب الهجائية العادية في أبواب الكتاب، لكنه لم يرتب المواد داخل الباب الواحد، ولأبي عمرو الشَّيباني كتاب أيضًا في (غريب الحديث)، وكذا في (خلق الإنسان) و(الإبل) و(الخيل) و(النخلة)... وغير ذلك.

ومنهم: الفراء يحيى بن زياد أبو زكريا، المتوفى سنة سبع ومائتين من الهجرة، وأهم كتبه: (معاني القرآن) و(اللغات) و(ما تلحن فيه العامة).

ومنهم: اللحياني؛ علي بن حازم، المتوفى سنة سبع ومائتين، وله كتاب (النوادر).

ومنهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى، المتوفى سنة تسع ومائتين، ومن أهم كتبه: (الإنسان) و(الزرع) و(غريب الحديث) و(مجاز القرآن).

ومنهم: أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس المتوفى سنة خمس عشرة ومائتين، ومن أهم كتبه: (النوادر) و(المطر) و(المياه) و(الشجر) و(خلق الإنسان).

ومنهم: الأصمعي عبد الملك بن قريب، المتوفى سنة ستة عشرة ومائتين، ومن أهم كتبه: (غريب الحديث) و(الإبل) و(الأضداد) و(الخيل) و(النخل) و(النبات).

ومنهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين، ومن أهم كتبه: (الغريب المصنف) و(غريب الحديث) و(غريب القرآن) و(الأموال) و(فضائل القرآن) و(الأجناس) وغيرها.

ومنهم: أبو مسحل الأعرابي، المتوفى ثمان وعشرين ومائتين، ومن كتبه (النوادر) و(الغريب).

ومنهم: ابن الأعرابي محمد بن زياد أبو عبد الله، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وله: (أسماء الخيل) و(البئر) و(النوادر) و(الزرع).

ومنهم: الباهلي أحمد بن حاتم أبو نصر، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وله: (اشتقاق الأسماء) و(الزرع) و(النخل) و(الجراد) و(ما تلحن فيه العامة) و(الشجر والنبات).

ومنهم: ابن السكِّيت يعقوب بن إسحاق أبو يوسف، المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين، وأهم كتبه: (الألفاظ) و(إصلاح المنطق) و(الأضداد) و(النبات) و(الشجر) و(الحشرات) و(غريب القرآن).

ومنهم: السجستاني سهل بن محمد أبو حاتم، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين، له: (ما تلحن فيه العامة) و(الشجر) و(النبات) و(الأضداد) و(الطير) و(الوحوش) و(الحشرات) و(العشب) و(البقل).

ومنهم: الهروي شمر بن حمدويه أبو عمرو، المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين، له: (الجيم) و(غريب الحديث) و(السلاح) و(الجبال) و(الأودية).

ومنهم: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين، له: (غريب الحديث) و(أدب الكاتب) و(مشكل القرآن) و(غريب القرآن) و(إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث).

ومنهم: الدينوري أحمد بن داود أبو حنيفة، المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين من الهجرة، له: (النبات) و(ما تلحن فيه العامة) و(الأنواء).

ومنهم: المبرد محمد بن يزيد الأزدي أبو العباس، المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين، له: (المذكر والمؤنث) و(الكامل) و(المقتضب) و(إعراب القرآن).

ومنهم: ثعلب أحمد بن يحيى الشَّيباني أبو العباس، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين، له: (الفصيح) و(المجالس) و(معاني الشعر) و(ما تلحن فيه العامة).

ويلاحظُ: أن أهم المؤلفات المعجمية في هذا العصر هي: (الجيم) للشيباني، و(الغريب المصنف) لأبي عبيد، أما بقية الأعمال فتندرج تحت الرسائل اللغوية أو كتب الغريب في معظمها، وليست معاجم بالمعنى الكامل لكلمة "معجم"،

وأبو عمرو الشَّيباني صاحب كتاب (الجيم) هو تلميذ المفضَّل الضبي صاحب (المفضليات) وصاحب (الفاخر في الأمثال)، وأبو عمرو الشَّيباني كوفي، ولعل كتاب (الجيم) أشهر وأجود ما أُثِر عن أبي عمرو الشَّيباني، وهو علامة بارزة في تاريخ المعجم العربي؛ نظرًا لمراعاته حروف المعجم في ترتيب الأبواب، وإن لم يراعِ ترتيب المواد داخل الأبواب.

القرنُ الرابعُ الهجريُّ:

ومن أهم علمائه: كُراع النمل، علي بن الحسن الهنائي، المتوفى سنة تسع وثلاثمائة، له: (المُنجَّد) و(المنضَّد) و(المجرَّد) و(غريب اللغة).

ومنهم: الأخفش الأصغر، علي بن سليمان أبو الحسن، المتوفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة، له: (المهذَّب) و(الأنواء) و(التثنية) و(الجمع).

ومنهم: الهمداني عبد الرحمن بن عيسى، المتوفى سنة عشرين وثلاثمائة له (الألفاظ الكتابية).

ومنهم: ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي أبو بكر، المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، له: (الجمهرة) و(الاشتقاق) و(السرج واللجام) و(المطر) و(السحاب) و(اللغات).

ومنهم: نفطويه إبراهيم بن محمد الأزدي، أبو عبد الله، المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، له (غريب القرآن).

ومنهم: الأنباري محمد بن القاسم أبو بكر، المتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، له: (الزاهر) و(الأضداد) و(غريب الحديث) و(شرح المعلقات).

ومنهم: قدامة بن جعفر البغدادي أبو الفرج، المتوفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، له (جواهر الألفاظ).

ومنهم: البشتي، أحمد بن محمد الخارزنجي، المتوفى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، له تكملة كتاب (العين).

ومنهم: الفارابي إسحاق بن إبراهيم أبو إبراهيم، المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة، له (ديوان الأدب) وهو معجم أبنية.

ومنهم: أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي الحلبي، المتوفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، له: (الإبدال) و(المثنى) و(الإتباع) و(الأضداد) و(الفروق).

ومنهم: القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي، أبو علي، المتوفى سنة ستة وخمسين وثلاثمائة، له (البارع) أول معجم عرفته الأندلس، رتب الحروف وفقًا لمخارجها، وله أيضًا: (الأمالي) و(الممدود) و(المقصور) و(الإبل).

ومنهم: الأزهري محمد بن أحمد الهروي أبو منصور، المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة، له: (تهذيب اللغة) و(غرائب الألفاظ) و(الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي).

ومنهم: الزبيدي محمد بن الحسن الأندلسي أبو بكر، المتوفى سنة تسعة وسبعين وثلاثمائة، له (مختصر العين)، و(لحن العامة).

ومنهم: الرماني علي بن عيسى أبو الحسن، المتوفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، له (الألفاظ المترادفة).

ومنهم: الصاحب بن عباد أبو القاسم الوزير الأديب العالم، المتوفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، له (المحيط) و(جوهرة الجمهرة).

ومنهم: ابن جني أبو الفتح، ومن كتبه (الخصائص) و(سر صناعة الإعراب)، رتبه على حروف المعجم، وتحدث عنها حرفًا حرفًا، والمعروف: أن وفاة هذا العالم سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

ومنهم: الجوهري إسماعيل بن حماد أبو نصر، المتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، له (تاج اللغة وصحاح العربية).

ومنهم: ابن فارس أحمد بن زكريا القزويني أبو الحسين، المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، له: (مقاييس اللغة) و(المجمل) و(الصاحبي في فقه اللغة).

ومنهم: البرمكي محمد بن غنيم أبو المعالي، المتوفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، له (المنتهى في اللغة) و(ترتيب الصحاح بحسب أوائل الكلمات).

ويُلاحظُ: أن القرن الرابع هو القرن المعاجم الكاملة؛ حيث ظهر فيه أكثر تلك المعاجم اللفظية والمعنوية، ومن أهمها: (الجمهرة) و(البارع) و(التهذيب) و(مختصر العين) و(المحيط) و(الصحاح) و(المجمل) و(المقاييس) و(ديوان الأدب).

القرنُ الخامسُ الهجريُّ:

ومن أشهر علمائه: الهروي أحمد بن محمد أبو عبيد، المتوفى سنة إحدى وأربعمائة، له: (غريب القرآن) و(غريب الحديث) و(الغريبين).

ومنهم: الإسكافي، محمد بن عبد الله الخطيب، المتوفى سنة عشرين وأربعمائة، له (مبادئ اللغة) و(غلط العين)، والثعالبي عبد الملك بن محمد أبو منصور، المتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة، له (فقه اللغة)، و(المضاف) و(المنسوب).

ومنهم: ابن سِيده علي بن إسماعيل أبو الحسن، المتوفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، له (المُحكم) و(المخصص) و(شرح المشكل من شعر المتنبي).

وأهمُّ أعمال هذا القرن، هي: (فقه اللغة) للثعالبي، و(المحكم) و(المخصص) وهما لابن سيده.

الجهود المعجمية عند العرب في القرن السادس وما تلاه

لقد تضمن القرن السادس عددًا من العلماء العرب، الذين أسهموا بجهد لا ينكر في مجال الدراسة المعجمية:

من أهم علمائه: الراغب الأصفهاني، حسن بن محمد أبا القاسم، المتوفى سنة اثنتين وخمسمائة له (المفردات في غريب القرآن).

ومنهم: التبريزي، يحيى بن علي الشَّيباني أبو زكريا، المتوفى أيضًا في عام وفاة الراغب الأصفهاني، سنة اثنتين وخمسمائة، له (تهذيب إصلاح المنطق) و(تهذيب الألفاظ) لابن السكِّيت.

ومنهم: الحميري، نشوان بن سعيد، المتوفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، له: (شمس العلوم) و(دواء كلام العرب من الكلوم).

ومنهم: ابن القطاع، علي بن جعفر السعدي أبو القاسم، المتوفى سنة خمس عشرة وخمسمائة، له: (التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح)، و(تهذيب الأبنية والأفعال).

ومنهم: البطليوسي، عبد الله بن محمد، المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، له: (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب)، و(المثلث).

ومنهم: ابن الاشتراكوني، محمد بن يوسف التميمي الأندلسي، المتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، له (المسلسل في غريب اللغة).

ومنهم: الزمخشري، محمود بن عمر أبو القاسم، المتوفى سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، له: (أساس البلاغة) و(الفائق في غريب الحديث) و(مقدمة الأدب).

ومنهم: الجواليقي، موهوب بن أحمد أبو منصور، المتوفى سنة أربعين وخمسمائة، له: (المعرب) و(تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة).

ومنهم: البيهقي، أحمد بن علي، المتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، له: (ينابيع اللغة) و(المحيط بلغات القرآن) و(تاج المصادر).

ومنهم: ابن بري عبد الله بن محمد المقدسي، المتوفى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، له الحواشي على الصحاح وأسماها (التنبيه والإفصاح عما وقع من الوهم في كتاب الصحاح).

وأهم أعمال هذا القرن، هي: (مفردات الراغب) و(أفعال ابن القطاع) و(أساس البلاغة) للزمخشري و(حواشي ابن بري على الصحاح)، و(أساس البلاغة) و(حواشي ابن بري) أكثر تأثيرًا في تلاهما من مؤلفات.

القرنُ السابعُ الهجريُّ:

من أهم علمائه: ابن الأثير، مجد الدين مبارك بن محمد الجزري، المتوفى سنة ست وستمائة، له (النهاية في غريب الحديث والأثر) على حروف المعجم.

ومنهم: الصاغاني، الحسن بن محمد العمري، المتوفى سنة خمسين وستمائة، له (العباب)، وله: (التكملة والذيل والصلة)، و(مجمع البحرين)، و(الشوارد في اللغات)، و(الأضداد).

ومنهم: الزنجاني، محمود بن أحمد، المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة، له: (تهذيب الصحاح)، و(تنقيح الصحاح).

ومنهم: الرازي، زين الدين محمد بن محمد، المتوفى سنة ست وستين وستمائة، له (مختار الصحاح)، وهو يسير على حسب نظام القافية الذي سنتحدث عنه إن شاء الله، وله أيضًا (غريب القرآن).

ومنهم: الشاطبيُّ، محمد بن علي الأنصاريُّ، المتوفى سنة أربع وثمانين وستمائة، له حواشٍ على (صحاح الجوهري).

القرنُ الثامنُ الهجريُّ:

من أهم علمائه: ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري جمال الدين، المتوفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة، له كتابه الشهير (لسان العرب)، جمع فيه معاجم خمسة، سنتحدث عنها أثناء الحديث عنه، إن شاء الله.

ومنهم: الفيومي، أحمد بن محمد المقري، المتوفى سنة سبعين وسبعمائة، له (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) للرافعي، وله (الكتاب) شرح كبير في فقه الشافعية، قام الفيومي بشرح الألفاظ الغريبة في هذا الكتاب، وهو يسير في شرحه وفق الهجائية العادية.

القرنُ التاسعُ الهجريُّ:

ومن أهم علمائه: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، المتوفى سنة سبع عشرة وثمانمائة، له: (القاموس المحيط)، و(البلغة)، و(المثلث)، و(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)... وغير ذلك.

القرنُ العاشرُ الهجريُّ:

من أهم علمائه: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة، له: (المزهر في علوم اللغة وأنواعها)، و(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، و(أسماء الأسد)، و(الأشباه والنظائر النحوية) وغيره.

القرنُ الحادي عشر الهجريُّ:

من أهم علمائه: الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، المتوفى سنة تسع وستين وألف، له: (شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل)، و(شرح درة الغواص).

القرنُ الثاني عشر الهجريُّ:

من أهم علمائه: الزَّبيدي، مرتضى محمد بن محمد الحسيني، المتوفى سنة خمس ومائتين وألف، له (تاج العروس من جواهر القاموس)، وهو شرح مستفيض مع استدراك على القاموس المحيط للفيروزآبادي.

تلك أهم وأشهر الجهود المعجمية التي قام أصحابها بتدوينها، والتي أمكن حصرها من الناحية التاريخية، والمتأمل في أسمائها يرى أنه ليس من بينها أي مؤلف يحمل اسم المعجم، وأن أكثر تلك الأسماء يُوحي بالموضوع الذي وُضع الكتاب أو العمل العلمي من أجله، وهو حفظ مفردات اللغة كلها أو في جانب من جوانبها، ولعل هذا هو الذي دفع المؤرخين للتفكير المعجمي عند العرب إلى تقسيم الأعمال المعجمية عندهم إلى أنواع ثلاثة، سنتحدث عنها في حينها إن شاء الله.

تابع: تاريخ المعجم عند العرب

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الجهود المعجمية عند العرب في الحديث	٥٣
العنصر الثاني :	سبق العرب في وضع المعجم الكامل	٦٢
العنصر الثالث :	بواعث التأليف المعجمي عند العرب	٦٣

الجهود المعجمية عند العرب في الحديث

لقد بلغ التفكير اللغوي في العصر الحديث درجة كبيرة من الرقي ؛ بحيث نستطيع القول : بأنه لولا ما قدمه العرب في هذا المجال لعُد هذا اللون من التفكير من سمات هذا العصر وخصائصه ، وقد كان لمفردات اللغة وألفاظها وما يتصل بذلك من مناهج تتعلق بجمع الألفاظ وإحصائها وشرحها والتعريف بها قدرٌ كبير من عناية الدارسين والباحثين في مختلف اللغات ، وقد ظهرت نتيجة لكل هذا أعمالٌ معجمية كبرى ترتكز في أساسها على ما جاء في تراث الأمم السابقة ، وتحاول مع ذلك الإفادة من معطيات العصر ومناهجه وتقنياته ونظرياته العلمية ، وقد كان ظهور هذه الأعمال مرتبطًا بالطبع بتلك اللغات التي يمثل أبناؤها قادة تلك النهضة الحديثة ، ووراء تلك المدنية الحاضرة ، ومن ثم كان أشهر وأكبر هذه الأعمال متصلًا باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها ، وقد كان للعربية وغيرها من لغات الشرق من ذلك نصيب عندما استيقظ أبناء هذه اللغات ، ونفضوا عن رءوسهم ما علق بها من آثار تلك النومة الطويلة.

ويرجع اللغويون النهضة المعجمية الحديثة إلى عوامل ثلاثة :

أولًا : العناية البالغة بالوضوح والترتيب.

ثانيًا : الأخذ بالمنهج التاريخي.

ثالثًا : التوسع في الطابع الموسوعي.

وهم إذ يرون أن المعجم كما قيل : هو الكون مرتبًا ترتيبًا هجائيًّا ، فإنهم يدعون إلى تطبيق تلك العوامل السابقة ، ويرون أن الزمن الذي كان يُكتفى فيه بتلخيص

الأعمال المتقدمة أو جمعها وشرحها قد انتهى، وأنه ينبغي على الأمم التي تُدير صُنع معجمات للغاتها أن تتضافر جهود أبنائها، وأن يوفروا للقائمين على ذلك العمل كل ما يخدم أهدافهم من مكتبات ومسجِّلات وقوى بشرية مساعدة، وزمنًا مقبولًا بعد كل هذا، حتى يتمكن هؤلاء من تقديم العمل المعجمي الملائم.

وقد فعل ذلك كثير من الأمم كالإنجليز الذين هيئوا كلَّ الفرص لإخراج معجمهم الحديث، المعروف بمعجم "إكسفورد"، والذي من أهم سماته دراسة الناحية التاريخية للكلمات أو ما يسمونه في الغرب "إيتمولوجي"، وقد استغرق تأليف هذا المعجم نحو سبعين عامًا، واشترك في تأليفه الآلاف من الأعضاء العاملين والمراسلين.

كذلك كان للفرنسيين جهدهم الكبير الذي استغرق من الزمن مائة عام، قضتها الأكاديمية الفرنسية في عمل متواصل حتى أخرجت معجمها المشهور، الذي يحتوي على ما لا يقل عن ثلاثين ألف لفظة، وقد ظهر في الفرنسية بعض المعاجم الأخرى مثل معجم "لاروس" الموسوعي الكبير، الذي جمع ما لا يقل عن مائتي ألف لفظة، ومعجم "لاروس" الصغير الذي بلغت ألفاظه ما لا يقل عن خمسين ألف، كما ظهرت فيها معجمات أخرى لأغراض علمية أو إحصائية.

وعلى هذا النهج ظهر في الألمانية حركة معجمية قوية، وحدث مثل ذلك في اللغة الروسية.

ومما يلاحظ على التفكير المعجمي في هذا العصر: أنه كثير التنوع، ومن ثم فقد تنوعت المعاجم وكثرت ألوانها، وقد أدى تلاحم الأمم والشعوب إلى انتشار معاجم الترجمة أو المعاجم المتعددة اللغات.

وقد كانت محاولات التيسير والدقة سببًا في إدخال عناصر جديدة في التوضيح المعجمي ؛ خدمة للدلالة والمعنى أو للنطق ، ويمثل الرسم أو التصوير الجانب الأول ، فقد عمد مؤلفو المعاجم إلى هذه الوسيلة ؛ حتى يمكنوا القارئ أو الباحث من تحرير المعنى المقصود باللفظ وإدراكه على النحو الأمثل ، وبعض دور نشر المعاجم قد لجأت إلى ذلك أيضًا لأغراض تجارية أو اقتصادية ، وبعض العلماء يرون أن دخول الصورة في شرح دلالة الألفاظ له أخطار كبيرة ، لكن هذا يختلف عما يسمى الآن بالمعجم المصور ، الذي يرجع الفضل في ابتكاره إلى اللغوي الألماني المعاصر "دون" ، وقد أتم "دون" مشروعه ونشر المعجم الألماني في المصور الكبير لأول مرة سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد ، ومنذ ذلك الحين أثبتت طريقته هذه فائدة كبيرة جدًّا ، وقد بلغ من رواج هذا المعجم أنه ذاع منهجه خارج ألمانيا ، فظهرت معاجم على نفس النسق للغات الأسبانية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية والعبرية.

وتمثل الكتابة الصوتية الجانب الثاني ؛ فقد صارت سمة من سمات المعاجم الحديثة ؛ حيث إن اللغة تعد جثة هامدة بدون النطق ، فهو رُوحها وباعثها ، والكلام أو اللغة المنطوقة هو ما يهدف إليه المتكلم أو الباحث عن النشاط اللغوي ، ومن أجل هذا كان توسع المحدثين في مراعاة الأحكام أو الوسائل ، التي تُساعد الناظر في المعجم على الوصول إلى صورة الكلمة المنطوقة ، ويعد معجم نطق الإنجليزية الذي وضعه اللغوي المشهور "دانيال جونز" من خير هذه المعاجم وأكثرها ذيوعًا بين الدارسين والعاملين في مجالات تعليم اللغة الإنجليزية.

لقد شرقنا وغربنا ووصلنا الآن إلى العرب - أقصد العرب المحدثين- فهل كانوا قريبين من هذه النهضة الغربية؟

لم يبقَ التفكير المعجمي في البلاد العربية بعيدًا عن تلك التيارات المعجمية الناهضة في بلاد الغرب وأيضًا في بلاد الشرق، لقد نهض علماء العربية في العصر الحديث، وبذلوا جهدًا في اللحاق بهذه النهضة المعجمية العالمية، ونظروا في الجانب المعجمي من لغتهم وما دار حوله من دراسات، ويمكن للناظر في هذه النهضة أن يحدد اتجاهاتها في نواحٍ ثلاث:

الناحيةُ الأولى: ناحية النقد وإعادة النظر في الأعمال المعجمية الرائدة، التي خلفها علماؤنا السابقون:

والحق أن القدماء منهم كانوا قد وضعوا البذرة الأولى في هذا النقد، عندما كان كثير منهم يحاول بيان فضل عمله على غيره، وإيضاح ما فات الأول، انظر في هذا مقدمات المعاجم القديمة مثل: (تهذيب اللغة) للأزهري، و(الجمهرة) لابن دريد، و(لسان العرب) لابن منظور، و(القاموس المحيط)، هذا إلى جانب ما أُلف خاصة من أجل نقد تلك المعاجم، وسيأتي ذكر بعض هذا إن شاء الله.

ومن ثم لم يكن عجيبًا أن يشهد العصر الحديث في بدايته بالنسبة لموضوعنا هذا الهجوم العنيف على أكثر المعاجم ذيوعًا بين الناس، عندما خرج أحمد فارس الشدياق بكتابه (الجاسوس على القاموس)، ففتح بذلك بابًا من العلم القديم الحديث، وتوالت بعد ذلك الدراسات التي كان للنقد والتقويم فيها قسط كبير، وصار من المعهود والمألوف أن يبدأ كل كتاب في هذا المجال أو يختم بتقويم يضع فيه الكاتب عملًا أو أكثر من تلك الجهود السابقة في الميزان؛ متأثرًا قليلًا أو كثيرًا بتلك التيارات الحديثة في فن المعاجم.

الناحيةُ الثانيةُ: ناحية التأريخ والدراسة لتلك الجهود السالفة الذكر:

وهي بالطبع متصلة بالناحية السابقة، متأثرة بها، وقد ساعد على انتشار هذه الناحية والنهضة بها قيام الأقسام اللغوية في الجامعات العربية بتدريس أصول اللغة وفقهها ومعاجمها في تلك الأقسام، كما ساعد على ذلك أيضًا ظهور حركة بعث التراث الديني واللغوي، وكان للمعاجم اللغوية القديمة من ذلك نصيب موفور.

وقد شجع ذلك كله الدارسين، فاتَّجه كثير منهم إلى التأريخ لحركة المعجم العربي، منذ ظهورها إلى العصر الحديث على نحو ما نراه مثلًا عند الدكتور حسين نصار في كتابه (المعجم العربي نشأته وتطوره) ونراه عند غيره، كما اتجه كثير من الدارسين أيضًا في بحوثهم العلمية إلى دراسة معجم أو أكثر مما تضمه المكتبة اللغوية من ذخائر ونفائس، وقد أثمرت هذه الحركة أعمالًا جيدة في خدمة التفكير المعجمي، وعرَّفت بكثير مما نسيه بعضنا من هذا التراث الخالد.

الناحيةُ الثالثةُ: وهي متصلة بالتأليف المعجمي، فالتأليف المعجمي يمثل هذه الناحية الثالثة من تلك الاتجاهات السابقة، فقد ظهرت محاولات كثيرة يهدف كل منها إلى إخراج معجم عربي، ويحقق من وجهة نظر صاحبه المعجم الكامل أو القريب من الكمال.

كما ظهرت محاولات لإعادة تنظيم أو تبويب وترتيب بعض المعاجم القديمة، وقد كان معجم (محيط المحيط)، الذي وضعه بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني اليسوعي، المتوفى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد من أول تلك المحاولات ظهورًا، وقد قال عنه: هذا المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروزآبادي وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب القوم، وعلى ما لا بد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم أو الفنون، سميناه بمحيط المحيط، وقد قام

المؤلف نفسه باختصار هذا المعجم في جزء واحد، وأطلق على هذا المختصر (قطر المحيط)، وقد ألفه للطلبة؛ لتسهيل الرجوع إليه عليهم بأن يكون في مستواهم ويسدَّ حاجاتهم من المفردات. والفرق ضيق بين (محيط المحيط) و(قطر المحيط) في كثرة المواد وقلتها.

وإذا أرخنا للحركة المعجمية في القرن الثالث عشر الهجري نرى بطرس البستاني اليسوعي على رأس من ألف فيه، ومعجمه (محيط المحيط) هو أول معجم أنتجه اليسوعيون، وكان ذلك في مفتتح النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؛ إذ فرغ من طبع الجزء الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد، الموافق لسنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف من الهجرة. وفرغ من تبييض الجزء الثاني سنة تسع وستين وثمانمائة وألف للميلاد، الموافق لسنة ست وثمانين ومائتين وألف للميلاد.

وقد تم للأب الكرملي من مطالعاته المتكررة لـ(محيط المحيط) كتاب أطلق عليه اسم (المعجم المساعد).

وإذا نظرنا إلى الأعمال المعجمية في آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين الميلاديين، وهذا التاريخ موافق للقرن الرابع عشر الهجري، نرى أن أشهر من ألف فيه الشيرازي مرزا محمد علي، المتوفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة، الموافق لسنة ست وتسعين وثمانمائة وألف من الميلاد؛ حيث ألف (معيار اللغة) في مجلدين كبيرين، ورجع فيه إلى المعاجم العربية والفارسية والتركية.

ومن علماء هذه الفترة: سعيد الخوري الشرتوني، المتوفى سنة سبع وثلاثمائة وألف من الهجرة، وهذا موافق لسنة تسع وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد، ألف (أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد) ألفه للطلبة أيضًا، وهو من معاجم

اليسوعيين، وقد ظهر هذا المعجم سنة تسعين وثمانمائة وألف من الميلاد، ألحق به سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف للميلاد جزءًا ثالثًا، وهذا المعجم أكبر معجم أنتجه اليسوعيون، ومن أجمع المعاجم للمفردات العربية، فقد اتخذ من القاموس المحيط عمادًا له، وأضاف إليه من معاجم كل من: ابن منظور والزمخشري والجوهري والفيومي والراغب الأصفهاني والزَّبيدي وابن فارس والرازي؛ كل هؤلاء أفاد منهم.

ومن معاجم هذه الفترة (معجم الطالب. في المأنوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات العلمية والعصرية) لجرجس همام، سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة، وهو موافق لسنة سبع وتسعمائة وألف من الميلاد.

ومن علماء هذا القرن أيضًا: عبد الله البستاني؛ حيث ألف معجمه (البستان)، ألفه في بيروت سنة سبع وعشرين وتسعمائة وألف من الميلاد، ومادته مادة (محيط المحيط) مع تسهيله، ثم اختصره في (فاكهة البستان) في مجلد واحد.

ومعظم معاجم اليسوعيين مؤلفة للطلبة، والملاحظ أن المعاجم العربية قد كانت قبل ذلك تؤلف للعلماء وللباحثين في معاني العربية وألفاظها، ثم أخرج الأب لويس المعلوف اليسوعي، المتوفى سنة ثمان وتسعمائة وألف للميلاد معجمًا مدرسيًّا باسم (المُنجد) وهو يعتبر إلى اليوم خير معجم مدارسي للعربية في ترتيبه وإخراجه؛ لأنه يحاكي في ذلك أحدث المعاجم الأوربية فنًّا.

وقد أضيف إليه معجم لأعلام الشرق والغرب في الأدب والعلوم، وقد كتب عن أخطاء هذا المعجم وهناته كثيرون من أعلام اللغة والأدب، منهم سعيد الأفغاني، وعبد الستار فراج وغيرهما، وأخذ عليه أنه أدخل المولَّد والعامي، وأخذ عليه أنه عني بالألفاظ المسيحية، وأخذ عليه أنه اعتمد فيه على مصادر غير

موثوقة، وأنه ليس ثقة من الناحية اللغوية، وقد عمر هذا المعجم طويلًا وطبع طبعات عديدة.

ومن أعمال هذا العصر أيضًا معجم (متن اللغة)، الذي ألفه أحمد رضا في خمسة أجزاء كبيرة ومقدمة طويلة؛ حيث طبع في سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد، وهو يعد من أفضل المعاجم الكبيرة المؤلفة في هذا العصر، وقد اختصر في معجمين أحدهما يسمى بـ(الوسيط من متن اللغة)، والآخر يسمى بـ(الموجز من متن اللغة)، ولكنهما لم يُطبعا بعد.

ونظرًا لما أحسَّه الوعي اللغوي في تلك المعاجم من نقائص وعيوب، فقد بقي المجمع اللغوي في القاهرة متطلعًا إلى معجم وسيط وآخر كبير؛ يحققان الصورة اللائقة للمعجم العربي في العصر الحديث، وتوالت نداءات العلماء والمثقفين تعلن شدة الحاجة إلى ذلك المعجم العصري المناسب، وأخذ كثيرون من المعنيين بهذا يضعون المواصفات والشروط، التي ينبغي أن تتحقق في المعجم، ورغب المستشرق الألماني "فيشر" أن يحقق هذا الأمل، وكان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد جعل من أهدافه تقديم هذا المعجم لأبناء العربية، فسارع العاملون به إلى تشجيع ذلك المستشرق ومعاونته لإخراج المعجم التاريخي للعربية، ولكن الموت حال بين ذلك المستشرق وبين إنهاء ما بدأه من عمل في هذا المجال، فاطلع المجمع وحده بتلك المهمة، واستطاع بعد جهد كبير أن يُخرج بعض المجلدات من هذا المعجم الكبير.

فصدر منه الهمزة سنة سبعين وتسعمائة وألف للميلاد، ثم الباء سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، وصدر جزء ثالث للتاء والثاء في مطلع القرن الخامس عشر، وهكذا تتوالى جهود المجمع في هذا المعجم، ونتمنى أن ينتهي هذا المعجم كاملًا في أقرب وقت.

وقد كان المجمع قد أخرج قبل ذلك معجمًا سماه بـ(المعجم الوسيط) في مجلدين كبيرين، ويتسم بالاختصار وحذف الشواهد وإضافة المصطلحات العلمية والعصرية، مع استخدام الرموز، وقد طبع عدة مرات.

ولنا وقفة معه -إن شاء الله- أثناء الحديث عنه في مستقبل الدروس، كما أخرج معجمًا ثالثًا سماه (المعجم الوجيز) في مجلد واحد، طبعته وزارة التربية والتعليم في القاهرة ووزعته على طلاب التعليم الثانوي العام.

ويظهر في هذه الأعمال الجهد الكبير والمحاولات الجادة؛ لتيسير المعجمية ومسايرة أحدث النظريات العالمية فيها.

ومن الجدير بالذكر: أن (المعجم الكبير) جاء بعد أن حيل بين "فيشر" المستشرق الألماني، ووصوله إلى القاهرة بسبب الحرب العالمية الثانية، وهذا المعجم الذي كان من المرتقب أن يسير فيه "فيشر"، وهو المعجم التاريخي قد اهتم "فيشر" في بدايته فيه ببحث تاريخ كل الكلمات، التي جاءت في الآداب العربية مبتدئًا بالكتابة المنقوشة من القرن الرابع الميلادي وحتى نهاية القرن السادس الهجرية، إلا أن هذا العمل لم يكتمل بعد؛ حيث مات "فيشر" قبل أن يتم هذا العمل، ولم يطبع منه إلا جزء واحد به مقدمة المعجم، ومنهجه مع أنموذج منه، ويشتمل هذا الأنموذج على أول حرف أو نمرة حتى مادة الباء والدال.

وقد ظهر للجنة المعجم أنه لا يمكن تأليف مثل هذا المعجم إلا بعد جمع آثار الأدباء والعلماء جميعًا وتحقيقها تحقيقًا علميًّا دقيقًا، وطبعها على أسس علمية لا تجارية، واستقر الرأي على عدم الابتداء فيه إلا بعد أن يتم ذلك كله، وبدأت نهضة في الجامعات العربية وبخاصة في مصر تهتم بجمع آثار الأدباء وتحقيقها تحقيقًا علميًّا، وصنع معاجم لشعراء العصور المختلفة؛ بدءًا من العصر الجاهلي إلى

العصر الحديث ؛ كي يمكن الإفادة من هذه المعاجم الخاصة في بناء المعجم التاريخي، وقد بذلت جهود كبيرة على مدار ثلاثين سنة إلى الآن ؛ حيث تم الانتهاء من تحقيق عدد كبير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وغير ذلك في مختلف العصور، وأرى أن العمل متوقف الآن، نأمل أن تجمع هذه المعاجم الخاصة في معجم واحد على مستوى كل عصر، فيكون هنالك معجم خاص بالعصر الجاهلي، وآخر بعصر صدر الإسلام، وهكذا بقية العصور، ثم تأتي الخطوة الأخرى لوضع معجم واحد تاريخي للغة العربية يتناول كل عصورها.

سبق العرب في وضع المعجم الكامل

من المقطوع به أن العرب أول من وضعوا معجمات كاملة دقيقة مستوعبة ؛ على الرغم من كونهم مسبوقين في الفكر المعجمي على النحو الذي بان لنا في التأريخ للحركة المعجمية، فالعرب هم أول مَن وضعوا معجمات من أصحاب اللغات الحية، والأدلة على ذلك ما يلي:

أولًا: المعاجم التي عرفت في اليونان والصين وعند الآشوريين تعد معاجم خاصة لا عامة، وما كان شبه عام لا يصل إلى مرتبة ككتاب الخليل بن أحمد الذي لم يكن مقلدًا لأحد أو ناهجًا على طريق سابق، بل كان مبتكرًا ومخترعًا في الفكرة والمنهج والترتيب ومعجمه معجم حق.

ثانيًا: لم يقصد أحد من مؤلفي تلك المعجمات غير العربية باستثناء (العين) إلى حصر اللغة وشرح كل مفرداتها، كما صنع الخليل بن أحمد، الذي يعد بحق أول من صنف معجمًا جديرًا بهذا الاسم ؛ لأنه جمع ألفاظ اللغة وشرح معانيها، ورتبها ترتيبًا علميًّا.

ثالثًا: العرب أول من اشتغلوا باللغة وعلومها وفنونها، واستوعبوا كل ذلك أجمل استيعاب، فألفوا معاجم أسماء الرجال والنساء، وسموها كتب الطبقات، وأفردوا لكل طائفة طبقة، فهناك طبقة النحاة واللغويين، وطبقة القراء، وطبقة المحدِّثين، وطبقة الأدباء والشعراء والكتاب والعلماء والصوفية والخطاطين والحفاظ والبيانيين والصحابة والتابعين والمفسرين والفرضيين والأطباء والحكماء والأصوليين والفقهاء والأولياء والرواة والخواص والمتكلمين والنساك والنسابين والفرسان والحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية، وغير ذلك مما يتصل بهذا اللون من المعاجم التي ألفت في الكُنى والألقاب، كما ألفوا معاجم في أسماء البلدان والغريب في القرآن والحديث واللغات والمعرَّب والدخيل والهمز ولغات القبائل والحيوان والنبات والإنسان ولحن العامة ولحن الخاصة والاشتقاق وطبقات الخيل والفحول والمُدَاخل والكتب ومعاجم اللغة.

واتسع نطاق التأليف اللغوي، وتعددت أنواع المعجمات على مرِّ الزمن، وأصبح لكل فن معجم، بل صار للفن الواحد معجمان، وجعل الترف العلمي بعض العلماء إلى أن يبتكروا سبلًا جديدة، فألفوا في المُدَاخل والمسلسل ومعجم بقية الأشياء والأضداد... إلى آخر هذا كله.

بواعث التأليف المعجمي عند العرب

لا شك أن هناك دوافع دينية وقومية جعلت علماء اللغة يستعذبون المشاق والصعاب في سبيل جمع العربية وحفظها، فجزاهم الله عن لغتهم خير الجزاء، وتلكم الدوافع هي:

أولًا: صيانة كتاب الله الكريم من الأخطاء المتعلقة بالنطق أو الفهم.

ثانيًا: حفظ اللغة العربية من الألفاظ الدخيلة على متنها، والتي لا تخضع لموازين ومقاييس اللغة.

ثالثًا: الخوف على اللغة من الانقراض بانقراض الحافظين لها.

رابعًا: اللغة في نظرهم أصبحت جزءًا من الدين ؛ لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين.

خامسًا: إنهم كانوا يرون في تدوين لغتهم تكليفًا شرعيًّا لهم، وذلك أنها السبيل إلى العلم بالدين عبادة وتشريعًا، وكان رائدهم فيما يعتقدون الأمر الصادر من الرسول ﷺ لصحابته بنصح من لحن في مجلسه، وإرجاعه إلى طريق الحق الصواب إذ قال: ((أرشدوا أخاكم فقد ضلّ))، وحتى تبرأ ذمتهم انطلقوا في هذا المجال غير مبالين بما يلاقون من مصاعب ومتاعب حسبة لله ﷻ.

سادسًا: غيرتهم على اللغة، وحرصهم عليها قوية البناء سليمة الإعراب. دفعهم إلى انتجاع البادية ومشافهة أعرابها وأخذها من منابعها الصافية، فدوّنت اللغة، وألّفت المعاجم، وقعدت القواعد وصححت المفردات التي دخلها اللحن والتحريف.

سابعًا: التعرف من خلال الكلمات المدونة في بطون المعاجم على عادات العرب وتقاليدهم وأنماط سلوكهم الاجتماعي، وما يمتازون به من خلق عربي أصيل، وما لهم من فكر أدبي ولغوي ؛ ذلك أن كل كلمة من هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم الوطن والبشر، ودمهما وروحهما.

ثامنًا: اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم حين تعددت الفتوحات الإسلامية، فاستغلقت اللغة على الأفهام، ولا يضير اللغة في شيء أن تدوّن الكلمات المولدة والمعربة والدخيلة في معاجمنا الحديثة على أن يخصص لها مكان معين ؛ وبذلك تنمو اللغة وتكثر مفرداتها بحيث تكون موافقة في اشتقاقها ونطقها للكلمات

الفصيحة؛ وبذلك نطوع لغتنا للوفاء لمطالب الحضارة الحديثة فسعة اللغة بمفرداتها لا بمترادفاتها، وليس في ذلك خروج عن الطريق السوي الذي سلكه أسلافنا لخدمة اللغة وصيانتها، ونحن بهذا العمل نحفظ للغة مرونتها وقبولها لكل جديد لا يصطدم مع قواعدها.

تاسعًا: كان البشر في ماضيهم السحيق، يعتمدون اعتمادًا كليًّا في تعاملهم وتفاهمهم على ما يلفظون من كلمات دالة على مرادهم شائعة بينهم، ذائعة على ألسنتهم، وليسوا في حاجة إلى استيضاحها، ثم أخذت اللغة في التوسع تبعًا لاتساع آفاق الفكر الإنساني؛ لتفي بحاجته، فهي المرآة الصادقة لما يدور في نفسه من خواطر وأفكار، ومن ثم ارتبطت حياة الإنسان بالألفاظ وتمسَّك بها، ثم انتهز فرصة ظهور الكتابة فسجَّل منها ما أمكنه تسجيله، فازدادت الثروة اللغوية وخفي كثير منها على الأفهام، فشرع العلماء في شرح ما غمض منها؛ محاولة منهم في تقريب اللغة من الأذهان؛ حتى يتسنى الانتفاع بها.

عاشرًا: قد يخطر للإنسان خاطر يريد التعبير عنه، فلا تسعفه حصيلته اللغوية، فيلجأ إلى التفتيش في بطون اللغة عساه يجد ما يعبِّر عن فكره، ومن هنا ظهرت المعاجم المبوبة لتفي بهذا الغرض، وسوف نتحدث عنها في حينها إن شاء الله تعالى.

الحادي عشر: حتى يزداد الاتصال الحضاري بين الأمم قوة فتقوى على الانتفاع والنفع، ترجمت الألفاظ الأجنبية بما يقابلها من ألفاظ اللغة العربية، فأصبحت في متناول من يريد البحث عنها، ويمثل ذلك شرحت الألفاظ النادرة في الاستعمال.

إذًا الاتصال الحضاري باعث من بواعث التأليف المعجمي العربي.

لقد تضافرت هذه الحوافز كلها على إخراج معجمات، تعتبر من أعظم وأشرف الأعمال اللغوية، فهي مرآة صادقة تنعكس على صفحتها مظاهر النشاط الاجتماعي والنفسي والفكري والخلقي، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إنها سجلٌ حافل لكل مظاهر الحياة العربية.

تعريف بمدارس المعجم العربي

عناصر الدرس

العنصر الأول : ظهور حركة التأليف المعجمي ٦٩

العنصر الثاني : أنواع المعاجم اللغوية العامة وأشهر مدارسها ٨٤

ظهور حركة التأليف المعجمي

١ـ الأمورُ التي مهدت للحركة اللغوية المعجمية :

أولًا : الحركة العلمية التي قامت من أجل توضيح آيات القرآن الكريم ومحاولة فهمها ، فاهتم العلماء بتفسير غريب القرآن ومشكله ، وكانت كتب غريب القرآن نتيجة لهذه الدراسة المبكرة للقرآن العظيم.

ثانيًا : الحركة العلمية التي رمت إلى العناية بغريب الحديث ، فقد أسفرت هذه الحركة عن كتب غريب الحديث ، وكانت رافدًا من أهم الروافد في إمداد الدراسات اللغوية بمادتها ومسائلها.

ثالثًا : ظاهرة التدوين ، فقد شهد القرن الأول وبداية الثاني نشأة العلوم العربية والإسلامية ، وتدوين معظمها كالفقه والأصول وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة ، فهذه الحركات الثلاث وغيرها أمدَّت الدراسات اللغوية لمتن اللغة ومفرداتها بمدد قوي ، وجعلها تقوم على أساسٍ متين.

٢ـ صورُ هذه الدراسة :

جاءت هذه الدراسة في صور كثيرة أفصل بعضها في ضوء ما ذكرته من هذه الأمور التي مهدت لحركة التأليف في المعاجم :

بالنسبة لكتب غريب القرآن :

قد ابتدأها ابن عباس ، المتوفى سنة ثمان وستين من الهجرة على أرجح الأقوال ، وألَّف بعده أبان بن تغلب بن رباح البكري ، المتوفى سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة ، كما ألف في هذا الصنف أيضًا -أعني كتب غريب القرآن- مؤرج

السدوسي اللغوي، المتوفى سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة، ويحيى بن المبارك اليزيدي، المتوفى سنة اثنتين ومائتين، والنضر بن شميل، المتوفى سنة ثلاث ومائتين، وأبو عبيدة معمرو بن المثنى، المتوفى سنة عشر ومائتين، والأصمعي عبد الملك بن قريب، المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين، والأخفش الأوسط، المتوفى سنة خمس عشرة ومائتين، وأبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين، ومحمد بن سلام الجمحي، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وابن قتيبة، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين، وثعلب، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين، وهؤلاء كلهم من اللغويين.

بالنسبة لكتب غريب الحديث:

الذي خدم المفردات في الحديث النبوي وأفادت منه العربية بصفة عامة، وعد بذلك من ميادين الدراسة اللغوية؛ حيث أعطى العلماء فيه عطاء كبيرًا، فكانت هذه المجموعة الهائلة من كتب غريب الحديث ومشكله، ويأتي على رأس من ألَّف في هذا الجانب أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، المتوفى سنة عشر ومائتين، الذي يُنسب إليه أول كتاب في غريب الحديث، والنضر بن شميل، وأبو عمرو الشيباني، المتوفى سنة ست ومائتين، وقطرب، المتوفى في السنة نفسها، والأصمعي وأبو زيد الأنصاري، المتوفى سنة خمس عشرة ومائتين، وسلمة بن عاصم الكوفي، وجميعهم أيضًا من اللغويين.

وإذا كانت كتب هؤلاء محدودة في حجمها وفي مادتها، فإن (غريب الحديث) لأبي عبيد القاسم بن سلام يعد طفرة قوية في هذا الفرع من الدراسات اللغوية، فهو يمتاز عن الكتب السابقة من حيث المنهج والترتيب والاتساع، حتى ليقال: إنه جمع الكتب السابقة وزاد عليها، ومكث في تأليفه كما قيل: أربعين سنة، وبذلك نال إعجاب الناس.

كما ألَّف في هذا الجانب أيضًا ابن الأعرابي، المتوفى إحدى وثلاثين ومائتين، وعمرو بن أبي عمرو الشَّيباني، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ويأتي كتاب (غريب الحديث) لابن قتيبة المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين؛ ليكمل ما فات أبا عبيد القاسم بن سلام ويضيف على ما أتى به ضِعفه أو أضعافه، حتى ليعد كتاب أبي عبيد وكتاب ابن قتيبة من الكتب الأمهات في هذا الباب، التي تُغني عن كل ما سبقها من كتب صغيرة، والتي هي الأساس أيضًا لكل ما جاء بعدها.

وتتوالى جهود اللغويين في ذلك وتظهر مؤلفاتهم، مثل: (تقريب الغريبين) للرازي، أي: غريب أبي عبيد وغريب ابن قتيبة، و(الفائق في غريب الحديث) للزمخشري الذي يعد أغزر كتب الحديث مادة لغوية، و(النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، المتوفى سنة ست وستمائة. ويمثِّل كتاب (النهاية) هذا أعلى قمة في مستوى التأليف في غريب الحديث، تمامًا كما يمثل كتاب (المفردات) للراغب في غريب القرآن في القرن السادس، فقد جمع ابن الأثير في كتابه كل ما سبق؛ حتى اتخذه صاحب (لسان العرب) مرجعًا أساسيًّا في تأليف كتابه كما سنعرف فيما بعد إن شاء الله.

٣- جهودُ بعض المستشرقين حول ألفاظ الحديث:

يمكن أن نشير إلى ما قام به بعض المستشرقين من جهود حول ألفاظ الحديث مثل ذلك العمل الكبير المسمى بـ(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف).

أولًا: معاجم الفقه أو كتب المصطلحات الفقهية:

لم يغب عن ذكاء اللغويين هذا الميدان الفقهي وما كان للمفردات فيه من غرابة على العرب والعربية؛ تلك الغرابة التي تتمثل في المفهوم الشرعي الذي جاء به

الإسلام وحدده الفقهاء، مما لم يكن معروفًا قبل مجيء الإسلام، فألفاظٌ مثل الصلاة والزكاة والنفاق وبقية المصطلحات الواردة في كتب الفقه كانت معروفة فقط بمعانيها اللغوية، فالصلاة: الدعاء. والزكاة: الطهارة والنماء. والنفاق: جحر اليربوع. وهكذا، ثم أصبحت لها دلالة جديدة في عرف الإسلام؛ فالصلاة: أقوال مخصوصة وأفعال مخصوصة تبتدئ بالتكبير وتختتم بالتسليم. والزكاة: إخراج قدر من المال بنسبة معينة على المال الذي حال عليه الحول. والنفاق: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر... إلى آخره.

لم يغب عن اللغويين هذا التأثير الذي قد أحدثه الإسلام في اللغة، ولا هذه الغرابة والصعوبة في فهم المعاني الجديدة للمفردات اللغوية، فأخذوا على عاتقهم تناول هذه المصطلحات الفقهية بالجمع والتصنيف والتفسير والشرح، وظهرت لهم كتبٌ تعد بمثابة المعاجم في هذا الميدان، ومنها (الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي) للأزهري اللغوي صاحب (تهذيب اللغة)، والمتوفى سنة سبعين وثلاثمائة، و(تهذيب الأسماء واللغات) للنووي، المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة، و(لغات مختصر ابن الحاجب) لمحمد بن عبد السلام المكي، و(المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) الذي ألفه الفيومي سنة سبعين وسبعمائة، حيث بلغت شهرته الآفاق، و(الشرح الكبير) للإمام الرافعي، شرح فيه كتاب (الوجيز) في فقه الشافعية للإمام أبي حامد الغزالي، المتوفى سنة خمسين وخمسمائة... إلى غير ذلك من الكتب التي دارت حول ألفاظ الفقهاء ومصطلحاتهم.

ثانيًا: كتب لغات القرآن:

قضية الألفاظ المعربة في القرآن من القضايا القديمة، التي التفت إليها العلماء قديمًا، واختلفوا فيها، فمنهم من اعترف بوجودها، ومنهم من أنكر أن يكون في

القرآن الكريم لفظ غير عربي ؛ لأنه نزل بلسان عربي مبين ، والرأي الوسيط الذي يحل المشكلة أن الألفاظ المعرَّبة أمر لا مفرَّ منه ، وقد دخلت اللغة العربية وقبِلَها العرب قبل مجيء الإسلام بزمن يرجع إلى زمن دخول هذه الألفاظ ، وقد أحدث فيها اللسان العربي عملية التواؤم والتناسق مع قالب الكلمة وصيغتها ، إما بالحذف أو الزيادة أو غير ذلك مما هو معروف في نظام التعريب ، ثم مع الزمن ومع الاستعمال أصبحت جزءًا من نظام اللغة العربية ، وأخذ العربي يستعملها كما يستعمل الألفاظ العربية الأصيلة.

وربما تنوسي هذا الأصل الأعجمي ، فلا يشعر المتكلم العادي أن هذه الألفاظ غير عربية ، ثم جاء الإسلام فوجد اللغة العربية بمفرداتها ونحوها وصرفها وأصواتها ودلالاتها قد وصلت إلى ما وصلت إليه ، وقد صار نظامها العام إلى النظام المعروف لها قبل الإسلام ؛ أي : وجد هذه الألفاظ المعرَّبة قد صارت عربية في صيغتها ووزنها ، وكيفية نطقها وكذا في أصواتها ، فنزل القرآن الكريم بها ، ومن هنا فإن نزول القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى التي تمثلت في لهجة قريش بعد أن دخلتها هذه الألفاظ التي عرَّبها العرب ، وأصبحت جزءًا من لغاتهم لا يعني أن في القرآن الكريم ألفاظًا غير عربية ، وبذلك يصدق القول الذي يرى عدم وجود المعرَّب في القرآن الكريم ، ويبقى بعد ذلك أنها معربة من حيث التاريخ والنشأة فقط ، وعلى هذا يحمل الرأي الثاني.

اهتم العلماء بهذه القضية بصرف النظر عن اختلافهم ، وقاموا بجمع هذه الألفاظ من القرآن الكريم ودرسوها دراسة لغوية جديدة بأن أتوا بالآية التي فيها اللفظ ، ثم يفسرونه ويحددون دلالته مع محاولة نسبته إلى اللغة التي جاء منها ، وساروا في ذلك على ترتيب السور ، كما فعل ابن عباس الذي يُعد رائدًا في هذا الميدان ، ومنهم من رتب كتابه على ترتيب الأبجدية ، كما فعل السيوطي في كتابه (المهذب

فيما وقع في القرآن من المعرَّب)، ومن هذه الكتب ما جاء مرتبًا على أساس اللغات، التي وردت من الألفاظ مثل كتاب (المتوكلي) للسيوطي أيضًا، وممن ألَّف في هذا اللون من دراسة المفردات مقاتل بن سليمان صاحب كتاب (الأقسام واللغات)، وهشام بن محمد الكلبي، المتوفى سنة أربع ومائتين، والهيثم بن عدي، المتوفى سنة ست ومائتين، والفراء، المتوفى سنة سبع ومائتين، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، وابن دريد، المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة... وغيرهم.

ثالثًا: لغاتُ القبائل:

من الموضوعات التي تمثل عناية القدماء بدراسة مفردات اللغة ودلالتها لغات القبائل، فمن المعروف أن القبائل العربية القديمة اختلفت فيما بينها في استعمال الفصحى؛ الأمر الذي جعل للغة العربية لهجات متعددة، وتختلف هذه اللهجات أو اللغات كما كانت تسمى قديمًا عن الفصحى في عناصر أو ظواهر محددة، كالهمز والتسهيل والفك والإدغام والتفخيم والترقيق والفتح والكسر أو الضم أو ما إلى ذلك؛ مما جعل الفرق بينها وبين الفصحى محدودًا، والصلة قوية متينة، على عكس ما نرى اليوم في اللهجات العربية الحديثة، وجاء القدماء فاهتموا بالمفردات اللغوية التي هي مناط الاختلاف في الصورة اللفظية والنطقية أو في الدلالة، وحاولوا جمعها وترتيبها، وبيان الصواب منها والخطأ منها، في ضوء نظام الفصيح، وقد خلَّفوا لنا في ذلك تراثًا غير قليل، وأمدوا المعاجم العربية بمادة لغوية مهمة؛ من ذلك كتب يونس بن حبيب، المتوفى سنة اثنتين وسبعين ومائة، وأبي عمرو الشَّيباني، المتوفى سنة ست عشرة ومائتين، والفرَّاء وأبي عبيدة والأصمعي وابن السكيت وابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب) وثعلب وابن سِيده في (المخصص) وابن دريد في (الجمهرة)، وغير ذلك كثير.

رابعًا: كتبُ المعرب:

لم يقف اهتمام القدماء عند دراسة المعرب في القرآن، وإنما يمتد لدراسته في اللغة كظاهرة لغوية؛ محاولين إحصائها ونسبتها إلى أصلها، وبذلك كانت لهم في ذلك مؤلفات تضاف إلى الرصيد الهائل في دراسة المفردات، من ذلك ما في كتاب (الغريب المصنف) لأبي عبيد بن سلام من حديثه تحت عنوان: ما دخل من غير لغات العرب، وما صنعه ابن قتيبة أيضًا في (أدب الكاتب) وابن سيده في كتابه (المخصص)، ومن الكتب التي خصصها أصحابها لهذا (المعرَّب من الكلام الأعجمي) لأبي منصور الجواليقي، المتوفى سنة أربعين وخمسمائة، وأيضًا (التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل) للبشبيشي، المتوفى سنة عشرين وثمانمائة، و(شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجي، المتوفى سنة إحدى وستين وألف... إلى غير ذلك من الكتب التي عنيت بالمفردات من هذا الباب.

خامسًا: كتبُ اللحن:

كان لظهور اللحن في اللسان العربي آثاره التي امتدت في نطق عامة العرب، ثم وصلت إلى خاصتهم، على الرغم من الجهود العلمية التي بذلها العلماء في مقاومة وباء اللحن ومحاولة القضاء عليه، قد رأى اللغويون الغيورون على فصحائهم هذه الآثار عالقة بالنطق، وكأنها أصبحت جزءًا من النظام اللغوي عند عامة العرب، فهالهم ذلك وأقدموا على دراسة هذه المفردات للكشف عن أوجه الخطأ وبيان الصواب، وقد أسفرت هذه الدراسة عن أعمال علمية رائعة في إطار المفردات خاصة واللغة العربية عامة، تمثَّلت في كتب ومؤلفات كثيرة؛ من أشهرها (إصلاح المنطق) لابن السكيت، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة و(الفصيح)

لثعلب، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين من الهجرة، و(دُرَّة الغواص) للحريري، و(شرح درة الغواص) للشهاب الخفاجي.

وهناك كتب قصيرة بمثابة الرسائل والشروح والاختصار والترتيب والتكملة والنقد حول هذه الكتب الكبيرة، وتتوالى أصناف الكتب والرسائل في موضوعات متعددة؛ من ذلك: معاجم الحيوان والنبات، وهي تلك الرسائل أو الكتب اللغوية الصغيرة، التي تتخذ من بعض الحيوانات أو النباتات موضعًا لها، فتجمع ألفاظه، وتحاول تفسير معانيها؛ مثل كتب الخيل لكثيرين؛ منهم: الأصمعي وأبو عبيدة، وهنالك كتب أخرى أيضًا ككتب: الشاء والنخل والجراد والحشرات، وما إلى ذلك، وهنالك كتب أو معاجم تتصل بالظواهر اللغوية وأنواع الكلام، وهي تلك الكتب الصغيرة التي تهتم بالمفردات اللغوية التي تمثل ظاهرةً لغوية، مثل كتب التضاد والترادف والتذكير والتأنيث والمقصور والممدود والمشترك، أو بتجميع بعض أجزاء الكلام وأنواعه مثل كتب: الأفعال والأسماء والحروف والمصادر، ومن تلك الكتب التي مهَّدت لظهور حركة التأليف المعجمي أيضًا كتب خلق الإنسان، وهي تلك الكتب التي تجمع الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان ونشأته وجِسمه وأعضائه وأمور معيشته واجتماعياته وغير ذلك مما يتصل به، ومن أشهرها كتاب (خلق الإنسان) لثابت بن أبي ثابت تلميذ أبي عبيد القاسم بن سلَّام.

ويلحق بتلك المعاجم الخاصة تلك الكتب التي تتناول مظاهر الطبيعة وكواكبها كالأنواء والمطر وما يشبه هذا كله، كما يمكن أن يلحق بهذا أيضًا تلك المعاجم الخاصة التي يصنعها بعض الباحثين في أيامنا هذه للشعراء والأدباء وغيرهما؛ مما يختص بألفاظ موضوع أو شخص معين أو قبيلة من قبائل العرب.

والجدير بالذكر أن علماءنا القدماء تنوعت وتعددت أعمالهم المعجمية التي من هذا القبيل، فقد يؤلف العالم الواحد رسالة في خلق الإنسان، وأخرى في خلق الحيوان، بل في خلق الإبل، بل في الشاء، بل في اللِّبأ، في المطر في الأنواء. وأذكر أمثلة لهؤلاء:

فالأصمعي عبد الملك بن قريب ألَّف رسائل لغوية في الإبل والخيل والشاء والوحوش والفرو وخلق الإنسان والنبات والشجر والأضداد، وهذا نص من رسالة الإبل التي نشرها الدكتور "أوغست هفنر" في (الكنز اللغوي في اللسان العربي) والدكتور "أوغست هفنر" معلم اللغات السامية في كلية "فيينا"، وقد طبع هذا (الكنز) بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ثلاث وتسعمائة وألف للميلاد.

وأسوق نموذجًا منه من رسالة الأصمعي في الإبل، و(الكنز اللغوي) احتوى على كتب عدة منها كتاب (الإبدال) لابن السكيت، ومنها كتاب (الإبل) عن الأصمعي بروايتين مختلفتين، ومنها (خلق الإنسان) أيضًا للأصمعي.

يقول الأصمعي: وإذا أشرف ضرعها -يتحدث عن الناقة- فوقع فيه اللبن فهو المُلمع، فإذا وقع فيه اللبأ قبل النتاج فهي المبسق، فإذا دنا النتاج فهي مُدنية، فإذا ضربها المخاض فندت في الأرض فهي الفارق، فإذا ألقت ولدها فهو ساعة يقع سليل، فإذا وقع عليه اسم التذكير والتأنيث فإن كان ذكرًا فهو سقب، وإن كان أنثى فهو حائل، قال أبو ذؤيب:

فتلك التي لا يبرح القلب حبها ❖ ولا ذكرها ما أرزمت أم حائل

وقال الأسدي:

من عهدة العام وعام قابل ❖ ملقوحة في بطن ناب حائل

فإذا قوي ومشى فهو راشح، وهي المُرشح، وهي المطفل ما دام ولدها صغيرًا، فإذا ارتفع عن الرشح فهو الجادل، فإذا حمل في سنامه شحمًا فهو المعكر وهو في هذا كله حوار، فإذا فطم فهو فصيل، فإذا فصل فهو فطيم والأم فاطم... وهكذا.

وكما صنع الأصمعي وتعددت مؤلفاته ورسائله الصغيرة في هذه الأصناف المختلفة نرى أبا زيدٍ الأنصاري سعيد بن أوس، يصنع هذا الصنيع، فيؤلف في المطر والهمز واللبأ واللبن والنوادر في اللغة، ونرى الفراء أيضًا يؤلف في الأيام والليالي والشهور، وفي المنقوص والممدود وفي المذكر والمؤنث، وقد عالج الفراء في الأيام الأسماء القديمة والحديثة للأيام والشهور العربية وأسماء الهلال والقمر والشمس وظلمة الليالي والأيام الباردة والحارة، ويستشهد على ما يقوله دائمًا بالقرآن والشعر والأمثال، فالمؤتمر هو شهر الله المحرم، والناجر هو صفر، والخوان ربيع الأول، والبُصان ربيع الثاني، والحنين جمادى الأولى، وورنة جمادى الآخرة، والأصم رجب، ووعل شعبان، وناتق رمضان، وعاذل شوال، وهُواع ذو القعدة، وبُرك ذو الحجة، والأيام أيضًا كانت تسمى هكذا فالأول هو: الأحد، والأهون هو: الاثنين، والجبار هو: الثلاثاء، والدبار هو: الأربعاء، والمؤنس هو: الخميس، والعروبة: الجمعة، والشيار: السبت.

ونرى كذلك أبا الطيب اللغوي، المتوفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة تتعدد رسائله كما تعددت رسائل الفراء وأبي زيد والأصمعي، فيؤلف (شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة)، ويؤلف رسالة أخرى في الإتباع وثالثة في المثنى وأخرى في الإبدال، وإن نظرنا نظرة أخرى إلى تلك الرسائل وما بذله العلماء من جهود متصلة بالموضوع الواحد، فإنني أسوق نماذج من هذا:

فقد ألّف في الخيل كل من: أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، المتوفى سنة ست ومائتين، له (نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها) وأبي عبد الله

محمد بن زياد الأعرابي، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين؛ له كتاب (أسماء خيل العرب وفرسانها) وأبي عبيدة معمر بن المثنى له كتاب (الخيل)، والأصمعي أيضًا له رسالة في الخيل.

وممن ألف في الوحوش: قطرب، محمد بن المستنير، المتوفى سنة مائتين وستة له (ما خالف فيه الإنسان البهيمة في أسماء الوحوش وصفاتها)، بالإضافة للأصمعي أيضًا له رسالة في الوحوش، وممن ألف في خلق الإنسان: ثابت بن أبي ثابت، وأبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، المتوفى سنة عشر ومائتين، وأبو الحسين أحمد بن فارس، المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، له مقالة في أسماء أعضاء الإنسان، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، المتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، والسيوطي له (غاية الإنسان في خلق الإنسان) والأصمعي جهده في هذا لا ينكر، فله رسالة في خلق الإنسان.

وممن ألف في النبات والشجر: أبو زيد الأنصاري، وأبو حنيفة الدِّينَوري، المتوفى سنة ثمانين ومائتين، بالإضافة أيضًا إلى الأصمعي. وممن ألف في الأضداد: قطرب، وابن السكيت، والسجستاني، المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين، والأنباري أبو بكر محمد بن القاسم بن بشَّار، المتوفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وأبو الطيب اللغوي وأبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهَّان النحوي، المتوفى سنة تسع وستين وخمسمائة، والصاغاني أبو الفضائل رضي الدين الحسن بن محمد، المتوفى سنة خمسين وستمائة، كل هؤلاء ألفوا في الأضداد، بالإضافة أيضًا إلى الأصمعي.

والذين ألفوا في النوادر أبو زيد الأنصاري، وأبو مسحل الأعرابي وأبو علي إسماعيل القالي، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة. والذين ألفوا في المقصور

والممدود: الفراء ونفطويه، المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، والقالي وأبو البركات ابن الأنباري. والذين ألفوا في المذكر والمؤنث: السجستاني والمبرِّد، المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين، والمفضل بن سلمة، المتوفى سنة ثلاثمائة، وابن جني وابن فارس... وغير هؤلاء كثير.

إذًا، تعددت مصنفات العلماء في هذا الجانب الذي يدل على الجهد الكبير الذي بذلوه خدمةً للمعاجم العربية.

٤ـ محاولةُ ترتيب حركة التأليف المعجمي تاريخيًّا:

علمنا أن مؤلفات العلماء وجهودهم في الحركة المعجمية لم تحمل اسم المعجم، وأن أكثر عناوين مؤلفاتهم يوحي بالموضوع، الذي وضع الكتاب أو العمل العلمي من أجله وهو حفظ مفردات اللغة كلها أو في جانب من جوانبها، لعل هذا هو الذي دفع المؤرخين للتفكير المعجمي عند العرب إلى تقسيم الأعمال المعجمية عندهم إلى أنواع ثلاثة:

النوعُ الأولُ: التأليف المختلط:

حيث يجمع المؤلف بين اللغة وغيرها؛ أي: بين المفردات وما يتصل بها من جوانب اللغة الأخرى.

النوعُ الثاني: التأليف في الموضوعات:

حيث يقوم المؤلف بجمع المفردات الخاصة بالموضوع المعين أو بشرح تلك المفردات، ويدخل في هذا التأليف في غريب القرآن وغريب الحديث واللغات ولحن العامة والأصوات والحيوانات والظواهر اللغوية.

النوعُ الثالثُ: التأليف المعجمي:

حيث يقوم المؤلف بجمع المادة اللغوية العامة وترتيبها ترتيبًا ما، على النحو المسمَّى بالمعاجم أو القواميس اللغوية، ولما كان هذا النوع الأخير يمثل قمة ما يهدف إليه اللغوي من الناحيتين: النظرية والعلمية؛ فقد خصه المؤلفون بتسمية المعاجم ورأوه المرحلة الأخيرة في تطبيق النظرية المعجمية، على حين رأوا النوعين السابقين -أعني التأليف المختلط والتأليف في الموضوعات- أعمالًا تمهيدية أو مساعِدة، وقد حاول بعض الباحثين عمل ترتيب منطقي للتأليف المعجمي، فذكر أنه مرَّ بمراحل ثلاث:

المرحلةُ الأولى: جمع الكلمات حيثما اتفق:

فالعالم يرحل إلى البادية يسمع كلمة في المطر ويسمع أخرى في السيف، وأخرى في الزرع والنبات... وغير ذلك في وصف الفتى أو الشيخ إلى غير ذلك، فيدوِّن ذلك كله حسبما سمع من غير ترتيب إلا ترتيب سماع.

المرحلةُ الثانيةُ: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد:

والذي دعا إلى هذا في اللغة -على ما ظهر- أنهم رأوا كلمات متقاربة المعنى؛ فأرادوا تحديد معانيها؛ فدعاهم ذلك إلى جمعها في موضع واحد، فألَّف أبو زيد كتابًا في المطر، وكتابًا في اللبن، وألف الأصمعي كتبًا كثيرة صغيرة كل كتاب في موضوعه.

المرحلةُ الثالثةُ: وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص:

ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة، ويمثِّل هذه المرحلة تلك المعاجم اللغوية العامة مثل معجم (العين)، ومع التسليم بوجود هذه المراحل من الناحية النوعية، فإننا لا نسلِّم بها من الناحية التاريخية أو التسلسلية؛ ذلك أن المرحلة

الثالثة قد ظهرت مع المرحلة الثانية، وربما قبل استوائها واكتمالها، وكذلك لا نستطيع التسليم بالفصل الحاسم بين تلك المراحل، فنرى كثيرًا من العلماء يضعون جهودهم في صورتين أو أكثر مما تمثِّله تلك المراحل، فمما يعكر صفو هذه الفكرة ويعوقُ التسليم بوجودها تاريخيًّا -أي: أن كل مرحلة تسلم إلى ما بعدها. أن الخليل واضع الفكرة الثالثة كان أسبق زمنًا من أبي زيد والأصمعي واضعي الفكرة الثانية، ويمكن الإجابة عن هذا بأن الثلاثة تعاصروا زمنًا طويلًا، فالخليل عاش من سنة مائة إلى سنة خمس وسبعين ومائة، والأصمعي من اثنتين وعشرين ومائة إلى ثلاث عشرة ومائتين، وأبو زيد توفي سنة خمس عشرة ومائتين عن بضعة وتسعين عامًا، فقد عاشوا زمنًا طويلًا، وربما سبق الأصمعي وأبو زيد بالتأليف في المفردات، وبأن الخليل -على ما عليه أكثر المحققين- وضع الفكرة فقط، ولم يستطع أن يملأها أو ينفذها من قاربه في الزمن مثل الأصمعي وأبي زيد؛ لأن فكرة الخليل كانت طفرة كبيرة في التفكير وكانت قبل زمانها، فلم يستطع أن يملأها وينفذها إلا من أتى بعده وبعد الأصمعي وأبي زيد، يدافع عن هذا بعض العلماء؛ لذا يرى أن الفكرة لا تزال -أعني فكرة التسلسل لا تزال- بالنسبة لمن آمن بهذا معقولة.

وقد رُد على ذلك أيضًا بردود، أهمها ما يلي:

الرد الأول: أن فكرة التسلسل يشترط لمعقوليتها أن تنشأ الأبحاث اللغوية منفردة، غير متصلة بنشاط آخر، لكن الآثار الباقية تنكر هذا الانفراد؛ فقد كان أول الأبحاث اللغوية يدور حول الألفاظ القرآنية أو ما عرف بعد باسم غريب القرآن ولغاته وما شابه ذلك.

الرد الثاني: أن الأصمعي وأبا زيد ليسا واضعي الفكرة الثانية ؛ فقد سبقهما كثيرون، أهمهم أبو خيرة الأعرابي أستاذ الخليل، وصاحب كتاب (الحشرات)، وربما شاركه في هذا الشرف معاصرون له أو سابقون عليه ولم تصل إلينا بعد أخبارٌ عنه.

الرد الثالث: هذه المراحل ليست مستقلة تمامًا، ولا متميزة تميزًا يسمح بعدم الخلط بينها لضياع كثير من الكتب الأولى وعدم انقضاء كل مرحلة بظهور تاليتها ؛ إذ بقي المؤلفون يخرجون من الكتب ما يوضع تحت المرحلة الأولى أو الثانية حتى عهود متأخرة ربما تمتد إلى عهدنا الحاضر.

الرد الرابع: القول بأن فكرة الخليل في معجم العيني طفرة يرد على هذا القول بأن هذا ليس غريبًا على عبقرية الخليل مبتكر علم العروض، ومخترع علم النحو، ومخترع علم الموسيقى العربية، وجمع فيه أصناف العرب، فكذلك يعد أول من جمع اللغة وأول من ابتكر المعجم العربي بصفة عامة، وبعض العلوم الرياضية أيضًا.

الرد الخامس: كتاب العيني فكرًا وتأليفًا وعملًا معجميًّا للخليلي وحده، الأفضل من هذا التقسيم الذي قيل: بأنه منطقي أو قيل: بأنه متسلسل تسلسلًا تاريخيًّا منطقيًّا طبيعيًّا، الأفضل من ذلك أن نقسم تلك المجهودات تبعًا لنوعيتها والأهداف الخاصة التي يسعى إليها المؤلفون فيها، مع التسليم بأن طبيعة التطور تقتضي أن أكثر تلك الأعمال فائدة وأهمية تأتي بعد جهود جزئية كثيرة، وأن ما يُسمَّى بالمعاجم في اصطلاحنا هو الذي يمثِّل تلك الأعمال.

ومجمل القول: أنه من الطبيعي أن الدراسات اللغوية الخالصة نشأت ضعيفة غير منفردة، وإنما اختلطت بالتفسير والنحو، ثم أخذ المهتمون بها يغذونها بأقوالهم

وأبحاثهم ورحلاتهم إلى البادية لمشافهة الأعراب وتسجيل ذلك كله عن طريق التدوين أو الذاكرة الحافظة، فقويت الدراسة اللغوية ونمت إلى أن استطاعت الوقوف على رجليها.

حقًّا إنه من الصعوبة تحديد كل مرحلة من هذه المراحل تحديدًا دقيقًا؛ له بداية ونهاية تاريخية لما سبق ذكره، ولكن الحقيقة الظاهرة أن هذه الرسائل الصغيرة كانت الخُطوات الأولى التي مهَّدت السبيل لظهور المعاجم، وكان لها أثرها الظاهر في المعاجم حيث دخلت في مادتها وثناياها.

أنواع المعاجم اللغوية العامة وأشهر مدارسها

١. أنواعُ المعاجمِ اللغويةِ العامةِ:

المعاجم من ناحية المادة أو الموضوع تصنف إلى صنفين كبيرين: معاجم لغوية، وأخرى علمية.

والمعاجم اللغوية تصنف إلى صنفين كبيرين:

الأولُ: معاجم ثنائية اللغة أو متعددة اللغة.

الثاني: المعاجم الأحادية اللغة.

والمعاجم الأحادية اللغة تتشعب إلى شعبتين؛ الأولى خاصة، والأخرى عامة.

إذًا، هنالك معاجم أحادية اللغة خاصة، ومعاجم أحادية اللغة عامة.

المعاجم الأحادية الخاصة:

نقصد بها تلك المعاجم التي تُعنى بموضوع خاص من الموضوعات، فتجمع ما قيل فيها من مفردات لغوية ولا تتجاوزه إلى غيرها من موضوعات أخرى،

ككتب غريب القرآن الكريم التي أشرت إليها، وكتب غريب الحديث، وكتب الفقه أو معاجم الفقه، وكتب الحيوان والنبات، وكتب الظواهر اللغوية وأنواع الكلام، وكتب خلق الإنسان، وكتب لغات القرآن، ولغات القبائل، والمعرَّب واللحن والنوادر والطرائف وغير ذلك.

المهم: أن هذه المعاجم أو الكتب تختص بموضوع واحد، ولا تحتاج إلى ترتيب دقيق أو تخطيط معين؛ لأنها تعالج موضوعًا واحدًا، تفسِّر الألفاظ وتشرحها، وتستشهد عليها بما قاله العرب فيها من نصوصٍ مأثورة عنها.

أما المعاجم اللغوية الأحادية العامَّة، فهي تلك الدواوين أو الكتب اللغوية التي يهدف أصحابها منها إلى جمع مفردات اللغة أو أكثرها، وترتيبها على وضع معين ومنهج واضح؛ بحيث يستطيع الباحث فيها إخراج ما يريده من ألفاظ اللغة أو معانيها، والمتأمل في هذا النوع من المعاجم الأحادية العامة يرى أنه بحسب أهدافها تنقسم إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: معاجم المعاني والموضوعات:

هي تلك المعاجم التي تجعل المعاني والموضوعات أساسًا في تأليفها وترتيبها؛ لأنها تهدف إلى جمع الألفاظ أو التراكيب التي تستعمل في المعاني أو الموضوعات المؤلفة، ومن ثم فإن المعجم يقسم إلى كتب أو أبواب أو فصول، يختص كل منها بموضوع واحد مع مراعاة التسلسل المنطقي والبدء بالأعم فالأخص وجمع الأمور المتناظرة والمتشابهة في مكان واحد.

ويخدم هذا النوع من المعاجم أولئك الذين يعرفون الموضوعات أو المعاني، ويريدون الوصول إلى الألفاظ التي تؤديها وتعبر عنها، ويمكن مع شيء من التجوز القول بأن لهذا النوع من المعاجم جناحين:

الجناح الأول: يهتم في أكثره باللفظ المفرد، ويمثله خير تمثيل المعاجم الآتية: (الغريب المصنف) لأبي عبيد القاسم بن سلام، و(الألفاظ) لابن السكيت، و(مبادئ اللغة) للإسكافي، و(المخصص) لابن سيده.

الجناح الثاني: فإنه يهتم في أكثره بالتركيب أو العبارة التي تقال في الموضوع المعين أو الموقف المعين، والكتب التي من هذا الصنف لها هدف عملي غالبًا، ويمكن أن نمثل لها بكتب: (إصلاح المنطق) لابن السكِّيت، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة، و(الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن الهمذاني.

يمكن القول -بصفة عامة- بأن معاجم المعاني والموضوعات تعد من الناحية العملية ذات نفع كبير في ميادين الأدب والعلوم وغيرها، ومن ثمَّ فقد بقيت إلى عصرنا هذا على الرغم من تطور التأليف المعجمي وتقدمه من جانب، ومن صعوبة استعمالها والكشف عما فيها من جانب آخر.

القسم الثاني: معاجم الألفاظ:

هي تلك المعاجم التي يهدف أصحابها أو مؤلفوها إلى جمع الألفاظ بصورة عامة، وترتيبها ترتيبًا معينًا، وتعريفها وشرحها، دون النظر إلى وحدتها الموضوعية أو الدلالية، ومن ثم فإنك ترى المجموعة اللفظية فيها متناثرة لفظًا من هنا ولفظًا من هناك.

إن الذي يهم مؤلف مثل تلك المعاجم هو جمع الألفاظ المتماثلة صوتيًّا أو هجائيًّا في مكان واحد، مع وضع سمة لكل مجموعة منها وترتيب يهتدي به الباحث إلى ما يريده فيها.

ويلاحظ أن بعض هذه المعاجم قد اتخذ المادة الصوتية أساسًا له في عملية الجمع والترتيب، مع مراعاة الجذور المختلفة والأصول التي تأتي من هذه المادة، فهو لا

ينظر إلى الكلمة أو المفردة في صورتها التي هي عليها، وإنما ينظر إليها نظرة تجردها من كل زيادة على مادتها الأصلية، ومن كل تغير أو تصرف حدث في تلك المادة، فإذا ما ظهرت له تلك المادة اللغوية المجردة، فإنه يجعلها أساسًا يجمع فيه كل مفردة تنتمي إلى تلك المادة، وقد لا يكتفي بعضها بهذا، بل يعتمد على التقديم أو التأخير في المادة الصوتية، وهذا ما يسمى بفكرة التقليب، حتى يحصل منها على أقصى ما يمكن من مواد أخرى أو تقليبات يجعلها أساسًا جديدًا في معجمه.

٢- أشهرُ مدارسها:

أ- مدرسة معاجم الترتيب الصوتيِّ:

تتمثل في المعاجم الآتية: (العين) للخليل بن أحمد، (البارع) لأبي علي القالي (تهذيب اللغة) لأبي منصور الأزهري، (المحيط) للصاحب بن عباد، (المحكم) لأبي علي إسماعيل بن سيده، وقد سميت بمدرسة التقليبات الصوتية.

ب- مدرسة التقليبات الهجائية:

اختار أبو بكر بن دريد لمعجمه الشهير (الجمهرة في اللغة) الترتيب الألفبائي المنسوب إلى نصر بن عاصم، وقسَّم كتابه على أساس الأبنية، وليس على أساس الحروف، كما كان في المعاجم السابقة، وذلك مع مراعاة التقليبات، وقد انفرد ابن دريد بهذا النظام، واختلف به عن المعاجم السابقة، حتى عُد رأس مدرسة بذاتها.

جـ- مدرسة القافية أو التقفية:

رأى بعض اللغويين أن هناك حاجة إلى تنظيم آخر للمعاجم اللفظية يعتمد على ترتيب المواد اللغوية تبعًا لحرفها الأخير، مع مراعاة الحرف الأول وما يليه أيضًا في

ترتيب جذور المادة اللغوية، ويمثل هذه المدرسة: (الصحاح) للجوهري، (العباب الزاخر واللباب الفاخر) للصاغاني، و(لسان العرب) لابن منظور، و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي، و(تاج العروس) للزبيدي، و(معيار اللغة) لميرزا محمد علي الشيرازي.

د. مدرسة معاجم الألفبائية العادية:

رأينا أن بعض المعجميين نظروا في ترتيبه بألفاظ العربية إلى الحرف الأول في المادة مع مراعاة ما يليه من حرف أو أكثر، وقد ظهرت بعض معالم هذا الترتيب عند متقدمي اللغويين مثل الشيباني أبي عمر في كتابه (الجيم)، وينتمي إلى هذه المدرسة أيضًا: (أساس البلاغة) للزمخشري، و(المصباح المنير) للفيومي، و(مختار الصحاح) في ترتيبه الأخير، وجهود مجمع اللغة العربية في القاهرة مثل (المعجم الوسيط والكبير والوجيز) وكذا (محيط المحيط) لبطرس البستاني.

هذه أربع مدارس، وهنالك مَن يرى أن المدارس خمسة لا أربعة: مدرسة التقليبات الصوتية، والتقليبات الأبجدية العادية، ومدرسة القافية، والمدرسة الأبجدية العادية، ثم يضم إليها مدرسة الأبنية لتضم ديوان الأدب للفارابي، المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة، وتضم أيضًا (شمس العلوم) لنشوان الحميري، المتوفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

ورأى بعض العلماء أن يسمي معاجم المعاني والموضوعات بالمعاجم المبوبة، ورأى أن يسمي أيضًا المعاجم الأخرى التي تنتمي إليها المدارس السالفة الذكر، رأى أن يسميها معاجم مجنسة، فالمعجم المجنس هو المعجم الذي يتناول اللفظ من النواحي المختلفة: ضبط وتوضيح الأصل والاشتقاق وشرح المدلول، هذا المعجم المجنس مرتب ترتيبًا أبجديًّا صوتيًّا أو عاديًّا.

إذًا معاجم الألفاظ تسمى بالمعاجم المجنسة، ويحتاج إليها من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على مدلوله، وأول معجم شامل من هذا القسم هو معجم (العين).

أما المعجم المبوب فيتناول المعنى -كما قلت- من حيث الوقوف على الألفاظ الموضوعة له وترتيبه وفق المعاني والأبواب، ويسمى معجم المعاني أو معجم الموضوعات، ومن أشهر ما ألف في هذا القسم كتاب (الألفاظ) لابن السكيت، و(الألفاظ الكتابية) للهمذاني، و(مبادئ اللغة) للإسكافي، و(فقه اللغة) للثعالبي، و(المخصص) لابن سيده.

دراسة في بعض معاجم الموضوعات:
(الغريب المصنَّف)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الانتماء المعجمي لـ (الغريب المصنَّف)	٩٣
العنصر الثاني :	مؤلف (الغريب المصنف)	٩٣
العنصر الثالث :	منهج (الغريب المصنف)	٩٦
العنصر الرابع :	أثر (الغريب المصنف) فيمن بعده	١٠٩

الانتماء المعجمي لـ(الغريب المصنف)

إن هذا الغريب الموسوم بالمصنَّف ينتمي إلى معاجم المعاني المسماة بالمعاجم الموضوعية، حيث ترتب موضوعاتها وفق المعاني، شأنها في ذلك شأن كل الرسائل والكتب اللغوية الصغيرة التي اتخذت المعاني وسيلة في ذكر الكلمات، وذلك بعقد أبواب وفصول وأحيانًا تأتي الأبواب تحت كتب للمسميات التي تتشابه في المعنى أو تتقارب، ولا يخفى عليك أن هذا النوع من التأليف المعجمي المنتمي إلى تلك المدارس المعنوية أو الموضوعية أنها تسمى أيضًا بالمعاجم المبوبة بخلاف الأخرى، التي تتخذ الحروف ترتيبًا لها إما ترتيبًا صوتيًّا أو ترتيبًا هجائيًّا، فإنها تسمى بمعاجم الألفاظ أو بالمعاجم المجنسة.

ورائد معاجم المعاني هو شيخنا أبو عبيد القاسم بن سلام، فمن هو؟

مؤلِّف (الغريب المصنف)

أبو عبيد، هو: الإمام القاسم بن سلام الفقيه اللغوي المحدث، إمام عصره في كل فن وعلم - كما تقول كتب المعاجم التي ترجمت له، ومنها معجم الأدباء، وقد ذكر من ترجم له: أن أباه كان عبدًا روميًّا لرجل من أهل هراة، وأن هذا الأب كان مولى قبيلة الأزد، ومن ثم فقد نسب أبو عبيد إلى هراة، فقيل عنه: الهروي كما نسب إلى الأزد فأطلق عليه الأزدي، وقد يطلق عليه أحيانًا نسبة التركي أو الخراساني أو البغدادي، وقد وصفه بعضهم بالجمحي، وظن أنه كان أخًا لمحمد بن سلام الجمحي صاحب (طبقات الشعراء)، وهذا خطأ تنبه إليه بعض السابقين، ومع ذلك فإن كثيرين قد وقعوا فيه.

ولم يذكر لنا التاريخ شيئًا ذا بال عن والده، فلم نعرف عنه أكثر من أنه كان عبدًا روميًّا نال حريته وعمل حمالًا وصار مولى لقبيلة الأزد، وأنه كان محبًّا للعلم والعلماء، فقد أوصى شيخ الكتاب بابنه عندما ذهب إليه قائلًا بلكنته الرومية: علم القاسم فإنها كيِّسة. وكان أبو عبيد قد ولد بمدينة هراة تلك المدينة القديمة، التي بناها الإسكندر المقدوني على نهر أريوس، وفتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب > ، وخربها التتار في سنة ثماني عشرة وستمائة.

وقد ذكر ابن الجوزي أن أبا عبيد وُلِدَ في سنة خمسين ومائة من الهجرة، وذكر أبو بكر الزبيدي أن ولادته كانت في سنة أربع وخمسين ومائة من الهجرة، وقد تعلم القاسم كما يتعلم أبناء عصره، فذهب به والده إلى المكتب فحفظ القرآن الكريم، ونال من المعارف اللغوية والفقهية ما هيأه له ذلك المكتب، ولكنه لم يكتفِ بذلك، فقد خرج إلى لقاء العلماء والفقهاء واللغويين والمحدثين وغيرهم، وأخذ عن أئمة عصره في كل فن وعلم، فقد أخذ الفقه والحديث عن الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، وسمع من إسماعيل بن جعفر ومن ابن عياش وغيرهما، وأخذ القراءات عرضًا وسماعًا عن علي بن حمزة الكسائي، ويحيى بن آدم وشجاع بن أبي نصر وغيرهم.

أما اللغة فقد سمع من أعلام عصره فيها كأبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة واليزيدي وغيرهم من البصريين، كما أخذ عن ابن الأعرابي وأبي زياد الكلابي والأموي وأبي عمرو الشَّيباني والكسائي والأحمر والفراء، وغيرهم من أعلام الكوفة وشيوخها العظام، وقد توفر لأبي عبيد بذلك من العلم والثقافة ما جعل أئمة العلوم الإسلامية والعربية يثنون عليه الثناء المستطاب، فما من ترجمة تقرؤها له إلا تشعر من كاتبها التقدير والتبجيل لذلك الإمام المتعدد الجوانب.

فهو الإمام المجتهد في الفقه، الذي يناظر الشافعي فيرجع الشافعي أحيانًا إلى قوله، وهو الذي يحيل إليه ابن حنبل بعض المستفتين له، هذا ما يتصل بالفقه.

أما ما يتصل بالحديث وعلمه، فهو الحافظ الكبير، والمؤلف الأول ليس في الحديث فقط، ولكن في القراءات وفي غيرها، فهو المؤلف الأول في علم القراءات، والعالم الفذ في علم اللغة والغريب والأدب والتاريخ والكلام، إنه كما يقول ياقوت: إمام أهل عصره في كل فن وعلم.

وقد أهدى هذا العالم إلى المكتبة العربية والإسلامية مؤلفات كثيرة قال عنها الجاحظ وهو يتحدث عن أبي عبيد: وكان مؤدبًا لم يكتب الناس أصح من كتبه ولا أكثر فائدة. وقد ذكر صاحب (الفهرست) وهو ابن النديم من هذه الكتب عشرين كتابًا في اللغة والشعر والقراءات والفقه والحديث والأمثال وفضائل القرآن وغيرها، كما ذكر غيره كتبًا أخرى لهذا العالم النحرير في الفنون السابقة وغيرها.

ولكن المؤسف أن أكثر هذه الكتب ما يزال بعيدًا عن أيدي العلماء، إما بسبب الضياع، وإما بسبب الإهمال وعدم العناية، ويكفي أنه لم يطبع من مؤلفات هذا الحبر الجليل سوى عدد محدود من الكتب، منها كتاب (فضائل القرآن) وكتاب (الأجناس) وكتاب (الأموال)، حتى كتاب (الغريب المصنف) لم يطبع كاملًا، وإنما طبع جزء منه بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب. كما طبع من كتبه كتاب (غريب الحديث).

وقد أخذ عن شيخنا كثير من أعلام العلماء، أخذ كتبه وسائر علمه منهم: أحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي الدنيا، والبخاري، وأبو داود والترمذي وعلي بن

عبد العزيز، وثابت بن أبي ثابت وأبو موسى هارون بن الحارث والطوسي وغيرهم.

يقول ابن خلكان عن أبي عبيد: كان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن وفضل بارع، توفي أبو عبيد بمكة المكرمة في سنة أربع وعشرين ومائتين كما ذكر الزبيدي، ويقول ابن خلكان: إنه توفي بمكة أو المدينة بعد أن حج في سنة اثنتين وعشرين ومائتين للهجرة، أو سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة.

رحم الله أبا عبيد الذي كان فاضلًا في دينه وعلمه وبيانه، متفننًا في أصناف علوم الإسلام، وقد ترجم له في عصرنا الحديث الأستاذ الدكتور عبد الله ربيع محمود -رحمه الله- ترجم لشيخنا أبي عبيد في العدد الأول من مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور، سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد، تحت عنوان "أبي عبيد القاسم بن سلام ثقافته العلمية وآثاره".

منهج (الغريب المصنف)

قبل الدخول في المنهج الذي اتخذه أبو عبيد في غريبه، أحب أن أشير إلى أن هذا الكتاب أطلقت عليه عدة أسماء، فقد سماه بعضهم (المصنف)، وهو اسم أطلق على بعض مؤلفات الحديث الشريف، وأطلق عليه الأزهري تسمية (المؤلف)، وقد انفرد فيما نعلم بهذا الإطلاق، وقد سماه بعض العلماء بـ(مصنف الغريب) وآخرون يقلبون تلك التسمية، ويطلقون عليه (غريب المصنف).

أما تسميته بـ(الغريب المصنف) فهي التسمية المشهورة بين العلماء والدارسين، وقد علل بعض الباحثين تلك التسمية، فذكر أنها جاءت من أن هذه الكتب التي تسمى بالغريب المصنف قد جمعت بين دفتيها ألوانًا مختلفة من الألفاظ الغريبة،

وقد صنفتها تصنيفًا حسنًا، وجعلت كل صنف يُعنى بموضوع واحد؛ لأن الكتب أو الرسائل اللغوية على الأصح التي سبقت الغريب المصنف كانت كل رسالة منها تُعنى بموضوع واحد، فهذه للخيل وتلك للنبات وغيرهما للأنواء، فجمع الغريب المصنف كل أنواع الغريب السابقة وغيرها في كتاب واحد ومصنف جامع.

وقد سبق أبا عبيد إلى هذه التسمية بعض المؤلفين مثل: القاسم بن معن الكوفي، وابن عمرو الشَّيباني وغيرهم، ومن الواضح أنه يقصد بتلك التسمية لغويًّا: الكلام الغامض البعيد عن الفهم الذي جعل أصنافًا، وميز بعضه عن بعض. وقد ظهرت تلك الغرابة بعد انتشار الإسلام بين الأعاجم، واختلاطهم بالعرب وفشو اللحن، وقلة استعمال اللغة الفصيحة التي صارت مفرداتها -أو كثير منها. بعيدًا عن الأذهان، نادرًا في الألسنة والسماع، حتى احتيج إلى جمعه وتفسيره فيما اصطلح على تسميته بكتب الغريب، التي منها هذا الكتاب.

وهذا الكتاب يعد أقدم ما وصل إلينا من الكتب ذات الموضوعات المتعددة، وتوجد نسخة منه بمخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم مائة وواحد وعشرين لغة، وهي مصورة عن النسخة الأصلية الموجودة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، كما توجد نسخة ثانية بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا، ونسخة ثالثة بمكتبة مدرسة المحمودية بالمدينة المنورة، وهذه النسخ الثلاث توجد لها مصورات بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

وقد ذكر بعض المحققين أنه توجد نسخة أخرى لهذا الكتاب بإسطنبول تحت رقم أربعة آلاف وسبعمائة وستة، ونسخة أخرى بتونس تحت رقم ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسع وثلاثين، وقد نسخت سنة أربعمائة من الهجرة، وفي الآونة

الأخيرة قام الدكتور رمضان عبد التواب بالإقدام على تحقيق هذا الكتاب، لكنه لم يصدر منه -حسب علمنا. إلا جزءًا واحدًا، وقد توفاه الله ولم يخرج الكتاب كاملًا.

وإنا نعتمد في وصفنا لهذا الكتاب على نسخة مخطوطة مصورة عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وغلافها كتب عليه رقم ثلاثة عشر، كما كتب عليه نمرة مائة وسبعة وعشرين، كما كتب عليه نمرة أخرى ثمانمائة وثمانين، فلا ندري أي هذه الأرقام هو المعتمد، لكنها على أية حال نسخة كاملة واضحة، ذات خط جيد مقروء.

ويلزم أيضًا أن أعطيك معلومات عن مدة تأليف هذا الغريب وكيفيته، يذكر أبو عبيد أنه مكث في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة يتلقف ما فيه من أفواه الرجال، فإذا سمع حرفًا عرف له موقعًا من الكتاب بات تلك الليلة فرحًا، وقد أثر عنه أنه قال: أحدكم يستكثر أن يسمعه مني في سبعة أشهر؟ يفهم من هذه العبارة أن الرجل قد بدأ تأليف هذا الكتاب منذ وقت مبكر من حياته، وأنه قضى في تأليفه مدة طويلة، تذكرنا بما نسمع عنه من اشتغال بعض العلماء بموضوع واحد لفترة طويلة من عمره، كما يفهم من ذلك أيضًا أنه قام أولًا بتبويب الكتاب، ورسم الخطة المناسبة له والنظام المتبع فيه، وذلك قبل أن يحشوه بتلك الألفاظ اللغوية الغريبة، التي قام بجمعها من أفواه العلماء عبر ذلك الزمن الطويل.

استمع إليه وهو يقول: فإذا سمعت حرفًا عرفت له موقعًا من الكتاب؛ بت تلك الليلة فرحًا. وهذه خطة فريدة وطريقة واعية تدل على منطق سليم ومنهج واضح في الدرس والتأليف.

مصادر الكتاب ومراجعه:

ذكر أبو عبيد أنه أخذ هذا الكتاب من أفواه الرجال. والحق أن المتصفح له يحس من أول وهلة أن الرجل كان أمينًا غاية الأمانة، حيث نرى أنه لم يذكر لفظًا أو تعريفًا أو شاهدًا إلا نسبه إلى قائله أو راويه، فإذا أصابه ما يصيب البشر من الشك أو النسيان -كما يقول الدكتور عبد الله ربيع، رحمه الله- فإنه يذكر ذلك دونما حرج، وقد تميز أسلوب أبي عبيد بإسناد كل قول ونسبته إلى صاحبه، وكان هذا أكبر معين لمن أراد معرفة مصادر أو مراجع أبي عبيد في هذا الكتاب.

ونرى على رأسها الأصمعي؛ حيث يمثِّل المصدر الأول لكل ما جاء في هذا الكتاب، وتتوالى بعده أسماء علماء البصرة والكوفة، وفصحاء البدو من الأعراب. وفي ذكر أسماء هؤلاء ما يدل على أن أخذه منهم كان على صورة السماع والمشافهة، وليس نقلًا من كتب، أو رسائل لغوية منسوبة إليهم -كما زعم بعضهم- وصرح هو بخلافه في قوله السابق، وعبارته التي يؤكد صدقها ما عرف عنه من إخلاص للعلم، وخشية لله.

ومما يؤيِّد هذا أن أبا عبيد لو كان يأخذ من الكتب والرسائل ما قضى كل هذا الزمن الطويل في تأليفه، وهو المعروف بحسن التصنيف، وكثرة التأليف. ولو أنه فعلها ما أغفلها أكثر المؤرخين له، وما أهملها علماء اللغة الذين أثنوا عليه، وانتفعوا بكتبه. ورتَّب الدكتور عبد الله ربيع العلماء الذين أفاد منهم شيخنا أبو عبيد تبعًا لتكرار ذكرهم في (الغريب المصنف) على النحو الآتي:

أولًا: الأصمعي على رأس من أفاد منه، وأخذ عنه شيخنا الجليل أبو عبيد.

ثانيًا: أبو زيد.

ثالثًا: الكسائي.

رابعًا: أبو عمرو الشَّيباني.

خامسًا: الفراء.

سادسًا: أبو محمد الأموي.

سابعًا: أبو عبيدة.

ثامنًا: الأحمر.

تاسعًا: الترمذي.

ثم تأتي بعد ذلك طائفة من الأعراب نذكر منهم: أبو الجراح العقيلي، وأبو زياد الكلابي، وأبو الحسن الأعرابي... وغيرهم.

أما تقسيم الكتاب وتبويبه:

فقد قسم أبو عبيد كتابه تبعًا للموضوعات والمعاني التي يعالجها، ويذكر ألفاظ اللغة المستعملة فيها، وقد جعل لكل موضوع قسمًا، أطلق عليه مصطلح الكتاب، ثم جعل لكل فرع من فروع ذلك الموضوع قسمًا أصغر سماه بالباب.

قد تلاحظ بعض الاضطراب في الكتب، والأبواب، وعدم الاضطراب في عملية التقسيم إن رأيت مخطوطة أخرى لهذا الغريب، لكننا نعتمد على المخطوطة المصورة من مخطوطات الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومن المعلوم أن هذا المنهج في تقسيم المعاجم وتبويبها قد كان قديمًا، ولكننا لا نستطيع القول: بأن أبا عبيد كان مقلدًا للمعجميين الهنود، أو الرومان، ولا

يمكن القول بأن العرب قد تأثَّروا بمناهج هؤلاء في مؤلفاتهم التي اتبعت هذه الطريقة ؛ ذلك أن تلك الطريقة تُعَدُّ تطورًا طبيعيًّا للحركة المعجمية في العربية ، التي بدأت -كما هو معروف- بتدوين كتب أو رسائل صغيرة ، يختص كل كتاب منها بموضوع واحد. وقد سقت -فيما مضى- أمثلة لهؤلاء العلماء أصحاب هذه الرسائل ؛ فالأصمعي عبد الملك بن قريب ألف في الإبل ، وألف في الخيل ، وألف في الشاء ، وألف في الوحوش ، وألف في خلق الإنسان ، وألف في النبات والشجر ، وألف في الفرق ، وألف في الأضداد. هذه مؤلفات كلها عبارة عن رسائل صغيرة ، كذلك صنع أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس : ألف رسالة في المطر ، وأخرى في اللبا واللبن ، وثالثة في الهمز ، ورابعة في النوادر ، وهكذا. وأذكرك أيضًا بالفراء أبي زكريا يحيى بن زياد ألف في الأيام والليالي والشهور ، ألف في المنقوص والممدود ، ألف في المذكر والمؤنث ، وغير هؤلاء كثير.

وهكذا تُجْمَع كل طائفة من ألفاظ اللغة تحت العنوان الذي يجمعها في صورة كتاب ، أو رسالة صغيرة يحفظها اللغويون ، ويتدارسونها فيما بينهم ، ولا يكون مستغربًا بعد ذلك أن تنتقل تلك الحركة المحدودة ، أو الصغيرة إلى مرحلة أوسع وأشمل ؛ فتخرج إلى عالم التأليف تلك المجاميع ، أو المؤلفات اللغوية التي تجمع أشتات ما في تلك الكتب الصغيرة ، والرسائل بين يدي كتاب واحد مقسم إلى أقسام ، أو كتب وأبواب ؛ تبعًا لتلك الموضوعات الكثيرة التي يجمعها ، ومن هذه المجاميع (الغريب المصنف) لأبي عبيد.

ولم يقدم أبو عبيد لكتابه بمقدمة تُبَيِّن منهجه ، أو المصادر التي استخدمها في كتابه ، شأنه في ذلك شأن الكتب المؤلفة في هذه العصور القديمة. وينقسم الغريب المصنف إلى خمسة وعشرين كتابًا ، بعضهم رآها ثلاثين ، قد يكون قد اعتمد في

هذا على نسخة أخرى غير النسخة الأخرى التي بين أيدينا، ويحتوي كل كتاب منها على عدَّة أبواب، يبلغ عددها تسعمائة باب، تختلف طولًا وقصرًا؛ بعضهم رآها ألف باب، وكما قلت: قد تكون النسخة التي بين أيدينا مختلفة عن نسخ أخرى، وقد استغرق أطولها سبع صفحات، وأقصرها سطرًا أو نصف سطر.

الكتب التي حواها (الغريب المصنَّف):

الأول: كتاب خلق الإنسان.

الثاني: كتاب النساء.

الثالث: كتاب اللباس.

الرابع: كتاب الأطعمة.

الخامس: كتاب الأمراض.

السادس: كتاب الدور والأرضين.

السابع: كتاب الخيل.

الثامن: كتاب السلاح.

التاسع: كتاب الطيور والهوام.

العاشر: كتاب الأواني والقدور.

الحادي عشر: كتاب الجبال.

الثاني عشر: كتاب الشجر والنبات.

الثالث عشر: كتاب المياه.

الرابع عشر: كتاب النخل.

الخامس عشر: كتاب السحاب والأمطار.

السادس عشر: كتاب الأزمنة والرياح.

السابع عشر: كتاب أمثلة الأسماء.

الثامن عشر: كتاب أمثلة الأفعال.

التاسع عشر: كتاب الأضداد.

العشرون: كتاب الأسماء المختلفة للشيء الواحد.

الحادي والعشرون: كتاب الإبل.

الثاني والعشرون: كتاب الغنم.

الثالث والعشرون: كتاب الوحش.

الرابع والعشرون: كتاب السباع.

الخامس والعشرون: كتاب الأجناس.

أما الأبواب:

فقد ذكر بعضهم أنها بلغت فيه ألف باب، ولكنني -كما ذكرت- فقد اشتملت النسخة التي بين يدي على ما يقرب من تسعمائة باب؛ بينما تناقل كثير من العلماء القدماء منهم والمحدثين أن أبواب الغريب قد بلغت ألف باب. والمفروض أن كل كتاب يشتمل على باب أو أكثر، تبعًا لما يدخل تحت موضوعه من موضوعات صغيرة، أو جزئيات تتصل به؛ فقد اشتمل كتاب خلق الإنسان -مثلًا- على حوالي خمسة وخمسين بابًا، مثل: باب نعوت خلق الإنسان. وباب نعوت دمع العين، وقوتها وضعفها، وباب أسماء النفس، وباب الطوال من

الناس، وباب القصار من الناس، وباب الأصوات واختلافها، وباب أصوات كلام الناس وحركتهم، وباب الألسنة والكلام، وباب الأخلاق، إلى آخره.

وتحت كل باب تذكر الألفاظ الغريبة المتعلقة به، أو مشروحةً، موضحة المعنى مع الاستشهاد على استعمالاتها بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، وأقوال العرب، وأمثالهم، مع ملاحظة عزو كل رواية، أو قول إلى صاحبه.

لقد بدأ أبو عبيد كتابه بعد البسملة بباب تسمية خلق الإنسان ونعوته، قال أبو عبيد: "سمعت أبا عمرو الشيباني يقول: الأُنُوفُ يقال لها: المَخَاطِن واحدها مَخْطِن قال: والبَوَادر من الإنسان وغيره: اللحمة التي بين المنكب والعنق، وأنشدنا لخراشة بن عمرو:

وجاءت الخيل محمرًا بوادرها ❖ ....

والمَرَادِغُ ما بين العنق إلى التَّرْقُوَة واحدها مردغة، الفراء مثله قال: وكذلك البأدلة، وجمعها بآدل، وأنشدنا للعجير السلولي:

.... ❖ ولا رهل لباته وبآدله

قال أبو عبيدة: البآدل لحم الصدر، واحدها بأدل، قال أبو عمرو، ولم يرو أبو عبيد تمت، قال أبو عمرو: في البآدل مثله، واحدها بأدل.

قال الأصمعي: الكتد ما بين الكاهل إلى الظهر، والشجر ما بين اللحيين، قوله: "ما بين اللحيين" يعني بذلك مُلْتَقَاهُمَا في وسط الذقن من أسفله إلى آخره".

وقد تبيَّن لنا من الموازنة بين (الغريب المصنف)، وتلك الرسائل التي خلَّفها الأصمعي، وغيره: أن اعتماد أبي عبيد كان على أصحاب الرسائل مشافهة وسماعًا، لا نقلًا أو أخذًا من صحف، أو كتب.

وأسوق ما يلي نماذج من (الغريب المصنف)؛ مقارنة بما كتبه الأصمعي في رسائله، ليتضح ما قلته: إن أبا عبيد كان يأخذ من هؤلاء العلماء بالمشافهة والسماع، لا نقلًا من صحفهم أو كتبهم، وأقرأ نموذجًا من كتاب (النبات والشجر) لأبي سعيد الأصمعي، وقد نشره الدكتور "أوغست هفنر" أستاذ العربية في كلية نسبروه، والأب لويس شيخو اليسوعي، مدرس الآداب العربية في المكتب الشرقي؛ حيث جاء كتاب النبات والشجر للأصمعي مطبوعًا ضمن عشرة كتب سمَّاها الدكتور "أوغست هفنر" "مقالات لغوية"، طبعها تحت عنوان (البلغة في شذور اللغة)، وهي عشر مقالات لغوية لأئمة كتبة العرب، ظهر معظمها في مجلة المشرق -كما يقول-، وألحقت بالفهارس على طريقة حروف المعجم.

وقد طبعت (البلغة) بمقالاتها العشر في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت، سنة ثمان وتسعمائة وألف من الميلاد.

وهذه (البلغة) قد تضمَّنت:

أولًا: كتاب (الدارات) للأصمعي، نشره الدكتور أوغست هفنر.

ثانيًا: كتاب (النبات والشجر) للأصمعي، نشره الدكتور أوغست هفنر أيضًا.

ثالثًا: كتاب (النخل والكرم) للأصمعي، نشره الدكتور أوغست هفنر.

رابعًا: كتاب (المطر) لأبي زيد، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي.

خامسًا: كتاب (المنزل) لابن قتيبة، نشره الأب أيضًا لويس شيخو اليسوعي.

سادسًا: كتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد، أيضًا نشره لويس شيخو اليسوعي.

سابعًا: (رسالة في المؤنثات السماعية) نشره الأب لويس شيخو اليسوعي.

ثامنًا: (رسالة في الحروف العربية) نشره الأب لويس شيخو اليسوعي، و(شرح مثلثات قطرب) نشره الأب لويس شيخو اليسوعي.

وظهرت هذه المقالات تحت عنوان (البلغة في شذور اللغة) كما قلت: بنشر الدكتور أوجست والأب لويس.

يقول الأصمعي في فصل: فيما ينبت في السهل في كتابه (النبات والشجر): "ومما ينبت في السهل العرفج، والغضر واحدتها الغضرة، والنعض واحدته نعضة، والأفاني واحدته أفانية، والسُّطَاحُ واحدته السُّطَّاحَة، والفنى وهو عنب الثعلب، والحلمة فإذا يبست فهي الحماطة، والراء واحدته راءة ولها ثمرة بيضاء، والشبرم، والسرح، والعرار وهو بُهار البر، وأنشد:

بيضاء ضحوها وصف ❖ راء العشية كالعرارة

قال أبو عمرو بن العلاء: أحسن بيت وصف به الألوان هذا البيت، والجفجاس وهو شبيه بالقيصوم، والمكر، والسكب، والقَرْنُوَةُ، والحُلَّبُ، والخِلْبَاب، والزنمة، والشُّكَاعَى، والزباد، والثداء، والضغابيس، وهو نبت ضعيف يشبَّه به الضعيف من الرجال، يقال: رجل ضغبوس ورجال ضغابيس، والثغارير، والصبغاء: بقلة بيضاء الثمر، والحصاد نبت، والجدر واليفاء مثل النقع، ومن النبت الثمام والواحدة ثمامة، وأهل نجد يسمُّونه الجليل الواحدة جليلة، قال الشاعر:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ❖ بوادٍ وحولي إذخر وجليل

قال أبو بكر: أهل العالية يُسمُّون السُّمَامَى الشبهان، ومنه الضعة، والغرف، والضَّهْيَأُ واحدتها ضَهْيَأة، ومما ينبت بالحجاز الأرنبة، والقرملة وهي شجرة ضعيفة كثيرة الماء، تنفتح إذا وطئت، قال أبو النجم:

يخضن ملّاحًا كذاوي القَرْمَل

وروى أبو بكر: يخبطن، ومثل من الأمثال: ذليل عاذ بقرملة، والوشيج نبت على وجه الأرض له أغصان، وورق لطيف. والعيشوم نبات إذا يبس كان له في الريح صوت". انتهى كلام الأصمعي في هذا الفصل.

عندما نقارن ما ذكره الأصمعي بما ذكره أبو عبيد في باب ما ينبت منها في السهل نراه يقول: "الأصمعي من نبات السهل الرمث، والقدة، والعرفج، والنُّقْد، والشُّقَّارى، والحتراب: وهو جزر البر، والأفاني، والسُّطَّاحة، والغبراء، والطحناء، والدرماء، والحرساء، والصفراء، والكرش، والحلمة، والينمة، والراء واحدتها راءة، والشبرم، والسرح، والنَّفَل، والحسك، والسعدان، والجرجار، والعرار: وهو بهار البر، والجثجاث، والقيثوم، والسكب، والحُلَّب، والحلباب، والزنمة، والخزامى، والأقحوان، والحنوة، والزباد، والبهم. هذا ما نقله عن الأصمعي.

عندما نقارن النصين: نص الأصمعي في كتابه (كتاب النبات والشجر) بما ذكره أبو عبيد، ونقلناه عنه آنفًا؛ نراه لا ينقل من كتابه ممَّا يدل على أن معلوماته كان يأخذها مشافهةً، وكان ينقلها سماعًا؛ فالرمث ذكره أبو عبيدة عن الأصمعي، والأصمعي لم يذكره في كتابه، وكذلك القدة، وكذلك النقد، وكذلك الشقارى، وكذلك الحتراب، وكذلك السطاحة، وكذلك الطمحاء، والدرماء، والصفراء، والكرش، والحلمة، والينمة، والخزامى، كل هذه لم يذكرها الأصمعي في كتابه.

فما معنى أن ينقل أبو عبيد عن الأصمعي وهذه غير موجودة في كتابه؛ إنه أخذها مشافهة، وأذكر نموذجًا آخر ليتأكد ما قلناه آنفًا:

يقول أبو عبيد في باب أمراض الغنم الأصمعي: "وقع في الشاء نزاء، ونقاز، وهما جميعًا داءان يأخذها، فتنزو منه، وتنقذ حتى تموت، وأخذها النفاض، وهو أن يأخذها داء فتنفض بأبوالها، أي: تدفعها دفعًا حتى تموت". انتهى ما نقله عن الأصمعي، ثم يأخذ من الكسائي، ومن غيره.

وعندما نقارن ما أخذه عن الأصمعي بما ذكره الأصمعي نفسه في رسالة له بعنوان (الشاء)، وقد حقَّق رسالة (الشاء) بجانب رسالة أخرى هي (الفرق)، حقق الرسالتين الدكتور صبحي التميمي، ونشرهما سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة، الموافق لسنة ألف وتسعمائة واثنتين وتسعين للميلاد، لم يذكر الأصمعي ممَّا ذكره ابن سيده إلا النقاز؛ حيث قال: "والنقاز داء يأخذ الشاء، فبينا الشاة قائمة إذ وقعت فماتت، وقال: والنفاص وهو داء يأخذ الغنم فتنفص إحداهن ببولها، ثم تموت". والملاحظ أن المخطوط فيه النفاض بالضاد، بينما الموجود في رسالة الأصمعي المحقَّقة -كما قلت من قبل الدكتور التميمي- النفاص بالصاد، إذًا ذَكَرَ النقاز، وذكر النفاص. أما النزاء فلم أره فيما ذكره الأصمعي، ما معنى ذلك؟

معنى ذلك أنه لم ينقل من الرسالة نفسها، أو من الكتاب نفسه، وإنما كان يأخذ معلوماته بالسماع والمشافهة.

خصائصُ كتاب (الغريب المصنف):

أولًا: أنه جمع أشتاتًا من الأبواب والموضوعات المختلفة.

ثانيًا: أن صاحبه نسب ما جمعه إلى أصحابه من اللغويين الأوائل، وجُمَّاع اللغة من أمثال الأصمعي، والكسائي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عمرو الشَّيباني،

والفراء، وغيرهم، وبذلك أصبح الكتاب موثقًا وغاصًّا بأسماء روّاد جمع اللغة الأوائل.

ثالثًا: أن صاحبه استشهد بما تيسر له الاستشهاد به من صحيح أقوال العرب وأشعارهم.

رابعًا: اهتم بإيراد الغريب من الألفاظ العربية مع عنايته بتوضيحها، والتعريف بها، بل وحرص على ضبط ما يلتبس ضبطه.

خامسًا: أن صاحبه لم يرتِّب أبوابه أو ألفاظه أيّ ترتيب معجمي الوصول إليه الوصول إلى مبتغاه منه ممَّا جعل الاستفادة منه عسيرة، ولكن عُذْرَه في ذلك أنه لم يقصد منه أن يكون معجم ألفاظ، بل كان قصده منه أن يكون معجم موضوعات. ويكفي هذا الكتاب شرفًا وفخرًا أنه نقل إلينا صورة دقيقة، وأمينة للألفاظ والمعاني العربية القديمة، تلك التي كان يمكن أن تضيع في رحلة الزمان لولا حفظها أبو عبيد في هذا الكتاب، الذي حوى في باطنه كثيرًا من الكتب والموضوعات.

أثر (الغريب المصنف) فيمن بعده

لقد عني الناس عناية كبرى بهذا الكتاب، وعدُّوه أحد أركان كتب اللغة ومعاجمها الأساسية، ورجعوا إليه، واستمدَّ كثيرون منه مواد اللغة في مؤلفاتهم، وقلَّ أن تفتح معجمًا، أو كتابًا لغويًّا دون أن ترى أبا عبيد في صُلبه وأساسه، وقد حفظه بعضهم على نحو ما يروى عن ابن سيده صاحب (المحكم) و(المخصص).

وقد دارت حول هذا الغريب دراسات كثيرة، فقد نقده محمد بن هبيرة الأسدي المعروف بصعوداء، وشرح أبياته أبو محمد يوسف بن الحسن السيرافي المتوفى سنة

خمس وثمانين وثلاثمائة، وشرح الكتاب نفسه أحمد بن محمد المرسي سنة ستين وأربعمائة، واختصره محمد بن رضوان الزاري سنة سبع وخمسين وستمائة.

ويكفي أن تعلم أن (مخصص ابن سيده) قد احتوى كل ما في (غريب أبي عبيد)؛ بحيث يمكن القول: بأن من الممكن أن نستخرج نسخة من (الغريب المصنف) من ثنايا (المخصص). كما نبَّه على أخطائه عليٌّ بن حمزة في كتاب له خصَّصه بهذا الشأن، ولك أن تتصفَّح تلك الكتب التي أتت بعده؛ لترى أنها أفادت منه، ومن ذلك ما صنعه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، المتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة في كتابه (مبادئ اللغة)، تجد أنه ذكر أسماء السماء، والكواكب، والبروج، والأزمنة، والأوقات، والليل، والنهار، وصفة الحر والبرد، والرياح، وأسماء الرعد، والبرق، والمياه، والجبال، والكسوة، والأواني، والحلي، والجواهر، وأحوال النار وأدواتها، والخبز وآلاته، والطبخ، والألبان، والشراب، وآلات البيت، والأدوات، وآلات الكتاب، والسلاح، والجنة، والخيل، وأسماء أعضائها، وألوانها، وعيوبها، وسائر صفاتها. وكل ذلك ذكره أبو عبيد في (الغريب المصنف).

تابع: دراسة في بعض معاجم الموضوعات:
(فقه اللغة)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الانتماء المعجمي لـ (فقه اللغة)	١١٣
العنصر الثاني :	التعريف بالثعالبي	١١٣
العنصر الثالث :	منهج الثعالبي في (فقه اللغة)	١٢١

الانتماء المعجمي لـ(فقه اللغة)

إن (فقه اللغة وسر العربية) ينتمي إلى معاجم المعاني أو الموضوعات المسماة بالمعاجم المبوبة، التي يلجأ إليها المرء ؛ لإيجاد الألفاظ التي تعبر عما يدور في الذهن من خواطر وأفكار، ولا ينتمي إلى هذا النوع الآخر من المعاجم المسماة بالمعاجم اللفظية أو المجنسة، التي يلجأ إليها المرء عندما يخفى عليه المعنى، وأظنك قد أدركت الفرق جيدًا بين هذين النظامين، بين النظام المعجمي المبوب الذي منه كتابنا الآن، ونظام المعجم المجنس.

فالمعجم المبوب مرتب حسب المعاني والأبواب، أما المجنس فهو مرتب حسب الحروف، إما صوتيًّا أو هجائيًّا أو حسب التقفية... إلى آخر ما سنفصله إن شاء الله، والمعجم المبوب يلجأ إليه المرء ؛ لإيجاد الألفاظ التي تعبر عما يدور في ذهنه من خواطر وأفكار.

أما المعجم المجنس فيلجأ إليه المرء عندما يخفى عليه المعنى ويضمر.

المعجم المبوب يقوم على أبسط أنواع الجمع، وهو أمر طبعي دعت إليه الحاجة والخوف من ضياع اللغة، وهو من السهولة بحيث لا يحتاج إلا إلى الحفظ والإلمام بأطراف الموضوع للوقوف على أجزائه ومسمياته.

أما المعجم المجنس فيستدعي إحاطة بالنظام الصوتي أو العادي، وهنا تكمن الصعوبة في الجمع والبحث.

التعريف بالثعالبي

هو: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي النيسابوري، لُقِبَ بالثعالبي ؛ لأنه كان فرّاءً يخيط جلودَ الثعالب ويعملها. ويرى بعض من ترجم له

أن عمل الجلود لم يكن صناعة يعيش عليها ويحيى لأجلها، فقد كان شيخنا يؤدب الصبيان في كتّاب، وكان عمل الجلود من الأعمال التي يعالجها المؤدبون في الكتاتيب، وهم يقومون بالتأديب والتعليم.

وقد عاش الثعالبي بنيسابور، وكان هو ووالد البخارذي صنوين لصيقي جار وقريبي جوار تدور بينهما كتب في الإخوانيات، ونشأ البخارذي في حِجر الثعالبي تأدب بأدبه واهتدى بهديه، وكان له أبًا ثانيًا يحدوه بعطفه ويحنو عليه ويرأف به.

وكان الثعالبي واعية كثير الحفظ، فعُرِفَ بحافظ نيسابور، وأوتي حظًّا في البيان بز فيه أقرانه، فلُقِبَ بجاحظ زمانه، وعاش بنيسابور حجة فيما يروي، ثقة فيما يحدث، مكينًا في عمله، ضليعًا في فنه، فقصد إليه القاصدون، يضربون إليه آباط الإبل، بعد أن سار ذكره في الآفاق سير المثل.

كما يذكر مَن ترجم له ومنهم: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفظ شلبي، الذين حققوا (فقه اللغة وسر العربية) ورتبوه ووضعوا فهارسه، ولعل في الطرفة التي جرت بين شيخنا وبين سهل بن المرزبان ما يعطيك صورة عن الثعالبي شاعرًا قال الثعالبي:

قال لي سهل بن المرزبان يومًا: إن من الشعراء من شلشل، ومنهم من سلسل، ومنهم من قلقل، ومنهم من بلبل. وقبل أن أواصل ما قاله الثعالبي أذكر المراد بمن شلشل، وبمن سلسل، وبمن قلقل، وبمن بلبل:

يريد بمن شلشل الأعشى في قوله:

وقد أروحُ إلى الحانوتِ يتبعني ❖ شاوٍ مِشلٌ شَلولٌ شُلْشُلٌ شولُ

وأراد بمن سلسل مسلم بن الوليد في قوله:

سُلَّتْ وسُلَّتْ ثم سُلَّ سَلِيلُها ❖ فأتى سَلِيلُ سَلِيلِها مسلولا

وأراد بمَن قلقل المتنبي في قوله :

فَقَلْقَلْتُ بِالهَمِّ الَّذي قَلْقَلَ الحَشا ❖ قَلاقِلَ عيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

فقال الثعالبي : إني أخاف أن أكون رابع الشعراء ، يقصد قول الشاعر :

الشُّعراءُ فاعْلَمنَّ أربعةٌ ❖ فَشَاعِرٌ يَجْرِي ولا يُجْرَى معه

وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَرْفَعَه ❖ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَه

وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَه ❖ ....

الثعالبي يخاف أن يكون رابع الشعراء -أي : شاعر من حقه أن تصفعه- ثم قال الثعالبي بعد ذلك بحين :

وإذا البلابلُ أفْصَحَتْ بلغاتِها ❖ فانْفِ البلابلَ باحتساءِ بلابلِ

فكان الثعالبي بهذا رابع فحول ثلاثة لهم القدم الثابتة في الشعر ، أي : الأعشى ومسلم بن الوليد والمتنبي ، وهذا هو المراد بما جاء في صدر المقالة : "ومنهم من بلبل".

أما بالنسبة لمولده فمعظم من ترجموا له ذكروا أنه ولد سنة خمسين وثلاثمائة ، إلا أن الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) ذكر أنه توفِّي سنة ثلاثين وأربعمائة ، وقيل : سنة تسع وعشرين ، وعلى الرأيين قد قضى الثعالبي نحبه في الثمانين من عمره تاركًا ما يربو على الثمانين مؤلفًا.

ومن أشهر كتبه ما يلي :

كتاب (أجناس التجنيس) ، (أحسن المحاسن) وهو كتاب أحسن ما سمعت ، وكتاب (الأحاسن من بدائع البلغاء) ، وكتاب (الآداب) ، وكتاب (إعجاز

الإيجاز)، وكتاب (غرر أخبار ملوك فارس)، وكتاب الأعداد وهو المسمى (ببرد الأكباد في الأعداد)، وكتاب (أفراد المعاني)، وكتاب (الاقتباس)، وكتاب (الأمثال والتشبيهات)، وكتاب (أنس الشعراء)، وكتاب (الأنيس في غزل التجنيس)، وكتاب (بهجة المشتاق)، وكتاب (التجنيس)، وكتاب (تحفة الوزراء)، وكتاب (التحسين والتقبيح)، وكتاب (ترجمة الكاتب في آداب الصاحب)، وكتاب (التفاحة)، وكتاب (تفضل المقتدرين وتنصل المعتذرين)، وكتاب (التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة)، وكتاب (الثلج والمطر)، وكتاب (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) وهو المتشابه لفظًا وخطًّا، وكتاب (جوامع الكلم)، وكتاب (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، وكتاب (حجة العقل)، وكتاب (حلي العقد)، وكتاب (خاص الخاص)، وكتاب (خصائص الفضائل) وديوان أشعاره وكتاب (سجع المنثور)، وكتاب (سحر البلاغة وسر البراعة)، وكتاب (سحر البيان)، وكتاب (سر الأدب في مجاري كلام العرب)، وكتاب (سر البيان)، وكتاب (سر الوزارة)، وكتاب (السياسة)، وكتاب (الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب)، وكتاب (الشمس)، وكتاب (الشوق)، وكتاب (صفة الشعر والنثر)، وكتاب (طبقات الملوك)، وكتاب (الطرائف واللطائف)، وكتاب (عنوان المعارف)، وكتاب (عيون النوادر)، وكتاب (غرر البلاغة في الأعلام)، وكتاب (غرر المضاحك)، وكتاب (الغلمان)، وكتاب (الفرائد والقلائد)، وكتاب (الفصول الفارسية)، وكتاب (الفصول في الفضول)، وكتاب (فقه اللغة وسر العربية) وهو الكتاب الذي بين أيدينا الآن، وكتاب (الكشف والبيان)، وكتاب (الكناية والتعريض)، وكتاب (كنز الكتاب) وهو المنتحل، وكتاب (لطائف الظرفاء)، وكتاب (لطائف المعارف)، وكتاب (اللطيف

الطيب)، وكتاب (الفضة)، وكتاب (ما جرى بين المتنبي وسيف الدولة)، وكتاب (المبهج)، وكتاب (المديح)، وكتاب (مرآة المروءات)، وكتاب (مفتاح الفصاحة)، وكتاب (المقصور والممدود)، وكتاب (مكارم الأخلاق)، وكتاب (المُلح والطرف)، وكتاب (نثر النظم وحل العقد)، وكتاب (نسيم السَّحر)، وكتاب (النهاية في الكناية)، وكتاب (النوادر والبوادر) و(يتيمة الدهر) و(يتيمة اليتيمة)، وكتاب (يواقيت المواقيت) وغير ذلك.

وقد كانت غاية شيخنا من تأليف كتابه نفس الغاية التي يذكرها كل من يتصدى للدرس اللغوي للعربية، وهي خدمة النص القرآني توصلًا إلى فهم أحكامه إذ استمع إليه وهو يقول في مقدمة كتابه (فقه اللغة):

"مَنْ أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسوله محمدًا ﷺ، ومَنْ أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومَنْ أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها وثابر عليها وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمدًا ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب كالينبوع للماء والزند للنار، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان، لكفى بهما فضلًا يحسن فيهما أثره ويطيب في الدارين ثمره، فكيف وأيسر ما خصها الله ﷻ به من ضروب الممادح يكل أقلام الكتبة، ويتعب أنامل الحسبة؟!.

ولما شرفها الله تعالى -عزَّ اسمه- وعظَّمها ورفع خطرها وكرَّمها، وأوحى بها إلى خير خلقه، وجعلها لسان أمينه على وحيه وخلفائه في أرضه، وأراد بقاءها ودوامها حتى تكون في هذه العاجلة لخيار عباده، وفي تلك الآجلة لساكني جنانه ودار ثوابه قيَّد لها حفظة وخزنة من خواصه من خيار الناس وأعيان الفضل وأنجم الأرض؛ تركوا في خدمتها الشهوات وجابوا الفلوات ونادموا لاقتنائها الدفاتر، وسامروا القماطر والمحابر، وكدُّوا في حصر لغاتها طباعهم، وأسهروا في تقييد شواردها أجفانهم، وأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم، وأنفقوا على تخليد كتبها أعمارهم، فعظمت الفائدة وعمَّت المصلحة وتوفَّرت العائدة، وكلما بدأت معارفها تتنكَّر أو كادت معالمها تتستَّر أو عَرَض لها ما يشبه الفترة ردَّ الله تعالى لها الكرَّة، فأحبَّ ريحها ونفق سوقها بفرد من أفراد الدهر أديب ذي صدر رحيب وقريحة ثاقبة ودراية صائبة ونفس سامية وهمَّة عالية، يحبُّ الأدب ويتعصَّب للعربية، فيجمع شملها ويكرُم أهلها ويحرِّك الخواطر الساكنة لإعادة رونقها، ويستثير المحاسن الكامنة في صدور المتحلين بها، ويستدعي التأليفات البارعة في تجديد ما عفا من رسوم طرائفها ولطائفها، مثل الأمير السيد الأوحد أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي أدام الله تعالى بهجته، وحرس مهجته".

أبان فيما نقلته الغاية من تأليفه هذا الكتاب، وهي حبه للعربية التي بها نزل القرآن الكريم؛ حيث جعل أن حبها من حب الله تعالى، ومن حب رسوله ﷺ وقد كانت له صحبة بالوزير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، المتوفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة.

وبنو ميكال أسرة من أعيان خرسان في الدولة السامانية، اشتهر منها كثيرون بالعلم والأدب والكتابة والرياسة، وأبو الفضل واحد منهم، ولقد مدحه شيخنا، وذكر أن صحبته له هي التي أوحت إليه بمادة الكتاب؛ حيث يقول الثعالبي في مقدمة كتابه أيضًا:

"وقد كانت تجري في مجلسه -آنسه الله- نُكَتٌ من أقاويل أئمَّة الأدب في أسرار اللغة وجوامعها ولطائفها وخصائصها، مما لم يتنبَّهوا لجمع شمله، ولم يتوصَّلوا إلى نظم عقده، وإنما اتجهت لهم في أثناء التأليفات وتضاعيف التصنيفات لُمَعٌ يسيرة كالتوقيعات، وفِقَرٌ خفيفة كالإشارات فيُلَوِّح لي -أدام الله دولته- بالبحث عن أمثالها وتحصيل أخواتها، وتذييل ما يتَّصل بها، وينخرط في سلكها وكسر دفتر جامع عليها، وإعطائها من النِّيقة حقها. وأنا ألوذ بأكناف المحاجزة وأحوم حول المدافعة".

إلى أن يقول الثعالبي: "فقال لي: إنك إن أخذت فيه أجدت وأحسنت، وليس له إلا أنت. فقلت له: سمعًا سمعًا، فأقام لي في التأليف معالم أَقِفُ عندها، وأقفو حدَّها، وأهاب بي إلى ما اتخذته قِبلة أُصلِّي إليها، وقاعدة أبني عليها من التمثيل والتنزيل والتفصيل والترتيب والتقسيم والتقريب".

ثم يقول الثعالبي: "وأمر -أعلى الله أمره- بتزويدي من ثمار خزائن كتبه -عمَّرها الله بطول عمره- ما أستَظهِرُ به على ما أنا بصدده؛ فكان كالدليل يعين ذا السفر بالزاد، والطبيب يتحف المريض بالدواء والغذاء".

ثم يقول الثعالبي: "وَتُرِكْتُ والأدب والكتب أنتقي منها وأنتخب وأفَصِّل وأبَوِّب وأقَسِّم وأرَتب وأنتجع من الأئمة مثل: الخليل، والأصمعي، وأبي عمرو الشيباني، والكسائي، والفرَّاء، وأبي زيد، وأبي عبيدة، وأبي عبيد، وابن الأعرابي، والنضر بن شميل، وأبوي العبَّاس -يقصد أبا عباس محمد بن يزيد المبرد الأزدي، إمام نحاة البصريين في القرن الثالث، وأبا العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب، إمام نحاة الكوفة في عصر المبرد- ثم يذكر الثعالبي أيضًا: وابن دريد ونِفطَويه وابن خالَويه والخارَزَنجي والأزهري ومن سواهم من ظرفاء الأدباء، الذين جمعوا فصاحة البلغاء إلى إتقان العلماء، ووعورة اللغة إلى

سهولة البلاغة؛ كالصاحب أبي القاسم، يقصد أبا عبيد صاحب (الغريب المصنف).

وذكر أيضًا: حمزة بن الحسن الأصبهاني وأبا الفتح المراغِيَ وأبا بكر الخوارزمي والقاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني وأبا الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القَزويني.

يقول الثعالبي: "وأجتبي من أنوارهم، وأجتني من ثمارهم، وأقتفي آثار قوم قد أقفرت منهم البقاع وأجمع في التأليف بين أبكار الأبواب والأوضاع، وعُون اللغات والألفاظ كما قال أبو تَّمام:

أمّا المعاني فهي أبكار إذا افـ ❖ ـتُضَّتْ ولكنَّ القوافِيَ عُونُ

انتهى كلامه.

إذًا، إن هذا الوزير كان سببًا مهمًّا في تأليف هذا الكتاب؛ حيث ذكر الثعالبي أن صحبته له هي التي أوحت إليه بمادة الكتاب، ليس هذا فقط، كما أن هذا الوزير هو الذي اختار للثعالبي عنوان كتابه؛ إذ يقول الثعالبي:

"ثم اعترضتني أسباب وعَرَضت لي أحوال أدَّت إلى إطالة عِنانِ الغيبة عن تلك الحضرة المسعودة، ولما عاودتُ رواقَ العزِّ واليُمن من حضرته، وراجعت روح الحياة ونسيم العيش بخدمته، وجاورت بحر الشَّرف والأدب من عالي مجلسه، أدام الله أسَّ الفضل به، فتح لي إقبالهُ رِتاجَ التخير، وأزهر لي قربه سِراجَ التَّبَصُّر في استتمام الكتاب وتقرير الأبواب، فبلغت بها الثلاثين على مهل ورويَّة، وضمَّنتها من الفصول على ما يُناهِزُ ستَّمائة".

وبعد أن ذكر الأبواب الثلاثين وما تضمنته من فصول، ختم مقدمته بقوله:

"وقد اخترت لترجمته، وما أجعله عنوان معرفته ما اختاره -أدام الله توفيقه- من (فقه اللغة) وشَفَعْتُهُ بـ"سر العربية"؛ ليكون اسمًا يوافق مسمَّاه ولفظًا يطابق معناه. وعهدي به -أدام الله تأييده- يستحسن ما أنشدته لصديقه أبي الفتح: علي بن محمد البُستيِّ ورَّثه الله عمره:

لا تُنكِرَنَّ إذا أهدَيتُ نحوك مِنْ ❖ علومِكَ الغُرِّ أو آدابكَ التُّتَفا
فَقَيِّم الباغ قد يُهدي لمالكه ❖ برسم خِدمَتِهِ من باغهِ التُّحَفا

"فَقَيِّم الباغ": الباغ هو الكرم والبستان.

يقول الثعالبي: "وهكذا أقول له بعد تقديم قول أبي الحسن بن طَبَاطَبَا، فهو الأصل في معنى ما سقت كلامي إليه:

لا تُنْكِرَنْ إهداءنا لك منطِقًا ❖ منك استَفَدْنا حُسنَهُ ونظامَهُ
فالله ﷻ يَشكُرُ فِعلَ مَنْ ❖ يَتْلو عليه وحيَهُ وكلامَهُ

منهج الثعالبي في (فقه اللغة)

ثم قال: "وهذا حينُ سياقة الأبواب".

لقد بان من خلال ما نقلته عن الشيخ الثعالبي أن مصادر الكتاب تتمثل في هذا العدد من العلماء، الذين اعتمد عليهم في تصنيف كتابه منهم:

الخليل بن أحمد المتوفى سنة سبعين ومائة، والأصمعي المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين، وأبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ست ومائتين، والكسائي المتوفى سنة تسع وثمانين ومائة، والفراء المتوفى سنة سبع ومائتين، وأبو زيد المتوفى سنة خمس عشرة ومائتين، وأبو عبيد المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين، وأبو عبيدة المتوفى سنة عشر ومائتين، وابن الأعرابي المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين،

والنضر بن شميل المتوفى سنة ثلاث ومائتين، وثعلب المتوفى سنة تسع وتسعين ومائتين، والمبرد المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين، وابن دريد المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ونفطويه المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وابن خالويه المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة، والأزهري المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة، وأبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وغير هؤلاء الذين بانوا في أثناء ما نقلناه من مقدمة الشيخ.

كما بان أيضًا وصف الكتاب؛ حيث يحتوي على ثلاثين بابًا مقسمة إلى ستمائة فصل، وهو عبارة عن معجم جمع فيه الألفاظ المتصلة بموضوع واحد، وقد رتبها حسب الموضوعات.

ما أثبته الثعالبي نفسه من أبواب كتابه في مقدمته:

الباب الأول: في الكليات، وفيه أربعة عشر فصلًا.

الباب الثاني: في التنزيل والتمثيل، وفيه خمسة فصول.

الباب الثالث: في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الرابع: في أوائل الأشياء وأواخرها، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الخامس: في صغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها، وفيه عشرة فصول.

الباب السادس: في الطول والقصر، وفيه أربعة فصول.

الباب السابع: في اليبس واللين والرطوبة، وفيه أربعة فصول.

الباب الثامن: في الشدة والشديد من الأشياء، وفيه أربعة فصول.

الباب التاسع: في الكثرة والقلة، وفيه ثمانية فصول.

الباب العاشر: في سائر الأوصاف والأحوال المتضادة، وفيه سبعة وثلاثون فصلًا.

الباب الحادي عشر: في الملء والامتلاء والصفورة والخلاء، وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني عشر: في الشيء بين الشيئين، وفيه ستة فصول.

الباب الثالث عشر: في ضروب الألوان والآثار، وفيه تسعة وعشرون فصلًا.

الباب الرابع عشر: في أسنان الناس والدواب وتنقل الحالات بها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب الخامس عشر: في الأصول والأعضاء والرءوس والأطراف وأوصافها، وما يتولد منها ويتصل بها وفيه ستة وستون فصلًا.

الباب السادس عشر: في الأمراض والأدواء وما يتلوها وما يتعلق بها، وفيه أربعة وعشرون فصلًا.

الباب السابع عشر: في ضروب الحيوانات وأوصافها، وفيه تسعة وثلاثون فصلًا.

الباب الثامن عشر: في الأحوال والأفعال الحيوانية، وفيه سبعة وعشرون فصلًا.

الباب التاسع عشر: في الحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب والرمي، وفيه أربعون فصلًا.

الباب العشرون: في الأصوات وحكاياتها، وفيه ثلاثة وعشرون فصلًا.

الباب الحادي والعشرون: في الجماعات، وفيه أربعة عشر فصلًا.

الباب الثاني والعشرون: في القَطع والانقطاع والقِطَع، وما يقاربها من الشق والكسر، وما يتصل بهما، وفيه سبعة وعشرون فصلًا.

الباب الثالث والعشرون: في اللباس وما يتصل به، والسلاح وما ينضاف إليه، وسائر الآلات والأدوات وما يأخذ مأخذها، وفيه تسعة وأربعون فصلًا.

الباب الرابع والعشرون: في الأطعمة والأشربة وما يناسبها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب الخامس والعشرون: في الآثار العُلوية وما يتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها، وفيه ثمانية عشر فصلًا.

الباب السادس والعشرون: في الأراضين والرمال والجبال والأماكن والمواضع وما يتصل بها، وفيه سبعة عشر فصلًا.

الباب السابع والعشرون: في الحجارة، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الثامن والعشرون: في النبت والزرع والنخل، وفيه سبعة فصول.

الباب التاسع والعشرون: فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية، وفيه خمسة فصول.

الباب الثلاثون: في فنون مختلفة الترتيب من الأسماء والأفعال والأوصاف، وفيه تسعة وعشرون فصلًا.

هذا هو القسم الأول من الكتاب، وهو المسمى بفقه اللغة، ولم يفصِّل الثعالبي في التعريف بفقه اللغة، كما فعل ابن فارس في مقدمة كتابه، ويبدو أن الاسم لم يكن يجول بخاطره كثيرًا إنما اختاره له الأمير الوزير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي .

وبختام الباب الثلاثين انتهى آخر القسم الأول الذي هو فقه اللغة، وقد شفعه الثعالبي بسر العربية، وهو القسم الثاني من قسمي الكتاب، أسرار العربية في مجراي كلام العرب وسننها في كلامها، وهو عبارة عن مجموعة من الفصول في خصائص اللغة العربية، ويمكن تقسيم هذه الخصائص إلى أفرع تبعًا للدراسات التي تهتم باللغة العربية، وهذا التقسيم ليس واضحًا عند الثعالبي مثلما كان واضحًا إلى حد كبير عند ابن فارس، ومع ذلك يمكن أن تندرج فصول هذا القسم عند الثعالبي تحت جوانب لغوية عديدة متنوعة على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، واستشهد على أكثر ما ذكر بالقرآن الكريم.

فالفصل الذي تحدث فيه عن الإتباع يعد من المعلومات الصوتية، وكذلك عندما تحدث عن أبنية الأفعال وحين عقد فصل المفعول يأتي بلفظ الفاعل أو العكس، فإن أبنية الأفعال وما تحدث فيه عن فصل المفعول يأتي بلفظ الفاعل يدخل في المعلومات الصرفية، وحينما عقد فصولًا خصصها للحروف، فإن هذا يدخل أيضًا في الجوانب النحوية، وحينما تحدث عن التشبيه والاستعارة والمجاز والتجنيس والطباق، فإن هذا يدخل في الجوانب الدلالية.

وقد يرى الناظر في الكتاب أن فيه أشياء تدخل في جانب النظم، وهو أمر يتصل بالدلالة والنحو، ومن الفصول التي تتصل بهذا تقديم المؤخر، وتأخير المقدم، ومن الفصول كذلك فصل في الحمل على اللفظ والمعنى والمجاورة، وكذلك الفصل الذي عقده فيما يذكر ويؤنث، والفصل الذي ذكره في الإخبار عن الجماعتين بلفظ الاثنين، وكذا الفصل الذي عقده في الاثنين ينسب الفعل إليهما وهو لأحدهما، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف: ٦١] قال الثعالبي: وكان النسيان من أحدهما؛ لأنه قال:

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ويتصل بهذا أيضًا الفصل الذي عقده في إقامة الإنسان مقام من يشبهه وينوب عنه.

وحينما نقارن بين (فقه اللغة) للثعالبي وبين (الصاحبي في فقه اللغة) لابن فارس نرى أن الشيخين يتفقان في الغرض الأساسي من دراسة اللغة، فهو عندهما التعلم وخدمة الدين، كما نلاحظ أن القسم المنعوت بخصائص العربية في كتابي ابن فارس والثعالبي يتشابهان في أصولهما إلى حد كبير، بل إننا لا نجد أبوابًا مشتركة عندهما، فباب النحت مثلًا يكاد يكون متفقًا عند الاثنين عند ابن فارس والثعالبي، وكذا باب الإتباع، وكذا باب الإشباع والتأكيد، فليس بين ألفاظهما إلا اختلاف بسيط جدًّا، ومثل الباب الذي سماه ابن فارس باب الخصائص، وهو عند الثعالبي فصل في خصائص من كلام العرب، وكذا باب بين الشيء يأتي مرة بلفظ المفعول ومرة بلفظ الفاعل، والمعنى واحد، ويكاد الكتابان يتطابقان في باب في إخراجهم الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك، فمن الواضح أن الثعالبي أخذ عن ابن فارس فهو سابق له، ثم إن الثعالبي نفسه قد ذكره في مقدمته بين من أخذ عنه.

أبرز سمات الكتاب:

السمة الأولى: لقد أظهر الفروق الدقيقة بين المترادفات، ومن أمثلة ذلك الفصل الثالث عشر، الذي ذكره في الباب الخامس عشر في الأصول والرءوس والأعضاء الأطراف، هذا الفصل الثالث عشر عنوانه فصل في تفصيل كيفية النظر وهيئاته في اختلاف أحواله يقول:

"إذا نَظَرَ الإِنْسَانُ إلى الشّيْءِ بِمَجَامِعِ عَيْنِهِ قِيلَ رَمَقَه، فإذا نَظَرَ إليهِ مِنْ جَانِبِ أُذُنِهِ قِيلَ لَحَظَهُ، فإنْ نَظَرَ إليهِ بِعَجَلَةٍ قِيلَ: لَمَحَهُ، فإنْ رَمَاهُ بِبَصَرِهِ مَعَ حِدَّةِ نَظَره

قيلَ: حَدَجَهُ بطَرْفِهِ، وفي حديثِ ابْنِ مَسْعُودٍ > : ((حَدِّثِ القومَ مَا حَدَجُوكَ بأبْصَارِهِمْ))، فإنْ نظرَ إليهِ بِشِدَّةٍ وحِدَةٍ قيلَ: أرْشَقَهُ وأسَفَّ النَظرَ إليهِ. وفي حديثِ الشَّعبيِّ أنَهُ كرِهَ أنْ يُسِفَّ الرَجُلُ نَظَرَهُ إلى أمِّهِ وأخْتِهِ وابْنَتِهِ. فإنْ نَظَرَ إليهِ نَظَرَ المُتَعَجِّبِ مِنْهِ أو الكَارِهِ لَهُ أو المُبْغِضِ إيَّاهُ قِيلَ: شَفَنَهُ وَشَفَنَ إليهِ شُفُونًا وشَفْنًا، فإنْ أعارهُ لَحْظَ العَداوَةِ قيلَ: نَظَرَ إليهِ شَزْرًا، فإن نَظَرَ إليهِ بِعَيْنِ المَحبَّةِ قيلَ: نَظَرَ إليهِ نَظْرَةً ذاتَ عَلَقٍ، فإنْ نَظَرَ إليهِ نَظَرَ المُسْتَثْبِتِ قيلَ: تَوَضَّحَهُ، فإنْ نَظَرَ إليهِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى حَاجِبِهِ مُسْتَظِلًّا بِهِ مِنَ الشَّمْسِ لِيَسْتَبِينَ المَنْظُورَ إليهِ قِيلَ: اسْتَكَفَّهُ واسْتَوْضَحَهُ واسْتَشْرَفَهُ، فإنْ نَشَرَ الثَوْبَ وَرَفَعَهُ؛ لِيَنْظُرَ إلى صَفَاقَتِهِ أو سَخَافَتِهِ أو يَرَى عَوارًا، إنْ كَانَ بِهِ، قِيلَ: اسْتَشَفَّهُ، فإنْ نَظَرَ إلى الشَّيْءِ كاللَّمْحَةِ ثُمَّ خَفِيَ عَنْهُ قِيلَ: لاحَهُ لَوحَةً، كما قَالَ الشّاعِرِ:

وهل تَنْفَعَنِّي لَوْحَة لَوْ أَلُوحُهَا ❖ ....

فإنْ نَظَرَ إلى جَمِيعِ مَا في المَكَانِ حَتَّى يَعْرِفَهُ قِيلَ: نَفَضَهُ نَفْضًا، فإنْ نَظَرَ في كِتَابٍ أوْ حِسَابٍ؛ لِيهذِّبَهُ أو لِيَستَكْشِفَ صِحتَهُ وَسَقَمَهُ قِيلَ: تَصَفَّحَهُ، فإنْ فَتَحَ جَمِيعَ عَيْنَيْهِ لِشِدَّةِ النّظرِ قِيلَ: حَدَّقَ، فإنْ لألأهُمَا قيلَ: بَرَّقَ عَيْنَيْهِ، فإنِ انقلبَ حِمْلاقَ عَيْنَيْهِ -حملاق العين: باطن أجفانها الذي يسود بالكحل- قِيلَ: حَمْلَقَ، فإنْ غَابَ سَوَادُ عَيْنَيْهِ مِنَ الفَزَعِ قِيلَ: بَرِقَ بَصَرُهُ، فإنْ فَتَحَ عَيْنَ مُفَزَّعٍ أو مُهَدِّدٍ قيلَ: حَمَّجَ، فإنْ بَالَغَ في فَتْحِهَا وَأحَدَّ النَّظَرَ عندَ الخَوْفِ قِيلَ: حَدِج وَفَزِعَ، فإنْ كَسَرَ عَيْنَهُ في النَّظَرِ قِيلَ: دَنْقَسَ وطَرْفَشَ -عَنْ أبي عَمْرٍو- فإنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَجَعَلَ لا يَطْرِفُ، قِيلَ شَخَصَ، وفي القُرآنِ الكَرِيمِ: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، فإنْ أدَامَ النَّظَرَ مع سُكُونٍ قيلَ: أسْجَدَ، عَنْ أبي عَمْرٍو، فإنْ نَظَرَ إلى أفُقِ الهِلالِ لِلَيْلَتِهِ لِيَرَاهُ قِيلَ: تَبَصَّرَهُ، فإنْ أتْبَعَ الشَّيءَ بَصَرَهُ قِيلَ: أتأرَهُ بَصَرَهُ."

لقد بان جهد الثعالبي في إظهاره الفروق الدقيقة بين المترادفات من خلال ما ذكرته، ومن خلال ما تتبينه أنت حين تتصفح الكتاب.

السمةُ الثانية: استعانته بقليل من الشواهد، لقد بان أن الشواهد لا تبدو كثيرة، وإنما بدت قليلة كما ذكر حديث ابن مسعود ﷺ ((حدِّث القوم ما حَدَجوك بأبصارهم)) في أثناء قوله: فإن رماه ببصره مع حدة نظره: قيل: حدجه بطرفه.
واستشهد بحديث ابن مسعود، كما نراه يستشهد بقول الشاعر:

وهل تَنْفَعَنِّي لَوْحَة لَوْ أَلُوحُهَا ❖ ....

حينما قال: فإنْ نَظَرَ إلى الشّيْءِ كاللَّمْحَةِ ثُمَّ خَفِيَ عَنْهُ قِيلَ: لاحَهُ لَوحَةً.
واستشهد بهذه الشطرة.

فالشواهد - على أية حال - قليلة في أبواب الكتاب، كما نراه يستشهد ببعض القراءات الشاذة، وذلك في أثناء حديثه مثلًا عن العوارض التي تعرض لألسنة العرب، فنراه في الباب الخامس عشر في الأصول والرءوس والأعضاء والأطراف يذكر الفصل التاسع والعشرين بعنوان: فصل في حكاية العوارض التي تعرض لألسنة العرب، فيذكر الكشكشة والكسكسة والعنعنة واللخلخانية والطمطمانية، فقال: "الكَشْكَشَةُ تَعْرِضُ في لُغَةِ تَمِيم، كقولهم في خِطَابِ المؤنَّثِ: ما الذي جاءَ بِشِ؟ يُرِيدُونَ: بِكِ، وَقَرَأَ بَعْضُهُم: "قَدْ جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا" يعني قولِهِ تعالى: ﴿ قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٤] وهكذا.

السمة الثالثة: أنه جمع عددًا من الألفاظ وقابل بينها وبين الفارسية والرومية، مما يدخل صنيعه هذا في الدراسة التقابلية الحديثة، فقد عقد الباب التاسع والعشرين بعنوان: فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية. وقسمه إلى فصول خمسة؛ جاء الفصل الأول بعنوان: فصل في سياقة أسماء فارسيتها منسية، وعربيتها محكية مستعملة. ذكر تحته ما يلي:

الكف والساق والفراش والبزَّاز والوزَّان والكيّال والمسَّاح والبيَّاع والدلَّال والصرَّاف والبقَّال والجمَّال والحمَّال والقصَّاب والفصَّاد والخرَّاط والبيطار والرائد والطراز والخياط والقزَّاز والأمير والخليفة والوزير والحاجب والقاضي، وصاحب البريد، وصاحب الخبر، والوكيل والسقاء والساقي والشراب والدخل والخرج والحلال والحرام، والتركة والبركة والعدة والصواب والغلط والخطأ والحسد والوسوسة والكساد والعارية والفضيحة والطبيعة والعادة والبخور والخلوق والجبة والجثة والإزار واللحاف والمخدة والخط والقلم والمداد والحبر والكتاب والصندوق واللهو والقمار والكرسي والدواة والدبوس والمنجنيق والحلواء والقطائف والهريسة والعصيدة والرداء والسيَّاف والجلاب.

ثم ذكر الفصل الثاني بعنوان: فصل يناسبه في أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها. وذكر تحته: الزكاة والحج والمسلم والمؤمن والكافر والمنافق والفاسق... إلى آخره.

ثم جاء الفصل الثالث بعنوان: فصل في ذكر أسماء قائمة في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد. ذكر فيه التنور والكنز والدينار والدرهم.

ثم جاء الفصل الرابع بعنوان: فصل في سياقة أسماء تفردت بها الفرس دون العرب، فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي، وذكر منها من الأواني الكوز والإبريق والسكرجة، ومن الملابس السنور والسنجاب والديباج، وذكر من الجواهر الياقوت والبلور، كما ذكر من الطيب المسك والعنبر والكافور.

ثم ختم الباب بالفصل الخامس بعنوان: فصل فيما حاضرت به مما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية. ذكر تحته: الفردوس بمعنى البستان، والقسطاس بمعنى الميزان، والسجنجل بمعنى المرآة، والبطاقة بمعنى رقعة فيها رقم المتاع.

تابع: دراسة في بعض معاجم الموضوعات:
(المخصَّص في اللغة)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: الانتماء المعجمي لـ(المخصَّص في اللغة)	١٣٣
العنصر الثاني	: مؤلف (المخصص)	١٣٤
العنصر الثالث	: التعريف بـ(المخصص): دوافع تأليفه، منهجه، ميزاته، أثره، نقده	١٣٦

الانتماء المعجمي لـ(المخصص في اللغة)

إن (المخصص) ينتمي إلى معاجم الموضوعات المسماة بالمعاجم المعنوية، والمسماة كذلك بالمعاجم المبوبة، وهي تلك المعاجم التي تجعل المعاني والموضوعات أساسًا في تأليفها وترتيبها، فهي تجمع الألفاظ التي تستعمل في المعاني أو الموضوعات المؤلفة، ومن ثم فإن المعجم يقسم إلى كتب أو أبواب أو فصول يختص كل منها بموضوع واحد مع مراعاة التسلسل المنطقي والبدء بالأعم فالأخص، وجمع الأمور المتناظرة والمتشابهة في مكانٍ واحدٍ.

وقد علمت أن هذا النوع من المعاجم يخدم أولئك الذين يعرفون الموضوعات أو المعاني، ويريدون الوصول إلى الألفاظ التي تؤديها وتعبر عنها، وإذا كان هذا النوع من المعاجم المبوبة يؤدي هذا الغرض، فإن أكثر هذه المعاجم تهتم باللفظ المفرد، و"مخصص" ابن سيده من هذا النوع الذي يعنى باللفظ المفرد، وإن كانت المعاجم المبوبة لها جناح آخر يهتم بالتركيب أو العبارة التي تقال في الموضوع المعين أو الموقف المعين، و"مخصص" ابن سيده لا يدخل في هذا الجناح، وإنما يدخل فيه كتاب (إصلاح المنطق) لابن السكيت، وكتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة، و(الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن الهمذاني.

على أية حال، فإن المعاجم المعنوية أو معاجم الموضوعات أو المعاجم المبوبة، وهي كلها تسميات مترادفة؛ تعد من الناحية العملية ذات نفع كبير في ميادين الأدب والعلوم وغيرها؛ ولذلك بقي "مخصص" ابن سيده إلى عصرنا هذا، على الرغم من تطور التأليف المعجمي وتقدمه، وعلى الرغم أيضًا من صعوبة استعمال "مخصص" ابن سيده، وغيره من بقية المعاجم المبوبة مقارنة بالنوع الآخر من المعاجم، وأعني به المعاجم اللفظية التي تتنوع إلى مدارس عدة كما علمت وكما ستعلم، ويفصل القول في هذا إن شاء الله.

وإذا كان (المخصص) ينتمي إلى هذه المعاجم المبوبة، فإنه يعد أوفى وأشمل معجم من معاجم المعاني في تاريخ اللغة العربية؛ حيث اجتمعت فيه الألفاظ المتشابهة والمتقاربة في معانيها أو المتفرعة بعضها عن بعض في باب واحد؛ لذلك بلغ (المخصص) هذه المنزلة الرفيعة من منازل معاجم الموضوعات.

إن "مخصص" ابن سيده توج المعاجم الموضوعية أو المبوبة، وسما بها إلى القمة؛ لأنه يعد أغزر هذه الكتب مادة وأغناها بالمفردات اللغوية، بالإضافة إلى ما نثر فيه ابن سيده من المعارف النحوية والصرفية وغيرهما.

مؤلِّف (المخصص)

لقد اشتهر مؤلِّف (المخصص) بابن سيده -بكسر السين المهملة وسكون التحتية، وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة- وقد صارت هذه الكنية أكثر من شهرة اسمه، فهو: علي بن إسماعيل بن سيده، المرسي، الملقب بأبي الحسن، ويوصف بالنحوي واللغوي والأندلسي، ولم يذكر أحد من المؤرخين لحياته تاريخ ميلاده بالتحديد، ولكن أكثر من ترجموا له اتفقوا على أنه توفي عام ثمانية وخمسين وأربعمائة هجرية، واتفقوا على أن عمره حين مات كان نحوًا من ستين سنة؛ وبذلك يمكن أن يكون مولده سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة هجرية.

وينسبه المؤرخون إلى مرسية فقد ذكروا أنه من أهل مرسية، ومرسية -بضم الميم وسكون الراء، وكسر السين المهملة، وياء مفتوحة خفيفة، وهاء- هي مدينة في شرق الأندلس، من أعمال تدمير، المتصلة بإقليم جيان، شرقي قرطبة؛ ولذلك نسب إليها، فيقال: المرسي، وتوضح المصادر أيضًا أن والده كان من أهل مرسية.

بالإضافة إلى تلك الحادثة المشهورة التي حدثت لابن سيده في مرسية، والتي روتها أكثر المصادر المؤرخة لحياته عن أستاذه أبي عمر الطلمنكي، المتوفى سنة

تسع وعشرين وأربعمائة، قال: دخلت مرسية فتشبث بي أهلها يسمعون عليَّ غريب المصنف، فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم، وأمسك أنا بكتابي، فأتوني برجل أعمى يُعرف بابن سيده، فقرأه علي من أوله إلى آخره فتعجبت من حفظه. فهذه الرواية تدل على أنه وُلِدَ في مرسية، وعاش فيها حتى بلغ مبلغ الرجال.

وهذا اللقب -أعني ابن سيده- يشير لنا إلى أنه أعجمي الأرومة، وتشير المصادر إلى أنه وُلِدَ أعمى، لوَالِد أعمى أيضًا، وكانت هذه العاهة سببًا قويًّا في تكوينه العقلي، وقوة ذاكرته وتمتعه بالذكاء والفطنة النادرة المثال، والحادثة التي ذكرتها الآن، التي رواها أبو عمر الطلمنكي دالة على عبقرية حفظه؛ حيث تعجب الطلمنكي من هذا الفتى الذي يحفظ (الغريب المصنف) عن ظهر قلب؛ ولذلك وصفته المصادر بأنه كان حافظًا أو ينعت كذلك بالحافظ، وينعت بأنه إمام في اللغة والعربية حافظ لهما.

وقد تلمذ على والده في أول الأمر وروى عنه، وكان والده من النحاة ومن أهل المعرفة والذكاء، التقى بأبي بكر الزبيدي، المتوفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وأخذ عنه (مختصر العين)، وتوفى بمرسيه بعد الأربعمائة بمدة.

كما ذكر المؤرخون أن ابن سيده تتلمذ أيضًا على صاعد بن حسن البغدادي وروى عنه، وكان صاعد من بلاد الموصل، فصيح اللسان، حاضر الجواب سريعه، وقد ارتحل إلى بلاد الأندلس، ودخلها في حدود سنة ثمانين وثلاثمائة، وبقي فيها حتى خرج منها أيام الفتنة إلى صقلية، التي مات بها قريبًا من سنة عشر وأربعمائة هجرية وقد أسن.

وذكر مؤرخو ابن سيده أيضًا أنه تلمذ على أبي عمر الطلمنكي، بعد أن تعرَّف عليه في مرسية وروى عنه، والطلمنكي محدث مفسر وقارئ لغوي مقتدر، توفي في طلمانكة سنة تسع وعشرين وأربعمائة من الهجرة.

ولابن سيده تلاميذ بلا شك؛ ذكر الدكتور فوزي يوسف الهابط في بحثه عن (ابن سيده والمخصص وشخصيته فيه) نفرًا من هؤلاء التلاميذ منهم الفقيه والقاضي والنحوي واللغوي، وكان منهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف النحوي وأخوه أبو جعفر، وقد انتقل ابن سيده إلى بلدة دانية، وواصل حياته بها إلى أن وافته منيته بها مفلوجًا عشية يوم الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وقد بلغ نحوًا من ستين سنة.

التعريف بـ(المخصص): دوافع تأليفه، منهجه، مميزاته، أثره، نقده

١- دوافعُ تأليفه:

إذا اطلعت على المقدمة التي كتبها أو قدم بها ابن سيده كتابه (المخصص)، ترى أنها اشتملت على معلومات عديدة، من بينها حديثه عن دوافع تأليفه هذا المعجم؛ إذ يقول:

"فلما رأيت اللغة على ما أريتك من الحاجة إليها لمكان التعبير عما نتصوره، وتشتمل عليه أنفسنا وخواطرنا؛ أحببت أن أجرد فيها كتابًا يجمع ما تَنَشَّر من أجزائها شَعاعًا، وتنثر من أشلائها حتى قارب العدم ضياعًا، ولا سيما هذه اللغة المكرمة الرفيعة، المحكمة البديعة، ذات المعاني الحكيمة المرهفة والألفاظ اللدنة القويمة المتفقة، مع كون بعضها مادة كتاب الله تعالى، الذي هو سيد الكلام، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وتأملت ما ألفه القدماء في هذه اللسان المعربة الفصيحة، وصنفوه لتقييد هذه اللغة المتشعبة الفسيحة، فوجدتهم قد أورثونا بذلك فيها علومًا نفيسة جمة، وافتقروا لنا منها قُلبًا خسيفةً غير ذمة إلا أني وجدت ذلك نشرًا غير متلئم، ونثرًا ليس بمنتظم؛ إذ كان لا كتاب نعلمه إلا وفيه من الفائدة ما ليس في صاحبه، ثم إني لم أرَ لهم فيها كتابًا مشتملًا على جلها، فضلًا عن كلها مع أني رأيت جميع من مد إلى تأليفها يدًا وأعمل في توطئتها وتصنيفها منهم ذهنًا وخَلدًا، قد حُرِموا الارتياض بصناعة الإعراب، ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من كثيف ذلك الحجاب حتى كأنهم موات لم يمد بحيوانية أو حيوان لم يحد بإنسانية، فإنا نجدهم لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء.

وبعد أن ذكر كثيرًا من أمثال ما ذكره من قصور قال:

فاشرَأبَّت نفسي عند ذلك إلى أن أجمع كتابًا مشتملًا على جميع ما سقط إليَّ من اللغة إلا ما لا بال به، وأن أضع على كل كلمة قابلة للنظر تعليلها، وأحكم في ذلك تفريعها وتأصيلها، وإن لم تكن الكلمة قابلة لذلك وضعتُها على ما وَضَعُوه وتركتها على ما ودعوه؛ تحبيرًا أُقَيِّنُه وأُرهفُه وتعبيرًا أتقنُه وأُزَخرِفُه".

وحينما تتأمل في هذا الكلام من فم هذا العالم النحرير ترى أن الدافع له أن يؤلف (المخصص)، هو أنه نظر فيما ألفه القدماء من اللغة أو فيها فوجده نشرًا غير ملتئم ونثرًا غير منتظم. وهذه هي الغاية الأولى، جمع ما انتشر من الألفاظ في كتب اللغة السابقة، وإحصاء أكبر قدر من اللغة في كتاب واحد؛ لأنه رأى أن أعمال السابقين الذين أورثونا بها علومًا نفيسة جمة -على حد قوله- تمثل نشرًا غير ملتئم، ونثرًا ليس بمنتظم؛ إذ لا كتاب نعلمه إلا وفيه من الفائدة ما ليس في صاحبه -والكلام لابن سيده-، ثم إني لم أرَ لهم فيها كتابًا مشتملًا على جلها فضلًا عن كلها.

والغاية الأخرى تلافي ما في المعاجم والكتب اللغوية السابقة من النقص والعيوب، فقد رأى ابن سيده أن أصحاب تلك المعاجم والكتب على الرغم من فضلهم لم يحسنوا التعريف، ولا أبانوا موضوعات الأشياء بحقائقها ولا تحرزوا من سوء العبارة، وإبانة الشيء بنفسه وتفسيره بما هو أغرب منه، فضلًا عن العلماء السابقين على ابن سيده لم يعطوا الجانب النحوي والتصريفي حقه في دراساتهم، فقد حرموا الارتياض بصناعة الإعراب، ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من كثيف ذلك الحجاب، فإنا نجدهم -والكلام له أيضًا. لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت فيه الواو عن الياء، ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو عنه مقلوب، وما هو من ذلك لغتان، وذلك كجذب وجبذ ويئس وأيس ورأى وراءى.

وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز ولا يفرقون بين القلب والإبدال، ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد، وبين ما هو اسم للجمع.

هذه المآخذ التي أخذها على السابقين دفعته إلى تأليف (المخصص)؛ ومن أجل هذا كله اشرأبت نفس شيخنا إلى أن يضع كتابًا يشتمل على جميع ما سقط إليه من اللغة إلا ما لا بال له، وأن يضع على كل كلمة قابلة للنظر تعليلها، ويحكم بذلك تعريفها وتأصيلها.

ويكون من حقه بعد ذلك أن يقول -رحمه الله-: "وكتابنا هذا مُغتَرفٌ من جميع الفنون، كل فن منها فيه مستوعب تام محتوٍ لما انتهى إلينا من الألفاظ المقولة عليه".

٢ـ ومنهجهُ وخطتهُ ومصادرهُ:

المنهج يقتضي أن نذكر خطة ابن سيده في تأليفه "للمخصص"، ونذكر أيضًا مصادره.

في مقدمة ابن سيده فيما يتصل بطريقته ومنهجه، يقول -رحمه الله-: "وأنا واصف لفضائل هذا الكتاب، ومُعَدِّد لمحاسنه ومُنَبِّه على ما أَودَعتُه من جسيم الفائدة، ومُبَيِّنٌ ما بان به من سائر كتب اللغة؛ حتى صار له كالفصل الذي تتباين به الأنواع من تحت الجنس، وذاكرٌ ما راعيت فيه من ركوب أساليب التحري، وحفظ نظام الصدق وإيثار الحق، ومُبَيِّنٌ قبل ذلك لما وضعته على غير التجنيس؟ بأني لما وضعت كتابي الموسوم بالمُحكَم مُجَنَّسًا؛ لأدُلَّ الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة أردتُ أن أعدل به كتابًا أضعه مُبَوَّبًا، حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره، والبليغ المُفَوَّه، والخَطيب المصقع، والشاعر المجيد المدقع، فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة وللموصوف أوصاف عديدة؛ تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاءا، واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية على مثال ما نجده نحن في الجواهر المحسوسة؛ كالبساتين تجمع أنواع الرياحين، فإذا دخلها الإنسان أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمِّه.

فأما فضائل هذا الكتاب من قبل كيفية وضعه، فمنها تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص، والإتيان بالكليات قبل الجزئيات، والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير، وتقديمنا كم على كيف، وشدة المحافظة على التقييد والتحليل.

مثال ذلك: ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت في القول على خلق الإنسان، فبدأت بتنقله وتكونه شيئًا فشيئًا، ثم أردفت بكلية جوهره، ثم بطوائفه وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته، ثم ما يلحق من العِظَم والصغر، ثم الكيفيات كالألوان إلى ما يتبعها من الأعراض والخصال الحميدة والذميمة.

وقد دق هذا على المصنفين في اللغة قبلي؛ لأنهم إذا أعوزتهم الترجمة لاذوا بأن يقولوا: باب نوادر. وربما أدخلوا الشيء تحت ترجمة لا تشاكله، وأبدلوا الحرف

بحرف لا يُؤَاهِلُه، وكتابُنا من كل ذلك، بحيث الشمس من العيب، والنجم من الهرم والشيب.

ومن طريف ما أودعته إياه بغاية الاستقصاء، ونهاية الاستقراء، وإجادة التعبير والتأنق في محاسن التعبير، والممدود والمقصور والتأنيث والتذكير، وما يجيء من الأسماء والأفعال على بناءين وثلاثة فصاعدًا، وما يبدل من حروف الجر بعضها مكان بعض، وما يصل.

ثم يقول: "ومن ذلك إضافة الجامد إلى الجامد، والمنصرف إلى المنصرف، والمشتق إلى المشتق، والمرتجل إلى المرتجل، والمستعمل إلى المستعمل، والغريب إلى الغريب، والنادر إلى النادر.

ومن ذلك أن تكون اللفظة منقولة عن معنيين مختلفين فصاعدًا، فإذا قيلت على معنًى متقدم نبه على أن لها معنًى باقيًا يؤتى به فيما يستقبل أو معنيين أو معانٍ، وإذا قيلت على معنى متأخر عن ذلك المعنى نُبِّه على أن لها معنى آخر قد تقدم أو معنيين أو معانٍ؛ إذ الإنسان قد تعجز طبيعته عن إدراك ما لا تعجز في صحة الوضع وقوة الطبع؛ ولذلك ما رأينا المتأخرين يتتبعون أوضاع المتقدمين منهم، ولا يعدمهم التصفح مكانًا يبين لهم خلله في بادئ الرأي لما يرجعون إليه من الإنصاف.

ثم يقول: "وبجميع هذا الذي ذكرت لكَم انفصل هذا الكتاب من جميع كتب اللغة؛ وذلك أنك لا تجد من كتبهم القديمة ولا الحديثة كتابًا ركب به أحدٌ هذه الأساليب من الترتيب والتهذيب في التحليل والتركيب، وإنما أنبأتُ بحسنه من قِبَل وضعه؛ لأنه باب من العلم عظيم، ونوعٌ منه جسيم، فينبغي أن يعنى به ويُرتاض، فإن المهارة به والوقوف عليه كثير الغَنَاءِ في العلم بالتأليف، كما أن

إغفاله والجهل به عظيم المضرة في ذلك، ولعلك أيها الباحث المُتَفَهِّم والناظر المتقدم في جَهَابذة الألفاظ قد تغمطني هذه المزية قبل تأملك ونظرك، فقولك مطرح، وإن كان ذلك بعد ذلك فَقُصارانا أن نترك إلى حكم إن قال فَصَل، وإن فصل عَدَل، وإلى الله نَبتَهِلُ أن يُعفينا من داء الحَسَد، وما يَحدُثُ عنه من أليم الكَمَد، وإياه نسألُ أن لا يُشعِرَ نار نقمه ولا يُبطرنا نعمه التي يزيد منها كل من شكر، ويغيرها على من كفر لا شريك له".

عندما تتأمل فيما نقلته من مقدمة هذا الشيخ الجليل يتضح لك ما يلي:

أولًا: لقد وضع ابن سيده مخصصه وضعًا على هيئة التبويب؛ وضعه مبوبًا موضوعيًّا ولم يضعه مجنسًا؛ حيث اتبع نظام التجنيس في كتابه الآخر (المحكم).

ثانيًا: وضع ابن سيده لنفسه خطة يسير عليها في تصنيفه لمخصصه ومعالجته لأبوابه ومفردات هذه الأبواب؛ وذلك حين التزم -كما قال- تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص. وحين قال: والإتيان بالكليات قبل الجزئيات. وحين قال: "والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحق من التقديم والتأخير. وحين قال: "وتقديمنا كم على كيف". وحين قال: "وشدة المحافظة على التقليد والتحليل". وضرب مثالًا على ذلك بأول ما جاء في الكتاب من خلق الإنسان.

ثم إنه أكمل خطته هذه بما قال في المقدمة أيضًا:

إني أودعته –أي: (المخصص)- ما لم أسبق إليه من تعريف المنطق ورد الفروع إلى الأصول، وحمل الثواني على الأوائل، وكيفية اعتقاب الألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد.

وحين قال:

قصدت من الاشتقاق أقربه إلى الكلمة المشتقة وأليَقه بها وأدَلّه عليها بقول بليغ شاف وشرح مُقنِع كافٍ. ثم نبَّه على اختلاف الشروح التي وجدها وبيَّن على كيفية تصرفه معها حين قال: "وقد وجدت في ذلك اختلافًا كثيرًا، فإما ما اقتصرت على أصَحِّه عندي، وإما ذكرت اختلافهم وأحضرت جميع ذلك من الشواهد ما لاحق فكري".

وقد تضمنت المقدمة المصادر، التي رجع إليها ابن سيده في تأليف (الخصائص):

لقد اعتمد على (غريب الحديث) لأبي عُبيد وكتابه الآخر (الغريب المصنف)، واعتمد على كتب ابن السكيت (كالإصلاح) و(الألفاظ) و(الفرق) و(الأصوات) و(المكنى) و(المبنى) و(المد) و(القصر) و(الزبرج) و(معاني الشعر)، كما اعتمد على كتابي ثعلب: (الفصيح) و(النوادر)، واعتمد على كتابي أبي حنيفة الدينوري في الأنواء والنبات. ،

واعتمد على الفراء والأصمعي وأبي زيد وأبي حاتم والمبرد، وكُراع علي بن الحسن الهنائي وعلى النضر بن شميل، وعلى ابن الأعرابي واللحياني وابن قتيبة، وما أفاده أيضًا من الكتب المجنسة -أعني بها المعاجم اللفظية- كـ(جمهَرة ابن دريد) و(العَين) للخليل و(البارع) للقالي، كما أفاد أيضًا من (الزاهر) لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، وأفاد إفادة كبرى من كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان، وأفاد من كتب أبي علي الفارسي كـ(الإيضاح) و(الحجة) و(الإغفال) و(الحَلَبيَّات) و(القصريات) و(البغداديات) و(الشيرازيات)، وأفاد من كتاب أبي سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه، وأفاد من أبي الفتح عثمان بن جني، وأفاد من (التمام) الذي ألفه ابن جني، وأفاد من (الخصائص)، وأفاد من (سر صناعة الإعراب)، وأفاد من شرحه شعر المتنبي ومن تفسيره شعره أيضًا، ومن تفسيره شعر الحماسة، وأفاد من كتب علي بن عيسى الرماني

ك(الجامع في تفسير القرآن) و(المبسوط في كتاب سيبويه)، وأفاد مما كتبه ثابت بن أبي ثابت في خلق الإنسان.

إن الرجوع إلى مقدمة ابن سيده يظهر كثيرًا مما أقوله، وقد كان طريقته المثلى في الإفادة من هذه المصادر أنه كان ينقّب في كل موضوع من موضوعاته عن أحسن كتاب أو كتب ألفت في هذا الموضوع وأغزرها مادة، ثم يجعلها عماده، ويكملها بما يعثر عليه في الكتب الأخرى، وكان من نتيجة ذلك أن كثر ورود أسماء بعينها في أبواب وقلَّ في أبواب أخرى، فثابتٌ -مثلًا. وهو صاحب كتاب في خلق الإنسان يتردد ذكره كثيرًا في الجزأين الأول والثاني، اللذين يدوران حول هذا الموضوع.

وكذلك الأمر بالنسبة لأبي حنيفة الدينوري، فقد تردد اسمه كثيرًا في كتاب النبات؛ لأنه اتخذ من كتابه في النبات أساسًا بنى عليه وزاد عليه ما وجده في المصادر الأخرى.

لقد تهيأ لصاحب (المخصص) من المصادر والمراجع عدد كبير، وتمكن هذا العالم الفذ من الانتفاع بتلك المصادر اللغوية، التي وضع يده عليها، بل سعتها ذاكرته وسجلها وعيه، والمطلع على (المخصص) يعجب لكثرة تلك المصادر والمراجع، ويرى نفسه في موقف المتسائل عن كيفية النسج والربط، بين تلك النقول المتواردة أو المتخالفة أو المترادفة أحيانًا في الموضوع الواحد.

هل كان صاحبنا يستخدم نظام البطاقات أو الجذاذات؟ هل ثمة مساعدين كانوا يقومون معه بعملية التجميع والإحصاء؟

أسئلة كثيرة يحتاج البحث اللغوي إلى الإجابة عنها، إذا أراد الكشف عن حقيقة تلك المصادر وكيفية استخدامها من ذلك المؤلف البصير، لقد أفاد الرجل من

(الغريب المصنف) لأبي عبيد إفادة ظاهرة واضحة، كما أفاد كذلك من كتب الأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة وأهل طبقتهم، وأخذ من كتب ابن السكيت كـ: (إصلاح المنطق) و(الألفاظ)، ولم يهمل الأخذ عن كتاب (العين) للخليل وعن كتاب (الجمهرة) لابن دريد وكتاب (البارع) لأبي علي القالي، وأخذ من كتب ابن قتيبة وابن الأنباري، وأفاد في النحو من سيبويه والسيرافي وأبي علي الفارسي وابن جني وغيرهم.

يمكن القول بإيجاز: إنه لم يترك كتابًا أو معجمًا في اللغة أو مؤلفًا في النحو أو الصرف أو في غيرهما من علوم الأدب إلا أفاد منه، وكان ذلك سببًا في تنوع مصادره.

فـ(المخصص) يعطينا أكبر مادة وصل إليها لغويو العرب في الموضوعات، التي عقد لها كُتبًا وافية، فهو أشمل كتب الموضوعات وأجمعها، إلى جانب ما يحمله من المعارف النحوية والصرفية.

لقد أفاد ابن سيده من كل هذه المصادر، حين قسَّم مخصصه إلى كتب يبحث كلٌّ منها في موضوع محدد، أو على الأقل كان يفترض أن يبحث في موضوع محدد، وكانت هذه الكتب أشبه ما تكون بالرسائل المفردة لمواضيع لغوية محددة.

ومن هذه الكتب التي حواها (المخصص):

كتاب خلق الإنسان، كتاب الغرائز، كتاب النساء، كتاب اللباس، كتاب الطعام، كتاب السلاح، كتاب الخيل، كتاب الإبل، كتاب الغنم، كتاب الوحوش، كتاب السباع، كتاب الحشرات، كتاب الطير، كتاب الأنواء، كتاب النخل، كتاب المُكنيات والمبنيات والمثنيات، كتاب الأضداد، كتاب الأفعال والمصادر، كتاب المقصور والممدود... إلى آخره.

وتقسم تلك الكتب إلى أبواب جزئية، يعالج فيها ابن سيده أجزاء من موضوع تلك الكتاب، وتتخلل تلك الكتب أبوابًا فرعية يعالج فيها موضوعات أخرى خارج تلك الكتب.

٣- مميزاتهُ:

أولًا: وضوح شخصية ابن سيده فيه؛ إن ابن سيده لم يكن مجرد جامع لمفردات اللغة، وإنما كان يقظًا لما يمليه، فإذا رأى أنه في حاجة لتدخله الشخصي فيما يعرض من آراء تدخل وإلا احترم نفسه، وأملاه كما حفظه ووعته ذاكرته؛ ولذلك نراه أحيانًا يستدرك على مشاهير علماء العربية، فقد استدرك على ابن دريد وعلى أبي حاتم وعلى أبي عبيد وعلى ثابت وعلى صاحب (العين) الخليل بن أحمد، وعلى أبي زيد وعلى ابن السكيت، وعلى ابن الأعرابي وعلى النضر، فابن السكيت حين قال: إذا كان -يعني الرجل- هشًّا سريعًا للمعروف قيل: إنه لخرق من الرجال، وفلان يتخرق في ماله إذا كان يتصرف فيه بالمعروف. ولما نظر ابن دريد في الخرق من الرجال قال: الجمع أخراق ومخاريق. هنا تدخل ابن سيده وقال: ليس مخاريق جمع خرق، إنما هو جمع مخراق، وهو في معنى خرق. هذا نموج من تدخله واستدراكه على العلماء.

ثانيًا: يلمس القارئ في (المخصص) أن ابن سيده كان يختار ألفاظه بعناية، فكان ينتقي اللفظة الفنية وينتقي المصطلح الخاص، فكان يحسن الاختيار والانتقاء من الكتب العديدة التي قرئت عليه، فهو لم يكن مجرد ناقل لا يميز بين ما ينقله، بل كان له اختيار حسن وانتقاء جيد.

ومن أمثلة ذلك: أن ابن سيده في الفصول التي خص بها الكائن البشري، لا يحدثك مثلًا عن الأخلاق التقليدية التي أفاض فيها العرب كالبخل واللؤم، بل

يعقد أيضًا بابًا للظُرف، وإذا ما حدثك عن النساء لا يكتفي بذكر المحاسن والمساوئ كما خلدها شعراء الجاهلية والإسلام، بل يُفسح المجال للحديث أيضًا عن الحلي والتجمُّل والرشاقة والأناقة النسائية، وهو يمر على ذكر الهودج ويطوي أمره طيًّا في بعض أسطر؛ ليسهب فيما هو أقرب للحضارة والتمدُّن.

ثالثًا: تميزت التعاريف الخاصة التي أوردها ابن سيده في مواده اللغوية الغريبة بالهندسة والتنسيق؛ حتى يجعلها مأنوسة قريبة إلى الأذهان وإلى قرائه، فهو لم ينقل نقلًا عشوائيًّا لمجرد ملء فراغ الكتاب بمواد لغوية؛ إنه ينسق بين الأقوال ويطوف حول الكلمة حتى تستوفي حقها من المعنى، والسمة السائدة في (المخصص) يمكن أن تلحظها حين تراه يشرح المفردات، وتشعر أن عملًا جماعيًّا وجهدًا مشتركًا يظهر في ثنايا الكتب والأبواب؛ حيث ترى ثلة من أئمة اللغة تنير بمختلف أقوالها الألفاظ من مختلف جوانبها المعنوية والصرفية والنحوية أحيانًا.

رابعًا: أنه يحرص مؤلفه فيه على جمع معاني اللفظ وتعاريفه، فقد يذكِّر قارئه بأنه قد سبق معنى آخر لهذا اللفظ، ثم يذكر هذا المعنى، وهذا يدل على يقظة ابن سيده في التأليف وعلى معرفته بكل خوافي كتابه، فحينما ينقل عن أبي عبيد أن الهجْرع هو الأحمق يقول: وقد تقدم أنه الطويل والقصل. وحينما نقل عن صاحب (العين) أن الهَبَيَّخَةَ: الجارية السارة يقول ابن سيده: وقد تقدم أنها المرضعة وأنها الجارية عامة، وهكذا.

وقد ذكر أعضاء جمعية إحياء العلوم العربية أن هذا الكتاب يعد معلمة مبوبة تبويبًا عقليًّا، تضم المعارف البشرية ضمًّا منطقيًّا حول أمهات الآراء، وعلى الرغم من أن بعض الباحثين لا يرون هذا الرأي، ويرون أن (المخصص) على وفرة مادة وجليل فائدته ليس من الاستيعاب للعلوم البشرية المعروفة في عصر

المؤلف في شيء، فإن ذلك مع ما فيه من صدق لا يقلل من أهمية ذلك الكتاب، ولا يغض من قدره؛ ذلك أن قيمة كل كتاب إنما تتحدد بمدى تحقيقه لأغراض مؤلفه، وتنفيذه لما رسمه لنفسه من طريق أو منهج.

ومن الواضح أن ابن سيده لم يدَّعِ لنفسه ما ادعاه الآخرون عن إعجاب، ولم يقل: إنه سيحيط بكل شيء في هذا الكتاب، لقد رامَ الشيخ غرضًا لغويًّا ورسم منهجًا علميًّا لتحقيق ذلك الغرض، وقد أصاب الهدف في أكثر ما كتب وطبق المفصل في معظم ما دوَّن، فكان على الرغم من بعض المآخذ، التي أخذت عليه المرجع الأولى والمصدر الأوفى بين معاجم المعاني والموضوعات، وعرف له الناس قدره وأدركوا أن قيمته تكمن في ترتيبه، وفيما احتوى عليه من ثروة لغوية لم تقتصر على العتيق البالي، بل عمت حياة الحضارة أيضًا بمختلف ألوانها ودروبها، بما يجعلنا نظفر فيه بألفاظ وعبارات تؤدي أغراضنا اليوم تمامًا، أو يمكن أن تستعار إلى ذلك على الأقل.

٤ـ قيمتهُ وأثرهُ فيمن بعده:

لقد عرف العلماء المعاصرون "للمخصص" قدره فأخرجوه للناس ودرسوه، وقام بعضهم باختصاره بعد أن رأوا أنه أرفع كتب اللغة وأوسعها وأحكمها نظامًا وتبويبًا وأفضلها تنسيقًا وتهذيبًا، وهو كالبحر مليء بالدرر؛ فغاص بعض الباحثين، واستخرج أحدهم منه ثروة نحوية في رسالة للدكتوراة ودرسه العرب والمستشرقون، فدرسه الأستاذ محمد الطالبي التونسي تحت إشراف المستشرق الفرنسي "بلاشير رجيس"، وتم نشر هذه الدراسة في كتاب يحمل عنوان (المخصص لابن سيده - دراسة ودليل)، وطبع هذا الكتاب بتونس سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف للميلاد.

كما درسه المستشرق الأسباني "كابنيلس"، ونشرها في مجلة منوعات من الدراسات العربية والعبرية، التي أصدرتها جامعة غرناطة في أكتوبر سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف تحت عنوان (المخصص - لابن سيده المرسي أول معجم موضوعي في الغرب الإسلامي)، كما درسه الدكتور حسين نصار في ثنايا كتابه (المعجم العربي - نشأته وتطوره)، الصادر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، وتعرض فيها لابن سيده في أماكن عدة، كما درسه دراسة موجزة "ألبير حبيب مطلق" ضمن كتابه (الحركة اللغوية بالأندلس، منذ الفتح العربي وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف)، كما درسه بإيجاز الدكتور فوزي يوسف الهابط تحت عنوان: (ابن سيده والمخصص وشخصيته فيه)، ونشرها في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية في العدد الخامس عشر، سنة ست وتسعين وتسعمائة وألف من الميلاد، ولا يزال الباحثون ينظرون في (المخصص) ينظرون في ضبطه وفي تصحيحه وفي تحقيقه تحقيقًا علميًّا، ولا تزال المكتبات في أنحاء العالم تنشره وتكرر هذا النشر.

٥- نقدُ المخصَّصِ ومعاجم الموضوعات:

بالنسبة للمخصَّص:

أولًا: نلمح فيه بعض الاضطراب؛ فمصطلح كتاب ليس موضوعًا دائمًا في مكانه من (المخصص) بل أحيانًا يوضع وأحيانًا يستبدل بمصطلح أبواب وأحيانًا بمصطلح باب، وأحيانًا أخرى لا يذكر هذا ولا ذاك؛ مما أحدث نوعًا من الفوضى في تنظيم (المخصص).

ثانيًا: المفروض أن تقسم هذه الكتب الكبيرة في (المخصص) إلى أبواب فرعية، لكنه كان قليلًا ما يتوجها بلفظ باب، وغالبًا ما يتركها هكذا عارية مكتفيًا بعنوان الموضوع.

ثالثًا: اختلاف حجم الأبواب فيه؛ إذ تختلف الأبواب أو الموضوعات المتفرعة من الكتب فيما بينها من ناحية الحجم اختلافًا بعيدًا؛ إذ بينما لا يزيد بعضها عن سطر واحد وعشر السطر نرى بعضها يشغل صفحات عديدة تصل إلى سبع صفحات ونصف، ويؤخذ عليه الاستطراد وعدم التقيد بصُلب الموضوع.

وهذه المآخذ لا تغض من قيمة الكتاب، كما ذكرت.

ويؤخذ على المعاجم الموضوعية بصفة عامة:

أن كثيرًا من الألفاظ تأتي بمعان كثيرة، والباحث لا يعرف في أي الأبواب يعثر على مطلبه، وكثيرٌ من الصفات يشترك فيها الكائن الحي، سواء أكان إنسانًا أم حيونًا أم نباتًا، بل هناك من الصفات ما يشترك فيه الكائن الحي والجماد، وهذا مما يصعب على الباحث الحصول على مبتغاه.

إذًا صعوبة البحث في (المخصص)، وفي بقية كتب المعاجم المعنوية من أبرز ما أخذ عليها.

معاجم مدرسة التقليبات: مدرسة التقليبات الصوتية

عناصر الدرس

العنصر الأول : الانتماء المعجمي لمدرسة التقليبات الصوتية ١٥٣
العنصر الثاني : مؤلفو معاجم مدرسة التقليبات الصوتية ١٥٤
العنصر الثالث : منهج مدرسة التقليبات الصوتية ١٥٨
العنصر الرابع : النقود الموجَّهة إلى مدرسة التقليبات الصوتية ١٦٨

الانتماء المعجمي لمدرسة التقليبات الصوتية

مدرسة التقليبات الصوتية تضم: (العين) للخليل، و(تهذيب اللغة) للأزهري، و(المحيط) للصاحب بن عباد، و(المحكم والمحيط الأعظم في اللغة) لابن سِيده، و(البارع) لأبي علي القالي.

هذه الكتب التي تُميز هذه المدرسة المعجمية عن غيرها تنتمي إلى المعاجم العامة اللفظية، وهي تلك المعاجم التي يهدف أصحابها أو مؤلفوها إلى جمع الألفاظ بصورة عامة، وترتيبها ترتيبًا معينًا، وتعريفها وشرحها دون النظر إلى وحدتها الموضوعية أو الدلالية.

ومن ثم فإنك ترى المجموعة اللفظية فيها متناثرة؛ لفظًا من هنا، ولفظًا من هناك.

إن الذي يهم مؤلف مثل تلك المعاجم هو: جمع الألفاظ المتماثلة صوتيًّا كما في هذه المدرسة، أو هجائيًّا كما في مدارس أخرى، المهم جمع الألفاظ المتماثلة في مكان واحد، مع وضع سمة لكل مجموعة منها، وترتيبٍ يهتدي به الباحث إلى ما يريده فيها.

ويلاحظ على معاجم هذه المدرسة الصوتية: أنها اتخذت المادة الصوتية أساسًا لها في عملية الجمع والترتيب، مع مراعاة الجذور المختلفة والأصول التي تأتي من هذه المادة، فهي لا تنظر إلى الكلمة أو المفردة في صورتها التي هي عليها، وإنما تنظر إليها نظرة تجردها من كل زيادة على مادتها الأصلية، ومن كل تغيير أو تصرف حدث في تلك المادة، فإذا ما ظهرت لها تلك المادة اللغوية المجردة فإنها تجعلها أساسًا تجمع فيها كل مفردة تنتمي إلى تلك المادة، وقد لا يكتفي بعضها بهذا، بل يصر على التقديم والتأخير، أو ما يسمى بالتقليب في المادة الصوتية على ما سيأتي توضيحه قريبًا إن شاء الله.

مؤلفو معاجم مدرسة التقليبات الصوتية

يأتي على رأس هذه المدرسة مبتكرُ فكرتها ورائدها الخليلُ بن أحمد، فَمَن الخليل؟

الخليل هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي أو الفرهودي، نسبةً إلى "فرهود" من بطون قبيلة الأزد، قد وُلِدَ في عمان، لكنه نشأ وتعلم وعلَّم بالبصرة، فنسب إليها، والمرجح أنه ولد في سنة مائة من الهجرة، وكان سيد أهل الأدب قاطبةً في علمه وزهده، وكان الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليله، كما يقول مَن ترجم له، وقد تلقى علمه عن شيوخ كثيرين من أشهرهم القارئ واللغوي الشهير أبو عمرو بن العلاء، المتوفى سنة ست وخمسين ومائة، وقد روى الحروف عن عاصم بن أبي النجود، وعبد الله بن كثير، وأخذ عنه العلم أعلامٌ كثيرون، من أشهرهم الأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة، والنضر بن شميل وأبو فيد، ومؤرج السدوسي، وعلي بن نصر الجهضمي، والكسائي وسيبويه، والليث، وغيرهم.

وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكل ما قال سيبويه: سألته أو قال، من غير أن يذكر قائلًا، فهو الخليل بن أحمد.

وكان الخليل عبقريًا، ففتح الله عليه أبوابًا من العلم لم يهتدِ غيره إليها، وكان لسعة ثقافته وإلمامه الواسع بعلوم عصره أثرٌ كبير فيما اخترعه من نظريات وعلوم، فقد وضع علم العروض، وموسيقى الشعر العربي على غير مثال سابق، كما وضع نظام الشكل، وضبط حروف العربية، واهتدى بفضل معارفه الصوتية إلى النظام الصوتي للغة العربية، وتمكّن مع كل هذا من وضع النظام المعجمي الأول لكلام العرب، مستخدمًا في حصره وإحصائه القوانين الرياضية

والحسابية، وفي تأليفه وترتيبه القوانين الصوتية والصرفية. وكان له في النحو من الأفكار والنظريات والتطبيقات ما لم يُسبق إليه أيضًا، كما كان له في علم الموسيقى العربية قدم راسخ، وفي الدراسات الرياضية إسهام بارز.

وهكذا نرى الخليل عقلية جامعةً واسعةً أثمرت من الفكر والعلم ما حمله الأمناءُ من التلاميذ السابقين، وما حفظته الأوراقُ في مؤلفات ضاع -مع الأسف- أكثرها، وعدت عوادي الزمن على ما بقي منها، حتى لا نكاد نعثر على كتاب منها، فقد ذكروا من مؤلفاته: (النقط والشكل)، و(العروض والشواهد والجمل والإيقاع)، كما ذكروا كتاب (العين) وهو -بحمد الله- قد وصل إلينا.

وقد عرف الخليل إلى جانب شهرته في العلم، بالتقوى والزهد والتفرد في الكرم والأخلاق.

وقد عثر على نسخ من كتاب (العين) وجرَى العمل على طبعه وإخراجه للناس، وهو أول معجم ظهر في العربية، وكان له أثره الكبير فيمن أتى بعدَه من العلماء عَبْر القرون، ومنهم الأزهري حين ألف كتابه (تهذيب اللغة).

فَمَن الأزهري؟

إنه أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر الأزهري الهروي الشافعي، والأزهري نسبة إلى جده الأكبر، والهروي نسبة إلى مدينة "هراة" تلك المدينة التي وُلد بها في سنة اثنتين وثمانين ومائتين من الهجرة، والشافعي نسبة إلى المذهب الفقهي الذي كان عليه، عاش أبو منصور فترة من حياته في مسقط رأسه بـ"هراة" ثم بَدَا له أن يحج، فذهب إلى الحجاز، وفي أثناء عودته وقع في أَسْر جماعة من الأعراب في الفتنة المعروفة بـ"فتنة القرامطة" سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وكان سِنه إذ ذاك ثلاثين سنة تقريبًا. وقد بقي في هذا الأسر فترة طويلة

عايش فيها قومًا من العرب معظمهم -كما يقول- من هوازن، يختلط بهم أصرام من تميم، وأسد، نشئوا في البادية، يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى إعداد المياه ويرعون الغنم أو النعم، ويعيشون بألبانها ويتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادها، ولا يكاد يقع في نقطهم لَحْنٌ أو خطأ فاحش.

وقد أفاد الأزهري من هذه المحنة في جمع اللغة وتحصيلها، حيث قال: واستفدت من مخاطباتهم ومحاورتهم بعضهم بعضًا ألفاظًا جمّة، ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب، وستراها في مواضعها إذا أتت قراءتك إليها إن شاء الله.

وقد تخلص الأزهري بعد ذلك من الأسر ودخل إلى بغداد، فأخذ عن علمائها وتلقى من شيوخها وأساتذتها، لكنه لم يلبث أن عاد إلى مدينة "هراة" يواصل الأخذَ من علمائها، ويعلم أبناءها، ويشرع في تصنيف كتبه، وقد سمع الأزهري بـ"هراة" قبل الأسر من الحسين بن إديس ومحمد بن عبد الرحمن وطائفة، كما أخذ أيضًا وتلقى عن طائفة من العلماء أشهرهم نفطويه، المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وأبو بكر محمد بن السري بن سهل المعروف بابن السراج، المتوفى سنة ستة عشرة وثلاثمائة، وأبو القاسم البغوي، المتوفى سنة سبعة عشرة وثلاثمائة. كما تلقى عند عودته إلى "هراة" مرة أخرى عن مشايخها من أمثال المنذري، المتوفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

وقد أخذ عن الأزهري كثيرون، من أشهرهم أبو عبيد الهروي صاحب كتاب "الغريبين": (غريب القرآن) و(غريب الحديث) المتوفى في السنة الأولى بعد الأربعمائة.

وألّف الأزهري كتبًا كثيرًة أهمها (تهذيب اللغة)، وهو هذا الكتاب المنتمي إلى المدرسة التي نحن بصددها الآن، وهي مدرسة التقليبات الصوتية، كما ألف

كتاب (الأدوات) وهو في النحو، كما ألف (تيسير إصلاح المنطق) لابن السكيت، وألف (التقريب في التفسير) وألف (تفسير أسماء الله ﷻ) و(تفسير السبع الطوال) و(تفسير شعر أبي تمام) (تفسير شواهد غريب الحديث) لأبي عبيد، وألف (علل القراءات)، وغير ذلك.

وقد توفاه الله بـ"هراة" سنة سبعين وثلاثمائة من الهجرة.

كما تأثر بالخليل أيضًا الصاحبُ بن عباد في كتابه (المحيط)، فَمَن الصاحب؟

هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وتوفاه الله سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وهو الوزير المشهور الذي غلب عليه الأدب، ولُقب بالصاحب؛ لصحبته لمؤيد الدولة الذي عينه في منصب الوزير، كما تأثر بالمدرسة نفسها، وبفكر الخليل أبو علي القالي في كتابه (البارع في اللغة). إنه إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغوي، حيث كان أحفظَ أهل زمانه للغة والشعر، ونَحْو البصريين، تلميذُ ابن دريد ونفطويه وابن درستويه، وغيرهم، وأستاذ أبي بكر الزبيدي صاحب (مختصر العين). ولقد طاف بالبلاد فترك موطنه الأصلي ومسقط رأسه "أرمينيا" وسافر إلى بغداد؛ طلبًا للعلم سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة وكان في الخامسة عشرة من عمره، ومكث فيها خمسة وعشرين سنة، ثم سافر إلى بلاد الأندلس، فدخل قرطبةَ في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر.

وقد اعتمد القالي في مادة كتابه على معجم (العين) للخيل بن أحمد اعتمادًا كبيرًا؛ ولذلك كان كتابه منتميًا إلى مدرسة الخليل "مدرسة التقليبات الصوتية".

وأخيرًا، ينتمي إلى مدرسة الخليل نفسها ابن سيده في كتابه (المحكم) و(المحيط الأعظم)، وقد تحدثنا عن ابن سيده، وترجمنا له في أثناء حديثنا عن كتابه (المخصص).

منهج مدرسة التقليبات الصوتية

إن الرابطة المشتركة التي تجمع كتب هذه المدرسة هو ترتيبها حروفَ الهجاء بحسب مخارجها، وجعل هذا الترتيب أساسَ تقسيمها إلى كتب، ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعًا للأبنية، ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب، والتزمت جميعها ترتيب كتاب العين للمخارج، إلا (البارع) الذي سار على ترتيب مخالف أخذ أغلبه من ترتيب سيبويه مع خلطه بأشياءَ من ترتيب كتاب (العين).

وكان لكل كتاب من هذه الكتب هدفٌ خاص، فقد كان هدف الخليل حصر اللغة، واستقصاء الواضح والغريب منها، وهدف الأزهري تهذيبها وتخليصها من الغلط والتصحيف مما وقع فيه الخليل وابن دريد وغيرهم، وهدف ابن سيده جمع المشتت من اللغة في الكتب المتفرقة، وتصحيح ما فيها من أخطاء في التفسيرات النحوية، وهدف القالي يشبه هدف الأزهري.

إن مدرسة التقليبات الصوتية وكتبها هذه تعد الدعامة الرائدةَ في تأليف معاجم اللغة، فهي التي تجمع الكلمات المتحدة الحروف، وتجعلها في نطاق واحد، مع ملاحظة الناحية الصوتية وهي وضعها تحت أبعد الحروف مخرجًا، فيُبدأ بالحروف الحلقية، ثم باللسانية، ثم بالشفوية.

فمثلًا: الكلمات المكونة من الراء والكاف والباء، تراها في باب واحد مهما اختلف ترتيبها، فهذه المادة ثلاثية، تجد تقليبات هذه المادة هي: الكاف والراء والباء، والكاف والباء والراء، ثم الراء والكاف والباء، والراء والباء الكاف، ثم الباء والكاف والراء، ثم الباء والراء والكاف، وحينما تتأمل مخارجَ حروف هذه المادة تجد أن الكافَ تخرج من أقصى اللسان مع ما يُحاذيه من الحنك الأعلى بعد

مخرج القاف، وتجد الراءَ تخرج من طرف اللسان مع أصول الثنيتين العليين، وتجد الباءَ تخرج من بين الشفتين. وحينما تقارن بين هذه المخارج الثلاثة تجد أن أقصى أو أبعد هذه الحروف مخرجًا هو الكاف، فالكاف صوت لهوي، والراء صوت ذلقي، والباء صوت شفوي، واللهاة تسبق الذلق وكذلك الشفة.

ولذلك يبحث عن هذه الكلمات المأخوذة من الراء والكاف والباء في باب الكاف، فصل الراء، مع الباء؛ الكاف أولًا، ثم الراء ثانيًا؛ لأن الراء تسبق الباءَ في المخرج. وأول مَن استنّ هذه الطريقة وابتكرها أو ابتدعها واخترعها -كما قلت- هو رائد المعجمات العربية الخليل بن أحمد في كتابه (العين)، وتبعه من علماء المشارقة الأزهري في كتابه (التهذيب) والصاحب بن عباد في (المحيط)، ومن علماء المغرب العربي أبو علي القالي في كتابه (البارع) وابن سيده في كتابه (المحكم).

وترتيب الحروف في هذه المدرسة هو: ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و أ ي ء.

والعين والحاء والهاء والخاء والغين حروفٌ حلقية، والقاف والكاف حرفان لهويان، والجيم والشين والضاد شجرية، والصاد والسين والزاي أسلية، والطاء والدال والتاء نِطعية، والظاء والذال والثاء لثوية بالمفهوم القديم، والراء واللام والنون ذلقية، والفاء والباء والميم شفوية، والواو والألف والياء والهمزة في عُرف الخليل وفي عرف هذه المدرسة تُلقب بالأصوات الجوفية أو الهوائية. وقد أكثر الأدباء من نَظْم الأبيات في بيان ترتيب العين.

من ذلك قول أبي الفرج سلمة بن عبد الله المعافري الجزيري:

يا سائلي عن حروف العين دونكها ❖ في رتبة ضمَّها وزن وإحصاء

العين والحاء ثم الهاء والخاء ❖ والغين والقاف ثم الكاف أكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها ❖ صاد وسين وزاي بعدها ـاء
والدال والتاء ثم الطاء متصل ❖ بالظاء ذال وثاء بعدها راء
واللام والنون ثم الفاء والباء ❖ والميم والواو والمهموز والياء

ذكر هذا السيوطي في مزهره.

وكما ترى ففي الأبيات اختلافٌ يسير في ترتيب بعض الحروف، ففي الأبيات زاي طاء دال تاء طاء، فكرر الطاء وقدم الدال على التاء، ولعل ذلك من اختلاف الروايات أو بسبب نسيان الراوي، كما أن في الأبيات بعد الميم الواو، فالمهموز أي: الهمزة، فالياء، ولم يرد ذكر الألف ولعله مع المهموز أو قبله أو بعده، ولا ضَيْرَ في هذا الاختلاف اليسير، فهذا شأن المنظومات يحكمها الوزن والقافية.

وترتيب العين هو ترتيب (المحكم) لابن سيده، إلا أن ابن سيده خالفه في الأخير، فَرَتَّبَ بعد الميم الألف والياء والواو، وقد تأثر بالترتيب نفسه بقية الكتب التي ذكرتها.

أما بالنسبة لتقليب المادة، فهناك ثلاث طرق لاستخراج التقليبات: طريقة المثلث، وطريقة الدائرة، وطريقة الترقيم.

وهذه الطرق الثلاث يستخرجها بها تقليبات الثلاثي، وهي ستة، تبدأ بكل حرف مرةً فينتج كلمتين، فالكاف والتاء والباء حينما تضعها على رءوس المثلث، وتبدأ بالكاف يَمنةً ويسرةً، ينتج كلمتين، فالكاف حينما تبدأ بها يتحصل كاف وتاء وباء، ويتحصل مرة أخرى كاف وباء وتاء، وكذلك حين تبدأ بالتاء يمنةً ويسرةً يتحصل تاء وكاف وباء، وكذا تاء وباء وكاف، أما إذا بدأت بالباء يمنة مرة ويسرة أخرى، ينتج أيضًا كلمتان: الباء والتاء والكاف، والباء والكاف والتاء، وهكذا.

وأقرِّب تلك الفكرة بالنظر إلى المثلث أيضًا حينما توزِّع على زواياه فاء وتاء وحاء، فإنَّا إذا ابتدأنا بالحرف الذي في رأسه هو الفاء، نجد أن معنى المادة: فاء تاء حاء، وأخرى: فاء وحاء وتاء، وحينما نبتدئ بالزاوية اليمنى فإننا نحصل على المادة: التاء فالحاء فالفاء، والأخرى: تاء وفاء وحاء، وحينما نبدأ بالزاوية اليسرى فإننا نحصل على المادتين: حاء فاء تاء، وحاء تاء فاء على التوالي، ويبقى بعد ذلك اختيار المادة التي تُذكر قبل أخواتها، أو المادة التي يكون لها الاعتبار عند الترتيب في المعجم.

لقد اختار الخليل بن أحمد - رائد علم المعجمات - أن يُرتب تلك المواد على أساس صوتي، فجمع تلك التقليبات تحت أدخل أصواتها مخرجًا بعد أن رتَّب أصوات العربية ترتيبًا مخرجيًّا، بادئًا بأصوات الحلق، منتهيًا بأصوات الشفة، مراعيًا مع ذلك النظام الكمي، فكان يبدأ كل حرف أو كل ما سمَّاه كتابًا بالألفاظ الثنائية، ثم الثلاثية، ثم الثلاثية المعتلة، ثم اللفيف، ثم الرباعية، ثم الخماسية، وعلى هذا الأساس -من مراعاة المواد، والتقليبات، والترتيب الصوتي، والتدرج في الأبنية، والإشارة إلى المهمل منها. ظهرت طائفة من المعاجم يطلق عليها "معاجم الترتيب الصوتي"، وهذه الكتب هي: (تهذيب اللغة) لأبي منصور الأزهري، و(البارع) لأبي علي القالي، و(المحيط) للصاحب بن عباد، و(المحكم) و(المحيط الأعظم) لأبي علي بن سيده. وقد عدَّ الباحثون تلك المجموعة وما دار حولها من دراسات مدرسةً معجميةً مستقلةً، وعلى الرغم من أن منهج هذه المدرسة أو المجموعة المعجمية يُعدُّ في رأي بعض الدارسين من أفضل المناهج، وبخاصة فيما يتصل بالترتيب الصوتي الذي يربط بين المعجم والدراسات الصوتية، ويجعل الباحث على وعيٍ بصوتيات لغته وأدائها، فإن لبعضهم عليه بعضَ المآخذ.

إن كتب هذه المدرسة تقسِّم كل حرف من هذه الحروف إلى مضعف الثلاثي، ومضعف الرباعي، والصحيح، والمعتل، والرباعي، وتتبع في كل قسم من هذه الأقسام طريقة التقاليب، وهذه الطريقة تُنتج في الثنائي -الذي هو مضعف الثلاثي- إمكانيتين لا غير؛ فالعين والقاف تقلبان إلى تقليبين: عين وقاف، وقاف وعين، وكذلك العين والكاف تقلَّب إلى تقليبين: عين وكاف، وكاف وعين. أما الثلاثي ففيه ستة تقاليب على ما اتضح آنفًا عن طريق المثلث، أو عن طريق الدائرة، أو عن طريق الترقيم، حين تضع: "واحد اثنان ثلاثة"، وتضع تحت واحد كافًا، وتضع تحت اثنين تاءً، وتضع تحت ثلاثة باءً، ثم تحاول أن تقرأ ما تحت واحد، ثم اثنين وثلاثة، ثم واحد وثلاثة واثنين، ثم تنتقل لرقم "اثنين" يمنةً ويسرةً، فتقرأ: "اثنين، واحد، ثلاثة"، و"اثنين ثلاثة واحد"، ثم تقرأ ما تحت رقم ثلاثة: "ثلاثة، واحد، اثنين"، ثم "ثلاثة، اثنين، واحد"، وهكذا.

وأما الأصل الرباعي فيُقلب إلى أربعة وعشرين تقليبًا من الناحية النظرية. وأما الخماسي فيقلب إلى مائة وعشرين تقليبًا.

وقد أفاد الخليل من معارفه الرياضية في الوصول إلى هذه التقاليب أو التقليبات، وقد أشار إلى المهمل والمستعمل ولا يهمه -بل لا يهم المدرسة كلها. إلا المستعمل فقط؛ ولذلك نراهم ينبهون على المستعمل من هذه التقاليب، فمثلًا في باب العين والهاء والدال، ينبه الخليل إلى أن العين والهاء والدال، والعين والدال والهاء، والدال والهاء والعين مستعملاتٌ فقط، ومعنى هذا: أن هناك ثلاثة تقاليب أخرى غير مستعملة من هذه المادة، تركها الخليل وغيره، ويضم حرف العين في كتاب الخليل جميعَ الكلمات التي تتضمن صوت العين في أي مَوْضع منها، ثم يليه حرف الحاء، ويضم جميع الكلمات المشتملة على حاء في أي موضع منها،

مع استبعاد الكلمات التي فيها عين ؛ لأنها قد ذكرت في حرف العين، ثم يلي ذلك حرف الهاء مشتملًا على الكلمات التي دخلتها الهاء، عدا ما يشتمل منها على عين أو حاء، أو هكذا، حتى إذا وصلنا إلى باب الميم مثلًا وجدناه لا يكاد يعدو صفحة أو صفحتين، في حين أن باب العين -وهو الباب الأول- باب ضخم جدًّا، بل إنه أضخم أبواب الكتاب. بهذا يكون المعجم قد أخذ شكلًا هرميًّا معكوسًا، قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل.

وقد تطورت أسس التقسيم المشترك بين هذه الكتب، فكان كتاب (العين) يحتوي على أربعة أبواب في كل حرف: الثنائي المضعف، فالثلاثي الصحيح، فاللفيف، فالرباعي والخماسي معًا، والثنائي المضعف عنده: ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ولو مع تكرار أحدهما، أو تكرارهما في أي موضع ؛ لذلك نرى فيه "قَدْ" المخففة، و"قدَّ" المضعفة العين واللام، و"قدقد" وتجد فيه أيضًا "ددن" الدال دال فالنون، والقلق، والجلل، كل هذا تجده في باب الثنائي المضعف، ولا تجده في الثلاثي، إذًا الثنائي -في نظر الخليل- ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ولو مع تكرار أحدهما أو تكرارهما في أي موضع ؛ في الأول في الوسط في الآخر، وبعد الثنائي يأتي الثلاثي الصحيح، وبعد الثلاثي الصحيح يأتي اللفيف، وقد اشتمل على الثلاثي المعتل الذي فيه حرف علة، سواء وقع أولًا، وهو المسمى بالمثال، أو وسطًا وهو مسمى صرفيًّا بالأجوف، أو آخرًا وهو المسمى بالناقص، ويشتمل على ما يعرف في الصرف باللفيف: وهو ما اجتمع فيه حرفا علة ؛ مفروقان مثل: وعى، أو مقرونان مثل: لوَى.

فالثلاثي المعتل مع اللفيف في قسم واحد، وإن كان المعتل يسبق اللفيف، ثم يأتي الرباعي والخماسي وقد جمعهما معًا تحت باب واحد ؛ لقلة الألفاظ التي وردت

منهما، وليس بعد الخماسي باب؛ لأنه ليس للعرب بناء في الأسماء والأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم، فاعلم أنها زائدة على البناء كما جاء في (تهذيب) الأزهري.

وسارت معظم الكتب على أسس الخليل هذه مع اختلاف طفيف أحيانًا، حيث فصل القالي ومَن جاء بعده الرباعي عن الخماسي، وأفردوا لكل منهما بابًا، وأفردوا من باب اللفيف الألفاظ الثلاثية المعتلة بحرف واحد، وجعلوها في باب واحد خاص باسم الثلاثي المعتل، كما حدث اختلاف بين هذه الكتب أيضًا في معالجة حروف العلة، فقد جمع الخليل ما فيه حرف علة أو حرفان مع المهموز، وخلطها في باب اللفيف، بينما نرى القالي قد فَصَلَ ما فيه حرف علة واحد باعتبار الهمزة من حروف العلة عما فيه حرفان، ولكنه لم يفصل المهموز عن اليائي أو الواوي، وحاول الأزهري فصل المهموز وافتخر بذلك، لكنه لم ينجح نجاحًا تامًّا، وفصل الصاحب بينهما في باب اللفيف، فقدَّم المبدوء بالحرف الصحيح، ثم ما أوله همزة، ثم ما أوله واو، ثم ما أوله ياء في أكثر المواضع، ولكنه لم يفعل ذلك في باب الثلاثي المعتل، وخلط الأنواع كلها، ونجح في فصلها ابن سيده في (محكمه) تبعًا لِمَا صنعه أبو بكر الزبيدي، حينما اختصر عين الخليل.

وحينما تطلع في مقدمات هذه الكتب المنتمية إلى المدرسة الصوتية، ترى تأثرها جميعًا بالخليل بن أحمد، اقرأ مثلًا مقدمة (المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد، تجده يقول بعد البسملة: كلام العرب مبني على أربعة أنحاء: الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، لا يجاوَز بناء الكلمة والحروف الأصلية ذلك إلا أن تلحقها الزوائد، فقد تبلغ بها حينئذٍ سبعة، نحو: القرعبلانة -وهي دويبة- فأما

الثنائي فإنه يجيء على ضربين ؛ ربما جاء وأصله ثلاثة ، نحو : دم فم شفة ، ويتبين الذاهب منه ما هو بالتصريف ، وربما جاء ولا أصلَ له في الثلاثي ، نحو : الأدوات ، وأسماء الزجر ، والحكايات ، مثل : من عَنْ ، صَه مَه ، طق قه ، والثلاثي نحو قولك من الفعل : ذهب وضرب ، ومن الاسم : حجر وشجر ، والرباعي من الفعل نحو : دحرج وقرطس ، ومن الاسم نحو : عقرب وعبقر ، والخماسي من الأفعال لا يكون إلا بالزيادة ، فأما من الأسماء فنحو : سفرجل ، ولا يجيء الخماسي إلا وفيه حرف أو حرفان من حروف الذلاقة ، ولها مخرجان ؛ فمنها : الفاء والباء والميم ، وهي من الشفة ، ومنها : الراء والنون واللام ، وهي من أسلة اللسان ، وكذلك الرباعي إلا أن يكون فيه أحد حرفي الطلاقة ، وهما العين والكاف أو كلاهما ، أو السين والدال أو إحداهما ، وهو مع ذلك قليل.

واعلم أن من الأبنية الصحيح والمعتل ، فالصحيح : ما سلم في أصل بنائه من حروف العلل ، وهي الواو والياء والألف ، والمعتل : ما شابه حروفه حرف أو حرفان منها ، فأما اللفيف : فما لا يكون فيه من الحروف الصحاح إلا حرف واحد ، فإن قال قائل : لِمَ ابتدأ الخليل عند ذكر الأبنية بالثنائي ، وقد قال سيبويه : أقل ما تكون الكلمة حرف واحد؟ قيل له : إنما أشار بالكلمة تسامحًا منه إلى حروف مفردة موصولة بأطراف الكلم ، لا يقدر على قطعها منه ، ولا تستقل بذواتها ، نحو : لام لقد ، وكاف هناك ، فأما الكلمة فلا يستحقها حقيقة إلا ما يمكن الابتداء به والوقف عليه ، وهذا لا يكون في أقل من حرفين ، فإن قال : فلمَ لم يبتدئ بما كان على حرفين نحو : من وصه ، إذ كانا أول الأبنية؟ قيل له : الثنائي قليل المورد في الكلام ، مضبوط العدد في الإحصاء ، حتى لم يجئ إلا أداةً أو ما شاكل الأداة ، أو ندهًا أو حكايةً -النده : الزجر- ولم يكن له تصريف مع

هذا ؛ لأن أكثر ما له القلب، وقلما يتفق استعماله على وجهين، فلما كان كذلك عدَلَ عنه إلى الأكثر مباني ومعاني، والأوفر حظًّا من التصاريف وقسمًا، وهو الثلاثي.

ثم قال الصاحب: واعلم أن الخليل لَمَّا هم بجمع كلام العرب أجالَ فكره فيما يبني عليه كتابه ويدير عليه أبوابه، فنظر في الحروف كلها وذاقها، ووجد مخرج الكلام كله من الحلق، فصير أولاها بالابتداءِ أدخل حرفًا منها في الحلق، وكان ذلك العين، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع، وهذه صورة الحروف، وذِكْر نسبتها إلى مخارجها، وهي تسعة وعشرون حرفًا: العين والحاء والهاء والخاء والغين حلقية، القاف والكاف لهويتان، الجيم والشين والضاد شجرية، الصاد والسين والزاي أسلية، الطاء والدال والتاء نِطعية، الظاء والذال والثاء لثوية، الراء واللام والنون ذلقية، الفاء والباء والميم شفوية، الياء والواو والألف والهمزة هوائية.

ثم قال الصاحب: فإن قال قائل: فَلِمَ ابتدأ الخليل بالعين، وقد قال سيبويه وجماعة من النحويين: للحروف العربية ستة عشر مخرجًا، فأقصاها مخرجًا الهمزة والهاء، ومن وسط الحلق العين والحاء، وأدناها الغين والخاء، فقد قرأت لشيخنا أبي العباس المبرد -رحمه الله- ما أحكيه، قال: "الذي ثبت عندنا عن الخليل أنه قال: مخارج حروف الحلق ثلاثة ؛ فالأول: مخرج الهمزة والهاء، والثاني: مخرج العين والحاء، والثالث: مخرج الغين والخاء، فإن كانت تقديمه العين من أجل أنها توسطت المخرجين ولحقت بالطرفين، فهو حسن، وإلا فلا معنى لإيثار تقديم العين. هذا آخر ما قاله.

ونحن نقول -والقول للصاحب بن عباد- : إن الهمزة والهاء وإن كان لهما التقدم في المخرج على أخواتهما من حروف حَلْقية، فإن الخليل إنما عدل عن الابتداء

بهما ؛ لأن الهمزة مهتوتة مضغوطة، فإذا رُفِّه عنها لانت فصارت ياءً أو واوًا أو ألفًا، وهذه طريقة تخالف طرق الحروف الصحيحة، ثم إنه يُتسلط عليها من نقل الحركات عنها والانقلاب والحذف، مثلما يُتسلط على حروف العلة أو أكثر، حتى عُدَّ من جملتها. والهاء أيضًا فيها هتة وخفاء -الهت: شبه العصر للصوت- وقد حذفت من الطرف حذف حروف المد واللين، وزِيدت زيادتها، وتُبدل من الهمز وتشركها في كونهما من الدرجة الأولى، فلما كان كذلك عُدِلَ عنهما إلى العين، ويقوي الابتداء بها أيضًا أنها مع كونهما على ما وصفنا أنصع الحروف جرسًا، وألذها سَمَاعًا، حتى لا تدخل في بناء إلا حسَّنته ؛ ولذلك كثر ترددها في كلامهم، حتى لا بابَ أكبر من العين، قال الخليل: "وإنما بدأنا الأبنية بالمضعف ؛ لأنه أخف على اللسان، وأقرب مأخذًا للمتفهم إن شاء الله".

انتهى كلام الصاحب إسماعيل بن عباد في مقدمة كتابه (المحيط في اللغة) بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين.

لقد بان أن كُتُب هذه المدرسة انتهجت النهج العام الذي أرسى دعائمه الخليل بن أحمد، حيث حصر مفردات اللغة، وأحصاها ذهنيًّا أو نظريًّا وعمليًّا، كما انتهجت نهجه الخاص وهو تصنيف تلك المفردات في كتاب واحد، وبان أيضًا أن ذكر الكلمات يكون تبعًا لحروفها الأصلية دون مراعاة الأحرف الزائدة أو المقلوبة عن أحرف أخرى، كما بان أيضًا أن المواد ترتب حسب مخارج حروفها، فالحلق يليه اللهاة، يليه الشجر، يليه الأسلة، يليه النِّطع، يليه اللثة، يليه الذلق، يليه الشفة، ثم يليه الجوف. والحروف الحلقية في العمل المنهجي الخاص بالعين تبدأ بحرف العين، فالحاء فالهاء فالخاء فالغين.

قضَى المنهج عند الخليل بأن يبدأ بالعين، حيث قال في مقدمته: "لم أبدأ بالهمزة ؛ لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف ؛ لأنها لا تكون في ابتداء

الكلمة، ولا اسم ولا فعل إلا زائدةً أو مبدَلةً، ولا بالهاء؛ لأنها مهموسة خفية، لا صوتَ لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصعَ الحرفين، فابتدأتُ به؛ ليكون أحسنَ في التأليف، ثم يلي حروف الحلق الحرفان اللهويان: القاف والكاف، يليهما الجيم فالشين فالضاد، يليها الصاد فالسين فالزاي، ثم الطاء فالدال فالتاء، ثم الظاء فالذال فالثاء، ثم الراء فاللام فالنون، ثم الفاء فالباء فالميم، ثم حروف الهواء: الواو والياء والألف والهمزة.

كما بان أن هذه الكتب قسمت أقسامًا على عدد الحروف، وبان أيضًا أن كل حرف مقسم إلى أبواب عدة، مراعًى في ترتيبها ما رُوعي في ترتيب الحروف، وبان أيضًا أن تبويب الكلمات يخضع لنظام الكمية أو نظام الأبنية، فرتبت كلمات كل كتاب أو باب أو حرف حسب الثنائي، فالثلاثي، فالرباعي، والخماسي، والثلاثي منه الصحيح ومنه المعتل ومنه اللفيف، ولهم نظرة خاصة في التعريف بالثنائي على النحو الذي بان لك، كما بان أنها تنتهج نهجَ التقليبات، فتعالج الكلمة ومقلوباتُها في موضع واحد، وتجمع تحت أبعد الحروف مخرجًا، وقد أشارت هذه الكتب إلى المستعمل من هذه التقليبات والمهمل، وحينما توضح هذه الكتب معاني الألفاظ، فإنها تستعين في شرحها بالشواهد من الشعر والحديث والأمثال والقرآن، ولكن اعتمادها على الشعر والقرآن كثيرًا، كما أنها تعتني بضبط الألفاظ بوسائل عدة.

النقود الموجهة إلى مدرسة التقليبات الصوتية

أولًا: صعوبة البحث فيها، ومشقة الاهتداء إلى اللفظ المراد، واستنفاد الوقت الطويل من الباحث؛ بسبب الترتيب على المخارج والأبنية والتقاليب، وكثيرًا ما وقع المؤلفون أنفسُهم في أخطاء في تلك الخطوات كما يقول الدكتور حسين نصار

في كتابه (المعجم العربي، نشأته وتطوره) بوضع كلمة في غير بنائها، أو اعتبار حرف مزيد أصليًّا، أو العكس، أو ما إلى ذلك مما يستحيل معه على القارئ الوصول إلى طلبته، ولعل تلك الصعوبة هي السبب الأول في قيام المدرسة الثانية من المعجمات، وهي "مدرسة التقليبات الهجائية"، إذ أحس القدماء بها فحاولوا تيسيرها، والتخلص منها.

ثانيًا: الاضطراب في حروف العلة والهمزة، وبابي اللفيف، والثنائي المضعف، حيث أدخلت بعض كتب هذه المدرسة في بابي اللفيف والثنائي المضعف كثيرًا من الصيغ التي لا تندرج تحتهما.

ويرى الدكتور نصار: أن الرباعي المضعف والأدوات والأصوات سببت كثيرًا من المتاعب لهذه الكتب، فهي تارةً تضع المضعف في الثنائي المضعف، وأخرى تضعه في الرباعي، وثالثة تضعه في قسم خاص من الثنائي المضعف، وتحار في هذا القسم الخاص فتضعه في المضعف من فائه ولامه، أو المضعف من فائه وعينه، والأدوات والأصوات توضع في الثنائي المضعف تارةً، وفي الثلاثي المعتل أخرى، حتى عندما تكون ثنائية خفيفة، وفي اللفيف ثالثة، فكان ذلك كله من دواعي التشتيت أو التكرير.

ولكن هذه المآخذ لا تغض من قَدْر هذه الكتب، ولا تنقص من الجهد الذي بُذِلَ فيها، وقد تميز كل كتاب بمَيْزة خاصة، فتميز (البارع) بالضبط والصحة، وتميز (التهذيب) بالجمع والمعارف الدينية، وتميز (المحيط) بالغريب والاختصار، وتميز (المحكم) بالتنظيم والمسائل النحوية والصرفية.

ويرى الدكتور نصار: أن (المحكم) لابن سيده أحسن هذه الكتب ترتيبًا لأبوابه، ومواده، وألفاظه في داخلها، وأجملها منهجًا نظريًّا.

تابع: مدرسة التقليبات الصوتية:
دراسة تطبيقية في معجم (تهذيب اللغة) للأزهري

عناصر الدرس

العنصر الأول : مقصد الأزهري من (التهذيب)، ومصادره فيه ١٧٣

العنصر الثاني : منهج الأزهري في (التهذيب)، وميِّزاته ١٧٥

العنصر الثالث : أمثلة من (التهذيب) ١٨١

مقصد الأزهري من (التهذيب)، ومصادره فيه

لقد أطلق الأزهري على كتابه اسم (التهذيب) أو (تهذيب اللغة) عن قصد، وقد ذكر هذا في ختام مقدمة كتابه، فيقول: "وقد سميت كتابي هذا (تهذيب اللغة)؛ لأني قصدت بما جمعت فيه نفيَ ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، فهذَّبت ما جمعتُ في كتابي من التصحيف والخطأ بقَدْر علمي، ولم أحرِّض على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يُسنده الثقاتُ إلى العربِ".

ويتضح لنا من هذا ومما جاء في مقدمة المقدمة، وهي مقدمة رائعة آلَ الأزهري على نفسه كما بنى لنا فيها، أن يخدم لغةَ القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة؛ لنستمع إليه وهو يقول: "وكتابي هذا، وإن لم يكن جامعًا لمعاني التنزيل وألفاظ السنن كلِّها، فإنه يَحُوز جملًا من فوائدها، ونُكتًا من غريبها ومعانيها". ثم يقول: وقد دعاني إلى ما جمعتُ في هذا الكتاب من لغات العرب وألفاظها، واستقصيتُ في تتبُّع ما حصَّلت منها، والاستشهاد بشواهد أشعارها المعروفة لفصحاء شعرائها، التي احتجَّ بها أهلُ المعرفة المؤتمنون عليها، خلالٌ ثلاثٌ:

الأولى: تقييد نكتٍ حفظتُها ووعيتُها عن أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمتُ بين ظَهرانيهم سُنيَّات، إذ كان ما أثبتَه كثيرٌ من أئمةِ أهل اللغة في الكتب التي ألَّفوها، والنوادر التي جمعوها لا ينوبُ منابَ المشاهدة، ولا يقوم مقام الدُّربة والعادة.

الثانية: النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين في إفادتهم ما لعلَّهم يحتاجون إليه. وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: ((ألا إن الدين النصيحة، ألا إن الدينَ النصيحة لله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)).

الثالثة - وهي التي لها أكثر القصد - : أني قرأت كتبًا تصدَّى مؤلفوها ؛ لتحصيل لغات العرب فيها ، مثل كتاب (العين) المنسوب إلى الخليل ، ثم كُتُب مَن احتذى حَذْوَه في عصرنا هذا. وقد أخلَّ بها ما أنا ذاكره من دَخَلها وعَوارها بعقب ذكري الأئمةِ المتقنين وعلماء اللغة المأمونين على ما دوَّنوه من الكتب وأفادوه ، وحصَّلوا من اللغات الصحيحة التي روَوها عن العرب ، واستخرجوها من دواوين الشعراء المعروفين وحفظوها عن فصحاء الأعراب.

وألْفَيتُ طلاب هذا الشأن من أبناء زماننا لا يعرفون مِن آفات الكتب المصحَّفة المدخولة ما عرفتُه ، ولا يميزون صحيحها من سقيمها كما ميزتُه. وكان من النصيحة التي التزمتُها توخِّيًا للمثوبة من الله عليها : أن أنضحَ عن لغة العرب ولسانها العربيِّ الذي نزل به الكتاب ، وجاءت السنن والآثار ، وأن أهذِّبها بجهدي غايةَ التهذيب ، وأدلَّ على التصحيف الواقع في كتب المتحذلقين ، والمُعْوِر من التفسير المزال عن وجهه ؛ لئلا يغترَّ به من يجهله ، ولا يعتمده من لا يعرفه.

وكنت منذُ تعاطيتُ هذا الفنَّ في حَداثتي إلى أن بلغتُ السبعين مولعًا بالبحث عن المعاني والاستقصاء فيها ، وأخذها من مظانها ، وإحكام الكتب التي تأتَّى لي سماعُها من أهل الثبت والأمانة للأئمة المشهَّرين ، وأهل العربية المعروفين.

وكنت امتُحنت بالإسار سنةَ عارضتِ القرامطةُ الحاجَّ بالهبير - والهبير: هو رمل في طريق مكة - وكان القومُ الذين وقعتُ في سهمهم عَرَبًا عامتهم من هوازنَ ، واختلط بهم أصرامٌ من تميم وأسد بالهبير نشئوا في البادية ، يتتبعون مساقطَ الغيث أيامَ النُّجَع ، ويرجعون إلى إعداد المياه ، ويرعون النَّعمَ ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها ، ولا يكاد يقع في منطقهم لَحْنٌ أو خطأ فاحش ، فبقيتُ في إسارهم دَهْرًا طويلًا.

وكنا نتشتّى الدَّهناء، ونتربع الصَّمَّان، ونتقيَّظ السِّتارَين، واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضًا ألفاظًا جمّة ونوادرَ كثيرة، أوقعتُ أكثرها في مواقعها من الكتاب، وستراها في موضعها إذا أتَتْ قراءتُك عليها إن شاء الله.

الدوافعُ التي دفعت الأزهري إلى تأليف كتابه:

أولًا: الحرص على تقييد ما سمعه من العرب الذين أقام بين ظهرانيهم أيام الأسر.

ثانيًا: الحرص على أداء النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين.

ثالثًا: الحرص على تنقية التأليف اللغوي مما دخله من فساد وعَوار لم يفطن له أبناء عصره.

والحق أن الأزهري قد اعتمد على مصادر جمة في تأليف هذا الكتاب، وقد جعله في خمس طبقات؛ أهم مَن في الأولى: أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر، وأهم من في الثانية: أبو الحسن الأخفش، وأبو زيد الأنصاري، وأبو عمرو الشَّيباني، وأبو عبيدة معمرو بن المثنى، وأهم من في الثالثة: أبو عبيد القاسم بن سلام، وأهم من في الرابعة: ثعلب والمبرد، وأهم من في الخامسة: الزجاج، وأبو بكر بن القاسم بن بشار الأنباري، ونفطويه.

وقد وجه الأزهري نقده إلى بعض أولئك ممن سبقوا إلى التأليف في اللغة؛ لأنه في رأيه قد أوضعوا في كتبهم الصحيح والسقيم.

منهج الأزهري في (التهذيب)، ومميزاته

لقد ذكر الأزهري في مقدمة كتابه المبدأَ الذي سار عليه والمنهجَ الذي اتبعه في تأليفه (التهذيب)، وهو يقول: "ولو أنّي أودعتُ كتابي هذا ما حوتْه دفاتري،

وقرأته من كتب غيري، ووجدته في الصحف التي كتبها الورَّاقون، وأفسدها المصحِّفون، لطال كتابي. ثم كنتُ أحدَ الجانين على لغة العرب ولسانها، ولَقليلٌ لا يُخْزِي صاحبه خيرٌ من كثير يفضحُه.

ولم أُودِعْ كتابي هذا من كلام العرب إلَّا ما صحَّ لي سَمَاعًا منهم، أو روايةً عن ثقة، أو حكايةً عن خطِّ ذي معرفةٍ ثاقبة اقترنت إليها معرفتي، اللهمَّ إلَّا حروفًا وجدتها لابن دريد وابن المظفَّر في كتابيهما، فبينت شكِّي فيها، وارتيابي بها. وستراها في مواقعها من الكتاب ووقوفي فيها".

١. المبادئُ والمنهجُ الذي سار عليه الأزهريُّ في تأليف كتابه:

أولًا: لقد تحرَّى الأزهري الدقة في اختيار مادة هذا الكتاب من الألفاظ على نحو ما قرأته الآن.

ثانيًا: التزم بالإيجاز وعدم التطويل، وقد بان هذا الآن.

ثالثًا: اتبع نظامَ الخليل وكتاب (العين) في تأليفه؛ حيث جاء ترتيب (التهذيب) على نسق ترتيب كتاب (العين)، فرتب المواد حسب أبعد حروفها مخرجًا، فبدأ بالحلقية وانتهى بالهوائية، والحلقية عنده تبدأ بالعين فالحاء فالهاء فالخاء فالغين، يليها الحرفان اللهويان القاف والكاف، يليهما الحروف الشجرية الجيم فالشين فالضاد، يليها الحروف الأسلية الصاد فالسين فالزاي، يليها الأصوات النطعية الطاء فالدال فالتاء، يليها اللثوية الظاء فالذال فالثاء، يليها الذلقية الراء فاللام فالنون، يليها الشفوية الفاء فالباء فالميم، وتنتهي الحروف بالهوائية وهي الواو - واو المد- وياؤه وألفه والهمزة.

كذلك جاءت الأبنية متشابهة لِمَا في كتاب (العين)، فقد وردت في كل حرف أو كتاب على النحو الآتي: المضاعف، ثم الثلاثي الصحيح، ثم الثلاثي المعتل، ثم

اللفيف، ثم الرباعي، ثم الخماسي، ولم يخالف الأزهري الخليل مخالفةً كبيرةً، وإنما خالفه مخالفة يسيرةً جدًّا عند تقسيمه الأبواب، فسمَّى كل حرف بابًا، وكل بناء كتابًا، وجعل الأبنية ستة، وهي: كتاب الثنائي المضعف، وكتاب الثلاثي الصحيح، وكتاب الثلاثي المهموز، وكتاب الثلاثي المعتل، وكتاب الرباعي، وكتاب الخماسي.

لكن الترتيب العام كما هو، حيث بدأ بالثنائي، يليه الثلاثي بأقسامه المختلفة: الصحيح فالمهموز فالمعتل، ثم الرباعي والخماسي. ولا يكاد (التهذيب) يخرج عن طريق (العين)، فنظام التقليبات الصوتية هو نظام الخليل نفسه، والذي يرجع لمقدمة (التهذيب)، ويقارنها بمقدمة (العين) يجد التشابه بينهما واضحًا، بل تكاد تكون مقدمة (التهذيب) هي نفسها مقدمة (العين)، فقد اقتبس الأزهري من الخليل ما يتعلق بالحروف ومخارجها وصفاتها، وغير ذلك، دون أن يغير شيئًا، وعلى الرغم من أنه قد اتبع الخليلَ وسار على طريقه خطوةً خطوةً، إلا أنه خالفه في المهموز وأحرف العلة، حيث أفرد المهموز عن المعتل أحيانًا، عكسَ الخليل الذي جمع المهموزَ مع المعتل.

وقد برزت شخصية الأزهري بُروزًا في جميع المواد مرجحًا ومفسرًا للمواد، وواضعًا للقواعد وناقدًا أحيانًا، ومِمَّا يسترعي الانتباه في (التهذيب) عنايته بالشواهد القرآنية والحديثة عنايةً تناسب مع عرف عنه بربط القرآن الكريم والدين باللغة، وكان كثيرًا ما يستشهد بالقراءات القرآنية.

٢. خصائصُ (تهذيب اللغة) للأزهري:

أولًا: غلبة الطابع الديني، ويظهر ذلك في المقدمة وفي كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث، وما ورد من الجوانب الفقهية في ثنايا الكتاب.

ثانيًا: كثرة الأقوال، ويبرز هذا في المصادر والمراجع الكثيرة التي ذكرها، وبَيَّنَ في مقدمته أنه أخذ منها.

ثالثًا: بروز شخصية المؤلف، حيث كان يشرح ويعلق ويبدي رأيه في كثير من المسائل التي يذكرها.

رابعًا: عنايته بالنوادر وكان يخصها بالذكر والتنبيه.

خامسًا: اهتمامه بذكر المواضع والبُلدان، فقد عرَّف بكثير من بلدان ومواضع الجزيرة العربية، وهو اتجاه مبكر في التأليف المُعجمي بلغ ذِروته فيما بعد فيما صنع الفيروزآبادي في معجمه (القاموس المحيط).

وكما اعتنَى بالشواهد القرآنية، وشواهد الحديث النبوي، واعتنى بالنوادر والبلدان والأماكن، فإنه قد تميز أيضًا بأمانته العلمية في النقل حين يذكر أسماء مَن ينقل عنهم، كما نراه ينتهج نهج الخليل حين ينبه إلى المهمل من التقليبات والمستعمَل.

وقد أخذ عليه التكرار نتيجة جمعه أقوالًا كثيرةً في تفسير اللفظة الواحدة، كما أخذ عليه تحامله وتجريحُه لبعض علماء اللغة دون وجه حق، مما يتنافَى وشخصية عالم جليل مثل الأزهري. كما أخذ عليه صعوبة الأخذ منه؛ لانتهاجه نظام التقليبات الصوتية.

وهذه المآخذ تتضاءل أمام الجهد الخلاق الذي قام به الأزهري؛ لتنقية اللغة وتخليصها من الأخطاء التي لحقتها.

ومما يذكر له بالعرفان والجميل عنايته الفائقة بالقراءات القرآنية والشواهد عمومًا، وبخاصة فيما يتصل بالحديث النبوي الشريف، مما جعله محط أنظار

الكثير، وأدخله بعض اللغويين في معاجمهم مثل ما فعل الصاغاني في كتابه (العباب)، ومثل ما فعل ابن منظور في كتابه الشهير (لسان العرب).

٣- طريقةُ الكشف فيه، وطريقةُ العثور على اللفظة التي تريدُ الوصولَ إليها:

أولًا: يجب عليك أن تعرف نظامَ المعجم، الذي يُبحث فيه عن معان الكلمات، فـ(تهذيب اللغة) من المعاجم الصوتية المنتمية إلى مدرسة التقليبات، إذًا يجب أن تحيط علمًا بترتيب الحروف ترتيبًا صوتيًّا على النحو الذي بان لك، فتعرف أن هذه الكتب تبدأ بحرف العين فالحاء فالهاء فالخاء فالغين فالقاف فالكاف فالجيم فالشين فالضاد فالصاد فالسين فالزاي فالطاء فالدال فالتاء فالظاء فالذال فالثاء فالراء فاللام فالنون فالفاء فالباء فالميم، فالحروف الهوائية، وأعني بها: الواوَ والياء والألف المديات والهمزة.

يجب عليك أن تجرد الكلمة من الحروف الزائدة. فـ"الطارق" مثلًا: تجرد من أداة التعريف، ومن الألف التي زِيدت للدلالة على اسم الفاعل، فتصير المادة على حروف ثلاثة فقط: الطاء والراء والقاف. كما يجب عليك أن تعرف الحروفَ الأصول في الكلمة، وما جرى فيها من تغييرات صرفية أو صوتية، فترد الجمع إلى المفرد، فـ"جبال" ترد إلى: جبل، و"علوم" ترد إلى: علم، وعليك أن ترد الحرف المحذوف لعلة صرفية أو صوتية أو غيرهما، فالماضي "وَقَى" حينما تبني منه الأمرَ يكون على "قِ"، وقد جاء في القرآن مسندًا إليه واوُ الجماعة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦] فـ﴿ قُوٓاْ ﴾ أصلها "قِ" دون واو جماعة، فحينما تبحث عن "قِ" في المعجم يجب عليك أن تردها إلى الفعل الثلاثي "وقى".

وكذلك الفعل "وَفَى" حينما تبني منه الأمر "فِ" عليك أن تعود بـ"فِ" الأمر إلى الماضي "وفَى".

وكذلك حينما تصوغ الأمر من "وَعَى" يكون على "عِ"، فحينما تبحث عن "عِ" عليك أن ترده إلى الماضي "وَعَى"، وهكذا.

كما يجب عليك أن ترد حرف العلة أو الهمزة الأصلية إلى أصلهما الأول قبل التغييرات الصرفية أو الصوتية، فكلمة "سماء" مثلًا آخرها همزة، هذه الهمزة منقلبة عن واو كما عرفتَ في دراستك الصرفية، فحينما تكشف عن سماء، وتريد الوصول إليها في معجم كـ(التهذيب) مثلًا، عليك أن تعود بالهمزة إلى الواو، ومن ثم تستطيع أن تعثر عليها في: السين والميم والواو، ويدلك على هذا الأصل الرجوع إلى تصاريف الكلمة كالفعل المضارع، فالفعل: سما يسمو سموًّا، يدلك على أن السماء همزتها واوية، كما يدلك على أن الفعل الماضي "سما" ألفه واوية بالرجوع إلى المضارع: يسمو، أو المصدر: سموًّا.

وكذلك "الباب"، تستطيع أن تعرف أن ألف الباب أصلها واو بالرجوع إلى الجمع، فحينما تعرف أن الباب يُجمع على أبواب، تعرف أن الألف واوية، وحينما تعرف أن "الناب" يجمع على أنياب، تعرف أن ألفه يائية، وهكذا.

وأيضًا كلمة مثل "تراث" أصل التاء فيها واو، يدلك على هذا الفعل الماضي ورِثَ، وكلمة مثل "الدم" أو مثل "الأخ"، وأشباههما من الثنائي المحذوفِ اللام، يدلك على أصله صيغة التثنية، فـ"الأخ" تثنَّى على: أخوان، فعادت الواو المحذوفة من المفرد، و"الدم" يدلك على الياء المحذوفة منها المثنى على غير قياس، وهو الدميان، كما قال الشاعر:

فلو أنَّا على حَجَرٍ ذُبحنا ❖ جرَى الدَّمَيان بالخبر اليقين

فقوله: "الدميان" مثنى "الدم" على غير قياس دلت على أن أصل الكلمة المحذوف هو الياء، التي هي في موضع اللام من الكلمة.

فدراستك الصوتية والصرفية تفيدانك في معرفة ما حُذِفَ من الكلمة أو ما غُير منها.

كما يجب أن تعلم أن الفعل إذا كان مضعفًا -أي: عينه ولامه من جنس واحد- وذلك في الأفعال الثلاثية، فعليك أن تفك الإدغام، فكلمة مثل "المستقر" في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]، فبعد تجريدها من الزوائد تجد أصولها "قَرَّ" وبعد فك الإدغام يبحث عنها في: القاف فالراء فالراء، وهي تدخل في الثنائي المضعف في نظر أصحاب هذه المدرسة ولا تدخل في الفعل الثلاثي.

هذه القواعد -على أية حال- هي قواعد عامة يجب الإلمام بها، حينما تتصفح معجمًا مثل: (تهذيب اللغة).

وهنالك أمور أخرى خاصة بكل معجم يُنبِّه عليها المؤلفون أو الشارحون في مقدمة بعض معاجمهم.

أمثلة من (التهذيب)

أسوق نماذجَ من (تهذيب اللغة) للأزهري؛ ليتضح المنهج الذي سار عليه، وخصائصه التي تميز بها.

فإذا أردت مثلًا أن تقف على معنى "الخُنان" في قول النابغة الجعدي:

فَمن يحرص على كِبري فإني ❖ من الشبان أيام الخُنان

فإنك لا تستطيع أن تصل إلى "الخُنان" في (تهذيب اللغة)، إلا إذا عرفت أن "الخنان" ترجع إلى الخاء والنون بتجريد الكلمة من زوائدها، ثم تنظر في هذين

الحرفين، سوف تجد أن الخاء حلقية والنون ذلقية، وأن الحلق يسبق الذلق، إذًا هذا اللفظ تجده في حرف الخاء؛ لأنه أبعد مخرجًا، وأسبق من النون، ثم تنظر في هذا البناء تجده ثنائيًّا، إذًا عليك أن تذهب إلى كتاب الثنائي من حرف الخاء، سوف تجد له تقليبين؛ تجد الأزهري ينص على هذين التقليبين، وينص على أنهما مستعملان، ثم تجده يذكر تحت الخاء والنون ألفاظًا كثيرةً، الجامع بينها أن الخاء تسبق فيها النونَ في الأفعال أو في الأسماء، ثم تقرأ التقليبَ الآخر -وهو النون والخاء- تجده يذكر أسماءً وأفعالًا، الجامع بينها أن النون تسبق الخاءَ.

وأقرأ ما سطره الأزهري تحت الخاء والنون؛ لتعرف ما قلناه بصدد منهجه، وما ذكرناه من سِماته:

قال اللَّيثُ: خَنَّ يَخِنُّ خَنِينًا، وهو: بكاء المرأة تَخِنُّ في بكائها دون الانتحاب. قال: والخَنِينُ: الضَّحِك إذا أظهره الإنسان، فخرج جافيًا، يُقال: خَنَّ يَخِنُّ خَنِينًا، فإذا أخرج صَوْتًا رقيقًا فهو الرَّنِين، فإذا أخفاه فهو الهَنِين. انظر إلى المعاني المتقاربة نظرًا لتقارب الأصوات: الخنين والهنين.

وقال غيرُه: الهنين مثل الأنين، يقال: أَنَّ وهَنَّ بمعنًى واحدٍ. لاحظ المترادفات، من سمات الأزهري في (التهذيب) أنه يعتني بإيراد المترافات.

قال الليث: الْخُنَانُ في الإبل كالزُّكام في الناس، يقال: خُنَّ البعير فهو مَخْنُونٌ، والْخُنَانُ داء يأخذ الطيْر في حُلوقِها، يقال: طائر مَخْنُونٌ. والخُنَّةُ: ضرْبٌ من الغُنَّة، كأَنَّ الكلام يرجع إلى الخياشيم، يقال: امرأة خَنَّاءُ وغَنَّاءُ، وفيها مَخَنَّةٌ. وأخبرني الْمُنْذِرِيُّ، عن أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابيِّ، قال: النَّشيج من الفَم، والخَنِينُ من الأنف، وكذلك النَّخير. قال: والمخَنَّةُ: وسطُ الدار، والمخَنَّةُ: الفِناءُ، والمخنَّةُ: الحُرَمُ، والمخَنَّةُ: مَضِيق الوادي، والمَخَنَّةُ: مَصَبُّ الماء من التَّلْعَة

إلى الوادي، والمخَنَّةُ: فُوَّهَةُ الطريق، والمَخَنَّةُ: المَحَجَّةُ البَيِّنَة، والمخَنَّةُ: طرَف الأنف.

لاحظ اهتمام الأزهري هنا بإيراد ما يسمى بـ"المشترك اللفظي"، فإذا كان الترادف ظاهرة لغوية اهتم بها الأزهري على ما بان لنا من الأنين والهنين، فإن المشترك أيضًا ظاهرة لغوية اهتم بها الأزهري، فالمخنة لفظة واحدة تعددت معانيها على النحو الذي سمعتَ.

قال: وروَى الشَّعْبِيُّ أن الناس لَمَّا قَدِمُوا البصرة، قالَتْ بنو تَمِيم لعائشةَ: هل لكِ في الأحْنَفِ؟ فقالت: "لا، ولكن كونوا على مَخَنَّتِهِ". وعبارة اللسان: "قالت: لا"، كان الأحنف قد لَامَ السيدة على اشتراكها في موقعة الجمل بأبياتٍ من شعره، فردت عليه بأبيات أخر، وهذه وتلك مذكورة في "اللسان".

لقد استشهد الأزهري على المخنة بمعنى المحجة بهذا القول المنسوب إلى عائشة < . قال الأزهري: وأخبرني المُنْذِرِيُّ عن المُبَرِّد، أنه قال: الغُنَّةُ أن تُشْرِبَ الحرفَ صوت الخَيْشومِ. قال: والْخُنَّةُ أشد منها. لاحظ أن الأزهري يهتم بالمصطلحات اللغوية، فالغنة مصطلح من مصطلحات المخارج الصوتية، فقال: الغنة أن تُشرب الحرفَ صوتَ الخيشوم.

ثم يتابع الأزهري كلامه قائلًا:

وقال الليث: الْخَنْخَنَةُ ألا يبين الكلامَ، فيُخَنْخِن في خياشيمه، الخنخنة إذًا مرضٌ صوتي من أمراض الكلام، وأنشد:

خَنْخَنَ لي في قَوْلِه ساعَةً ❖ وَقَالَ لي شَيْئًا فَلَمْ أسْمَع

وقال النَّابِغَةُ الجَعْدِيُّ:

فَمَنْ يَحْرِصْ عَلَى كِبَرِي فإنِّي ❖ مِنَ الشُّبَّانِ أَيَّامَ الْخُنانِ

قال الأصمعي: كان الْخُنَانُ داء يأخذ الإبل في مناخرها، وتموت منه، وصار ذلك تاريخًا لهم، قال: والْخُنانُ داء يأخذ الناسَ.

ثم قال الأزهري:

وقال غيره: رجل مِخَنٌّ: إذا كان طويلًا، وقال الراجزُ:

لَمَّا رَآه جَسْرًا مِخَنَّا ❖ أقْصَرَ عَنْ حَسْنَاءَ وارْتَعَنَّا

أي: استرخَى عنها.

ويقال للطويل: مَخْنٌ أيضًا -بفتح الميم وجزم الخاء- لاحظ المصطلحات التي يستخدمها الأزهري، فيعبِّر عن السكون بالجزم "مَخْن" بفتح الميم وجزم الخاء. وقال بعضهم: خَنَنْتُ الجِذع بالفأس خَنًّا: إذا قَطَعْتُهُ.

قلتُ -والقول للأزهري بطبيعة الحال-: وهذا حَرْفٌ مُريب، وصوابه عندي: جَثَثْتُ الجِذع جَثًّا، فأمَّا خَنَنْتُ بمعنى قَطَعْتُ، فما سمعتُه.

لاحظ بروز شخصية الأزهري، واعتمادَه على السماع في تصحيح ما يَنقل، لقد شك في: خننت الجذع بالفأس، إذا قطعته، قال: فما سمعته، وهذا حرف مريب، وصوابه: جثثت الجذع جثًّا.

ثم يقول اللِّحْيَانِيُّ: رجل مَجْنون مَخْنون مَحْنون، وقد أُجَنَّهُ الله، وأَحَنَّه، وأُخَنَّه، بمعنًى واحدٍ. العناية بالمفردات المترادفة. عمرو عن أبيه قال: الْخِنُّ: السفينة الفارغة. ثعلب عن ابن الأعرابي قال: الرُّبَّاحُ القِرْدُ، وهو الحَوْدَل، ويقال لصوته: الْخَنْخَنَةُ، ولضحكه: الْقَحْقَحَةُ. وقال الفَصِيحُ من أعراب بني كِلَاب: الْخَنِينُ سُدَدٌ في الخياشيم، والْخُنَانُ منه، وقد خَنْخَنَ الرجل: إذا أَخْرَجَ الكلام من أنفه. وقال أبو عمرو: الخَنِينُ يكون من الضحك الجافي أيضًا.

انتهى كلام الأزهري في الخاء والنون.

بان فيما سجَّله من أسماء وأفعال بروز شخصيته فيه، واعتماده على السماع في تصحيح ما يراه صحيحًا، وفي تخطئة ما يراه خطئًا، بان استشهاده بالشعر، واستشهاده بالأقوال كقول عائشة، وبان عنايته بالمترادفات، وبان عنايته بالمشترك، وبان كثرة الأقوال التي يسوقها بصدد معنى اللفظ الواحد.

وأسوق ما سطره الأزهري من ألفاظ تحت النون والخاء، وهو تقليب الخاء والنون، التقليب الثاني.

قال الأزهري:

"رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: ((لَيْسَ فِي النَّخَّةِ صدقةٌ))، قال أبو عبيدة: النَّخَّةُ: الرقيق. قال: وقال الفراء: النَّخَّةُ: أن يأخذ المُصَدِّق دينارًا بعد فراغه من الصدقة، وأنشدنا:

عَمِّي الَّذي مَنَعَ الدِّينَارَ ضَاحِيَةً ❖ دِينَارَ نَخَّةِ كَلْبٍ وَهْوَ مَشْهُودُ

وقال الليث: النَّخَّةُ والنُّخَّةُ لغتان: اسمٌ جامعٌ للحُمُرِ. وقال أبو العباس: اختلف الناسُ في النَّخَّةِ؛ فقال قَوْم: النَّخَّةُ: الرقيق من الرجالِ والنساءِ، وقال قوم: الحَمير، وقال قوم: البقرُ العواملُ، وقال قومٌ: الإبلُ العواملُ، وقال قوم: النَّخَّةُ الرِّبا، وقال قوم: النَّخَّةُ: الرِّعاءُ، وقال قوم: النَّخَّةُ: الجَمَّالُونَ، وقال بعضُهم: يقال لها في البادية: النُّخَّةُ، بضم النون. قال أبو العباس: واختار ابن الأعرابي من هذه الأقاويل: النَّخةُ: الحميرُ. وقال أبو سَعيد: كل دابَّة استُعمِلت من إبل وبقر وحَمِير ورقيق، فهي نَخَّةٌ ونُخَّةٌ، وإنما نَخَّهَا استعمالُها.

وقال الرَّاجِزُ يصف حادِيَيْنِ للإبل:

لا تَضْرِبَا ضَرْبًا ونُخًّا نَخًّا ❖ ما تَرَكَ النَّخُّ لَهُنَّ مُخًّا

قال: وإذا قهَرَ رجلٌ قومًا فاستأْدَاهُمْ ضَرِيبَةً صاروا نُخَّةً له.

قال: وقوله: "دِينَارَ نَخَّةِ كلْبٍ وهْوَ مشْهُودُ" كان أَخْذُ الضَّرِيبةِ من كلْبٍ نَخًّا لهم -أي: استعمالًا. قال: والنَّخُّ أَنْ تقول لِسَيِّقَتِك وأنت تحثُّها: إخْ إخْ، فهذا النَّخُّ.

قلتُ: وسمعتُ غيرَ واحدٍ من العرب يقول: نَخْنِخْ بالإبل، أي: ازْجُرْها بقولك: إخْ إخْ، حتى تَبْرُك. وقال الليث: النَّخْنَخَةُ من قولك: أَنَخْتُ الإبلَ فاستناخت، أي: بَركَتْ، وَنَخْنَخْتُها فَتَنَخْنَخَتْ: من الزجر، وأما الإنَاخَةُ: فهو الإبراك، لم يُشْتَقَّ من حكاية صَوْتٍ، ألا ترى أن الفحل يَستنيخُ الناقةَ فَتَنَخْنَخُ له؟

والنَّخُّ: أن تُناخَ النَّعَم قريبةً من المُصَدِّقِ حتى يُصدِّقَها، وأنشد:

أَكْرِمْ أَمِيرَ الْمُؤمنين النَّخَّا ❖ ....

قال: والنَّخُّ من الزَّجْر من قولك: إخْ إخْ، يُقال: نَخَّ بها نَخًّا شديدًا، ونَخَّةً شديدةً، وهو التَّأْنيخُ أيضًا. وقال ابن شُمَيْل: يقال: هذه نَخَّةُ بني فلان، أي: عَبِيدُ بني فلان. ثعلب عن ابن الأعرابي: نَخْنَخَ إذا سار سَيْرًا شَدِيدًا، ويقال: هذا من نُخِّ قلبي، وَنُخَاخَةِ قلبي: ومن مُخِّ قلبي، أي: من صافيه. انتهى كلامه.

لاحظ ما يلي:

لقد فسر النخة بالرقيق، أو بأخذ المصدِّق دنيارًا بعد فراغه من الصدقة، أو بأنها اسمٌ جامع للحُمر، وساق آراءَ أخرى على نحو ما سمعتَ، ولم يسق هذه الآراء في معنى النخة إلا بعد أن أتَى بها في حديث النبي ﷺ: ((ليس في النخة صدقة))، إذًا عِنايته بإيراد الألفاظ في الأحاديث النبوية وتفسيرها، ثم اعتماده

على السماع أيضًا، حينما عقب بعد ذكر هذه الأقوال بقوله: قلت: وسمعتُ غيرَ واحدٍ من العرب يقول: نخنخ، أو نخنخ بالإبل أي: ازجرها بقولك: إخ إخ حتى تبرك.

ولاحظ أنه أورد أبياتًا شعرية شواهدَ على ما ذكر من معانٍ في النخة والنخ دون أن ينسبَ هذه الشواهدَ إلى قائليها، وهذا مما يؤخذ عليه، فقد استشهد على النخة بقوله: وأنشدنا:

عمي الذي منعى الدينار ضاحية ❖ دينار نخة كلب وهو مشهود

ولم ينسبه لقائلٍ.

وكذا حينما استشهد على النخ بقول الراجز:

لا تضربا ضربًا ونُخا نخًّا ❖ ما ترك النخ لهن مخًّا

ذكر الرجز دون نسبة.

وكذا حينما استشهد على النخ بقوله:

أَكْرِمْ أَمِيرَ الْمُؤمنين النَّخَّا ❖ ....

دون أن ينسبه إلى قائل.

إذًا لقد اعتنى بذكر الشواهد، لكنه لم يعتنِ أحيانًا بنسبة الشواهد إلى قائليها.

ولاحظ ينقل عن الليث حينما قال: وقال الليث: النَّخَّةُ والنُّخَّةُ لغتان، اسمٌ جامعٌ للحُمُرِ.

والحق أنه حينما ينقل عن الليث، فإنما ينقل عن (العين) للخليل بن أحمد، لكن الأزهري يرى رأيًا في عين الخليل، نراه في مقدمة (التهذيب) يقول: ولم أرَ خلافًا بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب (العين) لأبي عبد الرحمن الخليل

بن أحمد، وأن ابن المظفر -يقصد الليث- أكملَ الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فِيه، وعلمت أنه لا يتقدم أحدٌ الخليلَ فيما أسسه ورسمه، فرأيتُ أن أحكيه بعينه؛ لتتأمله، وتردد فكرك فيه، وتستفيد ما منه ما بك الحاجة إليه، ثم أُتْبِعُه بما قاله بعض النحويين مما يزيد في بيانه وإيضاحه.

معنى هذا: أن الأزهري يرى أن النهجَ العام في كتاب (العين) إنما هو للخليل، لكن الذي أكمل الكتاب ونفذ المنهج والخطة، هو الليث بن المظفر وليس الخليل بن أحمد.

وقد اختلف العلماء المتقدمون في نسبة كتاب (العين) للخليل بن أحمد، فبعضهم رأى أنه لا صلةَ للخليل بكتاب (العين)، حيث رأى أنه ليس للكتاب إسنادٌ. وبعضهم كالأزهري رأى أن الخليل وضع الفكرةَ، أما النص فإنما هو لليث بن المظفر، بل بعضهم رأى أن الليثَ قد نَحَلَ الخليل كتاب (العين)؛ لينفُقَه باسمه، وبعضهم رأى أن الخليل وضع قسمًا من الكتاب، ثم أكمله الليث؛ لاشتماله على حكايات من المتأخرين، مثل أبي عبيد، وابن الأعرابي، وبحجة أن ما جاء به من معاني النحو، إنما هو على مذهب الكوفيين، مع أن الخليل بصري، وقد تضمن (العين) أيضًا بعض الأخطاء التي لا يمكن للخيل أن يقع في مثلها، بل ذهب بعضهم إلى أن الخليل وضع كتاب (العين) ثم أُحرق هذا الكتاب، ثم أعاد الليث وضعَه.

والحق أنه قد رُدّ على كل هذه الأقاويل، فهنالك لغويون كبار اعترفوا بنسبة كتاب (العين) للخليل؛ منهم ابن دريد، وابن فارس، وكون الخليل يضع الفكرة أو يضع قسمًا منه لا ينفي بالضرورة نسبةَ الكتاب إلى الخليل، واشتماله على حكايات عن المتأخرين، أو ما جاء فيه من نحو عن الكوفيين، يُرد عليه بأن ذلك قد دُسَّ في

الكتاب عمدًا ؛ لتشويه حقائقه، وهذه الحكايات أو الأقوال كانت تعليقات على هوامش الكتاب، ثم أدخلها النساخ في متنه أو أدخلت بغيةَ نفي نسبةِ الكتاب إلى صاحبه، وما فيه من تصحيفات أو أخطاء إنما ذلك من عمل النسَّاخ.

والقول بأن الكتاب قد أحرق وأعاد الليث وضعه، هذا يعد قصةً خياليةً.

على أية حال، فإن ما تراه من أقوال -وهي كثيرة عن الليث- إنما هي أقوال للخليل بن أحمد، لولا أن الأزهريَّ له رأي في ذلك، ولا تقتصر الشواهد على الأحاديث النبوية، أو أقوال العرب وأشعارهم، وإنما (التهذيب) يدلك على عِنايته كذلك بشواهد القرآن الكريم، وقراءاته.

انظر مثلًا في الخاء والراء والقاف ؛ لترى هذه المادةَ قد اشتملت على شواهدَ متنوعةٍ من الشعر والحديث والقرآن وقراءاته ؛ منها: ما ساقه من قوله -جل وعز-: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، قال الأزهري: قرأ نافع وحدَه: "وخَرَّقوا له" بتشديد الراء، وسائر القراء قرءوا: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ ﴾ بالتخفيف. وقال الفراء: معنى: "خرقوا" افتعلوا ذلك كذبًا وكفرًا، قال: وخرقوا، واخترقوا، وخلقوا، واختلقوا، واحد.

أرأيتَ كيف ساق الشاهدَ القرآني وساق قراءةً قرآنيةً له، وبَيَّنَ معناها، وساق بجانب ذلك ما رُوِيَ عن النبي ﷺ: "أنه نهَى أن يضحَّى بشرقاء أو خرقاء" قال أبو عبيد: قال الأصمعي: الشرقاء في الغَنَم: المشقوقة الأذن باثنين، والخرقاء من الغنم: التي يكون في أذنها خَرَق، وقيل: الخرقاء: أن يكون في الأذن ثقب مستدير.

فتصفح (تهذيب اللغة) في أسفاره المتعددة ؛ لترَى فوائدَ لُغويةً متنوعةً، تكشف أسرارًا كثيرةً في لغةِ العرب.

مدرسة التقليبات الهجائية:
دراسة تطبيقية في معجم (جمهرة اللغة) لابن دريد

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	النهج العام لمدرسة التقليبات الهجائية	١٩٣
العنصر الثاني	:	ابن دريد، وكتابه (جمهرة اللغة)	١٩٤
العنصر الثالث	:	نهج ابن دريد في كتابه (جمهرة اللغة)	١٩٦
العنصر الرابع	:	مزايا (جمهرة اللغة)، وأمثلة منه	٢٠٥

النهج العام لمدرسة التقليبات الهجائية

هذه المدرسة التي نحن بصددها تسمى بمدرسة التقليبات الهجائية ؛ وإن شئت فقل : "مدرسة التقليبات الأبجدية" ، هكذا يسميها البعض ؛ ولكن التسمية بالتقليبات الهجائية أفضل ؛ نظرًا لحروف الهجاء التي وضعها نَصْر بن عاصم في منتصف القرن الأول الهجري تقريبًا -وهو المعروف بـ: أ ب ت ث ج ح خ... إلى آخره ؛ حيث جمع الحروف المتشابهة في حيز واحد، وضع الباء مع التاء والثاء. وكذا الجيم والحاء والخاء، وكذا الدال والذال، وكذلك الراء والزاي، ثم السين والشين، ثم الصاد والضاد... إلى آخره- معدلًا بذلك -أعني: نصر بن عاصم- الترتيب الأبجدي الذي ورثته العربية عن أخواتها الساميات: وهو أبجد هوز حطي كلمن... إلى آخره.

إذًا فالتسمية بالهجائية أوقع وأفضل من التسمية بالأبجدية.

إن مدرسة التقليبات الهجائية تتفق مع مدرسة التقليبات الصوتية في جمع الكلمات المكونة من حروف واحدة، واضعةً إياها في مكان واحد ؛ ولكنها تختلف معها في نظام الترتيب للأبواب والمواد داخل الباب ؛ فالأبواب في مدرسة التقليبات الهجائية تسير مع النظام المعروف لترتيب حروف الهجاء: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء، دال، ذال، راء، زاي، سين، شين... إلى آخره، وكذلك المواد...

لكن جميع التقليبات تذكر مع أول الحروف ترتيبًا، وبيان ذلك: أن مادة مثل مادة الجيم والباء والراء وتقليباتها الستة، وهي الجيم والباء والراء: التقليب الأول. والجيم والراء والباء: التقليب الثاني. والباء والجيم والراء: التقليب

الثالث. والباء والراء والجيم: التقليب الرابع. والراء والباء والجيم: التقليب الخامس. والراء والجيم والباء: التقليب السادس والأخير. هذه التقليبات الستة توضع تحت باب الباء فصل الجيم مع الراء؛ لأن الباءَ أسبق في ترتيب حروف الهجاء من كل من الجيم والراء، وقلنا: "فصل الجيم"؛ لأن الجيم أسبق في ترتيب حروف الهجاء من الراء.

إذًا؛ هذه التقليبات الستة توضع جميعُها تحت باب الباء، فصل الجيم مع الراء، سواء أكانت مستعملة كلها أم مهملةً بعضها.

ويعد العلامة اللغوي ابن دريد رائد هذه المدرسة في معجمه الشهير (الجمهرة).

ابن دريد، وكتابه (جمهرة اللغة)

١ـ ابنُ دُرَيد:

أ. التعريفُ به:

هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المولود بالبصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين في خلافة المعتصم؛ وكان من المعمَّرين إذ توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وقيل: خمس وعشرين وثلاثمائة، عاش مائة عام تقريبًا.

ب. نشأتُهُ:

نشأ هذا العالم الجليل في بيت علم ورئاسة؛ لأن والده كان من الرؤساء ذوي اليسار، وقد تلقى شيخنا علومه بالبصرة؛ فدرس اللغة والأدب والشعر والنسب، وكان ذا حافظة نادرة؛ استطاع أن يحفظ ديوان الحارث بن حلزة في ساعة من الزمن، والعجيب أن الشيخ قد أملى كتابه (الجمهرة) من ذاكرته؛ أملاه مرةً في فارسَ من حفظه، ثم عاد إلى البصرة وأملاه، ثم عاد إلى بغداد وأملاه من حفظه أيضًا، وهذا يدل على تمتعه بقوة الذاكرة.

لقد كان أحفظ الناس وأوسعهم علمًا، وقيل عنه: "إنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء"؛ وذلك أن له شعرًا رائعًا غزيرًا بلغ نحو خمس مجلدات أو تزيد، وله قصيدة في مدح الأمير أبي العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالي، وهي المعروفة بمقصورة ابن دريد، وعليها عدة شروح، وهو من أصل عربي ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان؛ فإذا كان قد وُلِدَ بالبصرة؛ فإنه نشأ أيضًا بعمان على ساحل الخليج العربي، وتنقل في الجزائر البحرية بين البصرة وفارس.

وقد نشأ نشأة علميةً على يد علماء البصرة؛ فأخذ عنهم وقرأ عليهم ورَوَى عنهم، ومن هؤلاء: عمه الحسين بن محمد بن دُريد، وهو الذي قام بتربيته، ومن شيوخه أيضًا أبو حاتم السجستاني المتوفى سنة خمسين ومائتين، وكذا أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي، المقتول سنة سبع وخمسين ومائتين.

ج. تلاميذُهُ:

تتلمذ على يديه كثير من العلماء؛ منهم: غلام بن دريد، وهو أبو الحسين علي بن أحمد، وتدل هذه التسمية على ملازمته الطويلة لشيخه، وأبو العباس إسماعيل بن عبد الله بن ميكال، المتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهو الأمير الذي أهدى إليه كتاب (الجمهرة)، وأهدى إليه أيضًا قصيدته المعروفة بمقصورة ابن دريد في مدح بني ميكال، وأبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وأبو علي إسماعيل بن القاسم القالي المتوفى سنة ستة وخمسين وثلاثمائة صاحب (الأمالي) و(البارع في اللغة)، وأبو الفرج الأصبهاني علي بن الحسن صاحب كتاب (الأغاني)، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المتوفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة... وغير هؤلاء كثير.

ولقد كان شيخنا شاعرًا ذا بصر بالشعر، وله أشعار كثيرة رواها تلميذه القالي في (الأمالي)، وذكرها الزجاجي وغيره... وله من المؤلفات الكثير؛ منها: (جمهرة اللغة)، و(الاشتقاق)، و(الملاحم)، و(المقصور والممدود)، و(المطر)، و(مقصورته) التي أشرت إليها آنفًا، و(اللغات في القرآن)، و(ما سئل عنه لفظًا فأجاب عنه حفظًا)، و(المتناهي في اللغة)... وغير ذلك كثير.

٢. كتابُ (جمهرة اللغة):

أما بالنسبة لكتاب (الجمهرة)، فقد طبع طبعة أولى بعناية المستشرق "كرانكو" في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد في الهند سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة، ثم أعاد تحقيقه وقدم له الدكتور رمزي منير البعلبكي، وطبعته دار العلم للملايين، سنة سبعة وثمانين وتِسعمائة وألف للميلاد.

نهج ابن دريد في كتابه (جمهرة اللغة)

اشتهرت مدرسة التقليبات الهجائية بابن دريد واشتهر بها أيضًا، وإن كان بعض الباحثين يُدخل فيها كتابي ابن فارس: (مقاييس اللغة) و(المجمل)، ولنا كلام حول هذين المعجمين عندما نتناول كتاب (المجمل) إن شاء الله.

لقد بين ابن دريد هدفه من (الجمهرة) في مقدمته التي يقول فيها -ما ملخصه-:

إني لما رأيت زهد أهل هذا العصر في الأدب، وتثاقلهم عن الطلب، ورأيت ذا السن من أهل دهرنا، لغلبة الغباوة عليه، وملكة الجهل لقياده، مضيعًا لِمَا استودعته الأيام، مقصرًا في النظر فيما يجب عليه حتى كأنه ابن يومه ونتيج ساعته، ورأيت الناشئ المستقبل ذا الكفاية مؤثرًا للشهوات، صادفًا عن سبل الخيرات؛ حَبَوْتَ العلم خزنًا على معرفتي بفضل إذاعته...

ثم يقول: فعاشرت العقلاء كالمسترشد، وداجت الجهال كالغبي؛ نفاسةً في العلم أن أبثه في غير أهله، أو أضعه حيث لا يعرف كُنه قدره؛ حتى تناهت بي الحال إلى صحبة أبي العباس: إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال -أيده الله بتوفيقه- فعاشرت منه شهابًا زاكيًا، وسبَّاقًا مبرزًا، وحكيمًا متناهيًا، وعالمًا متقنًا، يستنبط الحكمة بتعظيم أهلها، ويرتبط العلمَ بتقريب حملته؛ فبذلت له مصون ما أكننت، وأبديت مستور ما أخفيت، وسمحت بما كنت به ضنينًا؛ فارتجلت الكتاب المنسوب إلى (جمهرة اللغة)، وابتدأت فيه بذكر الحروف المعجمة التي هي أصل تفرع منه جميع كلام العرب، وعليها مدار تأليفه، وإليها مآل أبنيته...

ولم أجرِ في إنشاء هذا الكتاب إلى الإزراء بعلمائنا، ولا الطعن على أسلافنا، وأنَّى يكون ذلك؟! وإنما على مثالهم نحتذي، وبسبلهم نقتدي، وعلى ما أصلوا نبتني، وقد ألَّف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي كتابَ (العين)؛ فأتعب مَن تصدَّى لغايته، وعنَّى من سَمَا إلى نهايته؛ فالمنصف له بالغلب له معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده تبع، أقر بذلك أم جحد، ولكنه -رحمه الله- ألف كتابًا مشاكلًا لثقوب فهمه، وذكاء فطنته، وحدة أذهان أهل دهره.

وأملينا هذا الكتاب والنقص في الناس فاشٍ، والعجز لهم شامل، إلا خصائص كدراري النجوم في أطراف الأفق؛ فسهلنا وعره، ووطأنا شأزه، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة؛ إذ كانت بالقلوب أعبق وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة وطالبها من هذه الجهة بعيدًا من الحيرة مشفيًا على المراد، فمن نظر في كتابنا هذا فآثر التماس حرف ثنائي؛ فليبدأ بالهمزة والباء إن كان الثاني باء ثقيلة، أو الهمزة والتاء إن كان الثاني تاء... وكذلك إلى آخر الحروف.

وأما الثلاثي ؛ فإنا بدأنا بالسالم ؛ فمن أحب أن يعرف حرفًا من أبنيته مما جاء على فَعْلٍ وفُعْل وفِعْل وفَعَل وفُعَل وفِعَل وفُعُل وفَعِل وفَعُل وفَعَل وفِعِل ؛ فليبغ ذلك في جمهور أبواب الثلاثي السالم، ومن أراد بناءً يلحق بالثلاثي بحرف من الحروف الزوائد ؛ فإنا قد أفردنا له بابًا في آخر الثلاثي، تقف عليه -إن شاء الله- مع المعتل.

فأما الرباعي ؛ فإن أبوابَه مجمهرة على حدتها، نحو: فعلل مثل جعفر، وفُعْلل مثل برثن، وفِعلل مثل عِظلم، وفِعلِل مثل هجرع، وفِعلّ مثل سِبَطْر، ثم جعلنا ما لحق بالرباعي بحرف من الزوائد أبوابًا مثل: فوعل نحو كوثر، وفعول نحو جهور، وفيعل نحو: خيعل وبيطر، وفعيل نحو حذيم، وليس في كلامهم فَعْيَلٌ إلا مصنوعًا -كذا قال الخليل- فهذا سبيل الرباعي في الأسماء والصفات.

وأما الخماسي ؛ فَنُبوب له أبوابًا لم نحوج فيه إلى طلب لقُرب تناولها، وكذلك الملحق بالسداسي بحرف من الزوائد ؛ فإن عسر مطلب حرف من هذا ؛ فليطلب في اللفيف ؛ فإنه يوجد -إن شاء الله تعالى...

وجمعنا النوادر في باب اشتمل عليها ؛ وسميناه "النوادر" لقلة ما جاء على وزن ألفاظها، نحو: قهوباه، وطوباله، وقلنسوة، وقرعبلانه، وما أشبه ذلك، على أنا ألغينا المستنكر واستعملنا المعروف، والله الموفق.

انتهى كلام ابن دريد في هذا التسطير الذي صَدَّر به كتابه (الجمهرة).

إنه كشف عن غايته، وكشف عن منهجه، الذي ينبغي أن يكون قد سلكه في كتابه (الجمهرة).

لقد كشف ابن دريد عن هذا الصنيع، وعن هذا الكرم الذي تميز به أبو العباس إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال ؛ فقد سببه الله ﷻ لشيخنا في إخراج

هذا الكتاب؛ حيث قال: فبذلت له مصون ما أكننت، وأبديت مستور ما أخفيت... كان شيخنا قبل صحبته لأبي العباس بن ميكال مغتمًّا؛ لأنه رأى أهل عصره زاهدين في الأدب، ومتثاقلين عن الطلب، يستوي في ذلك ذو السن -أي: الكبير- وكذلك الناشئ الصغير.

كما أشارت المقدمة أيضًا إلى الخطة أو إلى المنهج الذي انتهجه:

لقد رَعَى ابن دريد عند الترتيب كمية الكلمات؛ فبدأ بالثنائي، ثم بالثلاثي الصحيح، ثم بالثلاثي المعتل، ثم بالرباعي الأصلي، ثم بالملحق به، ثم بالخماسي الأصلي، ثم بملحقاته. وختم الكتاب بباب خاص بالنوادر.

إن ابن دريد التزم أمورًا ثلاثة:

الأمرُ الأولُ: الألفبائية العادية في ترتيب الأبواب والمواد، أي: التزم ترتيب حروف الهجاء: ألف باء تاء ثاء...

الأمرُ الثاني: التزم بالتقليبات؛ حيث ذكر جميع الصور الممكنة من المادة في أول الحروف ترتيب هجائيًّا مع ما يليه.

الأمرُ الثالثُ: نظام الأبنية من حيث الكم، أي: الثنائي فالثلاثي... إلى آخره.

فالهدف المشترك بين نظامه ونظام الخليل -وإن شئتَ فقل: بين المدرستين: بين مدرسة التقليبات الهجائية، ومدرسة التقليبات الصوتية- في اتباع نظام التقليبات، وهو حَصْرُ ألفاظ اللغة المستعملة والمهملة بطريقة حسابية رياضية بحتة.

وقد أشار ابن دريد إلى هذه الطريقة -طريقة الحصر- في ثنايا معجمه لقد شرح طريقة التقليب بالدائرة والمثلث، حيث يقول:

إذا أردت أن تؤلف بناء ثنائيًّا أو ثلاثيًّا أو رباعيًّا أو خماسيًّا؛ فخذ كل جنس من الأجناس -يقصد الحروف المتباعدة-، ثم أَدِرْ دارةً فوق ثلاثة أحرف حواليها،

ثم أرشد أيضًا إلى أن يَنظر المرء عند كل حرف يَمنةً ويسرةً ؛ فيخرج من الثلاثي بستة أبنية ثلاثية، ويستطيع -من الناحية الرياضية البحتة- أن يخرج أيضًا بتسعة أبنية ثنائية، وذُكِرَ رسم أيضًا لهذا، ثم بعد الصورة وبعد الرسم -أي: رسم الدارة أو الدائرة أو رسم المثلث- قال: فإذا فعلت ذلك استقصيت من كلام العرب ما تكلموا به وما رغبوا عنه... يعني: تستطيع أن تعرف ما استعمل من كلام العرب وما أهمل.

وقد سبقت الإشارة إلى بيان الأبنية الثلاثية الناتجة عن تقليب أي جذر ثلاثي ؛ حيث تستطيع أن تضع على كل ضلع من أضلاع المثلث حرفًا من كلمة ثلاثية مثل: الباء والراء والجيم ؛ فتستطيع أن تبدأ بالباء يمنة مرة، ويسرة مرة، فينتج تقليبان: الباء والجيم والراء، والباء والراء والجيم، واصنع نفسَ الصنيع مع الجيم، يمنة مرة، ويسرة مرة أخرى ؛ فيتحصل أيضًا تقليبان: الجيم والباء والراء، والجيم والراء والباء، واصنع الصنيع نفسه مع الراء يمنة مرة ويسرة مرة أخرى ؛ يتحصل أيضًا تقليبان: الراء والباء الجيم، والراء والجيم والباء.

أما الأبنية الثنائية التي ذكر أننا -بالطريقة الرياضية- نستطيع أن نحصرها في تسعة ؛ فهي حاصلة أيضًا من ضرب اثنين في ثلاثة بالصورة نفسها التي قلناها مع الباء والجيم والراء، ثم تضيف إلى ذلك ثلاثة أبنية من خلال الحروف المتماثلة نفسها ؛ فالباء مع الباء بناء، والجيم مع الجيم بناء، والراء مع الراء بناء ؛ فهذه الأبنية الثلاثة تضاف إلى الستة تصير الأبنية تسعة.

فكتاب (جمهرة اللغة) يعد خطوةً تاليةً للخطوة التي بدأها الخليل بن أحمد في كتابه (العين) ؛ حيث عَدَّلَ منهج وضع معجم الخليل، بعدما رأى الصعوبة الخاصة التي يلقاها الباحث في هذا المعجم ؛ حيث تخلص من الترتيب الصوتي وعدل عنه إلى الترتيب الهجائي الألفبائي، إلا أنه لم يتخلص من فكرة

التقليبات ؛ ولذا يعد (جمهرة اللغة) مدرسة فريدة تسمى باسم "التقليبات الألفبائية أو الهجائية أو الأبجدية" -كما قلت- حيث يعد ابن دريد ترتيب حروف الكلمة حسب الهجائية العادية، ثم يذكرها وتقليباتها في أول الحروف الهجائية التي بها ترتيبًا ؛ فمثلًا: مادة الكاف والراء والباء ترتب حروفها هجائيًّا هكذا: الباء أولًا، الراء ثانيًا، والكاف ثالثًا. فيذكر ابن دريد في هذه المادة التقليبات الستة للباء والراء والكاف: وهي الباء والراء والكاف، والباء والكاف والراء، والراء والباء والكاف، والراء والكاف والباء، والكاف والراء والباء، والكاف والباء والراء. وكلها عنده مستعملة.

كما لم يتخلص ابن دريد من نظام الأبنية من حيث الكم، أي: عدد الحروف التي تحتويها الكلمة، وقد بان -من خلال المقدمة التي ذكرتها عنه- أنها تنحصر في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، ولكل منهما ملحق ؛ فالثنائي وما ألحق به، والثلاثي وما ألحق به، والرباعي وما ألحق به، والخماسي وما ألحق به ؛ فالكتاب -إذًا. يقوم على أسس ثلاثة: الترتيب الهجائي العادي، التقليبات، الأبنية.

والتزام هذه الأمور الثلاثة قد يوقع صاحبه في الخطأ والاضطراب، وهذا ما حدث فعلًا، وإن كان قد اجتهد حين سرد الأفعال أن يبدأ -في الغالب. بالماضي والمضارع ويعقبهما بالمصدر أحيانًا، ويذكر المصادر المتعددة للفعل -إن وجدت- ، ويشرح معاني المادة ويستشهد لها بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم ؛ كما يشرح الألفاظ الغريبة في الشواهد، ويذكر وجوه المادة وتقليباتها في مكان واحد، واهتم بالأعلام والأماكن والحيوان والنبات... كل هذا يشير إلى جهد شيخنا في كتابه هذا، بالإضافة إلى أمانته العلمية ؛ حيث يتحدث عن مصادره، ويشير إلى أسماء من نقل عنهم، ولا يتخيلن أحد أنه اقتصر على

كتاب (العين) للخليل؛ لكن الذي يتصفح معجم (جمهرة اللغة) يرى ابن دريد فيه قد نقل عن الخليل والأصمعي وأبي حاتم وأبي عبيدة وغيرهم، ومن أمانته أنه إذا صادف شيئًا لا يعرفه يقول: لا أدري ما هو...

فَلْتَعْلَمْ أن ابن دريد جعل نظام الأبنية أساسًا لتقسيم كتابه، وقسمها إلى أبواب وفق نظام الألفباء، ووفق التقليبات الخليلية في آن واحد، وبدأ بالثنائي وما ألحق به؛ حيث بدأ بالثنائي الصحيح: وهو المشدد الآخر وهو في عرف غيره الثلاثي المضعف مثل مد؛ فالثنائي المشدد الآخر عنده يقابل عند غيره الثلاثي المضعف، مثل: مدَّ، وشدَّ، وهدَّ، وكرَّ، وفرَّ... إلى آخره. وألحق به الثنائي الذي كرر مقطعه، وهو المسمى عند غيره بالرباعي المضعف، أو الرباعي المكرر، ويأتي بعده الثنائي المعتل، وهو المسمى عند الصرفيين باللفيف...

لذلك فإن المتصفح للجمهرة يرى أنه قد بدأها بباب الثنائي الصحيح؛ حيث يبدأ بباب الباء وما بعده، ثم باب التاء وما بعده، وباب الثاء وما بعده، والجيم وما بعده، والحاء وما بعده... إلى أن يصل إلى باب الهاء وما بعده، ثم يتبع الثنائي الصحيح بأبواب من الملحق ببناء الرباعي المكرر؛ فيبدأ كذلك بباب الباء وما بعده... وهكذا إلى أن يصل إلى حرف الهاء وما بعده، ثم يفرد بابًا للهمزة، ثم ينهي أبواب الثنائي بباب الثنائي المعتل وما تشعب منه.

والثنائي المعتل نحو: "أتى" الهمزة والتاء وحرف العلة، ونحو: توى، يعني: سواء اشتمل على حرف معتل واحد أو على حرفين مما يسمى عند الصرفيين بتسمية أخرى؛ كاللفيف مثلًا، ويدخل فيه كذلك الباء والواو والهمزة، والواو والثاء والهمزة، إذًا الثنائي قد يكون صحيحًا وهو -على حد تعبير شيخنا. لا يكون حرفين البتة إلا والثاني ثقيل -يقصد مشددًا؛ حتى يصير ثلاثة أحرف، اللفظ ثنائي، والمعنى ثلاثي.

قال: وإنما سُمي ثنائيًّا للفظه وصورته، فإذا صرت إلى المعنى وإلى الحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة، والثاني حرفين مثلين: أحدهما مدغم في الآخر، نحو: بت يبت بتًّا، أما الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر فنحو: بحبح وبجبج؛ فالبحبوحة تراها في باب الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر، وأفرد بعده ابن دريد بابًا صغيرًا للرباعي المكرر المهموز نحو: بأبأ وتأتأ، أما الثنائي المعتل وما تشعب منه فقد عرفته.

ثم يرى المتصفح (للجمهرة) بعد الثنائي بأبوابه يرى الثلاثي ويبدؤه بالصحيح؛ حيث يبدأ بباب الباء والتاء مع سائر الحروف، ثم بباب الباء والثاء... إلى آخره. إلى أن يصل إلى وباب الباء والواو وما بعدهما، أقصد: الهاء والياء.

وهذا الباب -أعني: الثلاثي الصحيح- وما تشعب منه يشغل ما يقرب من ثلثي المعجم، ثم ألحق بالثلاثي الصحيح ثلاثيًّا يجتمع فيه حرفان مِثلان في موضع الفاء والعين، أو في موضع العين واللام، أو في موضع الفاء واللام؛ فالباء واللام واللام تجدها في هذا الثلاثي بعد الثلاثي الصحيح؛ وكذلك اللام والباء والباء هذا الجذر -أو هذا الأصل- تجده في هذا الثلاثي الملحق بالثلاثي الصحيح، ثم أنهى الثلاثي بباب أخير خصه بما كانت عين فعله أحد حروف اللين نحو باب، ومنه ما هو مهموز أيضًا سواء كانت الهمزة في آخر الجذر أو في أوله؛ فخبأ تجدها في هذا الباب، وأبد تجدها أيضًا في هذا الباب.

ثم ختم هذا الثلاثي بباب في النوادر في الهمز، وألحق به باب اللفيف فيه، وألحق به أيضًا باب المقصور في الهمز، ثم يأتي باب الرباعي الصحيح، فالرباعي المعتل، وذكر تحت الرباعي المعتل أشياء غير معتلة من الرباعي؛ كالرباعي الذي فيه حرفان مثلان: نحو: كركم أو دردق، وأيضًا الثلاثي المضعف الآخر نحو: خدبّ وعِكدّ، ثم يأتي الخماسي في آخر الأبنية وما لحق به من الحروف الزوائد.

ثم يختم كتابه بأبواب لغوية متفرقة ضمها إلى المعجم بدون ترتيب، تعالج أمورًا مثل التي عالجتها الرسائل اللغوية الصغيرة، منها ألفاظ يجمعها وزن ما، وألفاظ يجمعها موضوع ما، وألفاظ تمثل ظاهرة لغوية ما؛ كالإتباع، كالاستعارة، وغيرهما.

والملاحظ أن ابن دريد يعتبر الهمزة حرف علة تارة -كما فعل المتقدمون-، ويعتبرها حرفًا صحيحًا تارة أخرى -كما فعل المتأخرون- فاعتبرها حرفًا صحيحًا في الثنائي، ثم عدها حرف علة في غيره.

كما تلاحظ أن تاء التأنيث قد عدها هاء أصلية في الكلمة؛ فحبة مثلًا تجدها في الحاء والباء والهاء، وعفة تجدها في العين والفاء والهاء، وكان قد ذكرهما مع المادتين الحاء والباء، والعين والفاء، وقد اعتُذر عنه بجهل من ألف لهم الكتاب، وأخذ على ابن دريد -لهذا السبب وغيره- مخالفته لمنهجه الذي رسمه في خطته ومقدمته، فقد أوضح أنه قصد الجمهور الشائع دون الغريب المستنكر؛ ولكنه اهتم اهتمامًا كبيرًا بالغريب والنادر.

كما أخذ عليه التصحيف، وأخذ عليه إكثاره من الألفاظ المولدة؛ ولكن هذه المآخذ لا تنقص من قدر (الجمهرة)؛ فاهتمامه بالقراءات القرآنية وتوجيهها، واهتمامه باللغات الواردة عن القبائل العربية ونسبتها إلى أصحابها، واهتمامه بالإشارة إلى المعرب والدخيل من الرومية أو الحبشية أو السريانية... كل هذا يشهد لهذا الكتاب بالقيمة الكبرى والنفع العظيم، وإني أسوق نماذج من كتابه -أعني: (الجمهرة)-؛ ليتضح جهد ابن دريد فيه... وأذكرك بطريقة الكشف في هذا السفر الضخم:

عليك أن تجرد الكلمة من الزوائد -كما هو شأن كل المعاجم اللفظية المنتسبة إلى المدارس المختلفة- وعليك أن ترتب حروف المادة بعد تجريدها من الزوائد حسب

الترتيب الهجائي المعروف ألف باء وتاء، ويبحث عنها في باب أسبق حروفها في هذا الترتيب؛ فـ"الجبر" مثلًا يبحث عنها في الباء والجيم والراء؛ لأن الباء أسبق من الجيم والجيم أسبق من الراء، و"الكتابة" يبحث عنها في الباء والتاء والكاف؛ لأن الباء أسبق من التاء والكاف، والتاء أسبق من الكاف، و"القلب" يبحث عنه في الباء والقاف واللام؛ لأن الباء أسبق من كل من القاف واللام، والقاف متقدمة أيضًا على اللام... وهكذا.

كما تنظر إلى بناء المادة وعدد حروفها ونوعها، وظواهر وضعها: أهي ثنائية، أم ثلاثية، أم رباعية؟! أصحيحة هي أم معتلة أم مهموزة؟! مضعفة أم غير مضعفة؟! حيث إن للأبنية أساسًا مهم في معجم (الجمهرة).

مزايا (جمهرة اللغة)، وأمثلة منه

في باب الثنائي الصحيح الهمزة والميم. يقول ابن دريد:

"أمَّ يَؤُمُ أَمًّا: إذا قصد للشيء. وأمَّ رأسَه بالعصا يَؤُمُّه: إذا أصاب أم رأسِه، وهي أمُّ الدِّماغ وهي مجتمعه، فهو أمِيم ومَأموم، والشَّجة آمَة. يقال: أمْتُ الرجلَ، إذا شججته؛ وأممته، إذا قصدته. والأمَةُ: الوليدة. والإمَّة: النعمة. يقال: كان بنو فلان في إمَّة، أي: في نعمة. والأَمَّة: العيب في الإنسان. قال النابغة:

فأخِذْنَ أبكارًا وهنّ بأمةٍ ❖ ....

يريد أنهن سُبين قبل أن يُخْتَنّ فجعل ذلك عيبًا. والأُمّ: معروفة، وقد سمَّت العرب في بعض اللغات الأم إِمًّا في معنى أمّ، وللنحويين فيه كلام ليس هذا

موضعه. وأمُّ الكتاب: سورة الحمد؛ لأنه يُبتدأ بها في كل صلاة؛ هكذا يقول أبو عبيدة. وأمُّ القُرَىْ: مكَّة، سُمِّيت بذلك؛ لأنها توسطت الأرض، زعموا، والله أعلم. وأمُّ النجوم: المَجَرَّة؛ هكذا جاءت في شعر ذي الرُّمَّة؛ لأنها مجتمع النجوم، قال أبو عثمان الأشْنانداني: سمعت الأخفش يقول: كل شيء انضمَّت إليه أشياءُ فهو أمّ. وأمُ الرأس: الجِلدة التي تجمع الدماغ، وبذلك سُمَي رئيس القوم أُمًّا لهم. قال الشنفرى - يعني: تأبط شرًّا:

وأمِّ عيال قد شهدت تَقوتهم ❖ إذا أَحْتَرَتْهمْ أَوْتَحَتْ وأقلتِ

الحَتْر: الإعطاء قليلًا، والحَتْر أيضًا: الضيق، وهو مأخوذ من الحَتار: وهو موضع انضمام السرج، وذلك أنه كان يَقوت عليهم الزاد في غزوهم؛ لئلا ينفد -يعني: تأبَّط شرًّا. وكان رئيسهم إذا غَزَوا. يقال: أحْتَرَه، إذا أعطاه عطاءً نزرًا قليلًا شيئًا بعد شيء.

وسمِّيت السماءُ: أم النجوم؛ لأنها تجمع النجوم؛ وقال قوم: يريد المجرة. قال ذو الرمة:

وشُعْثٍ يَشُجُّونَ الفَلا في رءوسِهِ ❖ إذا حَوَّلت، أمُّ النجوم الشوابك

والأمَة لها مواضع، فالأمة: القَرْنُ من الناس من قوله: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: إمامًا. والأمة: الإمام. والأَمَّةُ: قامة الإنسان. والأمَّةُ: الطول. والأمَّةُ: المِلة، ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأمُّ مَثْوَى الرجل: صاحبةُ منزله الذي ينزله. وفي الحديث: أن رجلًا قيل له: متى عهدك بالنساء؟ قال: البارحة، وقيل له: بمن؟ قال: بأم مثواي. فقيل له:

هلكتَ، أو ما علمت أن الله قد حرمَ الزِّنا. فقال: والله ما علمت. وأحسب أن في الحديث: أنه جيء به إلى عمرَ -نضَّر الله وجهه- فقال: استحلفوه بين القبر والمِنْبَر -أو عند القبر- أنه ما علم؛ فإن حلفَ فخلُّوا سبيله. وقال الراجز:

وأمُّ مثواي تدَرّي لِمّتي ❖ وتغْمِزُ القَنْفاءَ ذاتَ الفَرْوَةْ

أصل القَنَف: لصوق الأذنين بالرأس وارتفاعهما. ويعني بالقَنْفاء في هذا الموضع: الحَشَفَة من الذَّكَر. تدرّي، أي: تسرَّح. ذات الفروة: الشَعر الذي على العانة، وهو ها هنا الفَيْشَة. وأنشد في "تُدرَّي":

وقد أشهد الخيلَ المغيرةَ بالضُّحى ❖ وأنتَ تُدَرّي في البيوت وتُفرَقُ

وسُمِّي "مَفروقًا" بهذا. وتُفرَق: يُجعل له فَرْق. وأخبرَنا أبو حاتم عن أبي عبيدة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤]؛ قال: اللوح المحفوظ. وأم أوعال: هضبة معروفة، وأنشد:

خلَى الذنابات شِمالًا كَثَبًا ❖ وأمَ أوعالٍ كَهَا أو أقْربَا

وأمُّ خِنَوَر: الضَبُع". انتهى كلام ابن دريد.

ألا تلاحظ الأبيات الشعرية المنسوبة إلى أصحابها حين قال: الآمَةُ: العيب في الإنسان. قال النابغة:

فأخِذْنَ أبكارًا وهنّ بآمَةٍ ❖ ....

ألا تلاحظ حينما قال:

وأمُ الرأس: الجِلدة التي تجمع الدماغ، وبذلك سُمَي رئيس القوم أمًّا لهم. قال الشنفرى -يعني: تأبط شرًّا:

وأمَّ عيال قد شهدت تَقوتهم ❖ إذا أحْتَرَتْهمْ أوتَحَتْ وأقلتِ

ألا تلاحظ أنه ذكر ذا الرمة أيضًا حين قال:

وشُعْثٍ يَشُجُّونَ الفَلا في رءوسِهِ ❖ إذا حَوَّلت، أمُّ النجوم الشوابكُ

وهكذا تجد أبياتًا استشهد بها على ألفاظ عربية، وقد نَسب الشواهد إلى أصحابها؛ كما تجد شواهد أخرى من الشعر غير منسوبة إلى أصحابها؛ وذلك كقوله قال الراجز:

وأمُّ مثواي تدرِّي لِمَّتي ❖ وتغْمِزُ القَنْفاءَ ذاتَ الفَرْوَةِ

كما استشهد على تدري بقوله وأنشد:

وقد أشهد الخيلَ المغيرةَ بالضُّحى ❖ وأنتَ تُدَرِّي في البيوت وتُفْرَقُ

دون أن يسب هذا الشعر إلى صاحبه.

إذًا؛ مع اهتمامه بنسبة الأبيات إلى قائليها؛ فإنه وقع في هذه المادة وفي غيرها أبيات أخرى لم ينسبها -أو لم يتمكن شيخنا من نسبتها. إلى قائليها؛ كذلك تجد القرآن الكريم بادٍ في هذه المادة؛ ألم تلاحظ مع قاله بشأن: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ حينما عرف الأمة بالقرن من الناس، واستشهد بـ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، وكذا استشهد بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ وأيضًا بقوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ... وهكذا.

كما ترى عنايته باللغات حينما قال: والأم معروفة، وقد سمت العرب في بعض اللغات الأم إِمًّا في معنى أم، إذًا؛ هو يعتني أيضًا باللغات كما يهتم بما يسمى بالتعدد المعنوي للفظ -بالمشترك اللفظي- حينما قال: والأمة لها مواضع، وبدأ يعدد معاني هذا اللفظ حين قال: "فالأمةُ: القرن من الناس، والأمةُ: الإمام. والأمَّةُ: قامة الإنسان. والأمةُ: الطول. والأمَّةُ: المِلّة". ألا تلاحظ كل هذه المعلومات التي حوتها هذه المادة؟! ولك أن تتصفح المعجم في طبعته الهندية أو في طبعته العربية؛ لتخرج منه بنتائج جمة.

نموذج آخر: الباء والثاء والقاف:

تحت هذا الجذر يقول:

"انبثقَ الماءُ وبَثَقَ: إذا انفجر من حوض أو سِكْر، والماء باثِق ومنبثِق.

وثقَبَت النارُ تَثْقُب ثُقُوبًا: إذا أضاءت، وكذلك النجم إذا أضاء، والنجم ثاقب. والثِّقاب: كل ما تُقِبَتْ به النار من حُراق أو غيره، وهو الثَّقوب أيضًا؛ قال الشاعر:

أذاعَ به في الناس حتى كأنه ❖ بعَلْياءَ نارٌ أوقِدَت بثُقُوبِ

يُروى بفتح الثاء وضمّها؛ واللغة الفصيحة: أثْقَبْتُ النارَ إثقابًا فثَقَبَت. قال الأسْعَر الجُعْفي:

فلا يَدْعُني قومي لكعب بن مالك ❖ لئن أنا لم أسْعِرْ عليهم وأثْقِبِ

فسُمِّي الأسْعَر.

ورجل ثاقِب الرأي، إذا كان جزلًا نَظَّارًا.

وثَقَبْت الشيء أثقبه ثَقْبًا، إذا أنفذته. ولا يكون الثقب إلا نافذًا. وصناعة الثاقب: الثِّقابة. وسمِّي المُثَقِّب الشاعر بقوله:

أرِيْنَ محاسِنًا وكَنَنَّ أخرى ❖ وثَقَّبْنَ الوصاوصَ للعُيونِ

وكل حديدة ثَقَبْتَ بها فهي مِثْقَب. وربما سُمِّي الرجل الجيِّد الرأي مِثْقَبًا.

والمَثْقَب: طريق في حَرّة أو غِلَظ، وكان فيما مضى طريق بين اليمامة والكوفة يسمَّى مَثْقَبًا. والثِّقاب: رَكايا تُحفر في بطن الأرض ينفذ بعضُها إلى بعض. وزعم قوم أن الثِّقاب الهواء، والفُقَر التي يجري فيها الماء تحت الأرض. والأثْقُوب: الرجل الدخّال في الأمور. ومِثْقَب: طريق بين الشام والكوفة كان يُسلك في أيام بني أمية.

ثم ذكر من هذا التقليب القاف والباء والثاء، قال: وقد سمَّت العرب قَباثًا، ولا أدري مِمَّ اشتقاقه؟ وسألت أبا حاتم عنه فلم يعرفه"... انتهى كلامه.

تلاحظ اهتمام ابن دريد بالأماكن والتعريف بها حين قال: ومثقب طريق بين الشام والكوفة كان يسلك في أيام بني أمية...". وحين قال: "والمَثقب: طريق في حرة أو غلظ، وكان فيما مضى طريق بين اليمامة والكوفة يسمى مثقبًا". لاحظ اهتمامه بلغات العرب والفصيح منها حين قال: "واللغة الفصيحة: أثقبتُ النارَ إثقابًا؛ حيث قال قبل ذلك: وثقبت النار تثقب ثقوبًا". ثم لاحظ اهتمامه أيضًا بذكر الروايات في بعض الأبيات؛ فحينما ذكر الثقوب في البيت الشعري:

أذاعَ به في الناس حتى كأنّه ❖ بعَلْياءَ نارٌ أوقِدَت بثُقُوبِ

قال: يروَى بفتح الثاء وضمها، أي: ثُقوب وثَقوب.

ولاحظ اهتمامه بنسبة الأبيات إلى قائليها، وحين لم يتمكن يذكر الأبيات دون نسبة، ولاحظ اهتمامه باشتقاق الأسماء والأعلام، قال:

وسمِّي المُثَقِّب الشاعر بقوله:

أرِيْنَ محاسِنًا وكَنَنَّ أخرى ❖ وثَقَّبْنَ الوصاوصَ للعُيونِ

فسمي مثقبًا لذلك، والأسعر كذلك سمي أسعرًا حين قال:

فلا يَدْعُني قومي لكعب بن مالك ❖ لئن أنا لم أسْعِرْ عليهم وأثْقِبِ

إذًا؛ اهتمامه باشتقاق الأسماء واشتقاق الأماكن وتعليل التسمية، يشهد بقوة ذاكرة شيخنا.

مدرسة القافية

عناصر الدرس

العنصر الأول : الانتماء المعجمي لمدرسة القافية ٢١٣
العنصر الثاني : مؤلِّفو معاجم مدرسة القافية ٢١٥
العنصر الثالث : المنهج العام لمدرسة القافية ٢٢٠
العنصر الرابع : النقود الموجَّهة إلى مدرسة القافية ٢٢٣

الانتماء المعجمي لمدرسة القافية

هذه المدرسة تضم: (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري، و (لسان العرب لابن منظور، و(القاموس المحيط) لمجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي، و (تاج العروس من جواهر القاموس) لمرتضى الزبيدي.

كما تأثر بها أيضًا الصغاني في (العُباب الزاخر واللباب الفاخر)، كما تأثر بها أيضًا ميرزا محمد علي الشيرازي في (المعيار).

فهذه الكتب الستة تنتمي إلى هذه المدرسة المسماة بمدرسة القافية أو بمدرسة التقفية؛ فإذا كانت المعاجم التي تنتمي إلى المدرستين -التقليبات الصوتية، والتقليبات الهجائية- قد اعتمد بعضُها في ترتيبه على نظام معين؛ حيث جاء كتاب (العين) وما تأثر به، جاء ترتيبه وتقسيمه على النظام الصوتي بالإضافة إلى ما لها من خصائصَ أخرى، وإذا كان معجم ابن دريد -أعني: (جمهرة اللغة)- قد سار على النظام الألفبائي أو الهجائي مع مراعاة أمور أخرى كذلك؛ فقد رأى بعض اللغويين أن هناك حاجةً قصوى إلى تنظيم آخر للمعاجم اللفظية، يعتمد على ترتيب المواد اللغوية تبعًا لحرفها الأخير، مع مراعاة الحرف الأول وما يليه أيضًا في ترتيب أصول أو جذور المادة اللغوية.

فالمادة أولًا ويترجم لها بآخر حروفها، مع ترتيب تلك الحروف الترتيب الهجائي: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء، دال، ذال... إلى آخره، ثم تأتي الجذور باعتبار الحرف الأول منها؛ فمثلًا: في حرف الحاء يكون الترتيبُ لكل ما آخره حاءً؛ تبعًا لترتيب أوله، فما أوله همزة يأتي قبل ما أوله باء، ثم ما أوله تاء، ثم ما أوله ثاء، ثم ما أوله جيم... وهكذا.

وفيما أوله همزة أو باء أو تاء أو ثاء أو جيم... إلى آخره، يراعى الحرفُ الثاني؛ فمثلًا: فيما أوله همزة يكون الترتيب هكذا: ما ثانيه همزة، ثم ما ثانيه باء، ثم ما ثانيه تاء، ثم ما ثانيه ثاء... وهكذا.

كما يراعى الحرف الثالث أيضًا فما ثانيه -مثلًا- همزة يكون الترتيب هكذا: ما ثالثه همزة، فما ثالثه باء، فما ثالثه تاء، فما ثالثه ثاء، فما ثالثه جيم... إلى آخره؛ وكذلك عندما يوجد حرف رابع...

تلك هي الفكرة العامةُ في هذا النوع من المعاجم التي أخرجها أولئك اللغويون، ورأوا أنها أكثر فائدةً للباحث والمستعمل.

إذًا، إن (تاج اللغة) للجوهري، و(لسان العرب) لابن منظور، و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي، و(تاج العروس) للزبيدي، و(العُباب) للصاغاني، و(المعيار) للشيرازي، هي معاجم لفظية مجنسة تنتهج نظامَ القافية.

وقد نسب أصل هذه الفكرة، التي سميت بطريقة أو مدرسة القافية؛ لاعتمادها على الحرف الأخير إلى الفارابي اللغوي عند بعض الدارسين؛ بينما يرى آخرون: أن صاحب الفضل في فكرة القافية هو أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي، الذي وُلِدَ سنة مائتين وتوفي سنة أربع وثمانين ومائتين في مؤلفه (التقفية في اللغة)؛ لذلك يرى باحثون أن البندنيجي -صاحب (التقفية في اللغة)- هو السابق إلى هذا المنهج، وقد احتذته المعجمات التي اختارت فكرة التقفية في ترتيب مفرداتها؛ بينما يعارض باحثون آخرون هذا الرأيَ، ويرون أن الفارابي هو الرائد لهذه النظرية.

والمتأمل في حجج كل من الفريقين يرى أن كلًّا من البندنيجي والفارابي، قد أسهم في الوصول إلى تلك النظرية الجديدة في الترتيب المعجمي؛ لكن التنفيذ

الحقيقي لتلك الفكرة وبلوغها حد الواقعية إنما تم -في الواقع- على يد الجوهري صاحب (الصحاح)، ويعد هذا النوع من المعاجم وما دار حوله من مؤلفات مدرسةً معجميةً مستقلةً لها خصائصها ومآخذها.

مؤلفو معاجم مدرسة القافية

أولًا: الجوهري صاحب كتاب (تاج اللغة وصحاح العربية):

يكاد يُجمع الباحثون على أن الجوهري هو المبتدع لنظام التقفية، وقد رأيت أن هناك باحثين يرون الفارابي رائدها، وبعضهم يرى البندنيجي رائدها؛ لكن أكثر الباحثين على أن الجوهري هو المبتدع لهذا النظام.

والملاحظ أن الفارابي خال الجوهري، الفارابي اللغوي هو إسحاق بن إبراهيم، المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة له كتابه اللغوي أو معجمه الشهير (ديوان الأدب)؛ ونظرًا لشهرة المدرسة بالجوهري وشهرة الجوهري بمدرسة القافية، يعد (تاج اللغة وصحاح العربية) على رأس كتب هذا النظام.

وقد أرجع الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في مقدمته (للصحاح) لجوء الجوهري إلى هذا النظام إلى الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية؛ حيث نجد أن الحرف الأخير في الكلمة -وبخاصة لام الفعل- أكثر ثباتًا من سائر حروفه، وهذا ما يلاحظ في الأوزان الآتية:

فَعَل، فُعِل، فَوْعَل، مِفعَل، مِفعَال، أفْعل، فَعَّل، انْفَعل، افتعل، افعلّ، تفاعَل، تفعَّل، استفعل، افعوعل، افعوَّل، افعالَّ... إلى آخره.

أما الزوائد في الآخر فتكاد تكون محصورة في علامتي التثنية والجمع، وكذا في علامة التأنيث من تاء وألف.

وأرجع بعض العلماء اللجوء إلى هذا النظام -أي: نظام القافية- إلى غلبة السجع على كُتُاب هذه العصور.

واستعمال كلمة القافية في المعاجم تجوز في الاستعمال؛ فالقافية هو الحرف الأخير الذي تبنى عليه القصيدة، وقد تنسب إليه فيقال: القصيدة الهمزية لما آخره همزة، والسينية لما آخره سين، والدالية لما آخره دال، والرائية لما آخره راء... وهكذا؛ لكن تسمية مدرسة لغوية بهذا الاسم فإنما هو تجوز في الاستعمال؛ حيث يرتب أصحاب هذه المدرسة الكلمة بحسب آخرها الأصلي -كما علمَت- فيجعلونه بابًا والحرف الأول من الكلمة يجعلونه فصلًا؛ فيجعل لكل باب ثمانية وعشرون حرفًا هي حروف الهجاء.

فانتشار الشعر وغلبة السجع في عصر تأليف هذه المعاجم -في رأي بعض العلماء- كانا هما السبب، الذي دفع أتباع هذه الطريقة لانتهاجها، وقيل: إن السبب الرئيسي لذلك: هو ضعف السليقة العربية لدَى الشاعر والناثر، وقلة إلمامه بالمفردات المتماثلة الأواخر التي يحتاجها في شعره المقفَّى أو في سجعه؛ كما أن اللغة العربية من السعة في مفرداتها ومترادفاتها بحيث يصعب الإحاطة بها، وقديمًا قال الشافعي: لا يحيط باللغة إلا نبي، وتبعه على ذلك علماء كثيرون منهم ابن فارس في (الصاحبي)؛ ونظرًا لسعة مفردات ومترادفات اللغة العربية عند أصحاب هذه المعاجم التي تسير حسبَ القافية؛ فقد رأوا أن هذا النظام يُسَهِّلُ مهمةَ الشاعر والناثر بترتيب الكلمات حسب الحرف الأخير.

والجوهري، هو: إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة من الهجرة، وقيل: إن وفاته كانت على رأس الأربعمائة، وأصله من "فاراب" دخل العراق صغيرًا، وسافر إلى الحجاز فطَافَ البادية ثم عاد إلى خراسان، فَنَيْسَابور،

وقد حاول الطيران فمات في محاولته، إنه إمام في اللغة والأدب، وكان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً، وقد تلقى العلم في العراق على يد عالِمَيْن بارزين من علمائها: وهما أبو سعيد السيرافي وأبو علي الفارسي، والمعروف أن أبا سعيد السيرافي توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وتوفي أبو علي الفارسي سنة ست وخمسين وثلاثمائة.

وحين سافر شيخنا إلى الحجاز شافه العرب العاربة في ديارهم، وحينما عاد إلى خراسان واستقر به المقام في نيسابور، تصدر فيها للتدريس والتأليف، وتعليم الخط، وكتابة المصاحف، وبظهور "صحاحه" في اللغة يظهر أول معجم رُتبت فيه المادة اللغوية من أولها لآخرها، بحسب الأصل الأخير للكلمة مع مراعاة الأصل الأول أيضًا، مع مراعاة الثاني في الثلاثي، والثالث في الرباعي، وتسمية الحرف الأخير بابًا، والأول فصلًا.

من هنا؛ فإن باحثين كثرًا يرون أن الجوهري يلي الخليلَ في الشهرة.

ثانيًا: ابن منظور صاحب (لسان العرب):

هو محمد بن مكرَّم بن علي الأنصاري الأفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، يتصل نسبه برويفع بن ثابت الخزرجي الأنصاري، وقد ذكر ابن منظور في مادة الجيم والراء والباء: أن رويفع بن ثابت جده الأعلى من الأنصار، ولعل هذا يفسر لنا نسبة الأنصاري.

أما نسبته إلى أفريقيا؛ فهي ترجع إلى ولادته ونشأته في ذلك الجزء من الشمال الأفريقي، الذي يعرف اليوم بـ"ليبيا"، والذي كان يطلق عليه مع غيره من أجزاء هذا الشمال مصطلح "أفريقية" عند المؤرخين والجغرافيين العرب في يوم من الأيام.

وقد وُلِدَ ابن منظور سنة ثلاثين وستمائة من الهجرة، ونشأ بطرابلس، ودرس بها وتولى قضاءها، ولا تزال سلالات من نسل هذا الجِهبذ الكبير في بلدة "تاجوراء"

قرب مدينة طرابلس، وهذه السلالات تسمى باسم عائلات ابن المكرم؛ نسبةً لجدهم جمال الدين بن منظور.

وقد هاجر ابن منظور بعد ذلك إلى مصرَ، واستوطن بها، وتولى فيها رياسة ديوان الإنشاء، وبقي بها إلى أن توفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

ورأى بعض العلماء أن وفاته كانت بالقاهرة؛ بينما رأى آخرون أنه توفي بالإسكندرية في مصر أيضًا.

وكان شيخُنا من تلامذة أبي حيان صاحب تفسير (البحر المحيط)، وكان عارفًا بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة، وألف كثيرًا من الكُتُب، كما اختصر عددًا وفيرًا من المؤلفات الطويلة لغيره، وقيل: إنه خط بقلمه حوالي خمسين مجلدًا، وقد اختصر (الأغاني)، واختصر (مفردات ابن البيطار)، وأهم مؤلفاته هذا الكتاب الذي معنا وهو المنتمي إلى مدرسة القافية، أعني: (معجم لسان العرب).

ثالثًا: الفيروزآبادي صاحب (القاموس المحيط):

هو أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزآبادي، وُلِدَ بـ"كارزين" بلدة بفارس، سنة تسعٍ وعشرين وسبعمائة هجرية، أي: في فترة العصر المغولي الذي بدأ بسقوط بغداد في قبضة التتار على يد "هولاكو"، سنة ستٍّ وخمسين وستمائة، وانتهى بدخول العثمانيين مصر، وجاءت ولادته بعد وفاة ابن منظور صاحب (لسان العرب) بثماني عشرة سنة.

وقد ظهرت أمارات نبوغه، منذ نعومة أظفاره كما يذكر مَن ترجموا له؛ فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وجوَّدَ الخط في هذه السن؛ مما دفع والده شيخ الإسلام سراج الدين يعقوب إلى الاعتناء به، فأقرأه اللغة والأدب، ثم أخذ به

إلى مشاهير علماء شيراز ؛ فسمع (صحيح البخاري) و(جامع الترمذي) من شيوخها، ثم تنقل إلى عواصمِ العلم في شَتَّى الأقطار ؛ فرحل إلى العراق ودخل واسط، ثم دخل بغداد، ثم دخل القدس، ثم دخل القاهرة، ودخل الروم والهندَ، وعاد منها على طريق اليمن قاصدًا مكةَ، إلى أن ألقى عصى التسيار في زبيد باليمن ؛ فتولى قضاءها، واستقرت قدمه بزبيد مدةً تزيد على عشرين سنة.

وفي مدة إقامته بزبيد قدم مكة مرارًا فجاور بها وبالمدينة النبوية والطائف.

لقد اعتنى شيخنا بعلوم الحديث والتفسير واللغة وبرَعَ فيها، وله مصنفاتٌ عِدة في اللغة ؛ منها: (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)، و(المثلث الكبير)، و(مقصود ذوي الألباب في علم الإعراب). وله في التفسير: (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وله (البُلغة في تراجم أئمة النحاة واللغة) وله (القاموس المحيط)، الذي ينتمي إلى مدرسة القافية، وقد توفاه الله في زبيد سنة سبعة عشرة وثمانمائة من الهجرة وقد ناهز التسعين.

رابعًا: الزَّبيدي صاحب (تاج العروس من جواهر القاموس):

هو محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، وُلِدَ سنة خمسٍ وأربعين ومائة وألف من الهجرة بـ"زبيد" إحدى قرى اليمن، وهي التي أقام فيها الفيروزآبادي بقية عمره، وقد ابتدأ فيها حياته العلمية ؛ فتلقى عن شيوخها وتزود من الثقافات الموجودة بها، ثم رحل إلى مصر سنة سبع وستين ومائة وألف مقر الشيوخ الأجلاء والعلماء الأفاضل ؛ فتلقى العلوم عن خيرتهم، وعكَفَ على الناحية اللغوية ليستزيد منها، وظل مقيمًا بالقاهرة إلى أن توفي بها سنة خمس ومائتين وألف من الهجرة.

وقد برز الزبيدي في جميع العلوم، وعكف على شرح (القاموس) للفيروزآبادي؛ حتى خرج لنا كتابه الذي سماه (تاج العروس من جواهر القاموس)، وقد أخرجه في عدة سنين، وأطلع عليه طلاب العلم؛ فشهدوا بفضله واعترفوا بجليل مكانته، وقد أتمه سنة إحدى وثمانين ومائة وألف من الهجرة، وإن من يرجع إلى مقدمة (تاج العروس) يبدو له الهدفَ من تأليف الكتاب؛ حيث وجد ذيوع (القاموس المحيط) واشتهاره شهرةً كبيرةً، ولمس ما فيه من اختصار وغموض؛ فدفعه ذلك إلى تكميل نقصه وإتمام مباحثه؛ ليبدو أمام الباحث بكل احتياجاته؛ ولذلك فإن منهجه هو منهج (القاموس المحيط) مع الإضافات والمباحث التي تميز بها.

هذه فكرة عن أشهر العلماء الذين انتسبوا إلى مدرسة القافية، وقد ذكرت أن هنالك علماءَ آخرين تأثروا بهذه الطريقة وهذا النظام، ومنهم الصغاني رضي الدين الحسن بن محمد المتوفى سنةَ خمسين وسِتمائة؛ حيث توج حياته العلمية في القرن السابع بمعجم كبير سمَّاه (العباب الزاخر واللباب الفاخر)، وقد وُلِدَ الصغاني سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وتوفي سنة خمس وخمسين وستمائة.

ولم يتأثر بهذه المدرسة في كتابه (العباب الزاخر) هذا؛ وإنما أفاد من المدرسة نفسها ومن نظامها في كتبه الأخرى، ومن أشهرها (التكملة) و(الذيل والصلة)، وكذلك (مجمع البحرين).

وتأثر بالفكرة نفسها مِيرزا محمد علي الشيرازي الذي سَمَّى معجمه (معيار اللغة)؛ حيث أنجزه سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة.

المنهج العام لمدرسة القافية

تشترك معجمات هذه المدرسة كلها في أساس التقسيم الذي لم يتغير ولم يتطور منذ أولها إلى آخرها، واعتمد هذا الأساسُ على تقسيم المعجم كله إلى أبواب

وفقًا للحرف الأخير من الكلمات، وتقسيم كل باب إلى فصول وفقًا للحرف الأول، وترتيب المواد في هذه الفصول وفقًا لحروفها الوسطى باعتبار الحروف الأصول وحدها في جميع هذه المراحل، وتشترك جميعًا في إفراد باب واحد للكلمات التي آخرها الواو والواو، ثم تقديم الواو على الهاء في الفصول؛ حتى يمكن فصل اللفيف الذي وسطه الواو عن اللفيف اليائي الوسط؛ فكلمة "مستشزرات" بعد أن تُجرد من زوائدها يبحث عنها في مادة الشين والزاي والراء: باب الراء، فصل الشين، مع ملاحظة الزاي، وكلمة مثل الفعل المضارع "يزن" يُبحث عنها في باب النون، فصل الواو، مع ملاحظة الزاي؛ لأن أصلها "وزن".

ولعدم قيام كتب هذه المدرسة على نظام الأبنية الذي انتهجته المدرستان - التقليبات الصوتية، والتقليبات الهجائية - انتظمت الأبواب؛ حيث رتبت الكلمات حسب أصولها وفق النظام الألفبائي المعروف اليوم، وجعل لكل حرف بابًا خاصًّا به، ورتبت الحروف ترتيبًا عاديًّا كذلك، وقد قسم كل باب إلى ثمانية وعشرين فصلًا، ورتبت الفصول ترتيبًا عاديًّا كذلك، مع مراعاة الحرف الثاني والثالث والرابع أيضًا حينما يكون الأصل رباعيًّا.

وقد تميزت هذه المعاجم بضبط الكلمات بوسائل مختلفة: بالنص مثلًا على حركة حرف الكلمة المحتمل أكثر من وجه؛ تجنبًا للتصحيف الذي أصاب المعاجم، كما عنيت كتب هذه المدرسة بذكر كثير من مسائل النحو والصرف وفقه اللغة، كما اهتمت بذكر اللغات والمفاضلة بينها من حيث الفصاحة؛ حيث تشير إلى الفصيح والأفصح والمذموم.

وأما من حيث تعريف المفردات؛ فكثيرٌ من كتب هذه المدرسة لم يأتِ بجديد؛ حيث اقتبس عن الكتب السابقة وإن كانت تتميز بذكر المصدر الذي أخذت عنه.

وتفترق كتب هذه المدرسة في أمور؛ بِناءً على ما رآه كل مؤلف منها من هدفٍ بَغَى الوصول إليه؛ فقد التزم (الصحاح) بالألفاظ الصحيحة وحدَها، وتغلب عليه الصبغة النحوية والصرفية، يلتزم (الصحاح) بذكر الألفاظ الصحيحة؛ لذلك سَمَّى كتابه بـ(الصِّحاح)، وتقرأ (الصَّحاح) بفتح الصاد، وهو نعت مفرد مثل الصحيح، كشحيح وشحاح، وبريء وبراء، وصحيح وصحاح، وتقرأ كذلك (الصِّحاح) جمعًا لكلمة صحيح، كظريف وظراف، و(الصِّحاح) هي الجارية على الألسنة اليوم، والكتاب كاملًا يسمى بـ(تاج اللغة وصحاح العربية).

وقد صدره بمقدمة قصيرة تشير إلى ما نقوله؛ فبعد أن حمد الله وشكره وصلى على محمد وآله قال:

"أما بعد؛ فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شَرَّف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطًا بها على ترتيب لَمْ أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه، في ثمانية وعشرين بابًا، وكل باب ثمانية وعشرون فصلًا على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلا أن يُهمل من الأبواب جنسٌ من الفصول بعد تحصيلها بالعراق روايةً وإتقانها درايةً، ومشافهة بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آلُ في ذلك نصحًا، ولا ادخرت وسعًا، نفعنا الله وإياكم به".

وإذا كان (الصحاح) قد التزم بالألفاظِ الصحيحة وحدها -كما قال-، وغلبت عليه الصبغةُ النحوية الصرفية؛ فإن (العباب) يغلب عليه الصبغة الأدبية والعناية بالشواهد الشعرية، ونرى (القاموس) قد التزم الاختصار والاستقصاءَ، وغلبت عليه الصبغة الطبية، وأكثرَ من الأعلام وخاصة أعلام المحدثين والأماكن والمصطلحات.

ويغلب على (لسان العرب) و(تاج العروس) الإسهاب والإطناب، وإن كان (لسان العرب) قد اقتصر على المواد اللغوية، وزاد (تاج العروس) ما زادَه على (القاموس) فـ(التاج) خليط من دوائر المعارف والمعجمات اللغوية.

النقود الموجهة إلى مدرسة القافية

أخذت على هذه المدرسة بعض المآخذ؛ أهمها: مآخذ ترتبط بالمنهج الذي سارت عليه في التقسيم وترتيب المواد، على الرغم من أن هذا التقسيمَ الذي اتبعته كتب هذه المدرسة أيسرُ مما عند مدرسة الخليل ومدرسة ابن دريد؛ فالنظر إلى آخر الكلمة، ثم أولها، ثم وسطها، يراه البعض تشتيتًا للذهن، ورآه بعض العلماء لا يسير من حيث السهولة والصعوبة سيرًا واحدًا؛ إذ يسهل هذا الترتيب في الثلاثي، ولكنه يعسر قليلًا في الرباعي والخماسي؛ حتى اختلف فيهما أفراد هذه المدرسة.

فقد ذهب الجوهري إلى تقديم الثلاثي على الرباعي، فوضع القاف والراء والباء والسين بعد مادة القاف والراء والسين؛ لأنه نظر إلى آخرها فأولها فثانيها، فانتهت حروف الألفاظ الثلاثية عند ذلك فأثبتها؛ وبقي حرف من الرباعيات فأخَّرَه، وقد حاول الفيروزآبادي أن يتلافى ذلك ورتبها بحسب حروفها كلها؛ فقدَّم هذا النوع من الرباعي على الثلاثي.

وحينما نظر المستشرق "فيشر" إلى كتب هذه المدرسة اعترض على هذا الترتيب بثلاث نقاط:

الأولى: إذا كان الحرف الأخير حرف علة؛ فكثيرًا ما يقع التباس، وكان ذلك السبب في جمع الواوي واليائي معًا.

الثانيةُ: الحرف الأخير كثيرًا ما لا يكون أصليًّا؛ كما في مادة الهمزة والباء والواو من الأبِ، وفي مادة الهمزة والخاء والواو من الأخ، وفي مادة الباء والنون والياء من الابن، وفي مادة الميم والواو والهاء من الماء.

الثالثةُ: بهذه الطريقة يصعب ترتيب الكلمات الأحادية والكلمات الثنائية؛ كما نجدها من بين الحروف الدالة على معنى في غيرها ومن بين الضمائر.

ولم تستطع هذه المدرسة التخلص من مشكلة الترتيب على الحروف الأصلية وحدها؛ فخطأ بعض أفرادها بعضًا بسبب اختلاف وجهات النظر في أصالة كثير من الحروف وزيادتها؛ فكان من ثمرات هذا الاختلاف -كما يرى الدكتور حسين نصار- هذا التوهيم والتجني أحيانًا، ووضع الكلمة الواحدة في أكثرَ من موضع، أو احتمال وضعها في أكثرَ من موضعٍ واحدٍ، ويجعل الباحث غير عارف بموضعها، ووضعها في وضع يصعب الوصول إليه أحيانًا.

وقد رأى رضيُّ الدين الحسن بن محمد الصغاني قصورًا في الكتب المؤلفة قبله، وكان هذا القصور من أسباب إقدامه على تأليف كتابه (العباب الزاخر واللباب الفاخر)؛ إذ رأى قصورًا فيما يتصل بألفاظ الحديث، وإن المتصفح لمقدمة (العباب) يلاحظ هذا الملحظَ؛ إذ يقول في هذه المقدمة:

"هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق في كتب اللغة المشهورة والتصانيف المعتبرة المذكورة، وما بلغني مما جمعه علماء هذا الشأن والقدماء الذين شافهوا العربَ العرباء، وساكنوها في داراتهم، وسايروها في نقلها من مَوْرِدٍ إلى موردٍ، ومن مَنْهلٍ إلى منهلٍ، ومن منتجعٍ إلى منتجعٍ، ومَن بعدَهم مِمَّن أدرك زمانهم ولحق أوانهم، آتيًا على عامة ما نطقت به العرب خلا ما ذهب منها بذهاب أهلها من المستعمَل الحاضر والشارد النادر.

مستشهدًا على صحة ذلك بآيٍ من الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وبغرائب أحاديث مَن هو بمعزل عن خطل القول وخُلفه، فكلامه هو الحجة القاطعة والبينة الساطعة، وبغرائب أحاديث صحابته الأخيار وتابعيهم الأحبار، وبكلام من له ذكر في حديث أو قصة في خبر وهو عويص، وبالفصيح من الأشعار والسائر من الأمثال؛ ذاكرًا أسامي خيل العرب،

وسيوفها، وبقاعها، وأسقاعها، وبُرَقها، وداراتها، وفُرسانها، وشعراءها؛ آتيًا بالأشعار على الصحة، غير مختلَّة ولا مغيرة ولا مداخلة، معزوًّا ما عزوتُ منها إلى قائله، غير مقلد أحدًا من أرباب التصانيف وأصحاب التآليف، مراجعًا دواوينهم، معتمًّا أصح الروايات، مختارًا أقوال المتقنين الثقات.

وموجب ما ذكرت أني رأيت فيما جمع مَن قبلي أطلقوا في أغلب ما أوردوا وقالوا: "وفي الحديث"، غير مبين النبوي من الصحابي، والصحابي من التابعي، وربما أطلقوا لفظ "الحديث" على المثل، ولفظ "المثل" على الحديث، وربما قالوا: "وقولهم"، وهو من صحاح الأحاديث.

وقد سردت الأحاديثَ الغريبة المعاني المشكلة الألفاظ تامةً مستوفاةً، وفسرت كل لفظة منها في بابها وتركيبها، وذكرتُ أن تمام الحديث مذكور في تركيب كذا؛ ليعلم سياق الحديث ويؤمن التكرار والإعادة.

وأقدم قبل الشروع في بيان اللغة فصلين:

الفصلُ الأولُ: في معرفة أسامي جماعة من أهل اللغة لا غنى لمارس هذا الكتاب وسائر كتب اللغة عن معرفتها؛ فإن أهل اللغة ذكروا بعضهم بكُناهم، وبعضهم بنسبهم، وبعضهم بحرفهم.

الفصلُ الثاني: في أسامي كتب حَوَى هذا الكتاب اللغات المذكورة فيها.

وذكر في أسامي جماعة من أهل اللغة مجموعةً كبيرةً، أذكر منهم: إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الحربي، وحمد بن محمد أبو سليمان الخطابي، وخالد بن يزيد أبو القاسم اليزيدي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو منصور الأزهري، وأبو زياد الكلابي.

وفي الفصل الذي عقده لأسامي الكتب ذكر منها: (ديوان الأدب) للفارابي، وكتاب (العين) للخليل، و(المحيط) لابن عباد، و(التهذيب) للأزهري، و(المجمل) لابن فارس، و(الجمهرة) لابن دريد...

لعل في هذه المقدمة ما يدلك على أن صاحب (العباب) حاول أن يتلاشَى بعضَ المآخذ التي أخذت على مَن سبقه من العلماء وبخاصةٍ ما يتصل بالألفاظ والأحاديث النبوية؛ حيث رأى أن بعض العلماء يخلطون بين الحديثِ والمثلِ، وبين الحديثِ والقولِ؛ حيث قال:

قالوا: وفي الحديث غير مبين النبوي من الصحابي، والصحابي من التابعي، وربما أطلقوا لفظ الحديث على المثل، ولفظ المثل على الحديث، وربما قالوا: "وقولهم"، وهو من صِحاح الأحاديث؛ إذ يطلقون الحديث على القول، والقول على الحديث، ويطلقون الحديثَ على المثل، ويطلقون لفظ المثل على الحديث...

لعل هذا أبرز ما لاحظه الصغاني على الكتب المؤلفة قبله، وحاول أن يستدركها في (العباب).

وهذه المآخذ وغيرها لا تنقص من قدر هذه الكتب، فيكفيها أنها تخلصت من نظام التقليبات ومن نظام الأبنية، الذي كان سائدًا عند كتب مدرسة التقليبات الصوتية، وكذا عند ابن دريد رأس مدرسة التقليبات الهجائية؛ ولذلك انتظمت الأبواب انتظامًا حَسَنًا عند كل هؤلاء: عند الجوهري في (مختار الصحاح)، عند ابن منظور في (لسان العرب)، عند الفيروزآبادي في (القاموس المحيط)، عند الزبيدي في (تاج العروس)، حتى عند الصغاني في (العباب)، وعند الشيرازي في (المعيار).

تابع: مدرسة القافية:
دراسة تطبيقية في معجم (لسان العرب) لابن منظور

عناصر الدرس

العنصر الأول : الانتماء المعجمي لـ(لسان العرب) ٢٢٩
العنصر الثاني : مؤلف (لسان العرب)، وهدفه منه، ومنهجه الخاص فيه ٢٣٠
العنصر الثالث : نماذج وأمثلة من (لسان العرب) ٢٤٣

الانتماء المعجمي لـ(لسان العرب)

إن هذا المعجم ينتمي إلى المعاجم اللفظية أو المجنسة ؛ حيث ترتب الألفاظ وفق نسق معين، وهو -بلا شك- معجم أحادي اللغة، ومن المعاجم العامة، إنه معجم أحادي اللغة عام لفظي مجنس، ويرتب الألفاظ وفقَ مدرسة القافية ؛ حيث تنتهج هذه المدرسة نهجًا خاصًّا : وهو النظر إلى آخر الجذر وجعله بابًا، ثم النظر إلى أوله وجعله فصلًا، مع مراعاة أن الأبواب مرتبة وفق حروف الهجاء المعروفة : ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء، دال، ذال، راء، زاي... إلى آخره. وكذلك الأمر بالنسبة للفصول فهي مرتبة أيضا ترتيبًا هجائيًّا، ثم ينظر إلى الوسط ويرتب كذلك ترتيبًا هجائيًّا ؛ لذلك ينتمي معجم (اللسان) إلى معاجم القافية.

وقد طُبِعَ (اللسان) على هذا النهج طبعاتٍ متعددةً ؛ فقد طبعته المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ثلاثمائة وألف من الهجرة، وهو موافق لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف من الميلاد، طبعته في عشرين جزءًا تضمنها عَشْر مجلدات، وهي الطبعة المشهورة باسم بولاق، وهي أولى طبعات هذا المعجم النفيس.

كما طبعته دار صادر ببيروت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وهو موافق لسنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد، طبعته في خمسة وستين جزءًا صغيرًا يضمها خمسة عشر مجلدًا، وقد صنع لها فهارس بعد ذلك في سبعة مجلدات باستخدام الحاسب الآلي، وطبعت هذه الفهارس مؤسسة الرسالة، ثم طُبِعَ بعد ذلك مصورًا عن طبعة بولاق، وطُبِعَ كذلك مصورًا عن طبعة دار صادر، وهذا جهد يشكر لتلك الدور التي تحرص على نشر التراث.

لكن الذي يجب أن نشير إليه أن بعض دور النشر، قد أعادت نشر بعض معاجم اللغة القديمة بترتيب آخر، و(لسان العرب) خضع لهذا النظام الحديث حيث أعيد ترتيب (اللسان) مرة أخرى مرتبًا وفق مدرسة الهجائية العادية، أي: وضع الكلمات تبعًا للحروف الأولى في مادتها؛ فخرج بذلك المعجم من مدرسة القافية -كما أراد له مؤلفه ابن منظور-، وانتقل إلى مدرسة أخرى لم يردها هذا العلامة.

وهذا العمل إذا جاز في معجم صغير مثل (مختار الصحاح) -الذي وضعه الرازي على نظام التقفية، واعتماد الحرف الأخير من المادة، ثم قام بعض المحققين مثل الأستاذ محمود خاطر بإعادة ترتيبه وتحويله إلى نظام الهجائية العادية-، فإنه لا ينبغي ألا يجوز في معجم كبير مثل (لسان العرب) له قدره وقيمته التاريخية.

ولعل غيري يشاركني في هذا الأسف، عندما نرى هذا العمل المنسوب إلى صاحبه وباسمه الذي وضعه له على غير الصورة التي هدف إليها وأرادها لعمله، وقد كانت الطبعة التي أصدرتها دار المعارف بالقاهرة على هذا النحو المحور المغير؛ وكذلك صنعت دار نشر أخرى، منها: دار صادر ببيروت؛ حيث أعادت طبع (لسان العرب) على صور الهجائية العادية، ولم تكتفِ بذلك؛ بل إنها أيضًا حذفت مقدمة المؤلف -مقدمة ابن منظور-؛ لأن مقدمة ابن منظور تشير إلى نظامه وإلى منهجه، الذي سار عليه في انتهاج نهج القافية، وأرى أن حذف المقدمة إنما كان عن عَمْدٍ من هذه الدار ومن القائمين عليها؛ حتى لا يتعارض ما في مقدمة ابن منظور مع العمل الذي غُير وحُوِّرَ بوساطة الدار.

مؤلف (لسان العرب)، وهدفه منه، ومنهجه الخاص فيه

١- مؤلفُ الكتاب:

علمتَ أن مؤلف (لسان العرب) هو محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، وعلمت أن نسبه يتصل بالسيد رفيع

بن ثابت الخزرجي الأنصاري، وعرفت كذلك سر نسبته إلى إفريقيا، وعلمت أنه وُلِدَ سنة ثلاثين وستمائة من الهجرة، ونشأ بطرابلس ودرس بها، وتولى قضاءها، وهاجر إلى مصر واستوطن بها وتولى فيها رياسة ديوان الإنشاء، وبقي بها إلى أن توفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

وقد أجمع المترجمون له على أنه كان محدثًا فقيهًا عمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة، وقد ولي القضاء كذلك في طرابلس، وكانت حياته حياة جد وعمل موصول، وله قدم راسخة في علوم اللغة والنحو والأدب والتاريخ، وقد ألف كثيرًا من الكتب واختصر عددًا وفيرًا من المؤلفات الطويلة، ويقال: إنه خطَّ بقلمه حوالي خمسين مجلدًا، ومعجم (لسان العرب) من أهم مؤلفاته.

وقد أطلق ابن منظور على معجمه اسم: (لسان العرب)، ولا يخفى ما في هذه التسمية من ظلال التفخيم، وما توحي به من مظاهر التعظيم لهذا الكتاب، سواء كان "اللسان" مستعملًا هنا على سبيل الحقيقة أو المجاز؛ فالمقصود به هو اللغة أو التعبير عنها، وكان هذا السفر الجليل قد جمع بين دفتيه لغة العرب جميعها، وحوى في سطوره كل ما نطقت به هذه الأمة الكبيرة؛ فهو على حد قول صاحبه: "الكتاب المبارك الذي لا يساهم في سعة فضله ولا يُشارك".

ويحتمل أن يكون تلك التسمية من اختراع ابن منظور، كما يجوز أن يكون قد أخذها عن مؤلف سابق؛ حيث ذكر بعض العلماء أن لابن سينا كتابًا بهذا الاسم.

٢. الهدفُ من الكتاب:

إني أعرض شيئًا من مقدمة ابن منظور؛ لنستخلص منها هدفه منه ومنهجه الخاص فيه، قبل أن أسوق نماذج تطبيقية منه:

يقول ابن منظور -بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ وآله وأصحابه وأتباعه: "إن الله قد كرَّم الإنسان وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفًا أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان؛ روي عن ابن عباس { قال: قال رسول الله ﷺ: "أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي". ذكره ابن عساكر في ترجمة زهير بن محمد بن يعقوب.

وإني لم أزل مشغوفًا بمطالعات كتب اللغات والاطلاع على تصانيفها وعلل تصاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أما من أحسن جمعه؛ فإنه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه؛ فإنه لم يُجِد جمعه؛ فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع، ولم أجد في كتب اللغة أجمل من (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ولا أكمل من (المحكم) لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي -رحمهما الله-، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق، غير أن كلًّا منهما منهل وعر المسلك؛ وكأن واضعه شرع للناس موردًا عذبًا وجلاهم عنه، وارتاد لهم مرعًا مربعًا ومنعهم منه، قد أخر وقدم، وقصد أن يعرب فأعجم؛ فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب، وبدد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي، فضاع المطلوب؛ فأهمل الناس أمرهما، وانصرفوا عليهما، وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما؛ وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب، وتخليط التفصيل والتبويب.

ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب "مختصره"، وشهره بسهولة وضعه شهرة أبي دلف بين باديه ومحتضره؛ فخف على الناس أمره

فتناولوه، وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه؛ غير أنه في جو اللغة كالذرة، وفي بحرها كالقطرة، وإن كان في نحرها كالدرة، وهو -مع ذلك- قد صحف وحرف؛ فأتيح له الشيخ أبو محمد بن بري؛ فتتبع ما فيه وأملى عليه "أماليه" مخرجًا لسقطاته، مؤرخًا لغلطاته، فاستخرت الله ﷻ في جمع هذا الكتاب المبارك، الذي لا يساهم في سعة فضله ولا يشارك، ولم أخرج فيه عما في هذه الأصول، ورتبته ترتيب (الصحاح) في الأبواب والفصول، وقصدت توشيحه بجليل الأخبار وجميل الآثار، مضافًا إلى ما فيه من آيات القرآن الكريم، والكلام على معجزات الذكر الحكيم؛ ليتحلى بترصيع دررها عقده، ويكون على مدار الآيات والأخبار والآثار والأمثال الأشعار حله وعقده.

فرأيت أبا السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري قد جاء في ذلك بالنهاية، وجاوز في الجودة حد الغاية، غير أنه لم يضع الكلمات في محلها، ولا راعى زائد حروفها من أصلها، فوضعت كلًّا منها في مكانه، وأظهرته مع برهانه؛ فجاء هذا الكتاب -بحمد الله- واضح المنهج سهل المسلك، آمنًا -بمنة الله- من أن يصبح مثل غيره وهو مطروح متروك، عظم نفعه بما اشتمل من العلوم عليه، وغني بما فيه عن غيره وافتقر غيره إليه، وجمع من اللغات والشواهد والأدلة ما لم يجمع مثلُه مثلَه؛ لأن كل واحد من هؤلاء العلماء انفردت برواية رواها، وبكلمة سمعها من العرب شفاهًا، ولم يأتِ في كتابه بكل ما في كتاب أخيه، ولا أقول: تعاظم عن نقل؛ بل أقول استغنى بما فيه؛ فصارت الفوائد في كتبهم مفرقة، وصارت أنجم الفضائل في أفلاكها هذه مُغرَّبة وهذه مُشرَّقة.

فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرق، وقرنت بين ما غرَّب منها وبينما شرَّق؛ فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل

وأولئك بمنزلة الفروع؛ فجاء -بحمد الله- وفق البغية وفوق المنية، بديع الإتقان، صحيح الأركان، سليمًا من لفظة: "لو كان"، حللت بوضعه ذروة الحفاظ، وحللت بجمعه عقدة الألفاظ، وأنا -مع ذلك- لا أدعي فيه دعوى فأقول: "شافهت أو سمعت أو فعلت، أو صنعت أو شددت، أو رحلت أو نقلت، عن العرب العرباء أو حملت"؛ فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالًا ولم يخليا فيها لأحد مجالًا؛ فإنهما عينَا في كتابيهما عمن روَيَا، وبرهنَا عما حويَا، ونشرًا في خطبهما ما طوي، ولعمري لقد جمعا فأوعيا، وأتيا بالمقاصد ووفيا.

وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها، سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم، وبسطت القول فيه، ولم أشبع باليسير، وطالب العلم منهوم، فَمَن وقف فيه على صواب أو زلل، أو صحة أو خلل، فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول؛ لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئًا، فيقال: "إنما إثمه على الذين يبدلونه"؛ بل أديت الأمانةَ في نقل الأصول بالفص، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد مَن ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة، وليغن عن الاهتداء بنجومها؛ فقد غابت لما أطلعت شمسه.

والناقل عنه يمد باعه ويطلق لسانه، ويتنوع في نقله عنه؛ لأنه ينقل عن خزانة، والله تعالى يشكر ما له بإلهام جمعه من مِنة، ويجعل بينه وبين محرفي كلمة عن مواضعه واقية وجُنة، وهو المسئول أن يعاملني فيه بالنية التي جمعته لأجلها؛ فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها؛ إذ عليه مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان، ويخالف فيه اللسان في النية.

وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحنًا مردودًا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودًا.

وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتصافحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون، وسميته: (لسان العرب)، وأرجو من كرم الله تعالى أن يرفع قدر هذا الكتاب، وينفع بعلومه الزاخرة، ويصل النفع به بتناقل العلماء له في الدنيا، وينطق أهل الجنة به في الآخرة، وأن يكون من الثلاث التي ينقطع عمل ابن آدم إذا مات إلا منها، وأن أنال بها الدرجات بعد الوفاة، بانتفاع كل من عمل بعلومه أو نقل عنها، وأن يجعل تأليفه خالصًا لوجه الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم لفت ابن منظور نظرَ قاريه إلى معلومة ميزته عن (تهذيب اللغة) للأزهري، وكذا (مختار الصحاح) للجوهري، قال: "شَرْطُنُا في هذا الكتاب المبارك أن نرتبه كما رتب الجوهري "صحاحه"، وقد قمنا -والمنة لله- بما شرطناه فيه، إلا أن الأزهري ذكر في أواخر كتابه فصلًا جمع فيه تفسيرَ الحروف المقطعة، التي وردت في أوائل سور القرآن العزيز؛ لأنه ينطق بها مفرقة غير مؤلفة ولا منتظمة؛ فترد كل كلمة في بابها، فجعل لها بابًا بمفردها، وقد استخرت الله تعالى وقدمتها في صدر كتابي لفائدتين:

الأولى -وهي أهمهما: مقدمهما، وهو التبرك بتفسير كلام الله تعالى الخاص به الذي لم يشاركه أحد فيه إلا من تبرك بالنطق به في تلاوته، ولا يعلم معناه إلا هو؛ فاخترت الابتداء به لهذه البركة قبل الخوض في كلام الناس.

والثانيةُ: أنها إذا كانت في أول الكتاب؛ كانت أقرب إلى كل مطالع من آخره؛ لأن العادة أن يطالع أول الكتاب؛ ليكشف منه ترتيبه وغرض مصنفيه، وقد لا يتهيأ للمطالع أن يكشف آخره؛ لأنه إذا اطلع من خطبته أنه على ترتيب (الصحاح) أيس أن يكون في آخره شيءٌ من ذلك؛ فلهذا قدمته في أول الكتاب".

إن هذه المقدمة تكشف دافع ابن منظور، وغرضه من هذا الكتاب العظيم، كما تكشف منهجه، وتكشف مصادره، وتكشف النهج الذي سار عليه.

لقد حدثنا عن تسمية كتابه بهذا الاسم؛ فهو الكتاب المبارك الذي لا يساهم في سعة فضله ولا يشارك، وأول الدوافع التي يلاحظها المرء عند سماعه هذه المقدمة: هو شغف ابن منظور بالعربية ولغتها التي هي لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجَنة؛ فهذا رسول الله ﷺ يقول: "أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي".

واللغة بهذه المنزلة تستحق من علمائها حسن الجمع وإجادة الوضع، في مؤلفات سهلة المأخذ عذبة المورد؛ ولكن الذين سبقوه إلى التأليف في تلك اللغة لم يحققوا ذلك؛ فهُم بين رجلين: أما من حسن جمعه؛ فإنه لم يحسن وضعه، وأما مَن أجاد وضعه؛ فإنه لم يجد جمعه؛ فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع.

ولم يستثنِ ابن منظور من حكمه هذا الأزهري صاحب (التهذيب) ولا ابن سيده صاحب (المحكم) على الرغم من ثنائه عليهما؛ أما الجوهري صاحب (الصحاح) فإنه يرى أن كتابه على الرغم من حسن ترتيبه، وسهولة وضعه، وتناول الناس له، وإقبالهم عليه؛ يعد مختصرًا صغيرًا فهو في جو اللغة كالذرة، وفي بحرها كالقطرة، وإن كان في نحرها كالدرة، وهو -مع ذلك- لا يخلو من التصحيح والتحريف.

وقد تتبعه في ذلك الشيخ أبو محمد بن بري مخرجًا لسقطاته ومؤرخًا لغلطاته.

وهكذا أوضح ابن منظور حاجة تلك اللغة الشريفة إلى كتاب يخلو من العيوب السابقة، ويجمع كل تلك المحاسن المتطلبة؛ فكان كتابه هذا الذي قصد به -كما يقول- حفظ أصول هذه اللغة العربية وضبط فضلها؛ إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ ولأن العالِم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النيةُ اللسانَ، ويخالف فيه اللسانُ النيةَ.

وقد شجعه على ذلك العمل ما لمسه من فساد البيئة اللغوية في عصره، وتنافس الناس في التصنيف باللغات الأعجمية، وتفانيهم في غير اللغة العربية، ويعبر ابن منظور عن ذلك بمرارة بقوله: فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهلُه بغيرِ لغتِه يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون.

٣- منهجُ الكتاب:

إذا صح القول: بأن الهدف هو الذي يحدد المنهج ويرسم معالم الطريق؛ فإنه يجب أن نتذكر ما سبق قوله من أن ابن منظور أراد أن يضع كتابًا في اللغة يتميز بصفتين مهمتين:

الأولى: حسن الجمع.

والثانية: إجادة الوضع.

ومن الواضح أنه يقصد هنا بالجمع: جمع ألفاظ اللغة وشواهدها وأدلتها، بصورة تجمع بين شرائط التمحيص والتحقيق والاستقصاء ما لا يتوفر في غير هذا الكتاب، أما إجادة الوضع فظاهر أنه يقصد به: كمال الترتيب، وحسن التفصيل والتبويب؛ مما يجعل كل لَبنة في هذا العمل قارةً في مكانها، يسهل على مَن يقصدها التعرف عليها والوصول إليها؛ وعلى ذلك فقد كان المنهج العام هنا لا

يختلف كثيرًا عن المناهج، التي اتبعها اللغويون السابقون في جمع ألفاظ اللغة وشرحها.

أما المنهج الخاص الذي أراد به ابن منظور تحقيق هدفيه السابقين؛ فإننا يمكن أن نستخلصه من النظر فيما يأتي:

أولًا: مصادر الكتاب:

اختار ابن منظور مصادر خمسة من أمهات كتب اللغة، فجعلها أسسًا له في عملية الجمع.

وهذه الأصول الخمسة هي:

أولًا: (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، المتوفى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة من الهجرة.

ثانيًا: (المحكم) لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المتوفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة من الهجرة.

ثالثًا: (الصحاح) لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة من الهجرة.

رابعًا: (حواشي الصحاح) للشيخ محمد بن بري، المتوفى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة من الهجرة.

خامسًا: (النهاية في غريب الحديث) لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير، المتوفى سنة ست وستمائة من الهجرة.

وقد بيَّن طريقة أخذه منها، وصرح بأن عمله ينحصر في جمع ما تفرق في تلك الكتب من العلوم، وبسط القول فيه، وأنه كان أمينًا في أخذه، ومن ثم جاء في

الكتاب: "فما جاء في الكتاب من صواب أو زلل؛ فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المُعول".

وهو يشير إلى بعض ما تصرف فيه عندما نقل من تلك المصادر، فيقول مثلًا عن كتاب (النهاية): "غير أنه لم يضع الكلمات في محلها، ولا راعى زائد حروفها من أصلها؛ فوضعت كلًّا منها في مكانه، وأظهرته مع برهانه".

إن كتاب ابن منظور خزانة -على حد تعبيره- وضع فيها تلك الكتب بتنظيم جميل وتبويب حسن، ويفهم من منطوق عبارته: أنه لم يجاوز هذه الأصول الخمسة إلى غيرها؛ ولكن المتتبع (للسان) والمتمعن فيه يرى أنه أفاد من كتب أخرى، وعلى رأس هذه الكتب (الجمهرة) لابن دريد، ومعنى ذلك: أن ابن منظور لم يقتصر على تلك المصادر الخمسة التي ذكرها في مقدمته.

ويمكن القول -كما يرى الدكتور: عبد الله ربيع محمود في كتابه (المعجم العربي بين النظرية والتطبيق)-: أن صاحب (اللسان) لم يهتم إلا بذكر أهم المصادر التي اعتمد عليها، ومما يدل على صدق ابن منظور أنه صرح باعتماده على هذه الكتب وهذه المصادر المكتوبة، وصرح بأنه لم يدَّعِ مشافهة الأعراب ولا السماع من حرشة الضباب أو أكلة اليرابيع؛ إذ يقول: "لا أدعي فيه دعوى فأقول: شافهت أو سمعت أو فعلت أو صنعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت؛ فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالًا ولم يخليَا فيها لأحد مجالًا".

ترتيب (اللسان) وتبويبه:

يقول ابن منظور: أنه رتبه ترتيب كتاب (الصحاح) للجوهري في الأبواب والفصول، ومعنى ذلك: أن الكتاب يأتي في أبواب وفصول تمثل الأبواب

الأقسام الرئيسة، وتمثل الفصول الأقسام المتفرعة عنها؛ فكل باب يشتمل على عدة فصول؛ كما علمت من النظام العام الذي تسير عليه مدرسة القافية.

ومن النظر في الكتاب يتبين لنا أنه جعل الأبواب بعدد حروف الهجاء فباب الألف، وباب الباء، وباب التاء، وباب الثاء، وباب الجيم، وباب الحاء، وباب الخاء، وباب الدال، وباب الذال، وباب الراء، وباب الزاي، وباب السين، وباب الشين، وباب الصاد، وباب الضاد، وباب الطاء، وباب الظاء، وباب العين، وباب الغين، وباب الفاء، وباب القاف، وباب الكاف، وباب اللام، وباب الميم، وباب النون، وباب الهاء، وباب الواو والياء معًا، ثم ختام الأبواب بباب الألف.

وهذا هو الترتيب العادي المنسوب إلى نصر بن عاصم، ويلاحظ أنه جمع الواو والياء في باب واحد، وأفرد بابًا أخيرًا للألف اللينة؛ مقتديًا في ذلك بصاحب (الصحاح)، ويجمع كل باب المواد والجذور اللغوية التي تنتهي بذلك الحرف الذي نسب إليه الباب.

وعلى ذلك؛ فقد جاء الكتاب في ثمانية وعشرين بابًا أولها باب الهمزة وآخرها باب الألف، ويلاحظ أنه كان يطلق على كل باب اسم حرفه فيقول مثلًا: "حرف الهمزة"، ولم نَرَهُ يصرح بلفظ باب كذا إلا قليلًا كقوله: "باب الواو والياء".

وهو يبدأ كل باب -أو كل حرف- بالحديث عن الحرف أو الصوت الذي يمثله؛ فيقدم لنا بذلك بحوثًا صغيرة عن هذا الحرف، ولك أن تنظر في الكتاب لتدرك ما نقول:

انظر -مثلًا. حديثه عن حرف الهمزة؛ إذ نراه يقول:

"نذكر في هذا الحرف الهمزة الأصلية التي هي لام الفعل، قال الأزهري: اعلم أن الهمزة لا هجاء لها؛ إنما تكتب مرة ألفًا، ومرة ياءً، ومرة واوًا، والألف اللينة لا حرف لها؛ إنما هي جزء من مادة بعد الفتحة".

ثم يتحدث عن عدد الحروف، فيذكر أن الحروفَ ثمانية وعشرون حرفًا مع الواو والألف والياء، وتتم بالهمزة تسعة وعشرين حرفًا.

ثم يتحدث عن حالات الهمزة من: التليين، والحذف، والإبدال، والتحقيق، ويفصل القول في ذلك كله، ويوضح الفرق بين التحقيق، والتخفيف، والتحويل..." إلى آخر ما ذكره بخصوص هذا الحرف قبل الدخول في أبوابه وفصوله.

وبعد ذلك يبدأ في توزيع فصول الباب مرتبة أيضًا على حسب ذلك الترتيب الهجائي المعروف؛ لكن بالنظر هنا إلى أوائل الجذور والمواد اللغوية وما يليها بالطبع؛ حيث إن كل ما يأتي تحت الباب سيكون متفقًا في الحرف الأخير، ومعنى ذلك: أن كل باب سيشتمل نظريًّا على ثمانية وعشرين فصلًا بعدد الحروف الهجائية المشهورة كذلك.

وبالنظرة الرياضية البحتة يمكن أن نقول: إن عدد فصول (اللسان) ينتج من ضرب عدد أبوابه الثمانية والعشرين في عدد فصوله الثمانية والعشرين؛ فيكون الناتج أربعة وثمانين وسبعمائة فصل؛ لكن النظرة الواقعية تختلف عن هذا: ذلك أن باب الألف اللينة لم يقسم إلى فصول، وهنالك أبواب لا يكتمل فيها هذا العدد النظري، إما لعدم وروده في اللغة أو لفواته على المؤلف؛ فباب التاء مثلًا لم يرد فصل الظاء منه، وباب الطاء لم يرد كذلك فصل الظاء منه، وباب العين لم يرد فصل الغين منه، وباب القاف لم يرد فصل الظاء منه، وباب الهاء لم يرد فصل الخاء والظاء منه.

وقد أحصى الدكتور عبد الله ربيع سبعين فصلًا من الأبواب لم تذكر، وهنالك أبواب أخرى قد اكتملت فصولها من الهمزة حتى الواو والياء، ومنها: باب الهمزة، وباب الباء، وباب الجيم، وباب الراء، وباب اللام، وباب الميم، وباب النون، وباب الواو والياء.

وأما بالنسبة لحشو الفصول؛ فقد حشيت الفصول بالجذور اللغوية التي تبدأ بالحرف الذي يمثل الفصل مرتبة تلك الجذور على حسب الحروف التي تمثل حشوها -أي: ثوانيها وما بعدها. مع اتباع الطريقة الهجائية العادية أيضًا التي اتبعت في ترتيب الأبواب والفصول، وافتح الكتاب على أي باب وأي فصل ترى صحة ما نقول:

فباب الجيم فصل الميم مثلًا حوى تسعة عشر جذرًا، جاءت في فصل الميم من باب الجيم، وتحت كل جذر أتت كلماته المأخوذة منه، ونلاحظ: اتحاد الحرف الأخير الذي عد بابًا، والحرف الأول الذي عد فصلًا، واختلاف الحرف الحشو الذي اعتبر في داخل الفصل أساسًا للترتيب وفق الهجائية العادية وترتيبها أيضًا.

ولقد أحصَى الأستاذ علي حلمي موسى الجذور الواردة في كتاب (لسان العرب) بواسطة الحاسب الآلي، وتبين من تلك الإحصاءات أن عدد جذور هذا المعجم بلغ تسعة آلاف ومائتين وثلاثة وسبعين جذرًا؛ بينما حوى كتاب (الصحاح) -وفق إحصاءات الأستاذ نفسه بوساطة الحاسب الآلي-: خمسة آلاف وستمائة وتسعة وثلاثين جذرًا.

وبلغ عدد الجذور الثلاثية في (اللسان): ستة آلاف وخمسمائة وثمانية وثلاثين جذرًا؛ بينما بلغت عدد الجذور الثلاثية لمعجم (الصحاح): أربعة آلاف وثمانمائة وأربعة عشر جذرًا.

أما عدد الجذور الرباعية في (اللسان)؛ فبلغت: ألفين وأربعمائة وثمانية وخمسين جذرًا مقارنة بالجذور الرباعية في (صحاح) الجوهري، التي بلغت سبعمائة وستة وستين جذرًا.

أما عدد الجذور الخماسية في (اللسان)؛ فبلغت: مائة وسبعة وثمانين جذرًا مقارنة بـ(الصحاح) الذي بلغت جذوره الخماسية: ثمانية وثلاثين جذرًا.

وجذور (اللسان) الثلاثية بلغت: نسبتها سبعين في المائة من مجموع جذوره، والرباعية بلغت: سبعة وعشرين ونصف في المائة من مجموع جذوره، والخماسية بلغت اثنين في المائة من مجموع جذوره.

لقد اتسعت مواد (اللسان) اتساعًا كبيرًا نظرًا لجمعه بين تلك المصادر السابقة، ويمكن أن تتأكد من هذا عندما تعقد موازنة بين إحدى المواد في (اللسان) وغيره من المعاجم الأخرى.

قد اهتم ابن منظور بأمور مهمة تراها عندما تنظر في المعجم؛ فقد عني بضبط الألفاظ؛ اتقاءَ التصحيح والتحريف الذي وقع في المعاجم الأخرى، وذلك إما بالنص على شكل الضبط وإما بذكر موازن الكلمة لضبطها؛ كذلك اهتم بجمع أقوال العلماء في شرح الألفاظ، كذلك أيد شرحه بمأثور كلام العرب ومن القرآن الكريم والحديث الشريف وفصيح الشعر، واهتم بالنسبة الأبيات إلى قائليها -في الغالب. كما اهتم بلغات العرب، كما اهتم بالنوادر والأخبار التي لها صلة بالمادة، كما عني بمسائل النحو والصرف عناية دقيقة.

نماذج وأمثلة من (لسان العرب)

اقرأ ما ذكره تحت الهمزة والباء والطاء، لو أردت أن تكشف عن معنى تأبَّط شرًّا مثلًا؛ فعليك أن تذهب إلى الهمزة والباء والطاء، وعليك أن تحدد باب الطاء

فصل الهمزة، أما إن وقعت بين يديك نسخة من الطبعات التي حورت الكتاب وغيرته وفق الهجائية العادية؛ فعليك أن تذهب إلى باب الهمزة مع مراعاة الباء والطاء، يقول ابن منظور:

"أبط: الإِبْطُ: إِبْطُ الرجل والدوابّ. ابن سيده: الإِبْطُ باطِنُ المَنْكِب. غيره: والإِبط باطن الجَناحِ، يذكر ويؤنث والتذكير أعْلى، وقال اللحياني: هو مذكر، وقد أَنثه بعض العرب، والجمع: آباط. وحكى الفراءُ عن بعض الأَعراب: فرَفَع السوْطَ حتى بَرَقَتْ إِبْطُه؛ وقول الهذلي:

شَرِبْتُ بجَمِّه وصَدَرْتُ عنه ❖ وأَبْيَضُ صارِمٌ ذَكَرٌ إِبا ي

أي: تحت إِبْطِي، قال ابن السيرافي: أَصله "إِباطِيٌّ"؛ فخفف ياء النسب، وعلى هذا يكون صفةً لصارم، وهو منسوب إِلى الإِبط.

وتأَبَّطَ الشيءَ: وضعَه تحت إِبطه. وتأَبَّط سَيْفًا أَو شيئًا: أَخذه تحت إِبطه، وبه سمي ثابت بن جابر الفَهْمِيِّ: تأَبَّط شرًّا؛ لأَنه -زعموا. كان لا يفارقه السيف، وقيل: لأَنَّ أُمه بَصُرَتْ به وقد تأَبَّط جَفِيرَ سِهام، وأَخذ قَوْسًا، فقالت: هذا تأَبَّط شرًّا، وقيل: بل تأَبط سِكِّينًا وأَتى نادِيَ قومِه، فوَجَأَ أَحدَهم، فسمي به لذلك.

وتقول: جاءَني تأَبط شرًّا، ومررْتُ بتأَبّط شرًّا، تدَعُه على لفظه؛ لأَنك لم تنقله من فعل إِلى اسم، وإِنما سميت بالفعل مع الفاعل رجلًا؛ فوجب أَن تحكيه ولا تغيره.

قال: وكذلك كل جملة تسمي بها مثل: برَق نَحْرُه، وذَرَّى حَبًّا، وإِن أَردت أَن تثني أَو تجمع قلت: جاءَني ذَوا تأَبَّط شرًّا، وذوو تأَبَّط شرًّا، أَو تقول: كلاهما تأَبَّط شرًّا، وكلُّهم... ونحو ذلك، والنسبة إِليه: تأَبَّطِيٌّ، يُنْسب إِلى الصدر، ولا يجوز تصغيره ولا ترخيمه؛ قال سيبويه: ومن العرب من يفرد، فيقول: تأَبَّطَ أَقْبَل، قال ابن سيده: ولهذا أَلْزَمنا سيبويه في الحكاية الإِضافةَ إِلى الصَّدْر؛ وقول مليح الهذلي:

ونَحْنُ قَتَلْنا مُقْبِلًا غير مُدْبِرٍ ❖ تأبَّط، ما تَرْهَقْ بنا الحَرْبُ تَرْهَقِ

أراد: تأبَّط شرًّا. فحذف المفعول للعلم به.

وفي الحديث: ((أما والله إنَّ أحدكم ليخرِجُ بمسْألَتِه من يتأبَّطُها))، أي: يجعلها تحت إبْطِه. وفي حديث عمرو بن العاص قال: "لَعَمْرُ الله، إني ما تأبَّطَني الإِماء"، أي: لم يحْضُنَّني ويَتَوَلَّيْنَ تَرْبِيتي.

والتأبطُ: الاضْطِباع: وهو ضرب من اللِّبْسة: وهو أن يُدْخِلَ الثوب من تحت يده اليمنى فيُلقِيَه على مَنْكِبِه الأيسر، وروي عن أبي هريرة أنه كانت رِدْيَتُه التأبُّطَ، ويقال: جعلت السيف إباطي، أي: يَلي إبطي؛ قال:

وعَضْبٌ صارِمٌ ذكَرٌ إبا ي ❖ ....

وإبْطُ الرَّمْل: لُعْطُه، وهو ما رَقَّ منه. والإبْطُ: أسفلُ حَبْلِ الرمل ومَسْقَطُه. والإِبْطُ من الرمل: مُنْقَطَعُ معظمه.

واستأْبَطَ فلان: إذا حفَر حُفْرةً ضَيَّقَ رأْسَها ووسَّعَ أسفلَها، قال الراجز:

يَحْفِرُ نامُوسًا له مُسْتَأْبطًا ❖ ....

ابن الأعرابي: أَبَطَه الله، وهَبَطَه الله، بمعنًى واحد، ذكره الأَزهري. ووبَط رأْيُه: إذا ضَعَف، والوابِطُ الضعيفُ". انتهى كلامه.

أرأيت هذه المعلومات الصرفية والنحوية والشواهد من الشعر ومن الحديث النبوي؛ فالإبط: وهو باطن الجَناح، يذكر ويؤنث، والتذكير أعلى، وجمعه: آباط. وتأبط شرًّا تعرف سر تسميته مما قاله ابن منظور ونقله، وتعرف أيضًا كيف تُعْرِبُه، يذكر أنه يعرب على الحكاية ولا يُغير، وتَعرف النسبة إليه، وعلمتَ أنه لا يجوز تصغيره ولا ترخيمه، وينسب إلى صدره... إلى غير ذلك من المعلومات، والكتاب بين يديك لتعرف المزيد.

مدرسة الهجائية العادية:
دراسة تطبيقية في معجم (مجمل اللغة) لابن فارس

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معاجم الهجائية العادية	٢٤٩
العنصر الثاني :	الانتماء المعجمي لـ(مجمَل اللغة)	٢٥١
العنصر الثالث :	مؤلف (المجمَل)، وهدفه منه، ومنهجه الخاص فيه	٢٥٣
العنصر الرابع :	نماذج من (المجمل)	٢٥٩

معاجم الهجائية العادية

إن الترتيبَ المعجميَّ لَمْ يقِفْ عند مدرسة التقليبات الصوتية بزعامة الخليل، أو عند مدرسة التقليبات الهجائية بزعامة ابن دريد، أو عند مدرسة القافية بزعامة الجوهري أو البندنجي.

فقد رأينا بعض المعجميين المتقدمين قد نظر في ترتيبه إلى الحرف الأول في المادة مع مراعاة ما يليه من حرف أو أكثر؛ إذ كان هدف هؤلاء العلماء جمع ألفاظ اللغة ملاحظين الترتيب الهجائي المعروف، مع النظر إلى الكلمة مجردةً من زوائدها، مجموعةً حسب الحرف الأول والثاني والثالث؛ فالحرف الأول هو الباب، والثاني هو الفصل مع مراعاة الحرف الثالث مراعاةً هجائيةً أيضًا.

وقد كان علماء الحديث أسبق من اللغويين في الذهاب إلى هذا الترتيب؛ فقد سجلوا أسماء الرواة على هذا الوضع، ناظرين إلى الحرف الأول؛ كما فعل أبو عبد الله البخاري في ترتيب أسماء الرواة، وكما سار ابن قتيبة في كتابه (غريب الحديث).

وقد اتبع هذه الطريقة كثير من اللغويين الذين اهتموا بالتيسير؛ فقد ظهرت بعض معالم هذا الترتيب عند متقدمي اللغويين مثل أبي عمرو الشَّيباني في كتابه (الجيم)؛ كما ظهرت بعض معالمه عند ابن دريد؛ لكن ابن دريد حينما نظر إلى حروف الهجاء نظر إلى هذا الترتيب وفق نظام التقليبات والأبنية، فهو لم يتخلص من تقليبات الخليل، وفي الوقت نفسه لم يتخلَّ أيضًا عن نظام الأبنية؛ لذلك سميت مدرسة ابن دريد: "مدرسة التقليبات الهجائية"؛ لكنه -على أية حال- قد راعى شيئًا من الترتيب الهجائي، عندما جمع الجمهور من كلام العرب مراعًى في هذا الجمع نظام الخليل من التقليبات والأبنية.

ومن اللغويين الذين اهتموا بهذا الترتيب: أحمد بن فارس في معجميه: (مجمل اللغة) و(المقاييس)؛ وكذلك حينما ننظر نظرة تاريخية؛ نرى أن ابن فارس قد توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

من الذين اهتموا أيضًا بهذا الترتيب: أبو المعالي محمد بن تميم البرمكي، المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة في معجمه (المنتهى في اللغة)، وأيضًا الزمخشري في (أساس البلاغة)، وقد توفي الزمخشري سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة؛ كما انتهجه الفيومي أيضًا المتوفى سنة سبعين وسبعمائة في كتابه (المصباح المنير).

كما انتهج هذا النهج العلماء المحدثون في العالم العربي؛ فقد أعاد الأستاذ محمود خاطر -ومعه آخرون- أعاد ترتيب (مختار الصحاح) للرازي -المتوفى سنة ستين وسبعمائة- ترتيبه وفق الترتيب الألفبائي الهجائي المعروف؛ وكذلك العلماء اليسوعيون في لبنان، انتهجوا أيضًا هذا النهج في معاجمهم: (محيط المحيط) للبستاني، و(أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد) للشيخ سعيد الشرتوني، وانتهجه في (المنجد) الأب لويس معلوف اليسوعي، وعبد الله البستاني في (البستان)؛ وكذلك صنع مجمع اللغة العربية في القاهرة هذا الصنيع في معاجمه التي أبرزها، ومن أهمها: (الوجيز) و(الوسيط) و(الكبير).

وإذا كان بعض الباحثين يرى أن المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة: هو أبو المعالي البرمكي المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، في معجمه (المنتهى في اللغة)، وقد أعاد فيه ترتيب (صحاح الجوهري)، وقد فرغ من تأليفه سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، ويقال: إنه قد توفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة، إذا كان بعض الباحثين يرى أن البرمكي هذا هو المؤسس الحقيقي؛ فإن آخرين يرون أن الزمخشري صاحب الفضل في انتساب هذه المدرسة إليه حين ألف كتابه الشهير: (أساس البلاغة) الذي اهتم فيه بالفصل بين المعاني الحقيقية والمجازية.

ونظرًا لشهرة هذا العمل -أقصد عمل الزمخشري- عُدَّ رائدًا لهذه المدرسة -من وجهة نظر بعض الباحثين، كما قلت- لكن المتأمل يرى أن ابن فارس قد سبق كل هؤلاء حينما ألف كتابيه: (مجمل اللغة) و(المقاييس)، وهو ينتهج هذا النهج الهجائي مع شيء من التميز؛ حيث انتهج النهجَ الهجائيَّ الدائري، وسوف تتضح لنا معالم هذا النهج بعد قليل.

وقد أعجب المتأخرون بهذا الترتيب؛ فرأينا كثيرًا منهم يحاولون إعادة ترتيب بعض المعاجم السابقة على هذا النظام؛ فقد أعيد طبع (الصحاح) و(لسان العرب) و(القاموس المحيط)، بعد تحويل نظام الترتيب فيها إلى النظام الألفبائي المذكور؛ كما رأيناهم في معاجمهم الحديثة يفضلون هذا الترتيب الألفبائي على نحو ما ذكرنا، كما في المعاجم التي أصدرها مجمع اللغة العربية في القاهرة وبعض المعاجم الحديثة.

الانتماء المعجمي لـ(مجمل اللغة)

(المجمل) من المعاجم اللغوية اللفظية العامة المجنسة؛ حيث تنظر إلى الألفاظ وترتبها ترتيبًا معينًا، وقد قلد ابن فارس الخليلَ في واحد من أسس منهجه في (العين): وهو نظام الأبنية، بعد إدخال شيء من التعديل عليه؛ ولكنه خالفه في النظام الصوتي، وأخذ بنظام الألفبائية العادية، وقلد بذلك ابن دريد في هذا النظام.

ولم يطبق ابن فارس نظامَ التقاليب بنفس الصورة التي كانت عند الخليل وابن دريد، إلا أنه أفاد من هذا النظام إفادةً كبيرةً في تعميق نوع آخر عُرِفَ في الفكر اللغوي بما يعرف بالاشتقاق.

ويختلف ابن فارس عن ابن دريد في طريقة علاجه للمواد في كتابه (المجمل) وكذا (المقاييس)، ويرجع السبب في ذلك أن كلًّا منهما يهدف إلى غرض وهدف يختلف عن الآخر؛ فهدف ابن دريد: مطلق الجمع للجمهور من كلام العرب، أما ابن فارس فهدفه في (المجمل): هو جَمْع المادة وترتيبها بصورة ميسرة؛ بحيث يسهل على الباحث الوصول إلى غرضه بأقصر طريق وأسهله، بينما يهدف في (مقاييسه) إلى أمر آخر: يهدف إلى فكرة الأصول التي ترجع إليها الألفاظ، وهذه الطريقة في المنهج لا توجد أصلًا عند ابن دريد، ومن هنا اختلفت وجهة نظر كل منهما عن الآخر.

وقد سار ابن فارس على طريقة أبي عمرو الشَّيباني: وهو نظام الألفبائي العادي؛ ولكنه أدخل عليها كثيرًا من الضبط والإحكام؛ فابن فارس سار في (المجمل) وكذا في (المقاييس) أيضًا على النظام الألفبائي العادي؛ ولكنه سلك مسلكًا خاصًّا به؛ حيث جعل حروف الهجاء دائرةً، فتبدأ من أي حرف لتنتهي عند الحرف الذي قبله؛ فمثلًا الكلمات التي تبدأ بالجيم لا ترد عنده على أساس أن بعد الجيم همزة، ثم باء، ثم تاء؛ بل على أساس أن بعد الجيم الحاء ثم الخاء ثم الدال، فإذا وصل إلى الياء؛ ذكر الهمزة ثم الباء ثم التاء ثم الثاء، وبذلك تكمل الدائرة؛ من هنا سميت طريقته "بالطريقة الهجائية العادية الدائرية".

وقد أضاف ابن فارس الكثير على نظام أبي عمرو الشَّيباني؛ ولكن البرمكي كان أكثر منهما توفيقًا في هذا المِضمار، ولعلك تدرك السر في انتماء منهج ابن فارس إلى مدرسة الهجائية العادية ولم يدخل في مدرسة ابن دُريد؛ فهو لم ينتهج نظام التقليبات الذي انتهجه ابن دُريد، وإن كان انتهج نظام الأبنية الذي سار فيه ابن دريد وفق الخليل.

مؤلف (المجمل)، وهدفه منه، ومنهجه الخاص فيه

١- مؤلفُ الكتاب:

أ. التعريفُ به:

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، وقد لقب ابن فارس بألقاب كثيرة، منها ما يعود إلى البلدان التي أقام فيها، ومنها ما يرجع إلى العلوم الذي برع فيها؛ فلقبوه بالرازي نسبةً إلى الري، ولقبوه بالقزويني نسبةً إلى قزوين، والهمذاني، والزهراوي، نسبةً إلى رستاق الزهراء، ولقب باللغوي والنَّحْوي والمالكي؛ نظرًا لأنه تحول إلى مذهب الإمام مالك في آخر أيامه وقد لقب فيه.

وقد برع الشيخ في علوم شتى؛ فهو صاحب كتاب (الصاحبي)، الذي تناول فيه مختلف مسائل فقه اللغة العربية، والذي لا يستغني عنه كل باحث في فقه اللغة، وفي مجال المعاجم نراه يأخذ مكانًا مرموقًا؛ فهو صاحب (المقاييس) و(المجمل).

ب. شيوخهُ:

من شيوخه: أبو بكر أحمد بن الحسن الخطيب، راوية ثعلب، وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ووالده فارس بن زكريا الفقيه الشافعي والعالم بفنون العلوم، والمتوفى سنة تسع وستين وثلاثمائة... وغير هؤلاء كثير.

ج. تلاميذهُ:

كما تلمذ عليه كثيرون، منهم: بديع الزمان الهمذاني صاحب "المقامات"، والصاحب ابن عباد الوزير المعروف... وغير هؤلاء كثير.

د- مؤلفاتُه:

ترك لنا مؤلفات جمة؛ منها: (الإتباع والمزاوجة)، ومنها: (الأضداد)، ومنها: (الانتصار لثعلب)، و(تفسير أسماء النبي #)، و(تمام فصيح الكلام)، و(جامع التأويل في تفسير القرآن)، و(دارات العرب)، و(ذم الخطأ في الشعر)، و(الصاحبي في فقه اللغة)، و(سنن العرب في كلامها)، و(غريب إعراب القرآن)، ومنها (المجمل)، و(المقاييس)... وغير ذلك كثير.

هـ- وفاته:

والراجح أنه توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة؛ حيث تعددت الأقوال في سنة وفاته، قيل: توفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وقيل: سنة تسعين وثلاثمائة، وقيل: سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، والراجح: أنه توفي -كما قلت-: سنة خمس وتسعين وثلاثمائة؛ لأن المصادرَ تكاد تجمع على ذلك.

٢- الهدفُ من تأليف الكتاب وأهميتُه:

إن هذا يظهر من المقدمة القصيرة التي قدم بها ابن فارس لكتابه (المجمل)؛ إذ يقول -بعد حمد الله، والصلاة والسلام على محمد وآله-: إني لما شاهدت كتاب (العين) الذي صنفه الخليل بن أحمد، ووعورة ألفاظه، وشدة الوصول إلى استخراج أبوابه، وقصده إلى ما كان يطلع عليه أهل زمانه، الذين جُبلوا على المعرفة ولم يتصعب عليهم وعورة الألفاظ، ورأيت كتاب (الجمهرة) الذي صنفه أبو بكر بن دريد، وقد وفَّى بما جمعه الخليل وزاد عليه؛ لأنه قصد إلى تكثير الألفاظ، وأراد إظهار قدرته، وأن يُعْلِمَ الناظرين في كتابه أنه قد ظفر بما سقط عن المتقدمين، وإن كان قصب السبق مسلمًا لهم؛ لأن بناء المتأخر على ما قدموه.

وبعد ؛ فإنك لَمَّا أعلمتني رغبتك في الأدب، ومحبتك لعرفان كلام العرب، وأنك شاممت الأصول الكبار ؛ فراعك ما أبصرته من بعد تناولها وكثرة أبوابها وتشعب سبلها، وخشيتَ أن يلفتك ذلك عن مرادك، وسألتني جَمْع كتاب في ذلك، يذلل صعبه ويسهل عليك وعره ؛ أنشأت كتابي هذا بمختصر من الكلام، قريب يقل لفظه، وتكثر فوائده، ويبلغ بك طرفًا مما أنت ملتمسه.

وسميته (مجمل اللغة) ؛ لأني أجملت الكلام فيه إجمالًا، ولم أكثره بالشواهد والتصاريف إرادة الإيجاز ؛ فمن مرافقه قرب ما بين طرفيه، وصغر حجمه، ومنها حسن ترتيبه، وفي ذلك توطئة سبيل مذاكرة اللغة، ومنها : أمنة قارئه المتدبر له من التصحيف ؛ وذلك أني خرجته على حروف المعجم ؛ فجعلت كل كلمة أولها ألف في كتاب الألف، وكل كلمة أولها باء في كتاب الباء ؛ حتى أتيت على الحروف كلها ؛ فإذا احتجتَ إلى الكلمة نظرت إلى أول حروفها ؛ فالتمستها في الكتاب الموسوم بذلك الحرف ؛ فإنك تجدها مصورةً في الحاشية ومفسرةً من بعد".

انتهت مقدمة ابن فارس لكتابه (المجمل).

حقًّا يعد (مجمل اللغة) حلقة مهمة في سلسلة تطور المعجم العربي ؛ فهو أول معجم رتبت مفرداته ترتيبًا ألفبائيًّا في الحرف الأول والثاني والثالث من الكلمة في وقت كانت طريقتَا الخليل والجوهري هما الشائعتين في عمل المعجمات ؛ فجاء عمل ابن فارس في (مجمل اللغة) رائدًا ؛ حيث وضع اللبنة الأولى في صرح عمل المعجمات بترتيب المفردات ألفبائيًّا ؛ فهو فَذٌّ في بابه، وأنه مفخرة من مفاخر التأليف العربي.

ويذكر الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمة كتابه لـ(مقاييس اللغة) أن كتاب ابن فارس -يقصد : (المقاييس)- مفخرة من مفاخر التأليف العربي، ويمكن أن ينطبق

هذا الوصف أيضًا على كتابه (المجمل)، وهو يرى أن (المقاييس) قد ألف بعد (المجمل)، وإن كان محقق (المجمل) يرى أن الكتابين قد ألفَا في وقت واحد.

٣- منهجهُ الخاص فيه:

لقد تضمنت المقدمة النهجَ الذي نهجه ابن فارس في (المجمل)؛ حيث قال: "وذلك أني خرجتُه على حروف المعجم، فجعلت كل كلمة أولها ألف في كتاب الألف -يقصد: الهمزة- وكل كلمة أولها باء في كتاب الباء، حتى أتيت على الحروف كلها...".

لقد قسم مواد اللغة أولًا إلى كتب تبدأ بكتاب الهمزة وقد عبر عنها بالألف، وتنتهي بكتاب الياء، وقسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة: أولها: باب الثنائي المضاعف والمطابق، وثانيها: أبواب الثلاثي الأصول من المواد، وثالثها: باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية، وكل قسم من القسمين الأولين قد التُزم فيه ترتيبٌ خاص، وهو ألا يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالذي يليه؛ لذا جاء الباب مرتبًا ترتيبًا طبيعيًّا على نسق حروف الهجاء.

ففي باب الهمزة والتاء وما يثلثهما، نجده يذكر الهمزةَ والتاء واللام، الهمزة والتاء والميم، الهمزة والتاء والنون، الهمزة والتاء والهاء، الهمزة والتاء والواو، الهمزة والتاء والياء، ثم يذكر الهمزة والتاء والباء؛ فأخر الهمزة والتاء والباء إلى نهاية الباب؛ لأن الباء تسبق التاء.

وفي باب التاء من المضاعف يذكر أولًا: التاء والخاء، ثم التاء والراء... إلى أن تنتهي الحروف، ثم يرجع إلى التاء والباء؛ لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الخاء، وفي أبواب الثلاثي من التاء لا يذكر أولًا التاء والهمزة وما يثلثهما؛ بل يؤخر هذا إلى آخر الأبواب، ويبدأ بباب التاء والجيم وما

يثلثهما، ثم باب التاء والحاء وما يثلثهما... وهكذا إلى أن ينتهي من الحروف، ثم يرجع أدراجه ويستأنف الترتيب من باب التاء والهمزة وما يثلثهما؛ وذلك لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الجيمُ.

وتجد أيضًا أن الحرف الثالث يراعي فيه هذا الترتيب؛ ففي باب التاء والواو وما يثلثهما يبدأ بالتاء والواو والياء، ثم التاء والواو والباء، ثم التاء والواو والتاء... إلى آخره؛ وذلك لأن أقرب الحروف التي تلي الواو هو الباء... وهكذا.

هذا هو الترتيب الذي التزمه ابن فارس في كتابيه (المجمل) و(المقاييس)؛ وذلك بغرض جمع ألفاظ اللغة المستعملة وترتيبها بصورة ميسرة مع الاختصار في كتابه (المجمل).

لقد قسم مواد اللغة إلى كتب تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء، كما قسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة: باب الثنائي المضاعف والمطابق، أي: المكرر بالتضعيف نحو تعتع وتهته، ثم أبواب الثلاثي الأصول من المواد، ثم باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية، ولاحظت أنه لا يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالذي يليه؛ ولذا جاء باب المضاعف في كتاب الهمزة مرتبًا وفق حروف الهجاء: الهمزة والباء، الهمزة والتاء، الهمزة والثاء، الهمزة والجيم، الهمزة والحاء... إلى آخره، وفي باب الثلاثي مما أوله همزة وباء جاء أيضًا مرتبًا وفق حروف الهجاء: الهمزة والباء والتاء، الهمزة والباء والثاء، الهمزة والباء والدال، الهمزة والباء والراء... إلى آخره.

أما في باب الهمزة والتاء وما يثلثهما؛ فقد جاء ترتيبه كالآتي: الهمزة والتاء واللام، الهمزة والتاء والميم، الهمزة والتاء والنون، الهمزة والتاء والهاء، الهمزة والتاء والواو، الهمزة والتاء والياء، ثم عاد أدراجه إلى الهمزة والتاء والباء؛

فأخَّر الهمزة والتاء والباء إلى آخر الباب بعد مادة الهمزة والتاء والياء ؛ وذلك لأن الباء في الهمزة والتاء والباء لا تلي التاء بل تسبقها... وهكذا.

ومما هو جدير بالذكر أن الحرف الثالث يراعي فيه الترتيب أيضًا ، وفي أبواب الثلاثي من الثاء لا يبدأ بالثاء والهمزة وما يثلثهما ، ثم الثاء والباء وما يثلثهما ؛ بل يترك ذلك إلى أواخر الأبواب ؛ فنجده يبدأ بالثاء والجيم وما يثلثهما : الثاء والجيم والراء ، الثاء والجيم واللام ، ثم الثاء والجيم والميم إلى أن تنتهي الحروف ، ثم يعود ويذكر الأبواب التي تركها ، وفي باب الجيم من المضاعف يبدأ بالجيم والحاء إلى أن تنتهي الحروف ، ثم يأتي بالجيم والهمزة ، والجيم والباء. وفي باب الجيم والنون وما يثلثهما يبدأ بالجيم والنون والهاء ، ثم الجيم والنون والياء ، ثم يرجع إلى الجيم والنون والهمزة ، فالجيم والنون والباء ، فالجيم والنون والثاء... وهكذا مع طَرْح نظام التقليبات.

إن هذا النظام في (المجمل) سَهَّلَ البحثَ فيه ؛ وذاك لترتيبه وفق النظام الهجائي العادي ، ومما ميز (المجمل) أيضًا : اهتمامه بالصحيح من الألفاظ ، واقتصاره على الألفاظ المستعملة ، وعنايته باللهجات والمعرب والدخيل ، وتميز أيضًا بتعريفاته المختصرة وعنايته بالأعلام ، وهو وإن تميز بالإيجاز والاختصار ، وبالسهولة ، وسرعة الوصول إلى المطلوب ؛ نظرًا لمراعاته الترتيب الهجائي العادي ؛ فإن القارئ يرى فيه اهتمامه أيضًا بسند الرواية وسلسلتها ورواتها ، كما يرى عنايته بالسماع ؛ فهو مصدر أساس من مصادر ابن فارس في (مجمل اللغة) ، كما اعتنى بضبط المفردات اللغوية ، إما بالنص على حركة الحرف أو بذكر وزنها أو بالمثال.

كما يظهر للقارئ عناية ابن فارس بلغات العرب ، وخصوصًا أهل اليمن ثم أهل الشحر وهذيل وتميم وأهل الشام.

نمـــــاذج مـــــن (المجمـــــل)

في باب: الطاء واللام وما يثلثهما، نقرأ في الطاء واللام والعين قوله:

"طلعت الشمس مطلعًا وطلوعًا، والمطلع: موضع طلوعها، وطلع علينا فلان: إذا هجم، وأطلعتك على الأمر إِطْلاعًا، وأطلعتك طِلْعةً، والطِّلاع: ما طلعت عليه الشمس من الأرض، وفي الحديث: "لو أن لي طِلاع الأرض ذهبًا..."، ونفس طُلعة: تتطلع للشيء، وامرأة طلعة: إذا كانت تكثر الاطلاع، قال الزبرقان: أبغض كنائني إليّ الطُّلَعة الخُبَأة، والطَّلْع: طلع النخلة وهي التي تكون الكافور في جوفها، وقد أطلعت النخلة، وقوس طلاع الكف: إذا كان عجسها يملأ الكف، واستطلعت رأي فلان، والطلعة: الرؤية، ورمى فلانٌ: فأطلع وأشخص: إذا مر سهمه برأس الغرض، وطليعة الجيش: مَن يطلع طلع العدو، والمطلع: المأتَى، يقال: أين مطلع هذا الأمر؟ أي: أين مأتاه؟ والطلعاء: القيء، يقال: أطلع الرجل: إذا قَاءَ، قال أبو زيد: طلعتُ على القوم: أتيتهم، وطلعت عنهم: غِبت عنهم". انتهى كلامه.

انظر في هذه المادة القصيرة؛ تراها قد تطرقت إلى أفعال وأسماء وشواهد، ترى عنايته بالأفعال ومصادرها: "طلعت الشمس مطلعًا وطلوعًا، وأطلعتك على الأمر إطلاعًا". ترى من الأحاديث: "لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا" -وهو حديث عمر، < ، لو أن لي ما في الأرض جميعًا؛ لافتديت من هول المطلع". وهو حديث ذكره الفائق وذكره ابن قتيبة، وتجد قول الزبرقان أيضًا في (غريب الحديث): "أبغض كنائني إلي الطلعة الخبأة". حيث استشهد على ذلك عند تفسيره للمرأة الطلعة بالتي تكثر الاطلاع.

كما ترى عنايته ببعض الظواهر اللغوية كالتضاد ؛ حيث نقل عن أبي زيد : "طلعت على القوم : أتيتهم ، وطلعت عنهم : غبت عنهم".

عندما نقارن كلماتِ هذه المادة بكلمات المادة نفسها التي وردت في (مقاييس اللغة)، يتضح الفارقُ بين المعجمين على الرغم من اتحاد فكرة الترتيب فيهما ؛ فالترتيب واحد ، وسرد الكتب والأبواب بطريقة هجائية دائرية ؛ فهي طريقة واحدة ، إلا أن الفارقَ يكمن في انتهاج ابن فارس في (المقاييس) نَهْجًا آخرَ يخالف نهجه في (المجمل) ؛ فقد أراد ابن فارس في معجم (المقاييس) أن يدير المادةَ كلَّها على أصل واحد أو أكثر ، وأن يكشف عن المعنى الأصلي المشترك في جميع صيغ المادة ؛ بينما كان هدفُه في (المجمل) مخالفًا لهدفه في (المقاييس).

فكان هدفه في (المجمل) : جمع المادة وترتيبها بصورة ميسرة ؛ بحيث يسهل على الباحث الوصول إلى غرضه بأقصر طريق وأسهله ؛ لذلك ترك كثيرًا من الشواهد والأقوال وبعض الصيغ ؛ لأن هدفه التيسير والإجمال بقدر المستطاع ؛ ولذلك سماه (المجمل) ؛ نظرًا لأنه أراد أن يدون فيه الواضح والصحيحَ من الألفاظ اللغوية ، وترك الوحشيَّ الغريبَ.

لذلك يجد القارئ فرقًا بين الكلمات التي جاءت تحت مادة الطاء واللام والعين في (المجمل) و(المقاييس) ؛ فنجده يقول في (المقاييس) :

"الطاء واللام والعين أصل واحد ، يدل على ظهور وبروز ، يقال : طلعت الشمس طلوعًا ومطلعًا ، والمطلِع : موضع طلوعها ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر: ٥]، فمن فتح اللام ؛ أراد المصدر ، ومن كسر ؛ أراد الموضع الذي تطلع منه ، ويقال : طلع علينا فلان : إذا هجم ، وأطلعتك على الأمر إطلاعًا ، وقد أطلعتك طِلعه ، والطلاع : ما طلعت عليه الشمس من الأرض ، وفي

الحديث: "لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا". ونفس طُلَعة: تتطلع للشيء، وامرأة طلعة: إذا كانت تكثر الاطلاع، والطلع: طلع النخلة وهو الذي يكون في جوفه الكافور، وقد أطلعت النخلة، وقوس طلاع الكف: إذا كان عجسها يملأ الكف؛ قال أوس:

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ❖ ولا عجسها عن موضع الكف أفضل

ومن الباب: استطلعت رأي فلان: إذا نظرت ما الذي يبرز إليك منه، وطلعة الإنسان: رؤيته؛ لأنها تطلع، ورمى فلان فأطلع وأشخصَ: إذا مر سهمه برأس الغرض، وطليعة الجيش: مَن يطلع طلعَ العدو، والمطلع: المأتى، يقال: أين مطلع هذا الأمر؟ أي: مأتاه. فأما قوله # : ((لافتديت به من هول المطلع)). يريد به: الموقف يوم القيامة أو ما يشرف عليه من أمر الآخرة، عُقَيْبَ الموت، ومن الباب: الطلعاء: القيء، يقال: أطلع: إذا قاء".

انتهى كلامه في (المقاييس).

من ذلك يتضح أنه في (المقاييس) أرجع كلمات الأصل: الطاء واللام والعين إلى معنًى واحدٍ هو الظهور والبروز؛ بينما لم يهتم في (المجمل) بربط الكلمات حول هذا المعنى... اهتم في (المقاييس) بالاستشهاد؛ حيث ساق قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ وذكر قراءتين فيها: ﴿ مَطۡلَعِ ﴾ بفتح اللام و"مطلِع" بكسر اللام، ووجه القراءتين، قال: "فمن فتح اللام أراد المصدر، ومن كسر أراد الموضع الذي تطلع منه". والقراءة لم يوردها في (المجمل)؛ بينما ساق الحديث في المادتين، وهو: "لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا"؛ كما خلت المادة في (المجمل) من بيت أوس:

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ❖ ولا عجسها عن موضع الكف أفضل

وخلت المادة في (المقاييس) مما نقله عن أبي زيد وهو قوله: "طلعت على القوم: أتيتهم، وطلعت عنهم: غبت عنهم"؛ فهذا التضاد خلا منه ما جاء في (المقاييس).

بينما خلت المقاييس كذلك من قول الزبرقان: "أبغض كنائني إلي الطلعة الخبأة". فعلى الرغم من الإيجاز في (المجمل) إلا أنه متميز عن (المقاييس) بذكر أقوال تضفي على الألفاظ مزيدًا من الإيضاح.

لقد اهتم ابن فارس أيضًا ببعض لغات العرب، وتأتي لغة أهل اليمن في مقدمة اللغات التي أكثر من الإشارة إليها، ولعل مصدره الأساسي في جمع مفرداتها كتاب (جمهرة اللغة) لابن دريد، وتتناثر في كتابه إشارات إلى بعض لغات العرب -كما سبق ذكر ذلك- كلغة أهل شحر وهُذيل وتميم ولغة أهل الشام؛ فمثلًا في الهمزة والراء والسين قال:

"الهمزة والراء والسين ليست عربية، ويقال: إن الأراريس: الزراعون، وهي شامية".

كما تظهر عنايته باللغة والصرف، على الرغم من كون (المجمل) مختصرًا إلا أنه تضمن بعض الظواهر اللغوية والصرفية، من هذه الظواهر: الإبدال؛ حيث ذكر في الهمزة والتاء والنون قوله: الأتان معروفة، والجمع: الآتُن، وجمع الجمع: الأتن، وأتان الضحل: صخرة في الماء، والأتان: مقام المستقي على فم البئر، والمأتوناء: الأتن، وأتنَ: أقام، والأتنان لغة في الأتلان: وهو تقارب الخطو.

أرأيت قوله: "الأتنان لغة في الأتلان"؛ حيث اللام أبدلت نونًا؟! ورأيت حينما ذكر الجمع وجمع الجمع في الأتان، حين قال: "الأتان معروفة، والجمع: الآتن، وجمع الجمع: الأتن.

وقد اعتنى أيضًا بظاهرة الأضداد -كما مثلت في المادة السابقة- ومن ذلك أيضًا: ما ذكره في الحاء والنون والقاف، حين قال: الحنق: الغيظ، يقال: منه حنقت وهو محنَق، أي: مَغيظ، ثم قال: والمحانيق: الإبل الضمر، يقال: أحنقت: إذا ضمرت، وقيل: هي السمان، وإنها من الأضداد؛ إذًا المحانيق: تطلق على الإبل الضمر وعلى الإبل السمان، فأحنقت: ضمرت، وأحنقت: سمنت.

كما نلاحظ على ابن فارس أنه إذا ذكر لفظة في غير موضعها نبه إلى ذلك، وقد أخذ بعض العلماء عليه هذا؛ حينما ذكروا من المآخذ على (المجمل) أنه يخلط بين المواد اللغوية وخصوصًا الخلط بين الثلاثي وما زاد عليه؛ فمن أمثلة الألفاظ التي ذكرها في غير موضعها ثم ينبه إلى ذلك: لفظ "الابن"، فيقول في الهمزة والباء والنون:

"الابن: معروف، وقد ذكر في بابه -يعني: في الباء والنون والياء- وليس هذا مكانه؛ وإنما كتب للفظ". وبالفعل، الذي يرجع إلى الباء والنون والياء يجد اللفظَ، ويقول: "والبنو -عند بعض أهل العربية-: أصل بناء الابن، والنسبة إليه بنوي، وكذلك النسبة إلى بنت وإلى بنيات الطريق".

مثال آخر: ذكر الإرث في الهمزة والراء والثاء، قال: "والإرث: الميراث، وفلان على إرثٍ من كذا، أي: على أمر قديم توارثه الآخر عن الأول، والأصل الواو، وكتب ها هنا للفظ". إذن أصل الإرث: الوِرث؛ ومَن يذهب إلى الراء والواو والثاء يجد اللفظَ.

أما خلطه بين المواد اللغوية، وخصوصًا الخلط بين الثلاثي وما زاد عليه؛ فقد يرى القارئ بعض ذلك في بعض الأبواب؛ حيث يذكر الرباعي في أبواب الثلاثي، ومن ذلك: دردق ذكرها في الدال والراء والقاف، ودردب الرباعي

ذكرها في الدال والراء والباء، وثرتأ الرباعي ذكرها في الثاء والراء وما يثلثهما، وكان ينبغي أن توضعَ دردق ودردب وثرتأ في أبواب الرباعي.

وأما بالنسبة للشواهد؛ فهي متنوعة في (المجمل) ويراها القارئ في ثنايا الكتاب، ولا يتعارض هذا مع مبدأ الإيجاز والإجمال الذي أراده مؤلفه؛ فالشواهد القرآنية بلغت في (المجمل) مائة وستين وثمانين شاهدًا، وصار الشاهد القرآني في المرتبة الثالثة بعد الشعر والحديث النبوي، وقد أحصى هذا العدد محقق (المجمل): زهير عبد المحسن سلطان.

وأتى الاستشهاد بالحديث النبوي في المرتبة الثانية، وخلا معظمها من سند الرواية؛ لأنه نقل من مصدرين أساسين هما: (غريب الحديث) لأبي عبيد القاسم بن سلام، و(غريب الحديث) لابن قتيبة، وكثرت الشواهد الشعرية في (المجمل) حتى فاقت شواهد القرآن والحديث والأمثال، وقد استشهد ابن فارس لشعراء جاهليين وإسلاميين، في مقدمتهم: الأعشَى، وذو الرمة، وامرؤ القيس، ورؤبة، ولبيد، وأبو ذؤيب، والنابغة الذبياني، واستشهد بآخر مَن يُستشهدُ بشعره: وهو إبراهيم بن هرمة، استشهد بشعره مرتين في الزاي والعين والباء، والغين والراء والضاد، واستشهد لبشار بن برد مرة واحدة ولم يصرح بنسبة البيت إليه.

ولم يكثر من الاستشهاد بالأمثال، وقد لا يشير إلى أنها من الأمثال، وهذه الشواهد كثيرة في (مقاييس اللغة) وحَذَفَ كثيرًا منها في (المجمل) وفقًا لهدفه.

تابع: مدرسة الهجائية العادية:
دراسة تطبيقية في: (المعجم الكبير)، و(المعجم الوسيط) لمجمع اللغة العربية في القاهرة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الانتماء المعجمي للمعجميْن: (الكبير) و(الوسيط)	٢٦٧
العنصر الثاني :	مؤلِّف المعجميْن: (الكبير) و(الوسيط)	٢٦٧
العنصر الثالث :	الهدف من المعجميْن، والمنهج الخاص لكلٍّ منهما	٢٦٩
العنصر الرابع :	نماذج من المعجميْن	٢٧٨

الانتماء المعجمي للمعجمين (الكبير) و(الوسيط)

إن المعجمين معًا -(الوسيط) و(الكبير)- ينتميان إلى معاجم الألفبائية العادية، وتتلخص مبادئها في تقسيم المعجم إلى أقسام تبعًا لحروف الهجاء، وترتيب تلك الأقسام على ترتيب تلك الحروف تبعًا للنظام الألفبائي المشهور: ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء... إلى آخره، ثم تملأ تلك الأقسام بالمواد التي تبدأ بالحرف المعقود له القسم، مع مراعاة ترتيب تلك الأصول تبعًا لترتيب الحرف الثاني ثم الثالث... وهكذا.

وتتخلص هذه الطريقة من الطريقة الدائرية التي كان يلتزمها ابن فارس في معجميه: (مقاييس اللغة) و(مجمل اللغة)؛ إذًا فالمعجمان ينتميان إلى المعاجم الأحادية اللفظية أو المجنسة الخاضعة لمدرسة الترتيب الهجائي العادي.

مؤلف المعجمين: (الكبير) و(الوسيط)

إن مؤلف المعجمين واحد، وهو: مجمع اللغة العربية، في القاهرة، وقد ظهر هذا المجمع في سنة أربع وثلاثين وتسعمائة وألف لأغراض وأهداف تتلخص فيما يلي:

أولًا: أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمةً على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر؛ وذلك بأن يحدد -في معاجم أو تفاسير خاصة أو غير ذلك من الطرق- ما ينبغي استعماله، أو تجنبه من الألفاظ أو التراكيب.

ثانيًا: أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثًا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها.

ثالثًا: أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

رابعًا: أن يبحث كلَّ ما له شأن في تقدم اللغة العربية.

وقد أخذ المعجم نفسه بذلك منذ البداية؛ فكون لجنة للمعجم من كبار اللغويين العرب والمستعربين، وكان ينوي إخراج (معجم فيشر) التاريخي، وحاول جاهِدًا أن يقفَ على أصوله دون جَدْوى؛ حيث حالت الحربُ العالمية الثانية بين رجوع "فيشر" إلى مصر.

وبالرغم مِن تبني المجمع لـ(معجم فيشر)، ورغبته في نشره لم يصرفه ذلك على أن يطلع بوضع معجم شامل يستوعب اللغة في مختلف عصورها، واكتفى بأن يسميه (المعجم الكبير)؛ لأنه ليس معجمًا تاريخيًّا؛ فلم يكن بُد من أن يتولى الأمر بنفسه، وأن يعد له عدته وتخير المحررين الأكفاء، واستعان بالخبراء المتخصصين.

وكان من بين أعضاء لجنة (المعجم الكبير)، التي اختارها المجمع لهذا المعجم: فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج، والأستاذ عبد الحميد حسن، والدكتور محمد مهدي علام، والدكتور إبراهيم مدكور.

وقد صدر الجزء الأول وهو الهمزة سنة سبعين وتسعمائة وألف من الميلاد، وصدر الجزء الثاني سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد، وشمل الباء ثم ظهر بعد ذلك الجزء الثالث وقد شمل التاء والثاء، ثم صدرت أجزاء أخرى مشتملة على الجيم والحاء والخاء وننتظر -إن شاء الله- أن يتم المجمع عمله بإنجاز هذا (المعجم الكبير).

وأما (المعجم الوسيط): فكان أسبق ظهورًا من (المعجم الكبير)؛ إذ أُرِّخت مقدمة طبعته الأولى سنة ثمانين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لسنة ستين وتسعمائة وألف من الميلاد، وظهر بأربعة أسماء اختارها المجمع: وهم إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، ثم ظهرت طبعته الثانية سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لاثنتين وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد، وكتبت مقدمته بأسماء أربعة: هم الدكتور إبراهيم أنيس، والدكتور عبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد.

الهدف من المعجمين، والمنهج الخاص لكلٍ منهما

١- (المعجمُ الوسيطُ):

أ. منهجهُ:

تضمنت مقدمة الطبعة الأولى (للمعجم الوسيط) المنهج الذي سار عليه مؤلفو هذا المعجم، وجاء في هذه المقدمة أن لجنة العمل استرشدت بما أقره مجلس المجمع ومؤتمره من ألفاظ حضارية مستحدثة، أو مصطلحات جديدة موضوعة أو منقولة في مختلف العلوم والفنون، أو تعريفات علمية دقيقة واضحة للأشياء؛ ولهذا كله تهيأ لهذا المعجم ما لم يتهيأ لغيره من وسائل التجديد، واجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من خصائص ومزايا.

فقد أهملت اللجنة كثيرًا من الألفاظ الحوشية الجافية؛ أو التي هجرها الاستعمال لعدم الحاجة إليها أو قلة الفائدة منها؛ كبعض أسماء الإبل وصفاتها وأدوائها وطرق علاجها، وأهملت كذلك الألفاظ التي أجمعت المعاجم على شرحها بعبارات، تكاد تكون واحدة شرحًا غامضًا مقتضبًا لا يبين حقائقها ولا يقرب

معانيها ؛ كذلك أغفلت بعض المترادفات التي تنشأ عن اختلاف اللهجات ، مثل : اطمأن واطبأن ، ورعس -بالسين- ورعث -بالثاء.

وعنيت اللجنة بإثبات الحي السهل المأنوس من الكلمات والصيغ ، وبخاصة ما يشعر الطالب والمترجم بالحاجة إليه مع مراعاة الدقة والوضوح في شرح الألفاظ أو تعريفها.

واستعانت اللجنة في شرحها لألفاظ بالنصوص والمعاجم التي يعتمد عليها ، وعززته بالاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال العربية ، والتراكيب البلاغية المأثورة عن فصحاء الكتاب والشعراء ، وصورت ما يحتاج توضيحه إلى التصوير من حيوان أو نبات أو آلة أو نحو ذلك ، وآثرت في الشرح الأساليب الحية على الأساليب الميتة ، وأدخلت اللجنة في متن المعجم ما دعت الضرورة إلى إدخاله من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة أو الدخيلة التي أقرها المجمع وارتضاها الأدباء ، فتحركت بها ألسنتهم وجرت بها أقلامهم.

وإثبات هذه الألفاظ في المعجم من أهم الوسائل التي رأتها اللجنة لتطوير اللغة ، وتنميتها ، وتوسيع دائرتها ؛ إذ نص في مرسوم إنشاء المجمع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد على أن من أهم أغراضه : أن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر.

ومما حرصت اللجنة على اتباعه في هذا المعجم : الاقتصار في ذكر أبواب الفعل ؛ فاكتفت بذكر باب واحد إذا كانت الأبواب متحدة المعاني ؛ أما إذا اختلف المعنى باختلاف الباب فقد ذكرت الأبواب كلها.

كما اختارت اللجنة من المصادر أشهرها وأكثرها استعمالًا إلا إذا اختلف المعنى باختلاف صيغة المصدر ؛ فإنها تثبت الصيغ كلها ، وكذلك الحال في الجموع. أما

أسماء الفاعلين والمفعولين ؛ فقد ذكرت اللجنة ما رأت ضرورة النص عليه لخفائه أو لتفريع بعض المعاني عليه ؛ فذكرت ذلك مع الفعل. أما المؤنثات ؛ فقد أهملت منها ما كان بزيادة هاء على مذكره لوضوحه وشهرته، وما كان بغير تاء ؛ اكتفت منه بما قد يخفى على كثير.

كما راعت اللجنة في صياغتها لمواد المعجم ما أقره المجمع من قرارات في مختلف دوراته السابقة، مثل : قياس المطاوعة من "فعلل" وما ألحق به : وهو "تفعلل"، نحو : دحرجته فتدحرج.

وكذلك قياس تعدية الفعل الثلاثي اللازم بالهمزة، وأيضًا قياس المطاوعة لـ"فعَّل" مضعف العين : وهو "تفعَّل"، وقياس صيغة "استفعل" لإفادة الطلب أو الصيرورة، وقياس صنع مصدر من كلمة بزيادة ياء مشددة وتاء : وهو المصدر الصناعي.

وكذلك قياس صوغ مصدر على "فُعال" من الفعل اللازم المفتوح العين للدلالة على المرض، وكذلك قياس صوغ مصدر على وزن "فَعَلان" للفعل اللازم المفتوح العين إذا دل على تقلب واضطراب، وكذلك قياس صوغ مصدر على وزن "فِعَالة" من جميع أبواب الثلاثي للدلالة على الحرفة أو شبهها، وكذلك قياس صوغ اسم على وزن : "مِفعل" و"مِفعال" و"مِفعَلَة" من الفعل الثلاثي للدلالة على الآلة التي يُعالج بها الشيء، ويضاف إلى هذه الصيغ الثلاث : "فَعَّالة" : كخراطة وسماعة.

وكذلك قياس صوغ "مَفْعَلَة" من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول للمكان الذي تكثر فيه هذه الأعيان ؛ سواء أكانت من الحيوان، أم من النبات، أم من الجماد، كمبطخة ومأسدة، وأيضًا قياس صوغ "فَعَّال" للمبالغة من مصدر الفعل الثلاثي اللازم والمتعدي.

كل هذا بالإضافة إلى تطبيق قرار المجمع بتكملة المادة اللغوية، إذا ورد بعضها ولم يرد بعضها الآخر.

ثم لخصت اللجنة المنهج الذي نهجته في ترتيب مواد المعجم كما يلي:

أولًا: قدمت الأفعال على الأسماء.

ثانيًا: قدمت المجرد على المزيد من الأفعال.

ثالثًا: قدمت المعنى الحسي على المعنى العقلي، والحقيقي على المجازي.

رابعًا: قدمت الفعل اللازم على الفعل المتعدي؛ كما رتبت الأفعال فبدأت بالفعل الثلاثي المجرد ثم الفعل المزيد ترتيبًا هجائيًّا؛ فالفعل الثلاثي المجرد بدأت أوزانه بفعل يفعُل كنصر ينصر، وفعل يفعِل كضرب يضرب، ففعل يفعَل كفتح يفتح، ففعل يفعل كعلم يعلم، ففعُل يفعُل كشرف يشرف، ففعل يفعِل كحسب يحسب.

والفعل المزيد رتبته ترتيبًا هجائيًّا؛ فبدأت بالثلاثي المزيد بحرف، ثم المزيد بحرفين، ثم المزيد بثلاثة، ثم الرباعي المزيد، أما الثلاثي المزيد بالحرف؛ فبدأته بأفعل كأكرم، وبفاعل كقاتل، وفعَّل ككرَّم، والمزيد بحرفين بدأته بافتعل كاشتق، وانفعل كانكسر، وتفاعل كتشاور، وتفعَّل كتعلَّم، وافعلَّ كاحمرَّ.

والثلاثي المزيد بثلاثة أحرف بدأته باستفعل كاستغفر، ثم افعوعل كاعشوشب، ثم افعالَّ كاحمارَّ، ثم افعوَّل كاجلوَّذ، والرباعي المزيد بحرف هو: تفعلل كتدحرج.

وأما ما ألحق بالرباعي من أوزان؛ فقد ذكر منها ما رأت اللجنة إثباته مع الإحالة عليه في موضعه من الترتيب الحرفي للمواد؛ فـ"كوثر" مثلًا تذكر في الكاف والثاء

والراء موضحًا معناها، وتذكر كذلك في كوثر أعني الكاف والواو والثاء والراء محالة على مادة الكاف والثاء والراء، وكذلك "غيلم" تذكر في الغين واللام والميم وتذكر أيضًا في الغين والياء واللام والميم محالة على الغين واللام والميم... وهكذا.

ومضاعف الرباعي فصل عن مادة الثلاثي، وذكر في موضعه من الترتيب الحرفي؛ فزلزل مثلًا كتبت في مادة الزاي واللام والزاي واللام، وزل كتبت في الزاي واللام واللام... وهكذا "حسس" وما إليها، وهناك كلمات صُدِّرت بالتاء المبدلة من الواو إبدالًا دائمًا؛ كالتؤدة، واتقى، والتراث؛ فجعلتها اللجنة مع أصلها في باب الواو؛ كما راعت اللجنة في رسم مثل: "ائتب" إذا وقعت في مبدأ الكلام أن تثبت الهمزتين: همزة الوصل المرسومة ألفًا، وهمزة فاء الكلمة المرسومة ياء، وإن كانت قواعد الصرف تقضي بإبدال الهمزة الثانية ياءً في البدء بالفعل؛ فيقال: "ايتب"، وقد آثرت اللجنة الرسم الأول؛ ليتبين للقارئ بوضوح أن الألف همزة لا ياء.

وأما الأسماء؛ فقد رتبتها اللجنة ترتيبًا هجائيًّا؛ كما استعملت اللجنة رموزًا للاختصار؛ فوضعت بين قوسين: ( ) ما يلي "ج" لبيان الجمع، الحركات الثلاث: الفتحة، والكسرة، والضمة، لبيان ضبط عين المضارع بالحركة التي توضع فوقها أو تحتها؛ كما وضعت واوًا بعدها شرطة للدلالة على تكرار الكلمة لمعنى جديد، كما وضعت الميم والواو للمُوَلَّد: وهو اللفظ الذي استعمله الناس قديمًا بعد عصر الرواية، ووضعت الميم والعين للمُعَرَّب: وهو اللفظ الأجنبي الذي غيره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب، ووضعت الدال للدخيل: وهو اللفظ الأجنبي الذي دخل العربية دون تغيير كالأكسجين والتليفون، ووضعت الميم والجيم للفظ الذي أقره مجمع اللغة العربية، ووضعت بين القوسين كلمة: "محدثة" للفظ الذي استعمله المحدثون في العصر الحديث وشاع في لغة الحياة العامة.

انتهت مقدمة المعجم.

ب. هدفهُ:

هو النهوض باللغة العربية؛ حيث يفيد هذا المعجم القارئ المثقف الذي يحتاج إلى تفسير ألفاظ ومواد لغوية في أسلوب واضح قريب المأخذ سهل التناول، وقد رتبت المواد فيه على حسب أصولها وفق الحرف الأول فالثاني فالثالث من حروف الهجاء، وقسم إلى أبواب بعدد حروف الهجاء، مع ملاحظة تجريد الكلمات من زوائدها، وإرجاع المقلوب إلى أصله؛ كما قدمت الأفعال فيه على الأسماء وقدم المجرد على المزيد من الأفعال، والمعنى الحسي على المعنى العقلي، والحقيقي على المجازي، والفعل اللازم على المتعدي، ورتب الفعل المزيد ترتيبًا هجائيًّا كما وضعت رموز لتيسير البحث فيه.

إن هذا المعجم يتميز بالتنظيم والتنسيق والسهولة في البحث؛ كما وضعت الرموز فيه قصدًا للاختصار والتوضيح، كما عُنِيَ بالرسوم والصور التوضيحية؛ كما شرح الألفاظ بعبارة سهلة واضحة، وتميز بغزارة المادة العلمية؛ حيث اشتمل على نحو ثلاثين ألف كلمة رغم وقوعه في جزأين فقط، وفوق كل هذا هو معجم معاصر وضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة.

٢ ـ (المعجمُ الكبيرُ):

رأى مجمع اللغة القاهري أن (المعجم الكبير) لون جديد في عالم المعجمات العربية، فيه تأصيل، وتحقيق، وجمع، واستيعاب، ورجوع للمصادر الأولى، وتعويل ما أمكن على النصوص الثابتة، وقد عني فيه عناية خاصة بالوضوح والدقة؛ فرتب ترتيبًا دقيقًا وبوب تبويبًا سهلًا، والتزم الترتيب الحرفي ولكن في

حدود المادة اللغوية تمشيًا مع طبيعة العربية، وأنها لغة اشتقاقية، وصيغت التعريفات في عبارة مختصرة وأسلوب سهل، ووضحت النصوص المأثورة والشواهد المعقدة، واستخدمت بقدر الرسوم والصور والخرائط.

ورأى المجمع أن العربية ليست مقصورة على ما جاء في المعجمات وحدها؛ بل لها مظان أخرى يجب تتبعها، والأخذ بها، والأخذ عنها، وفي مقدمتها كتب الأدب والعلم، ورأى المجمع أنه من الظلم أن نقف بالعربية عند حدود زمانية معينة، وذهب المجمع إلى أن من حقه أن يقيس كما قاس القدماء، وأن يشتق كما اشتقوا، وأن يعرب كما عربوا؛ فقال بقياسية أمور كانت مقصورة على السماع، وقرر تكملة المادة اللغوية كلما دعت إليها الحاجة، وأخذ بالتعريب عند الضرورة، وقد أفاد من هذا كله في معجمه (الكبير)، كما اهتم بالمصطلحات العلمية والفنية، ورأى أن المعجمات اللغوية من الضروري أن تشتمل على قدر من هذه المصطلحات، وأن تشرح شرحًا دقيقًا في إيجاز.

ففي (المعجم الكبير) جوانب ثلاثة أساسية:

الجانبُ الأولُ: جانب منهجي: هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب.

الجانبُ الثاني: جانب لغوي: عني بأن تصور اللغة تصويرًا كاملًا؛ فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم.

الجانبُ الثالثُ: جانب موسوعي: يقدم ألوانًا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات أو الأعلام.

وروعي في هذا الجانب: الجمع بين القديم والحديث ما أمكن؛ فذكرت معطيات العلم العربي وأضيف إليها ما جاء به العلم الحديث، وفي هذا كله عمق ودقة،

وأصالة وتجديد، ويسر وتيسير، وفيه لغات متعددة بين سامية و"هندو - أوربية"، وكتب اللغات السامية بحروف لاتينية، وكان يود أن يكتبها بحروفها لولا نقص هذه الحروف وقلة الخبراء الخبيرين فيها.

كما اشتمل المعجم على رموز مختلفة تعين على الشرح والفهم؛ فرتبت مواده على حسب أصولها وفق الحرف الأول فالثاني فالثالث من حروف الهجاء، على نحو منهج (الوسيط) تمامًا، وذكر في صدر المادة نظائرها السامية -إن وجدت- وكتبت الكلمات السامية بحروف لاتينية متلوة بالنطق العربي التقريبي، ورُدَّت الكلمات المعربة إلى أصولها، وذكرت بعض النظائر السامية المعاني الكلية، ورتبت متدرجة من الأصلي إلى الفرعي، ومن الحسي إلى المعنوي، ومن الحقيقي إلى المجازي، ومن المألوف إلى الغريب، وأغفلت في الكلمات المقلوبة والمبدلة اكتفاء بذكرها في أصولها قبل القلب أو الإبدال، واستؤنس في استنباطها بما ورد في المعجمات القديمة وبخاصة في (مقاييس اللغة) لابن فارس، واستخلص بعضها من دلالات المادة نفسها.

ونهج (الكبير) بالنسبة للأفعال وترتيبها هو نهج (المعجم الوسيط)؛ حيث قدمت الأفعال على الأسماء، وقدم المجرد على المزيد، ورتبت الأفعال المجردة وفق أبوابها، ورتبت الأفعال الثلاثية المزيدة وفق أنواعها: المزيد بحرف، ثم المزيد بحرفين، ثم المزيد بثلاثة... وهكذا، ثم الرباعي: يأتي المجرد أولًا، فالمزيد بحرف، ثم المزيد بحرفين.

وأما بالنسبة للإبدال؛ فقد ذكرت الأفعال التي صدرت بالتاء المبدلة من الواو إبدالًا دائمًا مثل اتجه، وتقع في ترتيبها الهجائي من حرف التاء؛ لتحال على أصلها من حرف الواو في الواو والجيم والهاء، وفي الواو والقاف والياء، تمامًا كما هو منهج (الوسيط).

وذكرت المصادر بعد الفعل مباشرة؛ حيث ذكر من مصادر الثلاثي ما نصت عليه المعجمات وقدم القياسي على غيره، وأغفلت مصادر الثلاثي المزيد ومصادر الرباعي المجرد والمزيد؛ لأنها قياسية إلا ما كان من مزيد الثلاثي على وزن أفعل أو فاعل وكان مهموز الفاء، مثل: آزر؛ فيذكر مصدرهما -وإن كان قياسيًّا؛ لتتضح صيغته أهو من أفعل أم من فاعل؛ فيقال: آزر إيزارًا، حينما يكون من أفعل، وآزر مؤازرة؛ حينما يكون من فاعل.

ولم تذكر المشتقات بعد الفعل؛ لأنها قياسية، والأسماء ذكرت بعد الأفعال مرتبة ترتيبًا هجائيًّا.

وهكذا يسير منهج (الكبيرِ) في معظم نهجه على نهج (الوسيط).

وأما المادة اللغوية؛ فقد استمدت من مصادرها المختلفة وبخاصة المعجمات، ومن كتب الأدب والعلم والتاريخ، وأكمل المجمع المادة اللغوية تطبيقًا لقرار مجمعي أخذ به عند الاقتضاء، واشتق من الجامد كلما دعت إليه الحاجة تطبيقًا أيضًا لقرار مجمعي فيقال: أكسد من الأكسيد، وأيَّن من الأيونات.

وأما الشواهد؛ فقد سلك المجمع فيه مسلك القدماء، واستشهد ما أمكن على المواد؛ توضيحًا للمعنى وتأييدًا للاستعمال، وعند تعددها بدأ بالقرآن فالحديث فالنص الأدبي المنثور ومنه المثل وأخيرًا ثم الشعر.

وأما الجانب الموسوعي؛ فيشتمل على المصطلحات وأعلام الأشخاص والبلدان وأسماء النبات والحيوان؛ فعني في المصطلحات بإيراد القديم كاصطلاحات الفقهاء والمحدثين والمناطقة والعروضيين، واكتفى من المصطلحات وألفاظ الحضارة التي أقرها المجمع بما شاع استعماله في الأوساط العلمية والحياة العامة، أو كان وثيق الصلة بالاستعمال الأدبي واللغوي بوجه عام.

كما عني بأعلام الأماكن والبلدان ؛ فأورد منها أسماء القارات والدول والمدن الشهيرة ، وما كانت له قيمة تاريخية أو نسب إليه علماء مشهورون ، أو تردد ذكره في نصوص أدبية قديمة ، وعرف العالم تعريفًا يتفاوت بسطًا وإيجازًا على حسب أهميته ، وحولت وحدات القياس القديمة ، مثل : المرحلة والبريد والفرسخ إلى وحدة الكيلو متر المعروفة.

كما أورد المجمع أسماء المشاهير من الرجال ، وبالنسبة للحيوان والنبات ذكر أسماء العربي منها في موادها ، ورتبت على حسب حروفها ، وعرفت تعريفًا علميًّا دقيقًا مع ذكر مقابلها الأجنبي وفصيلتها -إن كانت لها فصيلة- ، كما اقتضى الجانب الموسوعي الاستعانة بالرسوم والصور ؛ ولا سيما ما اتصل منها بالحيوانات والنباتات غير المألوفة.

والنماذج التالية توضح منهج المعجمين.

نماذج من المعجمين

يمكنك أن تتصفح المعجمين وتقارن بين بعض موادهما ؛ لتعرف الفرق بين (الكبير) و(الوسيط) ؛ فمثلًا : الهمزة والكاف وما يثلثهما ، هكذا جاء العنوان في (المعجم الكبير) في باب الهمزة ، صدر هذا العنوان بتفسير الأكاديمي والأكاديمية قبل الدخول في الألفاظ ذات الجذور العربية ؛ فالأكاديمي : أحد أتباع المدرسة الأفلاطونية ، والأكاديمي أيضًا : عضو الأكاديمية وبخاصة الأكاديمية الفرنسية ، والأكاديمي : كل ما ينسب إلى الأكاديمية فيقال : بحث أكاديمي ومنهج أكاديمي.

وأكاديمية في اليونانية : أكاديميا : مدرسة أفلاطون كانت تقوم في حدائق بالقرب من أثينا ، تسمى حدائق أكاديموس ، وهو بطل أسطوري وهي أقدم مدرسة فلسفية ، أسسها أفلاطون في أثينا عام سبعة وثمانين وثلاثمائة قبل الميلاد ، درس

فيها الرياضيات والفلسفة وكتب على بابها: من لم يكن عالمًا بالرياضيات؛ فلا يدخل علينا، وقام على أمرها تلاميذه من بعده، واستمرت إلى أن أغلقها "جُستنيان" عام سبعة وعشرين وخمسمائة من الميلاد، وهي بحسب تطورها الزماني: الأكاديمية القديمة: وهي التي استمسكت بتعليم أفلاطون، ثم الوسطى: التي انحرفت عنها قليلًا، ثم الحديثة: التي قنعت بالاحتمال حين عز عليها اليقين، ويطلق هذا اللفظ على بعض المجامع والمعاهد العلمية والفنية الأدبية، وتسمَّى أيضًا "أقاذمية".

وتحدَّث المعجم عن الأكاديمية الفرنسية، وأنها تتألف من أربعين عضوًا من الخالدين، ومن أهم آثارها المعجم الذي طبع عدة مرات... وهكذا، حينما تنظر في (الوسيط) لا تجد أثرًا لهذا كله عندما تصل في باب الهمزة إلى الهمزة والكاف.

ثم بعد ذلك يأتي في (الكبير): الهمزة والكاف والهمزة، وذكر المجمع تحته: أكأ فلان يكئأ أكئًا: استوثق من غريمه بشهود، أي: استعان بهم في إثبات حقه على خصمه، وذكر من ذلك أيضًا الإيكاء: كل ما شد به رأس وعاء ونحوه، لغةً في الوِكاء، وفي الحديث: ((لا تشربوا إلا من ذي إكاء))، وأحال القارئ إلى الواو والكاف والياء، لا تجد أثرًا لهذه المادة في (المعجم الوسيط)، لا يوجد فيه همز وكاف وهمزة.

كذلك يأتي بعد الإكاء في (المعجم الكبير): أكبر، قال: من أباطرة المغول، ويحيل القارئ إلى الكاف والباء والراء، ثم يذكر بعد الأكبر: الإكتمكت: وهو حجر العقاب، حجر في حجم بيضة العصفور أو في حجم الرمانة، إذا حُرك سمعت خشخشة شيء يتحرك في جوفه ويعرف قديمًا بحجر الولادة؛ لأنه فيما يقال: يسهل عسر الولادة. لا تجد هذا أيضًا في (المعجم الوسيط).

ثم بعد ذلك يأتي الحديث عن أكتوبر و(الوسيط) يبدأ الهمزة والكاف بأكتوبر. إذًا كل ما تقدم في (الكبير) لا تجد له ذكرًا في (الوسيط) في الهمزة والكاف، وحينما تقرأ عن أكتوبر في (الكبير) تجده: الشهر العاشر من الشهور الرومية الإفرنجية، وعدد أيامه واحد وثلاثون، ويقابله في السنة السريانية شهر تشرين الأول، وحينما تقرؤه في (الوسيط) تراه هكذا: الشهر العاشر من الشهور الرومية الميلادية. فالإفرنجية في (الكبير) تقابل الميلادية في (الوسيط)، يقابله تشرين الأول من الشهور السريانية فقط، لا تجد عددًا لأيامه في (الوسيط).

ثم يأتي بعد أكتوبر: التينومتر: مقياس حرارة أشعة الشمس، ولا تجد ذلك في (الوسيط)، ثم تجد بعده في (الكبير): إكفيما: طفح بثري متصلب القاعدة، ينشأ من التهاب بالمكورات العنقودية أو السبحية ويتخلف عنه ندب. لا تجد لذلك أثرًا له في باب الهمزة والكاف في (الوسيط).

وكذلك يأتي الهمزة والكاف والحاء: الأوكح: فَوْعل عن قراع التراب، ويحيل القارئ إلى الواو والكاف والحاء، لا تجد لذلك أيضًا مكانًا في باب الهمزة والكاف في (الوسيط).

ثم يأتي الحديث عن الهمزة والكاف والدال؛ فهي موجودة في الاثنين معًا لكن الحديث في (الكبير) غيره في (الوسيط)، بدأ (المعجم الكبير) بقول ابن فارس: الهمزة والكاف والدال ليست أصلًا؛ لأن الهمزة مبدلة من واوه. لا تجد لقول ابن فارس ذكرًا بطبيعة الحال في (الوسيط)، ويبدأ (الكبير) بأكد العقدة ونحوها يأكد أكدًا: وثقها. وهو موجود أيضًا في (الوسيط) بنصه، ويحيل إلى الواو والكاف والدال؛ بينما لا تجد إحالة في (الوسيط).

وبعد أن ينتهي المعجمان من الهمزة والكاف والدال؛ يذكر (الوسيط) الهمزة والكاف والراء مباشرة، ويأتي بألفاظ من هذا الجذر؛ بينما يذكر (المعجم

الكبير): أكد، ويحيل القارئ إلى الهمزة والكاف والدال؛ ليرى هنالك حديثًا عن: أكد: اسم الدولة السامية التي أسسها البطل سرجون في الجزء الشمالي من أرض بابل سنة خمسين وثلاثمائة وألفين قبل الميلاد بعد أن قضى على سلطان السومريين في جنوبي ما بين النهرين، وهي أول دولة سامية قامت في تلك البلاد، وقد سادت زهاء قرنين إلى نحو خمسين ومائتين قبل الميلاد؛ إذ قضى عليها الجوتيون القادمون من الجبال في الشرق.

ومضى المعجم يتحدث عن أكد اسم المدينة واسم المنطقة الممتدة حول مدينة أكد، ويتحدث عن الأكادي المنسوب إلى أكد، و كذلك يثبت أن الأكاديين: اسم جامع للبابليين والآشوريين، اصطلح عليه العلماء المحدثون. كما يثبت الأكادية: اسم جامع أطلقه البابليون على لغتهم البابلية ولغة إخوانهم الآشوريين معًا، ويطلقه العلماء المحدثون أيضًا على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة؛ فإذا أرادوا التمييز قالوا: البابلية القديمة، والآشورية القديمة، ويثبت اللغة الأكادية القديمة: وهي لغة دولة أكد الأولى، ويخلو (المعجم الوسيط) من ذلك كله.

ثم يثبت (المعجم الكبير) الأكدرية، وهي: مسألة من مسائل الميراث التي اختلف فيها فقهاء الصحابة ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين تشعبت فيها أقوالهم؛ نظرًا لصعوبتها ودقة وجه الحكم فيها، ويذكر المعجم صورتها: امرأة توفيت عن زوج وأم وجد وأخت شقيقة أو لأب، وقد اختلفوا في الأخت: هل ترث مع الجد أو تحجب به كما تحجب بالأب؟ وعلى المذهب الذي يورثها، ماذا يكون نصيبها من التركة؟ وماذا يكون نصيب الجد معها؟ هل يستقل كل منهما بنصيب خاص: السدس للجد والنصف للأخت؟ أو يقاسم الجد الأخت بطريقة التعصيب كما

يعصب الأخ أخته، وذلك بأن يقسم مجموع هذين السهمين أثلاثًا، فيكون للجد ثلثان وللأخت الثلث؟

وقد اشتهرت هذه المسألة باسم الأكدرية؛ لأن المرأة المتوفاة في واقعة الحال كانت معروفة بالأكدرية نسبة إلى أكدر، وقيل: لأن عبد الملك بن مروان كان قد عرض المسألة على رجل من أكدر -أو كان يدعى أكدر-، فلم يحسن أن يجيب فيها إجابة شافية. كل هذا لم يرد في (المعجم الوسيط).

وبعد الأكدرية تأتي الهمزة والكاف والراء بنهج (المعجم الكبير): وهو الحديث عن المعنى العام الذي تدور حوله كلمات هذا الجذر: وهو الحفر -عن ابن فارس بطبيعة الحال؛ كما هو نهج (المعجم الكبير)- ويزيد أيضًا الحرث، وبعد ذلك -أقصد: بعد الهمزة والكاف والراء- يأتي ذكر أكرا وهي مدينة على خليج غانا، سكانها زهاء خمسين ومائة ألف نسمة سنة ستين وتسعمائة وألف من الميلاد، عاصمة جمهورية غانا التي كانت تعرف بساحل الذهب، يخلو (الوسيط) من هذا.

ثم يأتي ذكر الأكراد جمع كرد، ويحيل (الكبير) القارئ إلى الكاف والراء والدال، كل هذا غير موجود في الهمزة والكاف والدال وبعدها في (المعجم الوسيط)، ويأتي الإكرار اسم عند عرب نَجْد لنوع الكبير من الترنشول: هي حشيشة العقرب، ثم يأتي الحديث عن أوكرانيا، وعن الأكرودول، وعن إكزيما، كل هذا يخلو (المعجم الوسيط) منه.

ثم تأتي الهمزة والكاف والسين والدال: أكسدت المادة مادة أخرى أكسدة: أعطتها أكسجينًا أو عنصرًا يعدله، ويتحدث عن الأكسيد، وأكسيد الكالسيوم،

والأكسيد الأحادي، والأكسيد الثنائي، ويتحدث عن التأكسد الذاتي، والمؤكسد، وأكسفورد، كل هذا غير موجود في (الوسيط).

ثم يأتي الأكسيجين وهو مشترك بين المعجمين وله تعريف أوسع من تعريفه في (الوسيط)؛ فالأكسيجين في (المعجم الكبير): عنصر غازي من عناصر الهواء لا لون له ولا طعم ولا رائحة، لا يشتعل؛ ولكنه يساعد على الاشتعال، ويذوب بنسبة ضئيلة في الماء، وهو ضروري لتنفس الحيوان والنبات، وزنه الذري ستة عشر، وعدده الذري ثمانية.

لَمَّا نقارن هذا بما ثبت في (المعجم الوسيط) نجده كالآتي: الأكسيجين: عنصر غازي من عناصر الهواء عديم اللون والطعم والرائحة، ويذوب بنسبة ضئيلة في الماء، وهو لازم لتنفس الحيوان والنبات. ثم يشير إلى رمز الميم والجيم، يعني: لفظ أقره المجمع، ولا يشير في (الوسيط) إلى وزنه الذري، ولا عدده الذري، ولا يشير إلى اشتعاله أو إلى أنه لا يشتعل؛ ولكنه يساعد على الاشتعال كما جاء في (الكبير).

إذًا (المعجم الكبير) متميز عن (الوسيط) في ذكر المعنى العام الذي يجمع ألفاظ المادة الواحدة، ثم يفصل القول في الألفاظ المستحدثة المتصلة بالعلوم والمعارف والحضارة، ثم إنه يهتم بالبلدان والأماكن.

إن (الوسيط) يفيد منه طلاب المدارس في المرحلة الثانوية وما قبلها، ويفيد أيضًا المثقف العادي؛ أما (المعجم الكبير) فيفيد المثقف العادي، والمختص، وطلاب المرحلة الثانوية، وطلاب الجامعة، وطلاب الدراسات العليا.

إن (المعجم الكبير) يتميز بغزارة المادة العلمية؛ فلم يتسع الجزء الأول إلا لباب الهمزة، ويقع في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير، ولم يتسع الجزء الثاني

أيضًا إلا لباب الباء ويقع في نحو ثمان وستين وسبعمائة صفحة، وقد زاده قيمةً ذكره المعاني الكلية؛ فميزته عن المعاجم الأخرى متأثرًا في ذلك بمعجم (المقاييس) لابن فارس.

وعلى أية حال؛ فإن (المعجم الوسيط) -على إيجازه بالنسبة (للكبير)- يعد أقرب معاجمنا إلى الكمال في الجمع والترتيب، ويمتاز بالتنظيم والتيسير.

ـرق شرح المعنى عند اللغويين، والمآخذ على المعاجم العربية

عناصر الدرس

العنصر الأول : ـُرق شرح المعنى عند اللغويين ٢٨٧
العنصر الثاني : المآخذ على المعاجم العربية ٢٩٤

طرق شرح المعنى عند اللغويين

إن الناظر في كتب اللغة على اختلاف أنواعها، سواء أكانت رسائل لغوية أو كتبًا معنوية من هذا الصنف المسمى بالمعاجم المبوبة أو الموضوعية، كـ(مبادئ اللغة) للإسكافي، و(فقه اللغة) للثعالبي، و(المخصص) لابن سيده... وغيرها. أو الناظر في غيرها من المعاجم اللفظية أو المسماة بالمجنسة، كـ(العين) للخليل من "مدرسة التقليبات الصوتية"، أو (الجمهرة) لابن دريد من "مدرسة التقليبات الهجائية"، أو (الصحاح) للجوهري، أو (اللسان) من "مدرسة القافية"، أو (المصباح المنير) وغيره من المعاجم التي تسير على نظام الهجائية العادية.

سيرى الناظر في كل ما ذكرته وغيره، أن المعنى وُضح فيها بطرق متنوعة، فقد يأتي التعريف بذكر المرادف فقط، وقد يأتي التعريف -أعني: تعريفَ اللفظ- بالمرادف المزدوج، وقد يأتي المرادف بأكثرَ من مزدوج -يعني: يأتي التعريف للفظ بالمزدوج، أو أكثر منه- وقد يأتي تعريف اللفظ بذكر نظيره، وقد يأتي التعريف بالوصف والتشبيه، وقد يأتي التعريف بعبارة مفصلة، وقد يأتي التعريف بعبارة مقتضبة موجزة، وقد يأتي التعريف بذكر المترادفات، أو بذكر معاني متعددة، وهو ما يسمى بالمشترك، وقد يأتي التعريف من خلال ذكر المتضاد، وقد يأتي التعريف أحيانًا بلفظ المعرَّب، وقد يأتي التعريف بذكر تعليل للتسمية.

أمور متعددة يستطيع قارئ أي كتاب لغوي معجمي أو غيره، أن يلحظ ما ذكرتُ.

ولك أن تتصفح بعضَ هذه المعاجم؛ لترى طرقًا متنوعةً سلكها اللغويون في توضيحهم لمعاني الألفاظ، فلو كان بين يديك (تهذيب اللغة) للأزهري، سترى الآتي؛ في باب: الخاء والنون -وأنت لستَ في حاجة الآن أن تعرف أن معجم

(تهذيب اللغة) يسير وفقَ نظام الخليل، وينتمي إلى مدرسته، وهي "مدرسة تقليبات الصوتية" - ؛ لتجد تعريفًا للمخنة، يقول الأزهري في تقليب الخاء والنون -وهو بلا شك ينقل عن غيره، وتحديدًا عن ابن الأعرابي- : حيث قالوا: أخبرني المنذري عن أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، قال: والمخَنَّة: وسطُ الدار، ثم قال: والمخَنَّة: الفِناء، والمخَنَّة: الحَرم، والمخنَّة: مضيق الوادي، والمخنَّة: مصبّ الماء من التَّلْعة إلى الوادي، والمَخَنَّة: فُوَّهة الطريق، والمَخَنَّةُ: المحَجَّةُ البينة، والمَخَنَّة: طَرف الأنف.

أرأيت اللفظ واحد -وهو المخنة- وقد تعددت معانيه المعجمية -كما ترى- وفي هذا التعدد نوعٌ من التوضيح، فلو اقتصر على ذكر معنًى واحدٍ، فربما لا يتوافق مع المعنى المراد الكشف عنه.

فاستخدام ما يسمى بالمشترك اللفظي يُعَدُّ من طرق توضيح المعنى في كتب اللغة، وهذا الأمر منتشرٌ جدًّا في (تهذيب اللغة) وفي غيره من المعاجم العربية.

انتِقل إلى باب: الخاء والفاء، وفي تقليب الخاء والفاء، يقول: "قال الليث: الخُفُّ خُفُّ البعير، وهو مَجْمع فِرْسِنِه. تقول العرب: هذا خُفُّ البعير، وهذه فِرسنهُ، والخُفُّ: ما يلبسه الإنسان. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا سَبَق إلا في خُفٍّ، أو نصلٍ، أو حافرٍ))، فالخُفُّ: الإبل ها هنا، والحافر: الخَيْل، والنَّصل: السَّهم الذي يُرمَى به، ومجازه: لا سبق إلا في ذي خفٍّ، أو ذي حافر، أو ذي نصلٍ".

لاحظ أن الخف -وفق ما ذكره الأزهري- هو خف البعير، وهو ما يلبسه الإنسان، وهو الإبل أيضًا، وهو معنى مجازي مأخوذ من الحديث: ((لا سبقَ إلا في خفٍّ))، أي: في ذي خف، وذو الخف: هو البعير أو الإبل.

فتعدد المعاني يميز بعضها عن بعض، فإذا انتقلنا -مثلًا- إلى باب: الخاء والميم، تجد اللفظ يُعرَّف بالعبارة، وتتفاوت العبارة بين التوسط وبين القِصر والطول، فتجده -مثلًا في تقليب الخاء والميم، يقول: "قال الليث: اللحم المُخِمُّ: الذي قد تغيرت ريحهُ، ولمَّا يَفْسد فسادَ الجيف". فهذه عبارة متوسطة. ثم يقول: "قال: وإذا خَبُث ريحُ السِّقاء، فأفسد اللبن، قيل: أخَمَّ اللبن".

هذه عبارة أيضًا متوسطة.

قال: "وقال الليث: الخِمْامة: ريشة رديئة فاسدة تحت الريش".

عبارة أيضًا متوسطة.

ثم حينما ينقل عن أبي عبيد -عن الأصمعي- قوله: الخُمامة والقُمامة: الكُناسَة".

إذًا هذا تفسير بذكر المرادف، الخمامة: الكناسة.

ثم انظر إلى ما نقله عن ثعلب عن ابن الأعرابي: "خَمَّان النَّاس، ونُتَّاش الناس، وعوذ الناس: واحدٌ".

إذًا، هذا تعريف بذكر المترادفات، فخمان الناس، نتاش الناس، عَوذ الناس، كلها مترادفات. وانظر إلى العبارة الموجزة، حين قال -أيضًا ناقلًا عن ثعلب، عن ابن الأعرابي-: "والخَمُّ: البكاء الشديد، والخُمُّ: قفص الدُجَّاج، والخِمُّ: البُستان الفارغ، والخَمُّ: الثناء الطيب". وانظر إلى التوسط أيضًا في العبارة حين يقول: "والخَمُّ تغير رائحة القُرص إذا لم ينضج، الخَميمُ: اللبن ساعة يُحلب". وانظر إلى التفسير بالمرادف حين قال: "والخَميمُ: الممدوح".

وهكذا تتعدد طرق التوضيح مرةً بالعبارة، ومرةً بذكر المرادف، ومرةً بتعدد هذا المرادف، ومرةً بالمشترك... إلى آخر كل هذا.

ثم انظر إلى قوله في تقليب الخاء والزاي والقاف، قال: "والخَزْقُ: ما يثبت، والخَرْق: ما ينفذُ". فهو يستعين على توضيح الخزق بالخَرْق: "الخَزْقُ: ما يثبت، والخَرق: ما ينفذُ".

إنه يهتم هنا بذكر الفروق بين ما يُظن أنه من المترادفات.

ثم انظر إلى العبارة التي يفصل بها المعنى، فيقول: "والمِخزق: عُود في طرفه مسمار محدد يكون عند بياع البُسر". وانظر إلى المترادفات حين قال -ناقلًا عن أبي عبيد، عن الأصمعي-: "ذرق الطائر وخذقَ ومَزق وزرق". إنه يفسر بذكر المترادفات، ثم يستعين على تفسير اللفظ أحيانًا بتعليل التسمية، فيقول: "قال الليث: خَرَقْت الثوب: إذا شققته، وخرقت الأرض: إذا قطعتها حتى بلغت أقصاها؛ ولذلك سُمِّي الثَّور مخراقًا". إذًا تسمية الثور بالمخراق من: خَرْق الأرض، يقال: خرقت الأرض إذا قطعتها حتى بلغت أقصاها. وكذلك يقول: "والخَريق -كل هذا ينقله عن الليث-: من أسماء الريح الباردة الشديدة الهُبُوب، كأنها خُرِقَتْ، أماتوا الفاعلَ بها".

وانظر إلى التفصيل أيضًا حين قال: "الخَرْقُ: الأرض البعيدة، مستويةً كانت أو غيرَ مستويةٍ، والخَرْق: البُعْد، كان فيه ماءٌ أو شجر أو أنيس، أو لم يكن".

فجانب المشترك هنالك أيضًا توضيح وتفصيل.

وينقل عن أبي الهيثم قولَه: "الاخْتراقُ، والاخْتِلاق، والاخْتِراصُ، والافْتراءُ: واحد".

إنه تعريف بذكر المترادفات.

وينقل عن الليث -وقد علمت أنه حينما ينقل عن الليث، فإنما ينقل عن (العين) أقصد عين الخليل بن أحمد؛ لأن الأزهري يرى أن أساس كتاب (العين) إنما هو

للخليل، والتفصيل والذي جاء من ألفاظٍ في كتابٍ، إنما هو من عمل الليث لا من عمل الخليل- مزيدًا من تسمية الثور مِخراقًا، فيقول: "والثَّور الوحشيُّ يسمى مِخْراقًا؛ لقطعه البلاد البعيدة". ويقول أيضًا: "والثور البريُّ يسمى مِخْراقًا؛ لأن الكلاب تطلبه فيُفْلت منها".

ثم ينقل عن أبي عبيد في الخاء واللام والقاف، عن أبي زيد أيضًا: "إنه لكريم الطبيعة والخليقة والسليقة"، بمعنى واحد بذكر المترادفات.

ثم يعقب الأزهري أيضًا بقوله: "قلت: ورأيت بذروة الصَّمَّان قلاتًا تمسك ماءَ السحاب في صَفَاة خلقها الله فيها، تسميها العرب: الخلائق، الواحدة: خَلِيقَةٌ".

إذًا، هو يضيف أيضًا ما رآه بنفسه.

ثم انظر إلى تفسيره بالمرادف حين قال: "إنه لخليق بذاك"، أي: حري، ففسر الخليق بالحري، هذا يسمى تفسيرًا بالمرادف فقط.

والأمر نفسه تجده فيما ذكرتُ من معجمات، فلو تصفحت (لسان العرب) أيضًا ونظرت -على سبيل المثال- باب: الراء، فصل: الهمزة -وأنت لست في حاجة إلى أن أقول: إن (لسان العرب) ينتهي إلى "مدرسة القافية" إلى "مدرسة الجوهري"-، ولو قرأت في هذا الباب تجده يفسر: الأسرة، والمأثرة، والمأثرة: بالمكرُمة، هذا تفسير بالمرادف، كما يفسر الأسرة: بالجدب والحال غير المرضية، فهذا تفسير بالمرادف المزدوج. كما نراه يفسر الأَزْل في باب اللام، فصل: الهمزة، بالضيق والشدة.

فهذا توضيح بالمرادف المزدوج.

وأحيانًا يفسره بالمرادف فقط، فيقول: والأَزْل: الحبس، كما نراه يقول: والإِزْل: الكَذب، والإزل: الداهية، والأزَل -بالتحريك-: القدم.

وانظر تفسيره بالمرادف المزدوج، حين قال: والأَزْم -هذا في باب: الميم، فصل: الهمزة- : الجدب والمَحْل. وينقل عن ابن سيده: الأَزْمة: الشدة والقحط.

كل هذا تفسير بالمرادف المزدوج.

ثم انظر إلى قوله: والأوزام السنون الشدائد، كالبوازم. هذا تفسير بالوصف أو بالتشبيه، وهو لون أيضًا من ألوان التفسير.

وإذا انتقلتَ إلى باب: الميم، فصل: الخاء، فإنك تجده يفسر الخَطْم بقوله: قيل: الخطم من السبع بمنزلة الجحفلة من الفرس، إنه يوضح معنى اللفظ بذكر نظيره؛ الخطم من السبع بمنزلة الجحفلة من الفرس. ونراه يذكر مزيدًا من النظير عن ابن الأعرابي، فيقول: الخطم هو من السبع الخطم والخرطوم، ومن الخنزير: الفِنطيسة، ومن ذي الجناح غير الصائد: المِنقار، ومن الصائد: المَنْسِر.

هذا يسمى التفسير بالنظير.

وعند تفسيره للخرطوم، قال: والخراطيم للسباع بمنزلة المناقير للطير. هذا يسمى التفسير بالنظير.

إذًا، تتعدد طرق توضيح المعنى في كتب اللغة؛ مرةً بالمرادف، مرةً بالمرادف المزدوج، مرةً بمترادفات متعددة، مرةً بوصف وتشبيه، ومرةً بالنظير، مراتٍ عديدةً بالمشترك، والمتضاد، وبتعليل للتسمية.

وللمزيد من توضيح ما قلت تصفح (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) للرافعي، وهو من تأليف العالم أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المتوفى سنة سبعين وسبعمائة من الهجرة، تجد هذه الطرق أو بعضَها لا يخلو منه (المصباح). انظر مثلًا إلى تعريفه للساج نقلًا عن الزمخشري، قال الفيومي: قال

الزمخشري: الساج: خشب أسود رزين، يُجلب من الهند ولا تكاد الأرض تبليه.

إنه يفسر اللفظ بعبارة طويلة توضح معناه. وعند تفسيره للشفة، يقول: الشفة: من الإنسان، والمشفر: من ذوي الخُف، والجَحْفلة: من ذي الحافر، والمَقمة: من ذي الظلف، والخطم والخرطوم: من السباع، والمِنسر والمَنسر -بفتح الميم أو كسرها، مع فتح السين في الحالين- : من ذي الجناح الصائد، والمِنقار: من غير الصائد، والفنطيسة: من الخنزير.

أرأيت إنه يذكر هذه المعاني في أثناء حديثه عن الشفة، إنه يوضح ما يسمى بذكر النظير.

و(المصباح المنير) ينتمي إلى "المدرسة الهجائية العادية" مدرسة الزمخشري في (أساس البلاغة).

وانظر في باب: الألف مع التاء، وما يثلثهما، قال: يقال لمجتمع الطريق: مَيْتاء، مِيتاء، بوزن مِفعال، ولآخر الغاية التي ينتهي إليها جَرْي الفرس: ميتاء أيضًا. إنه تفسير بالمشترك. ثم حين قال: تأتَّى له الأمر: تسهَّل وتهيأ، إنه تفسير بالمرادف المزدوج. أتيته مالًا، أو آتيته: أعطيته، هذا تفسير بالمرادف. وانظر في باب: الهمزة مع الميم، يقول: أم الكتاب: اللوح المحفوظ، ويطلق على الفاتحة "أم الكتاب" و"أم القرآن"، هذا مترادفات، والأمة أتباع النبي ﷺ والجمع: أمم، مثل: غرفة وغُرف، وتطلق الأمة على عالم دهره، المنفرد بعلمه، والأمي في كلام العرب: الذي لا يُحسن الكتابة، فقيل نسبةً إلى الأمي؛ لأن الكتابة مكتسبة، فهو على ما ولدته أمه من الجهل بالكتابة، وقيل: نسبة إلى أمة العرب؛ لأنه كان أكثرهم أُميين.

أرأيت إلى تعليل التسمية؟!.

ثم انظر إلى قوله: والإمام الخليفة، والإمام: العالم المقتدى به، والإمام: مَن يؤتم به في الصلاة، ويطلق على الذكر والأنثى.

وإذا انتقلت إلى معجم آخر (القاموس المحيط) للفيروزآبادي -وهو من "مدرسة القافية" أيضًا. تجده لا يخرج أيضًا عما قلناه بصدد طرق توضيح المعنى.

انظر -مثلًا. في باب: الدال، فصل: الفاء؛ فَأَدَ اللحمَ في النار: شواه، تفسير بذكر المرادف، ثم انظر إلى تفسيره الغادة في باب: الدال، فصل: الغين، حين قال: والغَادَة: المرأة الناعمة، اللينة البينة الغَيَد. عبارة متوسطة توضح معنى اللفظ، والغَيَدُ: من غَيْد كَفَرِحَ: مالت عنقُه ولانت أعطافُه.

ثم انظر إلى قوله في باب: الصاد، فصل: الدال؛ دَئِصَ: كفرح، أشر وبطر. تفسير بالمرادف المزدوج. ثم قال: دحَص المذبوح برجله: كمنع، إرتكض وفحص. تفسير بالمرادف المزدوج. ثم انظر إلى قوله: والمبحص: المفحص، تفسير بالمرادف فقط.

وإذا انتقلت إلى المعاجم الأخرى لا تخرج أيضًا عما قلته، ففي (مقاييس اللغة) لابن فارس: -وأنت في غِنًى عن أن أذكرك بأن (مقاييس اللغة) ينتمي إلى "مدرسة الهجائية العادية الدائرية"- فعند حديثه عن الشهاب، قال: هو اللبن الضياح، وإنما سمي بذلك؛ لأن ماءه قد كثر، فصار كالبياض الذي يخالطه لونٌ آخر. هذا تفسير بالوصف والتشبيه.

المآخذ على المعاجم العربية

لقد أخذت على معاجمنا العربية القديمة مآخذ عديدة؛ من أهمها ما يلي:

أولًا: التصحيفُ:

فمن الممكن أن تُقرأ بعض الكلمات على عدة أوجه إذا اختلط بعض الحروف المتشابهة بأخرى، فالباء قد تصير ياءً، والعكس، والياء قد تصير باءً، والنون قد

تصير تاءً، والعكس، والتاء قد تصير ثاءً، والعكس. فإذا ما أهمل الكاتب ضبطَ الحرف، فإن الكلمة تُقرأ على غير وجهها.

وقد أخذ على أصحاب المعاجم الأولى هذا المأخذ، على الرغم من محاولتهم ضبطَ كثير من موادهم في كتبهم، فتجد عبارة التثليث إشارة إلى الثاء، وعبارة المثناة التحتية إشارة إلى الياء، والجيم المعجمة إشارة إلى الجيم، والخاء أيضًا.

ومن الذين تميزوا واهتموا بعملية الضبط هذه؛ خوفَ التصحيف، أبو علي القالي، حيث ضبط ألفاظه في بارعه بالعبارة، وأيضًا الفيروزآبادي في (القاموس المحيط) صنع هذا الصنيع. ومما عني به أيضًا ضبط الحركات؛ حتى لا تقرأ الكلمة على غير وجهها عندما لا يرى القارئ علامةً للفتحة أو الكسرة أو الضمة.

ولم يسلم لُغوي من التصحيف، حتى قالوا: مَن ذا الذي سلم من التصحيف؟ حتى المتأخرون من أصحاب المعاجم أيضًا لم يسلموا من التصحيف.

ومن آثار هذا التصحيف: وجود عدد من الكلمات لا تُعرف حركاته ولا حروفه على وجه اليقين، وهذا يجعل القارئ يقع في حَيْرة من أمره؛ ولذلك اقترح الدكتور "حسين نصار" ورأى أن الأمر الوحيد الذي يخلصنا من هذه البلبلة أو الشك في هذه الألفاظ، وبخاصةٍ تلك التي ادُّعِيَ فيها إبدال الحروف، ونُسب ذلك إلى قبائلَ عربية، اقترح جَمْعَ أكبر عدد من الرسائل اللغوية والمعاجم القديمة، والاطلاع على ما قالته بصدد هذه الألفاظ، وما تبقَّى منها، ولم نستطِع الحكم عليه من هذا السبيل، حاكمناه على ضَوْء الاشتقاق، فإذا وجدنا له مادةً تشترك معه في معانيه، حكمنا بصحته، فإن لَمْ نجد رجحنا تصحيفه، فإن كان الأدباء ومستعملو العربية أعرضوا عنه ولم يستخدموه، نفيناه من اللغة، فإن كانوا استخدموه أبقيناه، إذ صار أحد أفراد هذه الأسرة العربية وتجنست بجنسيتها.

ثانيًا: عدم تمثلهم للغرض من معاجمهم:

فهم جميعًا -سواء مَن أطال منهم، ومن اختصر- يريدون أن يجمعوا اللغة بواضحها وغريبها ونادرها ولغاتها، وأن يجمعوا معها معارفَ العرب، فهذا ابن دُريد يريد أن يجمع جمهورَ الكلامِ، فيأتي بما لَمْ يعرفه أعراب الشمال إلا مَن أبعد منهم في الجنوب قاصدًا بتجارته اليمنَ، وأتى بما لا يدور على ألسنة عرب الشمال إلا قليلًا، أو على ألسنة قبائل متفرقة منهم، فكان من النوادر.

وهذا ابنُ فارس يؤلف (المجمل) فيحشوه بما يزخر به كتابه الأكبر (المقاييس)، ويملؤه بما أتى به الخليل الذي قصد إلى الواضح والغريب في مجمعه، وبما أتَى به ابن دريد، حتى أتباع "المدرسة اليسوعية" يؤلفون للتلاميذ، فيرجعون إلى (القاموس المحيط)، ويحاولون أن يزيدوا عليه ولا يختصرون منه إلا القليل.

ثالثًا: القصورُ على الرغم من رغبة مؤلفيها في جَمْع اللغة:

أسباب قصورهم في الجمع:

أ. عدم استقصائهم الألفاظ الواردةَ في الرسائل اللغوية الصغيرة، وفي دواوين الشعر.

ب. أنهم لم يحاولوا أن يجمعوا العربية بجميع لهجاتها، وإنما اقتصروا على الفصيح الصحيح.

ج. إهمالهم المولد حتى ضاع علينا كثير من الألفاظ والمعاني التي ابتكرها العباسيون للمظاهر والحضارة الجديدة التي عاشوا فيها، وجعلوا اللغةَ لا تساير ركبَ الحياةِ، فاتهمت بالتحجر.

واقترح لعلاج هذا القصور: أن نجمع قدرًا كبيرًا من ألفاظ الأدباء والعرب الذين يُستشهد بكلامهم، حين نحقق دواوين الشعر ومجاميع الأدب، ونبرزها في صورة

علمية معتمدة، وتحديد معاني الألفاظ من خلال سياقها الذي وردت فيه، وقد تحقق كثير من هذا الاقتراح؛ إذ حققت دواوين أكثر الشعراء بدأً من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، والمنتظر أن يُصنع من دواوين كل عصر معجمٌ خاص به، حتى نصل إلى المعجم الموحد والكامل للعربية.

رابعًا: صعوبة الكشف في معظمها:

نتيجةً للنظم التي اتبعتها في تقسيمها وفي ترتيب أبوابها وفصولها، وإني أرى أن المدرسة التي تنظر إلى أوائل أصول الكلمات -وأعني بها: "المدرسة الهجائية العادية"- هي أيسر هذه المدارس، وأسهلُ النظم المتبعة في ترتيب ألفاظ اللغة. وقد اعتمد عليها المحدثون وبخاصةٍ المجامعُ اللغوية، ومنها "المجمع اللغوي القاهري"، الذي أخرج لنا (المعجم الوجيز) و(المعجم الوسيط) ولا يزال يخرج (المعجم الكبير).

وقد اقترح أن ترتب ألفاظ العربية وفق صورتها وليس وفق أصولها، حيث رأى بعض الباحثين أنه ينبغي ألا ينظر إلى المادة اللغوية الأصلية المجردة، وإنما ينظر إلى الكلمات نفسها حسب نطقها السائد، ومن ثم فإنه لا يراعَى عند الترتيب المادةُ أو الأصلُ، وإنما يراعى الكلمة نفسُها دون تجريدها من الزوائد. ولهذه الفكرة أثر قديم فيما قدمه البندانيجي في معجمه (التقفية)، حيث رتب كتابه على حسب أواخر الكلمات، بغض النظر عن كونها حروفًا أصليةً أو زوائدَ، مع أخذه في الاعتبار قوافي الشعر، وكيفية ترتيبها وهجائها، هذا إذا اعتبرنا التقفية من المعاجم أولًا، ثم من المعاجم العامة ثانيًا.

ومع كل هذا، فإن تلك النظرة السطحية في ترتيب مفردات اللغة تبعًا لصورتها دون أصلها ومادتها، قد ظهرت في بعض المعاجم الخاصة، مثل (الكليات) لأبي

البقاء، و(التعريفات) للجرجاني وغيرهما، وفي محاولات إعادة ترتيب بعض المعاجم العامة مثل (لسان العرب) و(القاموس المحيط) على نحو ما فعل فيهما الشيخ محمد البخاري المصري، ولكن أظهر ما تبدو فيه هذه الطريقة، وما تمثلوا فيه هذا النوع من المعاجم كان في تلك الأعمال المعجمية الحديثة التي قام بها بعض اللغويين اللبنانيين؛ ومنهم: عبد الله العليلي في معجمه (المرجع) وجبران مسعود في معجمه (الرائد)، وفؤاد البستاني في (المنجد الأبجدي). وقد اعتمد في هذا النوع على الترتيب الأبجدي "الألفبائي" المعروف، ومن الواضح أن مثل هذا الترتيب على أساس الكلمات حسب نطقها قد لاقَى -وما يزال يلاقي- معارضةً شديدةً من اللغويين المحدثين؛ لأنه يَفصم عُرَى المادة ولا يتفق مع خصائص لغتنا العربية الاشتقاقية.

إذًا المدرسة الرابعة التي تنتهج النهجَ الهجائي العادي أفضل من غيرها بكثير، وأفضل من تلك الدعوة التي تدعو إلى ترتيب الألفاظ وفق صورتها.

خامسًا: قصور العرض، وإبهامه، وسوء التفسير:

فأكثر أصحاب المعاجم القديمة لا يلتزمون أن يوضحوا أبواب الفعل ومصادره، والمتعدي منه واللازم، باستثناء بعضهم كصاحب (المصباح المنير) -وهو الفيومي- الذي اهتم بهذا. أما غيره فلم يهتم بما قلتُ، حيث قلد بعضهم بعضًا في نقل تفسير اللفظ، وبعضهم لم يفسر اللفظ ألبتةً؛ اتكالًا على الشهرة، أو على الاكتفاء بأنه معروف، حتى ضاعت علينا أمور كثيرة كان يعرفها القدماء ولا نعرفها نحن، وقد استدرك مَجْمَع اللغة في معجميه -(الوسيط) و(الكبير)- كثيرًا من هذه المآخذ، فلم يقف باللغة عند حدودها الزمانية والمكانية، حيث تخطَّى الحدود المكانيةَ وهي شبه جزيرة العرب، وتخطى الحدود الزمانية وهي آخر المائة الثانية من الهجرة لعرب الأنصار، وآخر المائة الرابعة لأعراب البوادي.

واتخذ المجمع جميعَ الوسائل الكفيلة ؛ لتحقيق الأغراض التي من أجلها أنشئ مجمع اللغة العربية ، وهو الحفاظُ على سلامتها ، وجعلها وافيةً بمطالب العلوم والفنون وتقدمها ، ملائمةً على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، واتخذ جميع الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأغراض بفتح باب الوضع للمحدثين بوسائله من اشتقاق وارتجال وغيرهما ، وإطلاق القياس ، وتحرير السماع ، والاعتداد بالألفاظ المولدة ، وتكملة المادة اللغوية ، حيث قدم المجمع إلى القارئ المثقف ما يحتاج إليه ، سواء في (المعجم الوسيط) أو (المعجم الكبير) من مواد لغوية في أسلوب واضح قريب المأخذ ، سهل التناول ، وأهمل المجمع في (المعجم الوسيط) - مثلًا. كثيرًا من الألفاظ الحوشية الجافيةَ ، أو التي هجرها الاستعمال ؛ لعدم الحاجة إليها ، أو قلة الفائدة منها ، وأهمل كذلك الألفاظ التي أجمعت المعاجم على شرحها بعبارات تكاد تكون واحدةً شرحًا غامضًا مقتضبًا ، لا يبين حقائقها ولا يقرب معانيها.

كما أغفل بعض المترادفات التي تنشأ عن اختلاف اللهجات ، واستعان في شرحه للألفاظ بالنصوص والمعاجم التي يُعتمد عليها ، وعزز شرحه بالاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال العربية ، والتراكيب البلاغية المأثورة عن فصحاء الكتاب والشعراء ، وصَوَّرَ ما يحتاج توضيحه إلى التصوير من حيوان أو نبات أو آلة أو نحو ذلك ، وآثر في الشرح الأساليبَ الحية على الأساليب الميتة ، وأدخل في متن المعجم ما دعت الضرورةُ إلى إدخالِه ، من الألفاظ المولدة ، أو المحدثة ، أو المعربة ، أو الدخيلة ، التي أقرها المجمع وارتضاها الأدباءُ.

إن المعجم الحديثَ ينبغي ألا يتجاهل التوصياتِ التي أوصَى بها العلماءُ المحبون للعربية ، فالمعجم الحديث ينبغي أن تُشرح ألفاظُه بعبارة دقيقة واضحة تفيد الباحثَ فائدةً يطمئن إليها ، ولا يُكتفى بكلمة : "معروف" التي توضع بإزاء بعض

الألفاظ؛ لأنها قد تكون -أقصد الكلمة- معروفةً في زمن كاتبها، أو بالنسبة له على الأقل، ولا تكون مجهولةً عند غيره في زمنه أو في الأزمان التالية. كما ينبغي أن تضبطَ الألفاظُ فيه ضبطًا دقيقًا، فقد يكون الباحث على علم بمعنى اللفظ، ولكنه يجهل ضبطَه، وينبغي أن تُدون الألفاظُ في المعجم الحديث في نصوص يحتج بها، وما ليس له نص يعضده ينبه على ذلك؛ حتى يكون الباحث على بينة من أمره.

وينبغي أن يتميز المعجم الحديث بالتنسيق الداخلي لمادته اللغوية، بحيث تدون الأصول أولًا، ثم ما تفرع منها كلٌّ تحت أصله، كما ينبغي أن يتميز بالتنسيق الداخلي للمعاني، فيذكر المعنى الأصلي أولًا، ثم ما تفرع منه، مع التنبيه على التطور التاريخي الذي قد حدث لمدلول بعض الألفاظ؛ فاللغة ظاهرة اجتماعيةٌ ترقَى برقي المجتمعات وتنحط بانحطاطها، كما ينبغي عدم اللجوء إلى شرح اللفظ بكلمة غريبة أو غير مؤلفة، كما ينبغي أن يُشار في المعجم الحديثِ إلى الكلمات التي دخلت العربية عن طريق التعريب أو التوليد، كما ينبغي أن يعتنَى في المعجم الحديث بالبحثِ الاشتقاقيِّ، وردِّ المواد اللغوية إلى عناصرها الأولية، فبعض المعاجم العربية -أو كثير منها. يفتقد بعضَ هذه المقوماتِ، فإن كان يتميز ببعضها فإنه لا يتميز بها كلها؛ إذ لا يكاد نجد معجمًا يشتَمِلُ على كل هذه المميزات، وقد حاول مجمع اللغة -كما قلتُ فيما أصدره من معجمات- أن يراعِيَ هذا.

على الرغم من المآخذِ التي وُجهت إلى معجميه (الوسيط) و(الكبير) فقد أخذ على الوسيط: أنه أغفل الضبطَ بالعبارةِ، وأخذ عليه: التمثيلُ بلفظ مشهور، أخذ عليه: أنه قد اكتفَى بالضبط بالشكل المعروف وهو لا يصون اللغةَ ويحفظها من التصحيف، كما أخذ على (المعجم الكبير) في باب الألف: أنه عرف بالهمزة

في العربية وأطال في ذلك وأسهب، غَيْرَ أنه لم يتحدث عن هذه الألف في أخواتها الساميات بالقدر الذي يتناسب مع المساحة التي استغرقها الحديث عن الألف، ومع هذا فقد تميز (المعجم الوسيط) بشرحه للمفردات بعبارة سهلة مبسطة، خالية من غريب الألفاظ، ووحشيها، ومستنكرها، كما أنه عرض للأعلام فيه في نطاق ضيق دعت إليه الضرورةُ، كما أنه استعان بالرسوم والصور التوضيحية، كما أنه أكثرَ من الألفاظ عندما خَرَجَ عن النطاقِ المألوف في جمع اللغة؛ وفاءً بحاجاتها العصرية المتجددة، كما تميز بإتيانه بالكلمات المراد شرحها في عبارات وتراكيبَ حتى اتضح المعنى، ووقف القارئ على تنوعه وتغيره من عبارة إلى أخرى.

كما تميز بالترتيب المحكم الدقيق حين قَدَّمَ الأفعالَ على الأسماءِ، والمجردَ على المزيد، كما تميز باشتماله على الألفاظ المولدة والمعربة والدخيلة التي نحتاج إلى استعمالها، وأَقَرَّهَا المجمع، وارتضاها الأدباءُ، كما تميز بإهماله لكثير من الألفاظ الحوشية والمهجورة؛ لأن تدوينها لا تدعو إليه حاجة ماسة، والفائدة من ذكرها قليلة، كما تميز (الكبير) باهتمامه بالضبط، وتميز باقتصاره في المصطلحات على الشائع منها، وفي الأعلام والأماكن على ما دعت الضرورة إلى ذكره أيضًا، وشَرَحها شرحًا موجزًا، كما تميز باهتمامه بإبراز العلاقات التي تصل العربية بأخواتها الساميات، كما تميز بالتنظيم الداخلي للمادة اللغوية، كما تميز بالتعريف بالحرف المعقود له الباب، كما عُنِيَ بالشواهد والترتيب التاريخي للشواهد كلما أمكنه ذلك.

ولا يزال الباحثون ينظرون فيما يصدر من (المعجم الكبير) من حروف باقية؛ حتى يقترب في عمله من الكمال المنشود.

جهود العرب في علم الدلالة: جهود الجاحظ وابن فارس

عناصر الدرس

العنصر الأول : الجهود الدلالية عند الجاحظ ٣٠٥

العنصر الثاني : الجهود الدلالية عند ابن فارس ٣١٥

الجهود الدلالية عند الجاحظ

الجاحظ يتمتع بصفات كثيرة تؤهله أن يكون شاهدًا حقيقيًّا على ما في عصره من ثقافة وفكر لغوي وعلمي واجتماعي؛ فقد هيأ الله له أن يعيشَ من ناحية الزمان في أواخر القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث الهجريين؛ فقد وُلِدَ في سنة ستين ومائة من الهجرة، وتوفِّي في عام خمسة وخمسين ومائتين، وهذه الفترة تعد من أخصب الفترات في تاريخ الفكر اللغوي والعلمي في العالم العربي والإسلامي، الذي كان يمثل -وقتئذ- العالم المتحضر؛ كما هيأ الله له أن يعيش هذه الفترة بين مدن العلم ومراكز الثقافة في العالم آنذاك، وفي البصرة وبغداد و"سُر مَن رأى"... وغيرها.

وفي تلك الفترة وفي هذه المواطن كان أعظم علماء العربية والإسلام، وأرقى المفكرين فيهما.

لقد نشأ شيخنا بالبصرة؛ ففتح عينيه على كتاتيبها وما تزخر به من تحفيظ للقرآن الكريم وتعليم لمبادئ العلوم العربية والإسلامية، وعلى مساجدِها من حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين والفلاسفة وأهل الكلام والوعاظ والقُصَّاص وغيرهم، وعلى مربدها؛ حيث راج سوق الأدب واللغة أكثر من رواج سوق الأموال والمتاع.

وقد أخذ الجاحظ اللغة والنحو من الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والأخفش وغيرهم من الشيوخ والأعراب، وأن يتلقى الفقه من أصحاب أبي حنيفة كالإمام أبي يوسف وغيره، وأن يتخرج في الكلام على أئمة المعتزلة من أمثال أبي الهزيل العلاف وأبي إسحاق النَّظَّام، وقد استكمل ثقافته بالإقبال على المؤلفات والكتب العربية والمعربة والأجنبية؛ فقرأ بشغف حيث لم يقع بيده كتاب قط إلا

استوفى قراءته كائنًا ما كان ؛ حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين للنظر ، وفي مقدمة كتابه (الحيوان) ما يدل على هذا الشغف وذلك الحب الذي دفع حياته ثمنًا له - على حد قول الأستاذ عبد السلام هارون - ، والعجب أن تلك الأسفار التي عني بها صاحبنا لم تبر به ولم تبادله الوفاء ؛ فغدرت به وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه.

وقد تهيأ للجاحظ ثقافة واسعة وعلم وافر ؛ ذلك أنه لم يدع علمًا معروفًا في أيامه إلا نظر فيه واطلع عليه ؛ درس الفلسفة والمنطق والطبعيات والرياضيات والتاريخ والسياسة والأخلاق والفراسة ؛ فاكتملت آلته ؛ فإذا هو فقيه متكلم متفلسف ، محدث بارع في الأدب واللغة ، راوية للأخبار والأشعار ، بحَّاثة عن (الحيوان) والنبات ، نقاد للأخلاق والعادات ، عالم بالفلك والموسيقى والغناء ؛ فهو عالِم موسوعي أخذ من كل علم وفن بطرف.

وثقافات الجاحظ تحتاج إلى أبحاث عديدة وجهود كبيرة ، وقد أظهر بعض العلماء الكثير منها ، وتبقى فيها جوانب لَمَّا تُدرس بعد.

وقد دَرَسَ الملامح الأدائية عنده في (البيان والتبيين) الدكتور عبد الله ربيع محمود ، وأشار إلى بعض ما وقف عليه من ثقافته اللغوية ، وأشار إلى أن الجاحظ قد جمع كل ما عرفه عصره من ألوان التفكير اللغوي عن العرب وغيرهم ، وأنه لم يكن من الذين يكتفون بمجرد الجمع والرواية دون أن يضيفوا إلى ذلك العلم والدراية والتجربة والتطبيق ، وقد ظهر أثر ذلك في كل ما تعرض له الجاحظ من مسائل اللغة وقضاياها.

وإني ألخص بعضًا مما اجتهد فيه الجاحظ بصدد دلالة الألفاظ:

لقد روى الجاحظ وحفظ من ألفاظ اللغة ومفرداتها ما يدل عليه كثير من مؤلفاته المتعددة الأغراض والأهداف.

لقد كان الجاحظ عالمًا بمفردات اللغة العربية، مدركًا لدلالاتها واستعمالاتها، وانظر في كتابه (البيان والتبيين) أو في (الحيوان) وغيرهما لتدرك صحة ما نقول، وتدرك أيضًا أن كثيرًا من تلك الألفاظ والمفردات، التي سجلها في كتبه فات على مصنفي المعاجم العربية، وترى كذلك أن كثيرًا مما استعمله الجاحظ في مؤلفاته كان من غير العربية؛ مما يدل على معرفته بلغات أخرى كان لها في عهده أثرٌ كبيرٌ في بناء الحضارة الإسلامية وتكوين العلم العربي والإسلامي، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الألفاظ المستحدثة والمولدة على ألسنة الخاصة أو العامة في مصطلحات العلوم والفنون، مِمَّا يعد بحق في مؤلفاته بمثابة دائرة معارف معجمية أو لغوية، بمصطلح عصرنا.

ولم يكن الرجل راوية فقط؛ بل كان على علم بقوانين تلك الألفاظ في تكوينها وبنائها واشتقاقها وتصريفها واستعمالها وتطورها؛ لذلك يقول في كتابه (الحيوان) موضحًا أهميةَ العلم بدلالات الألفاظ: "فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذٍ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويل الكتابِ والسُّنَّة، والشاهد والمثلِ، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن؛ هلك وأهلك".

ولذلك لم يترك الجاحظ فرصة تمر به دون أن يقدم معلومةً، أو يشرح لفظةً، أو يبين وضعًا، أو يوضح تطورًا؛ لقد كان على وعي بفكرة الاشتقاق وأصول المعاني كلما عنت له فرصة للحديث عن ذلك، وقد صَوَّرَ كثيرًا من قضايا دلالات الألفاظ، وألمح إلى بعض طرائقها وطرائفها، ولعل من أطرف ذلك ما ذكره من تصوير للعلاقة بين الصوت والمعنى، أو ما يمكن تسميته بالدلالة الصوتية؛ فقد روى ما يلي:

قلت: "ما أنكَرت من التشيُّع ومن ذكر الشِّيعة؟ قال: أنكرتُ منه مكان الشِّين التي في أوَّل الكلمة؛ لأني لم أجد الشِّين في أوَّل كلمة قطُّ إلاَّ وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشرٍّ، وشيطان، وشحّ، وشمال، وشجَن، وشيب، وشيْن، وشراسة، وشوكة، وشناعة، وشلَل..." إلى آخر ما قال في كتابه (الحيوان)، وهي فكرة تستحق النظر وتستحق الدرس في آثار شيخنا؛ فهذه الأمثلة وغيرها تشير إلى ما يعبر عنه اليوم بالقيمة الدلالية للصوت، والتي كان لفيلسوف العربية ابن جني بعد عهد الجاحظ فيها أقوال وأقوال، أثارت كثيرًا من وجوه الرأي والجدل. فهذا يفتح باب الدراسة الإحصائية للألفاظ المشتملة على أصوات تختص ببعض المعاني العامة.

وفي مجال العلاقات بين الألفاظ ومعانيها، وتعدد الألفاظ أو المعنى كان له لفتات استعمالية تدل على إدراكه بما نسميه بالترادف من ناحية، وبالمشترك اللفظي من ناحية أخرى؛ فمما يشير إلى المشترك اللفظي قوله: "والغراب ضروب، ويقع هذا الاسم في أماكن، فالغراب: حدُّ السكين والفأسِ، والغراب: حدُّ الورك ورأسه الذي يلي الظهر، ويبْدأ من مؤخَّر الرِّدف، والجمعُ غِربان".

وكان للجاحظ بحث عن الأعلام، والتسمية عند العرب، وعن تطور الألفاظ من عصر إلى عصر، وما يولد منها وما يستحدث؛ فقد عرض لأسباب تسمية العرب أولادهم بأسماء الحيوان وغيره مثل: كلب، وحمار، وحَجر، وحنظلة، وقرد... وغيرها، متطرقًا إلى أسباب التسمية بعامة مما يمكن نسبته إلى ما يعرف اليوم بعلم الأعلام؛ كما عرض أيضًا فيه لما ترك من ألفاظ الجاهلية: كالإتاوة، والمكس، وأنعم صباحًا، وأنعم مساء، وكالمرباع، والنشيطة... وغيرهما، كل هذا تضمنه كتاب (الحيوان).

كما تضمن أيضًا الكلمات الإسلامية المحدثة فقال: "وأسماءُ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقَّت لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم: مُخَضرم، ومن المحدَثِ المشتقِّ، اسم منافق: لمن رَاءَى بالإسلام وأستر بالكفر؛ أُخذ ذلك من النافقاء والقاصعاءِ..." إلى آخر ما ذكر، مما يدل على وعيه بتطور الألفاظ مع تطور مجتمعاتها وما يحدث من تغيرات وأسباب، مما لفت نظر العلماء فيما بعد إلى تأليف مؤلفات خاصة؛ حيث ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي كتابه (الزينة في الكلمات الإسلامية العربية)، كما ترك صنيع الجاحظ هذا أثرًا في علماء آخرين، بحثوا هذه المسألة ضمن مؤلفاتهم العامة؛ كما صنع ابن فارس في كتابه (الصاحبي)، وقد ضرب الجاحظ مثلًا واضحًا لذلك التطور في حديثه عن كلمة الصرورة، فقال: "ومن الأسماء المحدَثة التي قامت مقامَ الأسماء الجاهليَّة، قولهم في الإسلام لمنْ لم يحجّ: صَرورة".

وقد ذكر أن الصرورة عند العرب كانت تطلق على أرفع الناس في مراتب العبادة، ثم تحولت بعد ذلك في الإسلام إلى الذي لم يحج إما لعجز، وإما لتضييع، وإما لإنكار، وذكر أن الدلالتين مختلفتان؛ فالدلالة الجاهلية مختلفة عن الدلالة في الإسلام، ولا يترك الجاحظ هذا الموطن في كتابه (الحيوان)؛ حتى يتحدث عن ألفاظ القرآن الكريم وعن أوجه اشتقاقها.

هذا بعض ما ذكره أو أشار إليه مما يتصل بالألفاظ بناءً أو اشتقاقًا أو دَلالةً وتطورًا.

أما من ناحية الاستعمال؛ فقد كان للجاحظ أراء ومواقف تدل على وعي لغوي وذكاء كلامي، لقد كان عصره يعج بالغريب من الألفاظ عند علماء اللغة يفخرون بتحصيله، ويتنافسون في تدوينه والتأليف فيه، ويتسامى بعضهم باستعماله ويتفاصح بإلقائه؛ لكن الجاحظ -وهو الغريب وهو الخبير بالغريب، العليم بعلل الكلام وأدوائه- يفرق بين العلم بالشيء واستعماله، ويرى أن لكل نوع من الألفاظ مقامًا يستخدم فيه ومستوًى يستعمل بناء عليه.

وقد وضع في ذلك قاعدة عامة، تشمل الغريب وغيره عندما قال: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل من المعاني نوع من الأسماء..."، ومن هنا كان موقفه من استعمال الغريب في غير موضعه وسخريته من أولئك الذين يتفصحون باستخدامه.

ومن طريف ما يدل على هذا قوله في (البيان والتبيين): "ورأيتُهم يذكرون في كتبهم أن امرأةً خاصمت زوجَها إلى يحيى بن يعمر فانتهَرها مرارًا، فقال له يحيى بن يعمر: أئنْ سألتْكَ ثمن شكرها وشَبْرك، أنشأتَ تطُلُّها وتَضْهلُها؟! -قالوا: الضّهل: التَّقليل، والشَّكْر: الفرج، والشَّبْر: النِّكاح، وتطُلّها: تذهب بحقِّها؛ يقال: دمٌ مطلول، ويقال: بئر ضَهول، أي: قليلة الماء، إذًا معنى العبارة: أئن سألتك ثمن شَكْرها -أي: ثمن فرجها. وشبرك -أي: نكاحك- أنشأت تطلها -أي: تذهب بحقها. وتضهلها -أي: تذهب بحقها وتقلله- ؟!

قال الجاحظ: "فإن كانوا إنَّما روَوا هذا الكلام؛ لأنّه يدلُّ على فصاحةٍ؛ فقد باعده اللَّه من صفة البلاغة والفصاحة، وإن كانوا إنَّما دوَّنوه في الكتب، وتذاكروه في المجالس؛ لأنَّه غريب، فأبياتٌ من شعر العجَّاج، وشعر الطِّرمَّاح، وأشعارِ هُذيل، تأتِي لهم مع حُسن الرَّصْف على أكثر من ذلك، لئن خاطب بقوله: أئن سألتك ثمن شَكرها وشَبْرك أنشأت تطُلُّها وتضهَلها؟! الأصمعيَّ، لظننتُ أنَّه سيجهل بعض ذلك، وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم...". انتهى كلامه في (البيان والتبيين).

ويستمر الجاحظ بعد هذا؛ فيحكي بأسلوبه الساخر عن غلام أبي الأسود الذي كان يتقعر في كلامه، وعن أبي علقمة النحوي صاحب القول المشهور: ما لكم تكأكئون علي كما تتكأكئون على ذي جنة؟! افرنقعوا عني.

كما يحكي عن قول من سمع هذا الكلام: "دعوه، فإن شيطانه يتكلم بالهندية".

ثم يعلق الجاحظ على هذا في (البيان والتبيين) أيضًا بقوله: "فحديثُ أبي علقمةَ فيه غريب، وليس في كلام يحيى بن يعمر شيء من الدُّنيا، إلا أنّه غريب، وهو أيضًا من الغريب بغيض...".

ويتضح من هذا أن الجاحظ مع علمه بالغريب وتفسيره لتلك الألفاظ، لم يكن مقرًّا لها ولا راضيًا باستعمالها في مثل تلك المواقف، وهذا شأن الأديب البارع العالم بوظيفة اللغة ودورها.

ومما يتصل بقضايا المفردات أيضًا وألفاظ اللغة مسألة: المصطلحات، وقد عرض لها الشيخ في مناسبة حين نقل من كلام بشر بن المعتمر ما يلي:

"ينبغي للمتكلِّم أن يعرِفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعينَ وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلامًا، ولكلّ حالةٍ من ذلك مَقامًا، حتَّى يقسمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيبُ متكلِّمًا تجنَّبَ ألفاظ المتكلِّمين، كما أنّه إنْ عبَّر عن شيء من صناعة الكلام واصفًا أو مجيبًا أو سائلًا، كان أولى الألفاظ به ألفاظَ المتكلمين؛ إذْ كانوا لتلك العبارات أفهَمَ، وإلى تلك الألفاظ أميلَ، وإليها أحسن وبها أشغَف...".

انتهى الكلام في (البيان والتبيين).

ثم يذكر بعد ذلك قيام أصحاب كل فن باصطلاح ألفاظ واشتقاق أسماء، لم تكن في لغة العرب، للتعبير عن أغراضهم، كالعرض والجوهر والماهية والهوية والبطلان والتلاشي... وأشباه ذلك عند المتكلمين، وكالطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل... وأشباه ذلك من الأوتاد والأسباب والزحاف... وغيرها عند الخليل بن أحمد، وكالحال والظرف وما أشبه ذلك عند النحويين.

وبهذا يشير الجاحظ إلى وظيفة تلك المصطلحات، ثم يذكر عقب هذا أن استعمالها في غير وظيفتها التعليمية أمر غير محمود، ويسوق من أمثلة تلك المواقف الكلامية التي يقع فيها هذا الاستعمال الكريه، وكيف أن مَن شهد ذلك كاد يطير شغفًا، ولا ينسى الجاحظ إباحة هذا الاستعمال على جهة التظرف والتملح لبعض الشعراء كأبي نواس، كما يشير المناسبة إلى إباحة استعمال الألفاظ الأجنبية في الشعر العربي إذا كان الأمر على هذا الوجه من التظرف والتملح؛ كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه بها:

من يلقه من بطل سرندِ
في زعفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكَرد

البطل السرند: الجريء؛ فقد سجلت المعاجم: السرند: الجريء الذي يمضي قُدمًا، والزعفة المعجمة: الدرع المحكمة، والسرد: الحلق وهو الزرد؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: ١١]؛ حيث يسرد السراد أو الزراد؛ فيثقب طرفًا كلِّ حرقة بالمسمار فذلك الحلق، والكرد: هو العنق، وقد أشارت المعاجم إلى فارسيته.

هذا بعض ما تناوله الجاحظ أو أشار إليه فيما يتصل بمفردات اللغة وألفاظها؛ مما يدل على أنه كان لغويًّا بالمعنى الذي عرفه القدماء؛ إذ كانوا يرون أن تحصيل المفردات وإدراك معانيها مما يرشح لهذا اللقب.

وفكر الجاحظ اللغوي أوسع من هذا بكثير، كما أشار إلى ذلك الدكتور عبد الله ربيع في كتابه: (الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين)؛ حيث عرض لقضايا أخرى ومشكلات كثيرة تتصل بفروع اللغة الأخرى ونظرياتها العامة.

ومما عرضه الجاحظ وسائل البيان والاتصال، وحاول تحديد هذه الوسائل في اللفظ والإشارة والعقد والنصبة والخط؛ إذ يقول في (البيان والتبيين) و(الحيوان) أيضًا:

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى نِصْبَةً..."، وقد شرح كل نوع بأمثلته ووازن بينه وبين غيره، وحين بين الجاحظ معنى كل منها ووظيفته؛ فإن عمله هذا يعد سبقًا عظيمًا في مَيْدان الدراسات السيمية واللغوية -السيمية، أي: علم السيمولوجيا أو علم العلامات الذي هو أوسع من علم اللغة-، وحين أشار إلى أنواع هذه الدلالات؛ فإنه يكون قد أسس لِمَن جاء بعده من العلماء عبر القرون الذين تناولوا الدلالة وتقسيماتها.

لقد وضع محمد علي الفاروقي التهانوي الصورة النهائية للدلالة بعد الجاحظ بقرون عديدة، وقد أفاد -بلا شك- مما أسسه الجاحظ؛ فقد قسم الفاروقي الدلالة إلى لفظية وغير لفظية، وقسَّم كل قِسْم إلى وضعية وعقلية وطبيعية؛ فاللفظية الوضعية كدلالة لفظ الشجرة على النبت المعروف واللفظية العقلية كدلالة اللفظ من وراء جدار على وجود اللافِظ، والدلالة اللفظية الطبيعية كدلالة: "أُح أُح" على السعال، وغير اللفظية الوضعية كدلالة الخط والعقد والإشارة على ما يقصد بها، والدلالة غير اللفظية العقلية كدلالة الدخان على وجود النار، والدلالة غير اللفظية الطبيعية كدلالة حمرة الوجه على الخجل.

وقد أسهم كثير من العلماء في بيان ما أجمله الجاحظ؛ حيث عرض للدلالة عمومًا السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني في كتابه (التعريفات)، وعرف الدلالة بأنها: كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر عند العلم

بالعلاقة بين الشيئين ؛ كما تعرض للدلالة اللغوية -التي هي : استعمال ألفاظ اللغة للدلالة على المعاني بصفة خاصة - كثير من العلماء ؛ واستحوذت على كل عنايتهم في هذا المجال ؛ لأنها أوسع وأقدر على التعبير عن الدقائق والمركبات، تعرض لها ابن سينا في كتاب (العِبارة)، وتعرض لها أبو حامد الغزالي في (منطق تهافت الفلاسفة) المسمى بـ(مِعيار العلم)، وتعرض لها سعد الدين التفتازاني، وتعرض لها كثيرون، والفضل يرجع إلى ما أسسه الجاحظ وغيره من كبار علماء العربية.

ولا يظن أن الجاحظ قد اهتم باللفظ أكثر من اهتمامه بالمعنى، وقد دفع هذا الإشكال بعض المحدثين ؛ يقول الدكتور فايز الداية في كتابه (علم الدلالة العربي : النظرية، والتطبيق - دراسة تاريخية تأصيلية نقدية) : ترك لنا الجاحظ نصًّا يمثل موقفًا يفاضل فيه بين مضمون الشعر الفكري وخصائصه الشكلية والتصويرية، وإنه يشرح العملَ الشعري بعد أن أثاره اهتمامُ بعضِ العلماء بمضمون أبيات دون أن تكتسب الروح الشعرية ؛ فيقول : إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ؛ وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير الألفاظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجَوْدة السبك ؛ وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير.

رجع الدكتور في هذا إلى عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) وإلى (الحيوان) للجاحظ ؛ يقول : ويبدو لكثير من القدماء والمعاصرين : أن الجاحظ يريد تغليب اللفظ على المعنى، إلا أن المغزى في النص لا يحتاج إلى التأويلات ؛ فالرجل يقابل بين المضمون ومجموعة من العناصر المكونة للإبداع الشعري لا تقف عند اللفظ -أي : الكلمات- فلدينا ها هنا إضافة إلى اللفظ : السبك،

والصياغة، والوزن، والتصوير؛ فيدخل التركيب اللغوي بكل علاقاته النحوية المتفرعة إلى خصائص مؤثرة في الدلالة؛ وكذلك الإيقاع الموسيقي في تخير الأوزان واستقامتها، وتلاؤمها مع الغرض والموضوع -أي: أنها تصل ما بين النغمات المحسوسة بالوزن وتلك الخفية - ممثلة بجو الموقف المراد أداؤه، وفوق هذا كله تضاف القدرة الإبداعية في الأساليب المجازية والاستعارية وما يمكن أن يدرج فيها وصف التصوير، وهذا يؤدي إلى ألا يقبل فهم تفضيل الشكل للألفاظ على المضمون؛ بل يمكن إيجاز المؤدَّى بأنه فَهْمُ الغرض والمضمون من خلال أدوات الشعر الفنية، وهي تلك التي ذكرها الجاحظ في كلمته.

ولقد دافع الباحث عن الجاحظ نافيًا أن يكون غلَبَ اللفظَ على المعنى في النص الذي ساقه.

الجهود الدلالية عند ابن فارس

من الصعوبة بمكان أن نتناول الجهود الدلالية عند ابن فارس في دقائق معدودة، ولقد علمت جهود هذا العالم الكبير فيما يتصل بالمعجم حين صنع معجميه (مقاييس اللغة) و(مجمل اللغة)، وسار فيهما على نظام الهجائية العادية الدائرية، وعلمت منهجه بالتفصيل في هذين المعجمين.

وما أشير إليه الآن من جهد دلالي يتمثل في بعض الأمور من أهمها:

أن ابن فارس في كتابه (مقاييس اللغة) آمن بدوران مواد اللغة حول معانٍ عامة؛ فقد حاول أن يؤكد الفكرة الدلالية المرتبطة بالاشتقاق الصغير، حين تعود تصاريف المادة إلى معنى مشترك يربط بينها، ويعد ابن فارس أول من طبق هذه الفكرة على مواد كثيرة وأفرد لها معجمه المعروف بـ(مقاييس اللغة)، أما الفكرة

نفسها فقد سبقه إليها نفر من اللغويين المتقدمين، مثل: الخليل بن أحمد، وابن دريد، والزجاج، وأبو بكر بن السراج... وغيرهم.

وإذا كان الخليل وابن دريد وغيرهما من جامعي اللغة ومصنفي المعاجم قد نظروا إلى الجذور أو المواد اللغوية نظرتهم إلى العائلات وأبنائها المفردات، فوضعوا ألفاظ كل عائلة لغوية في مكان واحد من المعجم؛ فإن ابن فارس قد نظر في المعاني الخاصة بتلك الألفاظ وحاول أن يتصيد من مجموعها معنى عامًّا تدور في فلكه؛ ولكنه في بعض المواد لم يستطع أن يرد ألفاظًا إلى معنى عام واحد؛ فردها إلى اثنين أحيانًا وإلى ثلاثة وإلى أربعة.

وافتح كتابه (مقاييس اللغة)؛ لترى أمثلة كثيرة من النوع الأول؛ حيث استطاع أن يرد ألفاظًا كثيرة إلى معنى عام واحد أو ما سماه أصلًا؛ ففي الجيم والعين والدال أدار ابن فارس كلمات هذا الجذر حول تقبض في الشيء، وهو معنى عام واحد، وجعل منه: الشعر الجعد: وهو خلاف السبط، ومنه أيضًا النبات الجعد، والرجل الجعد الأصابع: كناية عن البخل، ومنه أيضًا أبو جعدة: للذئب؛ سمي بذلك لبخله، أو أرجع هذه الكنية إلى البخل.

وانظر في باب الهمزة والتاء وما يثلثهما، قال: الهمزة والباء والتاء يدل على أصل واحد وهو البطء والتثاقل؛ قال أبو عبيد: الأتلان: تقارب الخطو في غضب، يقال: "أتل يأتل"، و"أتن يأتن"، وأنشد:

أراني لا آتيك إلا كأنما ❖ أسأت وإلا أنت غضبان تأتل

وانظر حين قال في الباء والجيم والراء: "الباء والجيم والراء أصلٌ واحد، وهو: تعقُّد الشّيء وتجمُّعه يقال للرَّجل الذي تخرج سُرَّته وتتجمَّع عندها العُروق: الأَبْجَرُ؛ وتلك البُجْرَة، والعرب تقول: "أفضَيْتُ إليه بِعُجَري وبُجَرِي"، أي:

أطلعْتُه على أمري كلِّه، ومن هذا الباب البَجَارِي: وهي الدّواهي؛ لأنّها أمورٌ متعقِّدة مشْتبهة؛ والواحد منها بُجْرِيٌّ".

والكتاب بأجزائه المتعددة فيه كثير من الألفاظ التي أدارها حول أصل واحد أو معنًى واحد.

ومن أمثلة النوع الثاني: وهو إرجاع ألفاظ إلى معنيين عامين قوله: "الباء والجيم والدال أصلان: أحدهما: دُخْلَةُ الأمر وباطنُه، والآخر: جِنْسٌ من اللِّباس؛ فأمَّا الأول فقولهم: هو عالمٌ ببَجْدة أمرك وبُجْدَتِه، أي: دُخْلَتِهِ وباطنه، ويقولون للدَّليل الحاذق: "هو ابنُ بَجْدَتِها"، كأنّه نشأ بتلك الأرض، والأصل الآخَر: البِجاد، وهو كساءٌ مخطَّطٌ، وجمعه: بُجُدٌ؛ قال الشاعر:

بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ ❖ أو الشيءِ الملفَّفِ في البِجادِ

ومنه قولهم: "بَجَدَ بالمكان: أقام به".

واقرأ الباء والدال العين؛ حيث أدار ابن فارس كلمات هذا الجذر حول معنيين: الأول: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر: انقطاع الكلام، وجعل من الأول -أي: من ابتداء الشيء وصنعه على غير مثال- قولهم: أبدعت الشيء قولًا أو فعلًا، وأيضًا البديع: اسم من أسماء الله، وأيضًا البدع مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: ما كنت أولًا، وجعل من الانقطاع -أعني: انقطاع الكلام- قولهم: أبدعت الراحلة: إذا كلت وعطبت. وفي الحديث: "أنّ رجلًا أتاه، فقال: يا رسول الله، إني أُبْدِعَ بي فاحمِلْني". يقال في اللغة: أبدع بي فلان: إذا لم يكن عند ظنك به في أمر وثقت به في كفايته وإصلاحه، وأُبدِع بفلان: إذا عطبت راحلتُه وكلَّت وبقي منقطعًا عن الرفقاء.

وهكذا تجد كثيرًا من الألفاظ التي أدارها ابن فارس حول معنيين أو أصلين.

كما تجد أخرى راجعة إلى أصول ثلاثة: منها قوله في الباء والجيم واللام: "الباء والجيم واللام أصولٌ ثلاثة: أحدها: الكفاف والاحتساب، والآخر: الشيء العظيم، والثالث: عِرْقٌ. فالأوَّل قولهم: "بَجَلْ" بمعنى: حَسْب، يقول منه: أَبْجَلَني كذا، كما يقول: كَفَاني وأَحْسَبَنِي؛ قال الكميت:

إليه مواردُ أهلِ الخَصَاصِ ❖ ومِنْ عِنْدِهِ الصَّدَرُ المُبْجِلُ

يمدح عبد الرحيم بن عنبسة بن سعيد بن العاص. قال ثعلب: بَجَلْ بمعنى: حَسْب، قال: ولم أسمَعْهُ مضافًا إلا في بيتٍ واحد، وهو قول لبيد:

بَجَلي الآنَ مِنَ العيشِ بَجَلْ

كذا قال ثعلب. وقد قال طرفة:

ألاَ إنّني سُقِّيتُ أسودَ حالِكًا ❖ ألا بَجَلي من الشراب ألاَ بَجَلْ

وبَجيلة: قبيلة، يجوز أن تكون مشتقَّة من هذا أو ما بعده.

والأصل الثاني: قولهم للرجل العظيم: بَجَالٌ وبَجِيلٌ، والبُجْل: البُهْتان العظيم، وحجَّتُه قولُ أبي دُؤاد:

قلتَ بُجْلًا قُلتَ قولًا كاذبًا

وهو صدر بيت عجزه في (اللسان) و(المجمل):

إنما يمنعني سيفي ويدي

والأصل الثالث: وهو عِرْقٌ في باطن الذراع؛ قال شاعر -وهو الأخطل-:

سارت إليهمْ سُؤورَ الأَبْجَلِ الضّاري

وهناك مواد أخرى أدار ابن فارس ألفاظَها إلى أصول أربعة ؛ فقد أدار الباء والراء والميم حول إحكام الشيء، والضجر والضيق واختلاف اللونين وجنس من النبات، كما صادفته مواد أخرى أرجع ألفاظها إلى أكثر من ذلك ؛ فعند الهمزة والجيم واللام قال :

"اعلم أنَّ الهمزة والجيم واللام يدلُّ على خمس كلماتٍ متباينة، لا يكادُ يمكنُ حْملُ واحدةٍ على واحدة من جهة القياس ؛ فكلٌّ واحدةٍ أصلٌ في نفسها، ورَبُّكَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فالأَجَل : غاية الوقت في مَحَلِّ الدَّين وغيره، وقد صرّفه الخليلُ فقال : أَجِل هذا الشَّيء هو يَأْجُلُ، والاسم الآجِل : نقيض العاجل، وقولهم : "أَجَلْ" في الجواب، هو من هذا الباب، كأنّه يريد انتهى وبلغ الغاية. والإِجْلُ : القطيع من بقر الوحش، والجمع : آجال. وقد تأجَّل الصِّوار : صار قَطِيعًا. والأَجْلُ مصدر أجَلَ عليهم شرًّا، أي : جناه وبَحَثَه، والإِجْل : وَجَع في العنق، والمأْجَلُ : شبه حوضٍ واسع يؤجَّل فيه ماءُ البئر أو القناة أيَّامًا، ثم يُفَجَّر في الزّرع، والجمع : مآجِل. ويقولون : أَجِّلْ لنخلتك، أي : اجعل لها مثلَ الحوض ؛ فهذه هي الأصول، وبقيت كلمتان إحداهما من باب الإبدال، وهو قولهم : أجَلُوا مالَهُم يأجِلونه أجْلًا، أي : حبَسوه، والأصل في ذلك الزاي "أَزَلُوه"، ويمكن أن يكون اشتقاقُ هذا ومأجل الماء واحدًا ؛ لأن الماء يُحبَس فيه، والأُخرى قولهم : من أجْلِ ذلك فعلتُ كذا، وهو محمول على أَجَلْت الشيء، أي : جنيته، فمعناه : من أَنْ أُجِلَ كذا فَعلتُ، أي : من أن جُني. فأما أَجَلى على فَعَلَى ؛ فمكان، والأماكنُ أكثرها موضوعة الأسماء، غير مَقِيسة".

أرأيت ما بذله هذا العالم الكبير من إرجاع الألفاظ إلى معنى عام ؛ إذ وجد أكثر ألفاظ اللغة تعود إلى معنى عام، ووجد بعضًا منها يعود إلى اثنين، ووجد بعضها

يعود إلى ثلاثة، ووجد بعضها يعود إلى أربعة؛ بل وجد بعضها يعود إلى خمسة، ورأى أن الإبدال قد يكون من معوقات هذه الفكرة؛ كما رأى المعرب أيضًا من معوقاتها؛ إذ يصعب أحيانًا رد بعض الألفاظ المتفقة في الجذر الثلاثي وفي ترتيبه إلى معنى عام مشترك، ووجد شيخنا صعوبات فرد بعضها إلى اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة، كما ذكرت.

ومن الصعوبات التي تعوق هذه الفكرة: رجوع بعض المعاني إلى عادات وحوادث قديمة نسيت؛ فجهل أمرها، وأعطيك نموذجًا من هذا، فتقول العرب: بنَى على أهله، بمعنى: دخل عليها أو زُفت إليه؛ فلا يدخل هذا الفعل في إطار المعنى العام لمادة الباء والنون والياء الآن، وبالبحث التاريخي نعرف أن المُعْرِسَ العربي كان يبني لأهله خِباءً، ثم تنوسي هذا المعنى الآن، ولعل من وسائل هذا النسيان حذف المفعول؛ فلو لم نعرف هذه المادة القديمة لم نتمكن من رد هذا اللفظ إلى المعنى العام.

ومن صعوبات هذه الفكرة أيضًا: دخول بعض الألفاظ في نطاق مادة غير مادتها الأصلية نتيجة تغير صوتي حدث فيها؛ كالإبدال الذي لمحه شيخنا الآن في قولهم: أجلوا مالهم يأجلونه أجلًا، أي: حبسوه، قال: والأصل في ذلك الزاي: أزلوه.

كما يعكر صفو هذه الفكرة أيضًا: تعدد المعنى للفظ الواحد على سبيل الاشتراك أو التضاد، فجود الشيخ مشكور؛ حيث يمكننا بواسطة فكرته أن نربط الكلمة بأخواتها وأفراد المجموعة التي تنتسب إليها، وهذا مما يوضح المعنى.

وفي (المقاييس) أسرار دلالية كثيرة، لكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ولا ينبغي أن نغفل الكتاب الآخر لابن فارس وهو (الصاحبي).

إن (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) يحوي أسرارًا دلالية كثيرة، ولك أن تتصفحه لترى تلك الأبواب الدلالية التي يمكن أن تفيد منها إفادة جامة؛ فهذا باب: الأسماء كيف تقع على المسميات، وهذا باب: القول على الحروف المفردة الدالة على المعنى، وهذا باب: الكلام في حروف المعنى، وهذا باب: الخطاب يأتي بلفظ المذكر أو لجماعة الذكران، وهذا باب: الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع، وهذا باب: معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء، وهذا باب: أجناس الكلام في الاتفاق والافتراق، وهذا باب: الاستعارة، وهذا باب: مخاطبة الواحد بلفظ الجمع... إلى آخره.

وأذكر -في إيجاز- ما ذكره الشيخ في باب: معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء؛ حيث فسر معنى المعنى، وفسر معنى التفسير، وفسر معنى التأويل، يقول: "وهي وإن اختلفت؛ فإن المقاصد بها متقاربة. وبدأ بمعنى المعنى، فقال: "فأما المعنى؛ فهو القصد والمراد، يقال: عَنَيْتُ بالكلام كذا أي: قَصَدْتُ وعَمَدْتُ، واستشهد على ذلك بقوله: أنشدني القطَّان عن ثعلب عن ابن الأعرابي:

مثلُ البُرام غدَا في أُصْدَةٍ خلقٍ ❖ لم يستَعِن وحوامي الموتِ تَغشاهُ

فَرَّجْتُ عنه بصِرْعَيْنا لأرملَة ❖ وبائس جاء معناه كمعناهُ

ذكر مناسبة هذا الشعر قال: يقول في رجل قُدِّم لِيُقتل، وأنه فرَّج عنه بِصِرْعين -أي: فِرْقين من غنم-: يقول: قد كنت أعددتُها لأَرملة تأتيني تسألني أو لبائس مثل هذا المقدَّم ليقتل، "معناه كمعناه": أي: إن مقصدهما في السؤال والبؤس مقصد واحد. فأراد بالصرعين: الإبل المختلفة تجيء وتذهب لكثرتها، يقول: افتديته بصرعين من الإبل؛ فأعتقته بهما، وإنما أعددتهما للأرامل والأيتام

أفديهم بهما، و"البرام": القراد، و"الأصدة": الصدرة، وهي قميص صغير يلبس تحت الثياب، "لم يستعِنْ" أي: لم يحلق عانته، و"حوامي الموت": حوائمه؛ فجاء على القلب، والحوائم: هي أسباب الموت. وللشطر الأول هذا رواية أخرى، وهي:

ومرهق سال إمتاعًا بأُصدته

والمرهق: الذي أدرك ليُقتل، وأراد بقوله سال: سأل:

مثل البُرام غدا في أُصْدَةٍ خلَقٍ ❖ لم يستَعِنِ وحوامي الموتِ تَغشاهُ

فَرَّجْتُ عنه بصِرْعَيْنا لأرمَلة ❖ وبائس جاء معناه كمعناهُ

وجوز أن يكون المعنى: الحال، أي: حالهما واحدة، ثم قال: "وقال قوم: اشتقاق المعنى من الإظهار يقال: عَنَتِ القِرْبة: إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته، وعُنوان الكتاب من هذا، وقال آخرون: المعنى مشتق من قول العرب: عَنَتِ الأرض بنبات حسن: إذا أنبتت نباتًا حسنًا، قال الفراء: لم تَعْنُ بلادنا بشيء: إذا لم تُنبت، وحكى ابن السِّكِّيت: لم تَعْنِ من: عَنَتْ تعني؛ فإن كان هذا فإنَّ المراد بالمعنى الشيء الذي يفيده اللفظ، كما يقال: لم تَعْنِ هذه الأرض أي: لم تُفِدْ.

ثم انتقل إلى معنى التفسير فقال: "وأما التفسير؛ فإنه التفصيل، كذا قال ابن عباس في قوله -جلَّ ثناؤُه-: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال: تفصيلًا.

قال ابن فارس: وأما اشتقاقه فمن الفَسْر؛ أخبرني القطَّان، عن المَعْدَانيِّ، عن أبيه، عن معروف، عن الليث، عن الخليل، قال: الفسر: البيان، واشتقاقه من فَسْرِ الطبيب للماء: إذا نظر إليه، ويقال لذلك: التَّفْسِرَة أيضًا.

ثم انتقل إلى التأويل فقال: "وأما التَّأْويل: فآخِرُ الأمر وعاقبته، يقال: إلى أي شيء مآل هذا الأمر؟ أي: مَصيرُهُ وآخِره وعقباه؛ وكذا قالوا في قوله -جلَّ ثناؤه-: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: لا يعلم الآجالَ والمُدَدَ إلاَّ الله -جلَّ ثناؤه-؛ لأن القوم قالوا في مدّة هذه المِلة ما قالوه، فأُعلِموا أن مآل الأمر وعقباه لا يعمله إلا الله جَّل ثناؤه.

واشتقاق الكلمة من المآل: وهو العاقبة والمصير، قال عَبْدَةُ بن الطبيب:

ولِلأحِبَّة أيام تَذَكُّرُها ❖ ولِلنّوى قبل يوم البين تأويلُ

وقال الأعشى:

على أنّها كانَتْ تَأوُّلُ حُبِّها ❖ تَأوُّلَ ربعِيِّ السِّقاب فأصْحَبَا

يقول: إن حبَّها كان صغيرًا في قلبه فآلَ إلى العِظَم، ولم يزل يَنْبُت حتى أصْحَبَ، فصار كالثَّقْب الذي لم يزل يَشِبُّ حتى أصحب، يعني: أنه إذا استصحبَتْه أمُّه صَحِبها. والثَّقْبُ: ولد الناقة، أو الذكر من ولدها، أو هو ثَقْب ساعة تضعه أمه".

تابع: جهود العرب في علم الدلالة: جهود ابن جني

عناصر الدرس

العنصر الأول : الجهود الدلالية في (الخصائص) ٣٢٧

العنصر الثاني : رأي ابن جنِّي في الصلة بين اللفظ ومدلوله، وموقف العلماء منها ٣٣٠

الجهود الدلالية في (الخصائص)

إن لابن جني جُهودًا لا تُنكر في مجال اللغة بصفة عامة، وفي مجالِ الدلالة بصفة خاصة؛ فدراسة المعنى هي أساسُ الدراسات اللغوية وهي هدفُ اللغويين؛ ومن ثم لا يمكن لابن جني -وهو المدرك لهذا. أن يغفل عن هذا الجانب المهم من جوانب اللغة، وبخاصة أن هذا الجانب مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأقدس كتاب.

ولأهمية البحثِ في دَلالة الألفاظ اللغوية، انبرى ابنُ جني للرد على مَن ادَّعى على العربِ عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، وقد عقَدَ لذلك بابًا في "خصائصه" بعنوان: "باب: في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني"؛ فقال فيه -بل في صدره-:

"اعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته عَرَفْتَ منه وبه ما يؤنقك، وتذهب في الاستحسان له كل مذهب بك؛ وذلك أن العرب كما تعنَى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها -بالشعر تارةً وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها. فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرًا في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بالألفاظ؛ فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها؛ أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعًا لَذَّ سامعه فحفظه؟! فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به ولا أنقت لمستمعه، أي: لاستمعاه، وضبط بكسر الميم مستمِع وضبط مستمَع، وهذا هو الأفضل.

وإذا كان كذلك لم تحفظه وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسَها باستعمال ما وضع له وجيء به من أجله، وقال لنا أبو علي يومًا: قال لنا أبو بكر -أبو علي الفارسي أستاذ ابن جني، وأن أبا بكر هو ابن السراج: إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه، وكذلك الشعر: النفس له أحفظ، وإليه أسرعُ".

ثم يقول ابن جني: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها -أي: أطرافها. وصقلوا غروبها وأرهفوها؛ فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ؛ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منه. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصيله وتزكيته وتقديسه؛ وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعَى عليه".

ثم يقول: فإن قلت: فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه وزخرفوه ووشوه ودبجوه، ولسنا نجد -مع ذلك- تحته معنًى شريفًا؛ بل لا نجده قصدًا ولا مقاربًا؛ ألا ترى إلى قوله:

ولما قضينا من منى إلا حاجة ❖ ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ❖ وسالت بأعناق المطي الأباطح

ولا يخفى عليك أن هذين البيتين قد نُسِبَا إلى يزيد بن التصرية، كما ذكر الشيخ محمد النجار محقق (الخصائص).

يقول ابن جني: "فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه، ثم يقول: ومعناه -مع ذلك- ما تحسه وتراه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل. ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها، مشروفة المعاني خفيضتها".

وقد دفع ابن جني هذا الاعتراض بتفصيل رائع، مؤكدًا أن العرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها؛ عنايةً بالمعاني التي وراءها، وتوصلًا بها إلى

إدراك مطالبها، وقد قال رسول الله ﷺ: ((إن من الشعر لحكمًا، وإن من البيان لسحرًا))؛ فإن كان رسول الله ﷺ يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جُعلت مصايد وأشراكًا للقلوب، وسببًا وسلمًا إلى تحصيل المطلوب؛ عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم -لا شك- أشرف من الخادم.

ثم دلل بالتفصيل على اهتمام العرب بمعانيها وتقدمها في أنفسها على ألفاظها، وذلك بأكثر من دليل تراه في هذا الباب من (الخصائص)، وانتهى من هذا الباب إلى تأكيد هذه الفكرة، مؤكدًا أن اللفظ خادم للمعنى وإنما جيء به له ومن أجله، مشيرًا إلى أن من الدلائل التي تؤكد عناية العرب بمعاني ألفاظها: الحمل على المعنى وترك اللفظ؛ كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر وإضمار الفاعل لدلالة المعنى عليه، وإضمار المصدر لدلالة الفعل عليه، وحذف الحروف والأجزاء التوامِّ والجمل... وغير ذلك؛ حملًا عليه وتصورًا له... وغير ذلك مما يطول ذكره ويمل أيسره، وذكر أن ذلك أمر مستقر.

ولم يكتفِ هذا العلامة بهذا فقط؛ ولكن جهده في الدلالة واسع وكبير؛ فقد أدلى بدلوه في دلالة سياق الحال، وفي تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، والاشتقاق الأكبر، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وفي إمساس الألفاظ أشباه المعاني، وفي التضمين، وفي الفرق بين الحقيقة والمجاز، وفي الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية، وفي قوة اللفظ لقوة المعنى، وفي الجمع بين الأضعف والأقوى، في عِقد واحد... هذا وغيره تراه على هيئة أبواب في فهارس (الخصائص) إن تصفحته، وتراه عناوين مفصلة في ثنايا الكتاب ذي الأجزاء الثلاثة.

رأي ابن جني في الصلة بين اللفظ ومدلوله، وموقف العلماء منها

لقد بلور ابن جني مفهوم الصلة بين اللفظ ومدلوله، ووضحه في أربعة أبواب من كتابه (الخصائص) هي على الترتيب:

باب: تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

باب: الاشتقاق الأكبر.

باب: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني.

باب: إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

لم يكن ابن جني مبتدعًا لهذه الفكرة، ولم يكن أول من تحدث فيها وأشار إليها، وإنما نجد إشارات إليها عند الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري، وقد اعترف شيخنا ونبه إلى ذلك حين قال في باب: إمساس الألفاظ أشباه المعاني:

"اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته؛ قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر، أي: التفت الخليل إلى وجود صلة بين صوت الجندب والفعل الذي يدل عليه: صر، وبسبب تشابه صوت البازي وصوت الجندب مع وجود اختلافٍ في الكيفية؛ جاء الفعل الذي يصف صوت البازي مضاعفًا: صرصر.

ويضيف ابن جني ما قاله سيبويه في هذا الباب أيضًا؛ فيقول ابن جني:

"وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة -نحو: النقزان، يقال: نقز الظبي وثب، والغليان والغثيان- يقول ابن

جني: فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال، وهذا يعني أنه يقول بوجود صلة بين اللفظ ومعناه، فالمصادر التي على وزن فعلان -في رأي سيبويه- تدل على الحركة المصاحبة للحدث.

لقد كان ابن جني أمينًا حينما أشار إلى ما ذكره الخليل وتلميذه سيبويه.

وفي القرن الثالث الهجري فسر المعتزلة الظواهر اللغوية تفسيرًا عقليًّا، ووجد عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة صلة طبيعية بين اللفظ ومعناه، واحتج بأن واضع الألفاظ إزاء المعاني لم يضعها اعتباطًا؛ وإنما اختار لكل لفظ معناه الذي توحي به أصواته.

وفي القرن الرابع الهجري بنى ابن دريد في كتابه (الاشتقاق) تفسيراته على العلاقة بين اللفظ ومدلوله؛ ففسر تسمية العرب لأبنائهم تفسيرًا يعتمد على هذه العلاقة الطبيعية: يقول في كتابه (الاشتقاق):

"واعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها؛ فمنها: ما سموه تفاؤلًا على أعدائهم نحو: غالب، وظالم، ومنها: ما يسمى بالسباع ترهيبًا لأعدائهم، نحو: أسد وليث وذئب، ومنها: ما سمي بما غلظ من الأرض، ومثل لذلك: بحجر وصخر، إلى أن جاء القرن الرابع الهجري، وكان الرائد في هذا المجال عالمنا ابن جني، و-كما قلت- وضع أربعة أبواب في كتابه (الخصائص) كشف فيها على هذه الصلة بين اللفظ ومعناه.

فهو في الباب الأول -أعني: تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني- يعلل الصيغ المختلفة، التي تنتمي إلى موضع واحد ويجد لها علاقة مشتركة، يقول في صدر هذا الباب هذا فصل من العربية حسن كثير المنفعة، قوي الدلالة على

شرف هذه اللغة؛ وذلك أنك تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة؛ فتبحث عن أصل كل منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه.

وسوف نفصل القول في كثير من الأمثلة التي تنتمي إلى هذا الباب في باب الترادف؛ حيث ذكره أمثلة في هذا الباب مثل الخليقة التي تعود إلى الجذر الثلاثي الخاء واللام والقاف، والسجية التي تعود إلى السين والجيم والواو، والطبيعة التي تعود إلى الطاء والباء والعين، والنحيتة التي تعود إلى النون والحاء والتاء، والغريزة التي تعود إلى الغين والراء والزاي، والسليقة التي تعود إلى السين واللام والقاف، والضريبة التي تعود إلى الضاد والراء والباء، والسجيحة التي تعود إلى السين والجيم والحاء، والسرجوجة والسرجيجة التي تعود كل منهما إلى السين والراء والجيم، والنجار التي تعود إلى النون والجيم والراء: كل هذه الألفاظ من أصول مختلفة -أو على حد قوله- فالأصول مختلفة والأمثلة متعادية -أي: متباينة- والمعاني مع ذينك متلاقية... إنه هو الترادف الذي يعني تلاقي لفظين أو أكثر على معنًى واحد.

وأما في باب: الاشتقاق الأكبر؛ فهو يشير إلى أن أصوات المادة الواحدة مهما كان ترتيبها فهي ترتد إلى معنًى واحدٍ؛ وكأنه بهذا يربط بين الألفاظ وما يصاغ منها وبين معانيها، ولو احتاج الأمر إلى التأويل؛ لذلك نراه في صدر هذا الباب يقول:

هذا موضع لم يسمِّه أحد من أصحابنا غير أن أبا علي -رحمه الله- كان يستعين به ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر؛ لكنه -مع هذا لم يسمه؛ وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه ويتعلل به، وإنما هذا التلقيب لنا نحن.

انظر إلى أمانة هذا العالم حينما يرى أن فكرة الاشتقاق الأكبر، هي فكرة راجعة إلى أستاذه لكن أستاذه لم يضع لها لقبًا، لم يضع لها اسمًا، لم يضع لها عنوانًا، وإنما العنوان والتلقيب من ابن جني.

يقول ابن جني: وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن؛ وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين: كبير، وصغير. ثم فَرَّقَ بينهما بقوله: فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم؛ كأن تأخذ أصلًا من الأصول فتتقرَّاه؛ فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب "س ل م"؛ فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو: سلم، يسلم، سالم، سلمان، سلمى، والسلامة، والسليم: اللديغ؛ أطلق عليه تفاؤلًا بالسلامة.

وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته، وبقية الأصول غيره: كتركيب "ض ر ب"، و"ج ل س"، و"ز ب ل"، على ما في أيدي الناس من ذلك؛ فهذا هو الاشتقاق الأصغر.

وقد قدم أبو بكر -يقصد ابن السراج رحمه الله- رسالته فيه بما أغنى عن إعادته؛ لأن أبا بكر لم يألُ فيه نصحًا وإحكامًا وصنعةً وتأنيسًا.

وأما الاشتقاق الأكبر؛ فهو أن تأخذ أصلًا من الأصول الثلاثية؛ فتعقد عليه وعلى تقاليده الستة معنًى واحدًا تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحدٍ منها عليه؛ وإن تباعد شيء من ذلك عنه، رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد.

وقد كنا قدمنا -والكلام لابن جني- ذكر طرف من هذا الضرب من الاشتقاق في أول هذا الكتاب عند ذكرنا أصل الكلام والقول وما يجيء من تقليب تراكيبهما، نحو: "ك ل م"، و"ك م ل"، و"م ك ل"، و"م ل ك"، و"ل ك م"، و"ل م ك".

تذكر التقليبات التي شرحناها في مدرسة الخليل وفي مدرسة ابن دريد؛ حيث يمكنك أن تصنع من الجذر الثلاثي خمسة جذور أخرى مع الأصل الأول تسمى

بالتقليبات، يقول ابن جني: وكذلك "ق و ل"، و"ق ل و"، و"و ق ل"، و"و ل ق"، و"ل ق و"، و"ل و ق"، وهذا أعوص مذهبًا وأحزن مضطربًا؛ وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة، الكاف واللام والميم وما تفرع منها من تقاليب أرجعها ابن جني إلى معنًى عام: هو القوة والشدة، وكذلك أرجع تقاليب القاف والواو واللام إلى الإسراع والخفة- قال: وقد مضى ذلك في صدر الكتاب.

ثم يقول: لكن بقي علينا أن نحضر هنا مما يتصل به أحرفًا تؤنس بالأول وتشجع منه المتأمل، ثم ذكر مجموعة من الأمثلة أيَّد بها فكرته، منها: تقليب "ج ب ر"، يقول: فهي أين وقعت للقوة والشدة؛ فـ"جيم والباء والراء مثَّل لها بجبرت العظم والفقير: إذا قويتهما وشددت منهما، ومثَّل له كذلك بالجبر: وهو الملك قال: لقوته وتقويته لغيره.

وذكر من التقليب الثاني -أعني: الجيم والراء والباء-: رجل مجرب إذا جرسته الأمور ونجزته؛ فقويت منته واشتدت شكيمته، كما ذكر من الجذر نفسه أيضًا: الجراب، قال: لأنه يحفظ ما فيه؛ وإذا حفظ الشيء وروعي اشتد وقوي، وإذا أغفل وأهمل تساقط وردي، بالذال، أي: أثقله المرض، وبالدال "ردي"، أي: هلك.

ثم ذكر من التقليب الثالث -أعني: "ب ج ر"- الأبجر والبجرة، قال: هو القوي السُّرة، ومنه قول علي: "إلى الله أشكو عجري وبجري". تأويله: همومي وأحزاني، وطريقه أن العجرة كل عقدة في الجسد؛ فإذا كانت في البطن والسرة فهي البُجرة، وتأويله: أن السره غلظت ونتأت فاشتد مسها وأمرها، وفسر أيضًا قوله: "عجري وبجري"، أي: ما أبدي وما أخفي من أحوالي.

ومثل للتقليب الرابع -أعني: "ب ر ج"- بالبرج، قال: ومنه البرج؛ لقوته في نفسه وقوة ما يليه به، وكذلك البَرَج: لنقاء بياض العين وصفاء سوادها، قال ابن جني: هو قوة أمرها، وأنه ليس بلون مستضعفٍ.

ثم مثل بالجذر الخامس -أعني: "ر ج ب"- بقوله: ومنها رجَّفت الرجل: إذا عظمته وقويته أمره، ومنه رجب؛ لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، وإذا كرمت النخلة على أهلها فمالت؛ دعموها بالرشد وهو شيء تسند إليه لتقوى به، والراجبة: أحد فصوص الأصابع وهي مقوية لها، وأما الجذر الأخير -أو التقليب الأخير، وهو: الراء والباء والجيم- فقد مثل له بالرباجي: وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله، واستشهد له بقوله الشاعر:

وتلقاه رباجيًّا فخورًا ❖ ....

قال: تأويله أنه يعظم نفسه ويقوي أمره.

لقد أرجع الشيخ الألفاظ التي ذكرها لكل تقليبٍ من التقاليب الستة إلى معنًى عام: وهو القوة والشدة. وصنع الصنيع نفسه لتراكيب "ق س و"؛ حيث أرجع هذا التركيب والتراكيب الأخرى المأخوذة منه -أعني: "ق و س"، و"و ق س"، و"و س ق"، و"س و ق"- إلى القوة والاجتماع، مشيرًا إلى أن التقليب السادس مهمل -وهو: "س ق و"-، وذكر أيضًا أمثلة لكل تقليبٍ من هذه التقاليب الخمسة؛ حيث ذكر من "ق س و": القسوة، وذكر من "ق و س": القوس، وذكر من "و س ق": الوسق، وذكر من "س و ق": السَّوْق، وعلل للقسوة بشدة القلب واجتماعه، وعلل للقوس لشدتها واجتماع طرفيها، وعلل للوقس -وهو ابتداء الجرب. قال: لأنه يجمع الجلد ويقحله، وعلل للوسق -وهو يعني به الحمل- قال لاجتماعه وشدته. ومنه استوثق الأمر، أي: اجتمع، ومثَّل

واستشهد بقول الله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٧]، أي: جَمَع، وعلل للسوق أيضًا قائلًا: لأنه استحسان للجمع للمسوق بعضه إلى بعض.

وقد أشار إلى صعوبة هذه الفكرة وإلى ما يلقاه المرء عند تطبيقها. فقال: فإن شذ شيء من شعب هذه الأصول عن عقده ظاهرًا؛ رُدَّ بالتأويل إليه وعطف بالملاطفة عليه؛ بل إذا كان هذا قد يعرض في الأصل الواحد حتى يحتاج فيه إلى ما قلناه؛ كان فيما انتشرت أصوله بالتقديم والتأخير أولى باحتماله وأجدر بالتأول له.

وذكر تقاليب أخرى للسين والميم واللام، منهيًا الباب بالتأكيد على أن هذه الفكرة ليست مطردة في اللغة، وتحتاج إلى تؤدة وإلى صبر؛ إذ يقول: اعلم أنَّا لا ندعي أن هذا مستمرٌ في جميع اللغة؛ كما لا ندعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة؛ بل إذا كان ذلك الذي هو في القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرًا صعبًا؛ كان تطبيق هذا وإحاطته أصعبَ مذهبًا وأعز ملتمسًا.

ثم يقول: وقد رسمت منه رسمًا فاحتذه؛ وتقيَّله تحظَ به؛ وتكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله، وتسترفده في بعض الحاجة إليه؛ فيعينك ويأخذ بيديك.

كما نراه أيضًا يؤكد هذه الفكرة عندما ذكر أمثلة لها في صدر "خصائصه": إذ يقول: وعلى أنك إن أمعنت النظر ولاطفته وتركت الضجر وتحاميته؛ لم تكد تعدم قرب بعضٍ من بعض؛ وإذا تأملت ذلك وجدته بإذن الله.

وقد تأثر بهذه الفكرة بعد ابن جني بعض العلماء الذين أتوا عبر القرون، منهم: السكاكي في (مفتاح العلوم)، وضياء الدين ابن الأثير في (المثل السائر)، والصغاني في (المرتجل).

وهذا الاشتقاق -أو هذه الفكرة- لم تسلم من الهجوم في القديم والحديث ؛ أما في القديم فيقول السيوطي عن ابن جني وعن فكرته : "وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني ، وكان شيخُه أبو علي الفارسي يأنس به يسيرًا وليس معتمدًا في اللغة ، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب ؛ وإنما جعله أبو الفتح بيانًا لقوة ساعده ، ورد المختلفات إلى قدر مشترك ، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ ، وأن تراكيبها تفيد أجناسًا من المعاني مغايرة للقدر المشترك.

وسبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدمين إلى معانيه : أن الحروف قليلة وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تنتهي ؛ فخصوا كل تركيب بنوع منها ؛ ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعًا كثيرة.

ومع ذلك ؛ فإن السيوطي لا ينكر دوران صيغ بعض المواد حول معنًى واحد ولكن ينكر اطراد ذلك ؛ يقول : ولا ينكر -مع ذلك- أن يكون بين التراكيب المتحدة مادة معنًى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها ؛ ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التراكيب ؛ كطلب لعنقاء مُغرِبٍ ، ولم تحمل الأوضاع البشرية إلا على مفاهيم قريبة غير غامضة على البديهة ؛ فلذلك إن الاشتقاقات البعيدة جدًّا لا يقبلها المحققون".

انتهى كلام السيوطي.

ويقصد بالعنقاء : طائرًا متوهمًا لا وجود له ، ويقصد بالمُغرِب : كل ما واراك وسترك ، وهو مثل من أمثلة العرب.

وأما في العصر الحديث ؛ فقد رمى بعض الباحثين العلامة ابن جني بالتكلف والتعسف ، منهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه : (من أسرار اللغة) وصبحي الصالح في كتابه : (دراسات في فقه اللغة) ؛ بينما رأى بعضهم ضرورة ولوج هذا

الباب واستشراف آفاق العربية البعيدة من هذا المرتفع، ومن هؤلاء محمد المبارك في كتابه: (فقه اللغة وخصائص العربية).

وفي باب: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، يوضح ابن جني أن تقارب الحروف أو الأصوات أو الألفاظ ناتج عن تقارب المعاني؛ فالهز والأز متقاربَا المعنى. وهما أيضًا متقاربَا اللفظ، يقول: من ذلك قول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى: تهزهم هزًّا، والهمزة أخت الهاء؛ فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد تهز من لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك.

واستمر في ذكر أمثلة أخرى قال: ومنه العسف والأسف، وفي نسخة من (الخصائص): العسيف والأسيف، العسيف: الأجير، والأسيف: الشيخ الكبير، وأيضًا يطلق على من اشتد به الأسف، ويريد ابن جني بالعسف هنا: السَّيْر على غير طريق وهدى، يقول: والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين؛ كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف؛ فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين.

ومثل لذلك أيضًا بالقَرمة: وهي الفقرة تحز على أنف البعير، وبقوله: قلمت أظفاري؛ حيث رأى أيضًا تقارب بين القرمة وبين تقليم الأظافر، قال: لأن هذا انتقاص للظفر، يعني: تقليم الأظافر، وقال: وذلك انتقاص للجلد -يعني: القرمة- قال: فالراء أخت اللام، والعملان متقاربان.

ولك أن تراجع هذا الباب في (الخصائص)؛ لترى أمثلة أخرى كثيرة؛ حيث ترى أن كل كلمة اشتركت مع أخرى بحرفين وتقارب مخرج الحرف الثالث فيهما؛ أدَّى ذلك التشابه الصوتي إلى تشابه المعنى.

بل يذهب ابن جني إلى أبعد من ذلك ؛ فيرى أن تشابه أصوات الألفاظ وتقاربها في المخرج يؤدي إلى تشابه في معانيها، مثل: السحيل والصهيل، فالسحيل من "س ح ل"، والصهيل من "ص هـ ل"، والصاد أخت السين كما أن الهاء أخت الحاء، ومثل أيضًا بجرف وجرم، فقال: فهذا للقشف -يعني: جلف- وهذا للقطع -يعني: جرم- قال: وهما متقاربان معنًى، متقاربان لفظًا.

فكل ما ذكرته من أمثلة وما تراه من أمثلة أخرى تثبت مناسبة بين أصوات العربية ومعانيها ؛ حيث تثبت للصوت قيمة بيانية، وقد ختم الباب بالإشارة إلى وجود هذا التشابه في أكثر الكلام، ونبه إلى دراسته ورصد لطائفه ؛ إذ يقول:

وهذا النوع من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة ؛ وإنما بقي من يثيره ويبحث عن مكنونه ؛ بل من إذا أوضح له وكشفت عنده حقيقته ؛ طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها، وهيهات ذلك مطلبًا وعز فيهم مذهبًا، وقد قال أبو بكر: من عرف أَلِف ؛ ومن جهل استوحش. ونحن نتبع هذا الباب بابًا أغرب منه وأدل على حكمة القديم -سبحانه وتقدست أسماؤه- فتأمله تحظَ به بعون الله. وهو باب: في إمساس الألفاظ أشباه المعاني ؛ حيث ركز فيه على تقارب المعاني نتيجة لتقارب جرس الأصوات، ويفرق في المعاني نتيجة لاختلاف الجرس، وهو كذلك يوسع ملاحظة الخليل في الفرق بين صوت الجندب "صر" وصوت الباز "صرصر" وكذا ملاحظة سيبويه في صيغة "فعلان" التي تدل على الحركة.

ووضح أثر الوحدات الصوتية على المعاني بأمثلة منها الشدة أو التضعيف، وما تحدثه من معنى القوة ؛ حين قال: ومن ذلك: أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل ؛ فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق ؛ وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلةَ المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام ؛ وذلك لأنها واصلة لهما ومكنوفة بهما ؛ فصارا كأنهما سياج لها

ومبذولان للعوارض دونها ؛ ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيما دونها ؛ فأما حذف الفاء ففي المصادر من باب وعد، نحو: العدة والزنة والطدة والتدة والهبة والإبة، وأما اللام فنحو: اليد والدم والفم والأب والأخ والسنة والمائة والفئة، وقلما تجد الحذف في العين.

فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها، وجعلوه دليلًا على قوة المعنى المحدث به وهو تكرير الفعل ؛ كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق دليلًا على تقطيعه، ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة، والإشفاق على الحرف المضعف أن يجيء في آخرها، وهو مكان الحذف وموضع الإعلال، وهم قد أرادوا تحصين حرف الدال على قوة الفعل، فهذا أيضًا من مساوقة الصيغة للمعاني.

ومن المعروف أن الشدة وحدة صوتية، وتدل على القوة والمبالغة، ثم أوضح في الباب نفسه أثر الوحدات الصوتية في زيادة المعنى من خلال أمثلة أخرى مقارنة، ونبه إلى وجودها في العربية، وإلى كثرتها فيها، قال: فأما مقابلة الألفاظ ما يشاكل أصواتها من الأحداث ؛ فباب عظيم واسع ونهج متلئبٌّ عند عارفيه مأموم ؛ وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ؛ فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف من استشاروه، من ذلك قولهم: خضم وقضم ؛ فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها... ونحو ذلك. وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم، أي: قد يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشغف ؛ فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس ؛ حذوًا لمسموع الأصوات على مسموع الأحداث.

ومن ذلك قولهم النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه؛ قال الله سبحانه: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦]، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه. وذكر أمثلة أخرى.

ولم يتوقف ابن جني عند هذا الحد؛ بل قاده النظر إلى وضع معانٍ للأصوات المجردة، فالشين عنده تدل على التفشي والباء تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث.

ويضرب أمثلة على تكوين المعاني في الكلمات مدللًا ما للصوت من توجيهٍ للدلالة، يقول: من ذلك جر الشيء يجر؛ قدموا الجيم لأنها حرف شديد، وأولوا الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعًا، ثم عقبوا ذلك بالراء: وهو حرف مكرر، وكرروها مع ذلك في نفسها؛ وذلك لأن الشيء إذا جُرَّ على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعدًا عنها ونازلًا إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق؛ فكانت الراء لما فيها من التكرير؛ ولأنها أيضًا قد كررت في نفسها في جرَّ وجررت أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها.

والحقيقة -كما يرى بعض الباحثين- أن رأي ابن جني جدير بالاعتبار مع ما فيه من توسعٍ ومنطقٍ نظري؛ فهو ينفع الدارس في تخمين معاني الكلمات الغامضة عن طريق تقليب مادة الكلمة أو النظر إلى أصواتها وجرسها؛ كما يمكن الاستئناس به في تحليل النصوص الأدبية عن طريق دراسة إيحاءات اللفظة وأبعادها؛ فإذا علمنا ما في الكلمة واستخداماتها ودلالاتها؛ فإن ذلك يغني النص، ويساعد الدارس على تذوقه.

ويتضح هذا جليًّا في دراستنا للآداب العربية القديمة؛ فعلى قدم تاريخها الذي يضرب في العصر الجاهلي، نجد أعماقًا في شعر الشنفرى مثلًا وزهير وامرئ

القيس... وغيرهم قد لا نجدها في الشعر المعاصر، هذا الإعجاب باللغة العربية ومحاولة البحث عن صفاتها، نجده عند كثيرٍ غير ابن جني مثل ابن فارس والبيروني والرازي وابن قيم الجوزية وغيرهم من علماء العرب والمسلمين.

أما رأي علماء الغرب في قضية الصلة بين اللفظ ومعناه؛ فقد اختلفوا فيها أيضًا ما بين مؤيدٍ لها ومنكرٍ لها، وبين واقفٍ منها موقفًا وسطًا.

وأما بالنسبة لعلماء العرب في عصرنا الحديث؛ فقد قال بها نفرٌ من علماء العربية منهم الشدياق وجورجي زيدان والعلايلي، وتابعهم العقاد، وأعجب بالفكرة أيضًا صبحي الصالح ومحمد المبارك؛ لكن معظم الدارسين في العقود المتأخرة ينكرون وجود علاقة طبيعية بين اللفظ ومعناه، ويرون أن العلاقة اصطلاحية عرفية مكتسبة، ومن هؤلاء الدكتور إبراهيم أنيس، إذ يرى أن الصلة تكتسب بكثرة التداول مع مرور الأيام.

من الظواهر الدلالية: الاشتراك اللفظي

عناصر الدرس

العنصر الأول : معنى "المشترك اللفظي"، وأسباب وقوعه ٣٤٥
العنصر الثاني : "المشترك" بين غموض الدلالة ووضوحها، وموقف العلماء منه ٢٥٨

معنى "المشترك اللفظي"، وأسباب وقوعه

١. معنى "المشترك اللفظي":

إن قضية تعدد المعنى اللفظي من القضايا الدلالية المهمة في اللغة العربية، وفي غيرها من اللغات، والمعاني المتعددة؛ إما أن تكون مختلفةً، وإما أن تكون متباينةً متضادةً، وقد سُمي اللفظ الذي يدل على معانٍ مختلفة بالمشترك اللفظي، وقد ذكر أصول الفقه حدًّا لهذا المشترك اللفظي؛ فعرفوه بأنه: اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر، دلالةً على السواء عند أهل اللغة.

كما ذكر الأقدمون من علماء اللغة لظاهرة الاشتراك اللفظي تعريفاتٍ كثيرة متقاربة، وهي لا تخرج في مجموعها عما ذكره علماء الأصول، ويرجع السبب في تسمية هذه الظاهرة للاشتراك اللفظي، أو تسمية اللفظ الدال على معنيين فأكثر بالمشترك اللفظي إلى أن هذا اللفظ يشترك فيه معنيان أو أكثر؛ فهو لفظٌ متعدد الدلالة أو مشترك الدلالة.

وقد أشار الأقدمون إلى ذلك فجاء في كلام المبرد - في أثناء حديثه عند أحد هذه الألفاظ- جاء قوله: "فهذا ما ذكرنا أن لفظه مشترك فيه معنيان"، وتحدث عن ذلك ابن فارس في كتابه (الصاحبي) في باب أفرده للاشتراك قال فيه: "معنى الاشتراك أن تكون اللفظة محتملة بمعنيين أو أكثر".

كما ذكر ابن سيده توضيحًا لمعنى الاسم المشترك، حين قال عنه: تشترك فيه معانٍ كثيرةٌ، كالعين ونحوها؛ لأنه يجمع معاني كثيرة.

وإني أذكر أمثلة لهذه الظاهرة؛ فالفعل "قضَى" يأتي بمعانٍ عدة؛ فقد يأتي بمعنى فصل في الأمر، وحكم. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [يونس: ٩٣]،

أي: يفصل بينهم بحكمه، وقوله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤٧].

ومن هذا الباب لفظ: "القاضي" ولفظ "القضاء" كما يأتي قضى بمعنى الإرادة القطعية، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ويأتي "قضى" بمعنى عمل عملًا بقدرةٍ وتمكنٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ويأتي الفعل "قضى" بمعنى انتهى نهاية لا رجعة فيها، ومنه الآية الكريمة: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] ، والآية الكريمة: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [مريم: ٣٩].

ويأتي الفعل "قضى" أيضًا بمعنى إنجاز العمل، وإتمامه والفراغ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ومنه قوله تعالى أيضًا: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ، ويأتي الفعل "قضى" بمعنى مات؛ حيث سمى العرب الموتى القضية.

وهكذا لو تأملت أمثلة أخرى تراها من باب المشترك؛ فـ"الهُدى" قد يكون بمعنى الإيصال وعليه جاء الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري في "صحيحه"، عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة))، ثم

يقول: ((وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار)).

وتدل اللفظة أيضًا على الطريق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠] وكذا: ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

ويأتي "الهدى" مقابل الضلال في الإيمان، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٧١]، ومن ذلك قوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله أيضًا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ٧٧]، ومنه قوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

ويأتي "الهدى" بمعنى الكتاب المنزل وهو القرآن الكريم، وقد يأتي بمعنى التوراة، وقد يأتي بمعنى الإنجيل، أما دلالتها على التوراة الحقيقية؛ فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [غافر: ٥٣].

ويأتي "الهدى" بمعنى الوضوح والبيان، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقد اهتم العلماء بهذه الظاهرة، وأفردوا لها كتبًا خاصة، وبعضهم تحدث عنها في ثنايا مؤلفاته الجامعة، حيث لفت المشترك اللفظي نظر العلماء حين بدأ اهتمامهم بجمع اللغة العربية من أفواه أبنائها الأقحاح فألفوا فيه. وكانت أولى المؤلفات في هذا المجال خاصة بالمشترك اللفظي في القرآن الكريم، وأقدم كتاب من هذا النوع هو كتاب (الأشباه والنظائر) في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان

البلخي المتوفى سنة خمسين ومائة، وتلاه كتاب (الوجوه والنظائر في القرآن) لهارون بن موسى الأسدي الأعور، المتوفى سنة سبعين ومائة، ثم تتابعت الكتب التي تعالج المشترك اللفظي في القرآن الكريم.

أما المشترك اللفظي في اللغة العربية عامة، فقد ألَّفَ فيه جماعة من اللغويين، وأول هذه المؤلفات رسالة للأصمعي المتوفى سنة خمسة عشرة ومائتين من الهجرة، تحت عنوان (ما اتفق لفظه واختلف معناه)، وثاني هذه المؤلفات كتاب (الأجناس) لأبي عبيد القاسي بن سلام، وقد اشتمل على مائة وخمسين مادة من مواد المشترك اللفظي، وطبع في الهند سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد، ثم حققه الدكتور فوزي يوسف الهابط، سنة أربعة عشر وأربعمائة وألف للهجرة، الموافق سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف من الميلاد، وثالث هذه الكتب كتاب (ما اتفق لفظه واختلف معناه) لأبي العميثر الأعرابي، المتوفى سنة أربعين ومائتين، وقد احتوى على حوالي ثلاثمائة كلمة، ورابعها كتاب (المنجد في اللغة لقُراع، علي بن الحسن الهنائي، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة، واحتوى على تسعمائة كلمة، وامتاز بتنظيم مواده وترتيبه. وخامسها كتاب (الوجوه في اللغة) لإسحاق بن محمد الآسي، وقد وقع في ألفي صفحة، كما يذكر الدكتور الهابط.

وأذكر أمثلة من كتاب (الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى) لأبي العبيد القاسي بن سلام. الكتوم: هو الكتوم للسر، والكتوم هو الليل، والكتوم الناقة القليلة الرغاء، والكتوم الهذموهو: الأكل والقطع بسرعة. والكتوم: الشراب الذي يُذهب العقل، والكتوم الثلج يستر الأرض.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: الشعر، الجنون، والشعر الشعر نفسه، والشعر ما استكن من الماء، والشعر البق.

ومن الأمثلة أيضًا: النهار، فالنهار يطلق على غاية العقل، ويطلق على بصر العين، ويطلق على النهار نفسه، والآل هو آل الشخص، والآل هو السراب، والآل الرجل يشهد بالزور، والآل الولي.

والساق: الشدة، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢] والساق: ذكر الحمام والقُمري، والساق: ساق الشجر، والساق ساق الإنسان نفسه.

ومن أمثلة ذلك الصياصي: القرون، والصياصي: الحصون، كقوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

ومن المشترك أيضًا: البلدة: البلدة نفسها، والبلدة: السلحفاة، والبلدة: الأرض، والبلدة: ولد الناقة أول ما يسقط، والبلدة: نَجم من الأنواء، والبلدة: الصدر، والبلدة: كركرة البعير والناقة، والكركرة: هي صدر كل ذي خف.

ومن أمثلة المشترك أيضًا: الكلب؛ فالكلب: الأسد، والكلب: الحلقة التي تكون في السيف، والكلب: جبل في يمامة، والكلب: نجم في السماء، والكلب: وقوع السير في باطن القربة.

ومن المشترك أيضًا: الجنان: الليل، وإنما سُمي جنان؛ لأنه يجن كل شيء بظلمته، والجنان: الفؤاد، وسُمي جنانًا لأنه يجن السر، والجنان: الترس، وإنما سُمي جنانًا؛ لأنه جنة من السيف والرمح، والجنان: الثوب الأعلى من الثياب.

ومن أمثلته كذلك الخرطوم، هو الذنب والخرطوم الخمر، والخرطوم الخطم الطويل.

ومن أمثلته أيضًا الجبار: الجبار النحل، والجبار القتَّال من الرجال، قال الله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩] فالجبار ها هنا القتال، والجبار الملك المتفرد بالجبروت، وهو الله ﷻ والجبار الخشبة العظيمة.

ومن أمثلته أيضًا: البيضة: المرأة، والبيضة: بيضة الحديد، والبيضة: جماعة المسلمين، والبيضة: المرآة التي ينظر فيها إلى وجهه.

ومن أمثلة المشترك أيضًا: الحمامة، فالحمامة: الحمامة نفسها، والحمامة: الأثافي الثلاثة التي توضع عليها القِدر، والحمامة: شجرة نباتها في مثل الورشاني خضرةً، والحمامة: وعاء تتخذه العرب مثل الدُّبة، من طين وحشيش، تُتخذ فيه السمن.

العفو: القُوت، قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] والعفو: المُهر، ولد الفرس، والعفو: الصفح، والعفو: الدروس.

الحميم: القريب، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٠١]، والحميم: شراب أهل النار، قال الله تعالى: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [الأنعام: ٧٠]، والحميم شدة الحر، قال الله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤].

وهكذا ذكر أبو عبيد في كتاب (الأجناس) أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة، حرص في كل مادة أن تكون بالنسبة لمعانيها، متفقة في الشكل والحروف، ومتفقة في الحركات، وذكر في أكثر المواد التي عرضها المعاني الغريبة، والمعاني المعروفة، وكان منهجه أن يبدأ أولًا بذكر المعنى المعروف للمادة، ثم يعقبه بالمعاني القريبة، أو يذكر المعنى المعروف خلال المعاني الغريبة للمادة، وكان نادرًا ما يُعلل

للمعاني، وكان نادرَ الاستشهاد على ما يقول، وقد اشتمل على مائة وخمسين مادة كما قلتُ.

٢. أسبابُ وقوعه، أو منابعه:

أولًا: التوليدُ الدلاليُّ:

إن توليد الدلالة الجديدة سمة من سمات الحياة اللغوية النامية المتجددة أبدًا، وهو علامة على علامات الصحة؛ فاللغة العربية قبل ظهور نور الإسلام، معجم كبير من الدلالات، ثم جاء الإسلام فدخلت اللغة العربية للقرآن الكريم في طور جديد، وحياة جديدة، وجاء القرآن الكريم باستعمالات جديدة، ودلالات جديدة، وقد سَمَّى اللغويون هذا الجديد اللغوي بالمصطلح الإسلامي، أو الكلمات الإسلامية، حيث ألف أبو حاتم الرازي كتاب (الزينة في الكلمات الإسلامية)، وأبو حاتم هو أحمد بن حمدان المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وللشريف الجرجاني المتوفى سنة ست عشرة وثمانمائة كتاب (التعريفات)، وهو في مصطلحات العلوم والآداب العربية والإسلامية.

وبعدهما أتى التهانوي المتوفى سنة تسع وخمسين ومائة وألف بكتابه (كشاف اصطلاحات الفنون). وهو أوسع كتب المصطلح الإسلامي، وذكر (الصاحبي) في ثنايا أبوابه مبحثًا في المصطلحات الإسلامية، وكذلك صنع (المزهر) والمعروف أن (الصاحبي) لأحمد بن فارس المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، و(المزهر) للسيوطي المتوفى سنة إحدى عشر وتسعمائة.

وللأدباء والكتاب والشعراء المبدعين أثر كبير في توليد الدلالة الجديدة، حين يأتون بدلالات مستحدثة لم تكن معروفة عند العرب من حيث الاستعمال؛ فوسعوا بذلك من دائرة المشترك اللفظي.

وقد لاحظ ابن فارس الأسبابَ الإسلامية لتطور اللغة العربية، حين قال في صَدْر هذا الباب: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائها في لغاتهم وآدابهم"، ثم يقول: "فلما جاء الإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأبطلت أمور؛ ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخر، بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شرطت".

وأول كتاب يتصل بالدراسات القرآنية في علم الدلالة له علاقة بظاهرة المشترك اللفظي، هو كتاب: (الأشباه والنظائر في القرآن) لمقاتل بن سليمان، كما قلت آنفًا، وقد جمعَ فيه خمسًا وثمانين ومائة لفظة من ألفاظ المشترك اللفظي من القرآن الكريم منها الأسماء ومنها الأفعال ومنها الحروف، وهي أقلها عددًا.

والسمة البارزة في الكتاب أنه يبين أثر السياق في تحديد الدلالة، وتوضيحها مع بيان أثر اختلاف الموقع في اختلاف المعنى، وهو لم يستوعب كل ألفاظ المشترك اللفظي في القرآن الكريم، ولا معاني كل لفظ أورده، وهو بهذا أول معجم دلالي من معاجم المشترك اللفظي يصل إلينا.

وفي شعر حميد بن ثور قد من الكلمات الإسلامية معظمها كانت تحمل دلالة عامة قبل الإسلام، ثم تخصص معناها بعد الإسلام، واستعملها شاعرنا بهذا المعنى الخاص، وبعضها استخدمها بالمعنيين معًا. وأذكر منها ما يلي:

الإسلام: جاء في قوله حين يمدح عبد الله بن جعفر، أو عبد الملك بن مروان، ذلك أنه لما دخل عليه فقال: ما أتى بك؟ فقال على البديهة:

أتاني بك الله الذي نور الهدى ❖ ونور وإسلام عليك دليل

فالإسلام لم يكن قبل بعثة النبي ﷺ بهذا المعنى الذي عرفه المسلمون، وكان له معنى مجرد من هذا الثوب الديني، وكان عامًّا؛ فقد كان يدل على مطلق

الاستسلام والانقياد ثم خصص، فأصبح يدل على إسلام الوجه لله الواحد الأحد، والانقياد وإظهار الخضوع، والتزام ما أتى به النبي ﷺ لإحقان الدم، واستدفاع المكروه.

والحج: كان يدل على مُطلق القصد قبل الإسلام، ثم تخصص معناه بعد الإسلام، فأصبح يدل على قصد البيت الحرام في مكة للقيام بالمناسك الخاصة، وأداء الشعائر حسب تعاليم الإسلام، قال حميد بن ثور لامرأته حين طلبت منه أن تحج معه وتؤدي المناسك:

فَقُلْتُ امكُثي حَتى يَسارِي لعلنا ❖ نَحجُّ معًا قالَت أعامٌ وَقابِلُ

والزكاة كانت تدل قبل الإسلام على معنى عام وهو النماء، وبمجيء الإسلام تخصص معناها؛ فأصبح يدل على إخراج جزء من المال وفق ما فصله الفقهاء للمساكين؛ لأنه تطهير للماء، وإصلاح ونماء، يقول حميد بن ثور:

فلم يكذب وخررنا سجدا ❖ نُعطي الزكاة ونقيم المسجدا

والسجود في الجاهلية كان يُطلق على الانحناء وطأطأة الرأس، ثم تخصص معناه في الإسلام؛ فأصبح يطلق على ما أتت به الشريعة من المواقيت والتحريم للصلاة والتحليل منها. فمن الدلالة الجاهلية قال حميد في ناقة:

فضول أزمتها أسجدت ❖ سجود النصارى لأحبارها

ومن الدلالة الخاصة الإسلامية: قول حميد أيضًا في أثناء وقوفه بين يدي النبي ﷺ معلنًا إسلامه:

فلم نكذب وخررنا سجدًا ❖ نعطي الزكاة ونقيم المسجدا

فقد تضمن البيت لفظين يدلان على السجود أولهما: سُجَّد جمع ساجد، والآخر: المسجد الذي هو مصلى الجماعات.

والتسبيح كان يدل قبل الإسلام على مطلق السرعة والخفة، وبمجيء الإسلام تخصص؛ فأصبح يدل على السرعة إلى الله، والخِفة في طاعته.

قال حميد:

فَسَبَّحنَّ واستَهلَلن لَمّا رأَينَهُ ❖ بها رَبذًا سَهلَ الأراجيحِ مِرجَما

الخلافة: كان الخليفة في الأصل يدل على مَن يخلف غيره ويقوم مقامه في أي أمر بدون تخصيص، ثم انحصر معناه فيمن يخلف النبي ﷺ أو مَن يتولى شئون أمر المسلمين، قال حميد في رثاء عثمان:

إنَّ الخِلافَةَ لَمّا أُظعِنَت ظَعَنَت ❖ عَن أهلِ يَثرِبَ إذ غَيرَ الهُدى سَلَكوا

والإمارة: كان الأمير يطلق على كل مَن يتولى أمرًا، ثم بمجيء الإسلام أصبح يدل على من يتولى أمر المسلمين، قال حميد:

رَدَّك مَروانُ لا تُفسَخ إمارَتُهُ ❖ فَفيكَ راعٍ لَها ما عِشتَ سُرسورُ

الرب: كان يُطلق في كلام العرب على المالك لأي شيء، ثم أصبح يُطلق في الإسلام على المولى ﷻ المالك لكل شيء، قال حميد في الدلالة الأولى:

اليَومَ تُنتَزعُ العَصا من رَبِّها ❖ ويَلوكُ ثِني لِسانِهِ المَنطيقُ

وأما الدلالة الدينية: فنجدها في قوله حينما وقف معلنًا إسلامه بين يدي الرسول ﷺ:

حَتى أرانا رَبُّنا مُحمّدا ❖ يَتلو مِنَ اللَّهِ كِتابًا مُرشِدا

وقال:

وإني وَرَبِّ الهَدايا في مَشاعِرِها ❖ وَحَيثُ يُقضى نذورُ النّاسِ والنُّسُكُ
وَرَبِّ كُلِّ مُنيبٍ باتَ مُبتَهِلاً ❖ يَتلو الكِتابَ اجتِهادًا لَيسَ يَتَّرِكُ

فقد استخدم لفظ رب، مضافًا إلى ما بعده في القسم، وقصد به ذا الجلال والإكرام.

الكتاب: من الألفاظ التي اكتسبت دلالة جديدة لظهور الإسلام؛ فقد كان يُطلق على التوراة، أو هو اسم لما كُتب مجموعًا أو ما يكتب فيه، أو هو مصدر كتب الشيء، أو هو ما أثبت على بني آدم من أعمالهم، أو بمعنى الغرض والقدر، ثم أصبح يدل في الإسلام أيضًا على القرآن الكريم؛ فتوسع في معناه، وجاء هذا المعنى على لسان حميد حين أعلن إسلامه، ووقف ينشد بين يدي الرسول ﷺ:

حَتى أرانا ربُّنا مُحمّدا ❖ يَتلو مِنَ اللَّهِ كِتابًا مُرشِدا

وقال يرثي عثمان:

وَرَبَّ كُلِّ مُنيبٍ باتَ مُبتَهِلاً ❖ يَتلو الكِتابَ اجتهادًا لَيسَ يَتَّرِكُ

ثانيًا: تداخلُ اللهجاتِ:

كأن يضع اللفظ لأحد المعاني حي من أحياء العرب، ولمعنى آخر حي آخر، ويعلم كل فريق بوضع الآخر، ويشيع الاستعمالان، ثم تجمعت المعاني المختلفة للفظ الواحد في اللغة النموذجية؛ فنشأ الاشتراك، ولم يوضح اللغويون بيئة هذا المعنى أو ذاك إلا نادرًا؛ فالألفة يطلق على الأحمق والأعسر الذي يعمل بيده اليسرى، ولكن المعنى الأول في كلام قيس والآخر في كلام تميم، ثم شاع الاستعمالان.

ثالثًا: تداخلُ اللغاتِ:

وذلك كأن تقترض اللغة العربية لفظة تشبه في لفظتها كلمة عربية؛ لكنها ذات دلالة مختلفة، فالحب يدل على الوداد والمحبة، وعلى الجرة الضخمة أو الخابية التي يجعل فيها الماء؛ لكن اللفظ بمعناه الثاني فارسي معرب.

رابعًا: الاستعمال المجازي أو الاستعارة:

لقد أجمع علماء اللغة المحدثون على أن المعاني الحسية أسبق في الوجود، وأجدر بأن تعد المعاني الحقيقية وغيرها فروع لها عن طريق المجاز، وبناء على ذلك كانت المعاني المتعددة للفظ ترتبط في أذهان العرب الأوائل بالمعنى الأصلي الحسي له ارتباطًا كبيرًا، و بمرور الزمن خفيت علينا الآن هذه العلاقة؛ فمثلًا: حين تدل العين التي وضعت في الأصل لعضو الإبصار في الإنسان على الاعوجاج في الميزان، أو على طائر، أو على السحابة التي تنشأ من ناحية قبلة أهل العراق، أو على مطر أيام لا يُقلع؛ فإن العلاقة لا تتضح لنا الآن بين هذه المعاني، وبين المعنى الأصلي، إلا أن هذه العلاقة كانت موجودة في أذهان العرب الأوائل.

إن لغتنا الجميلة تشتمل على استعارات بديعة صارت من باب المشترك اللفظي، واستعملت في الشعر والنثر، وفي المؤلفات الفنية، والمخاطبات الأدبية، وأثارت الاهتمام فدعت الناس إلى الاستشهاد بها، والتمثيل في المواطن المناسبة، والسياقات الملائمة؛ فكلمة اليد: العضو المعروف قد استعملت استعمالات مجازية عن طريق الاستعارة، مثل: "يد الله" بمعنى قدرة الله، وأعضاء الإنسان كانت ميدانًا واسعًا للاستعمالات الاستعارية أكثر من غيرها من المسميات المادية والحسية؛ لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان، فالرأس والعين والحاجب والقلب، كلها قد استعملت استعمالات مجازية واستعارية، فأثرت بذلك باب المشترك اللفظي، وكانت موردًا عذبًا من موارده.

فقد استعمل العرب "الرأس" استعمالًا استعاريًّا؛ فقالوا: رأس فلان القوم رئاسة، أي: صار رئيسًا عليهم. وعليه جاء قول النمر بن تولب:

ويَومَ الكُلابِ رَأَسنا الجُموعَ ❖ ضرارًا وَجَمعَ بَني منقرِ

وقالوا: هم رأس عظيم، أي: جيش على حياله، وفي الحديث الصحيح: ((رأسُ الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذُروة سِنامه الجهاد في سبيل الله)).

و"العين" تحدثت عنها منذ قليل حيث أطلقوها مجازًا على نفائس الأشياء؛ فقالوا: فلان عين، أي: من خيار قومه، وسموا الذهب عينًا؛ لأنه أنفس المعادن وأحلاها.

أما "الحاجب"؛ فقد أطلقوه على حاجب الشمس، وأرادوا طرفها، وشاهده المشهور قول قيس بن الخطيم:

تبدَّتْ لنا كالشمس تحتَ غمامةٍ ❖ بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

وحواجب الصبح: أوائله، قال عبد الله المحاربي:

حتى إذا الصبح لاحت لي حواجبه ❖ أدبرت أسحب نحو القوم أثوابي

أما "القلب" فقد أطلقوه مجازًا على العقيدة، قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقالوا: فلان سليم القلب، يريدون من كان قلبه خاليًا من الغل والحقد والحسد، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] وقال -جل وعز-: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقالوا: فلان غليظ القلب للجافي القاسي، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقالوا: رجل قلب: إذا كان خالصًا في قومه، وامرأة قلب وقلبة: عقيلة في قومها.

وهكذا حفلت اللغة العربية بهذه الاستعمالات الجميلة في ميدان أعضاء الإنسان، وللشعراء إسهام كبير في إغناء المشترك اللفظي بالاستعمالات المجازية.

خامسًا : التطورُ الصوتيُّ :

كأن تتغير بعض أصوات اللفظ ، أو تحذف ، أو يزاد بعضها عليه ؛ فيتفق في صورته مع لفظ آخر يختلف عنه في المعنى ؛ فينشأ الاشتراك ، وذلك مثل الدعم بالعين حين يدل على القوة والطعن ، فإن المعنى الثاني هذا للدحِ بالحاء ؛ ولكن الحاء تطورت وجهرت بسبب مجاورتها للدال المجهورة ؛ فقلبت إلى نظيرها المجهور وهو العين ، والتبس بالدعم بمعنى القوة فنشأ الاشتراك اللفظي في هذه الكلمة.

سادسًا : العوارض التصريفية :

فقد تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة واحدة ؛ فينشأ عن ذلك تعدد في معناها ، فلفظ الغروب قد يكون مصدرًا لغربت الشمس ، وقد يكون جمع غرب بمعنى الدلو العظيمة ، أو الوهاد المنخفضة.

تلك هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى نشوء المشترك اللفظي في اللغة العربية.

"المشترك" بين غموض الدلالة ووضوحها ، وموقف العلماء منه

على الرغم من وجود ظاهرة المشترك اللفظي بهذا الوضوح ؛ فقد وقف العلماء اللغويون القدامى والمحدثون من هذه الظاهرة مواقفَ مختلفة ؛ فبعض العلماء أقر بوجود هذه الظاهرة في أصل الوضع ، وهذا النفر كثير إذا قورن بغيره من المعارضين لهم ، ومن هؤلاء هذا النفر الذي ألف في هذه الظاهرة كأبي عبيد القاسي بن سلام ، ومقاتل بن سليمان وغيرهما كالخليل بن أحمد ، واليزيدي ، والأصمعي ، والمبرد ، والأزهري ، وابن فارس ، والجوهري ، وابن الجوزي وغير هؤلاء كثير.

وهنالك نفر آخر قليل منهم ابن سيده، رأى أن اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي ألا يكون قصدًا في الوضع ولا أصله، ولكنه من لغات تداخلت، أو تكون كل لفظة تستعمل بمعنٍ، ثم تستعار لشيء؛ فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الأصل، وهنالك نفرٌ أقل من سابقه يرى أن وجود المشترك اللفظي يولد الإبهام أو الغموض أو التعمية، وقد قال بهذا الرأي ابن درستويه أبو محمد عبد الله، المتوفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، حيث وقف من المشترك اللفظي موقفًا متشددًا؛ فالمشترك اللفظي يراه إلباسًا، ويرى أن إدخال الإلباس في الكلام ليس من الحكمة أو الصواب، ورأى أن اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني؛ فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر؛ لَمَا كان في ذلك إبانة بل تغطية وتعمية.

وقد استدرك ابن درستويه على ما قاله بقوله: ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذه العلل، كما يجيء فعل وأفعل؛ فيتوهم من لا يعرف العلل أنهما لمعنيين مختلفين وإن اتفق اللفظان، والسماع في ذلك صحيح من العرب، وإن كان التأويل عليهم خطئًا؛ ثم بين أن المشترك اللفظي إنما يجيء في لغتين متباينتين كأن يضع أحد لفظًا لمعنى؛ ثم يضعه الآخر لمعنٍ آخر، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين، أو يجيء بسبب حذف أو اختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان، وخفي ذلك على السامع، وتأول فيه الخطأ.

وقد شايع هذا الرأي الدكتور إبراهيم أنيس الذي ذهب إلى ابن درستويه كان محقًّا في موقفه من المشترك اللفظي، ورأى أن المشترك اللفظي الحقيقي، إنما يكون حين لا نلمح أي صلة بين المعنيين؛ كأن يقال لنا مثلًا: إن الخال هو أخو الأم، وهو الشامة في الوجه أيضًا، وهو الأكمة الصغيرة، ومثل هذه الألفاظ

التي اختلف فيها المعنى اختلافًا بيِّنًا قليلة جدًّا، بل نادرة لا تكاد تجاوز أصابع اليد عدًّا.

أما السيوطي؛ فقد أقر بأنه لا خلاف في أمر الاشتراك اللفظي على خلاف الأصل، وعلى الرغم من أنه كذلك؛ فقد اختلف الناس فيه فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع، والأكثرون أيضًا على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ، ولعله مما يؤيد قول السيوطي هذا ما قاله سيبويه في باب اللفظ للمعاني: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد. واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين".

وقد نحا نحو سيبويه ابن فارس الذي قسم كلام العرب على هذا النحو الذي قسمه سيبويه، ثم يقول السيوطي: "ومن الناس من أوجب وقوع المشترك اللفظي؛ متعللًا بأن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية؛ فإذا وزعت لزم الاشتراك وذهب بعضهم -والكلام للسيوطي أيضًا. إلى أن الاشتراك أغلب، وعلل ذلك بعلة ردها السيوطي ولم يقبلها.

والضوابط التي وضعها ابن درستويه للمشترك اللفظي، والقواعد التي انتهجها غيره كأبي عبيد في كتابه (الأجناس) من حيث الالتزام في اللفظ المشترك باتحاد الحروف والحركات، هي خير ما يحتذى؛ فليس من المعقول أن تُقبل كل ألفاظ المشترك على ظاهرها؛ لأن كثيرًا من معانيها معان مجازية، وليست أصلية في الوضع، ويبدو أن ابن درستويه وغيره ممن لم يعترف بوجود هذه الألفاظ في العربية؛ إنما يُنكر وجودها في أصل وضع اللغة، وكثيرًا ما يرد هذه المعاني المتعددة للفظ الواحد إلى معنى عام واحد، وممن اشتهر لإنكار هذه الظاهرة أيضًا في العربية أبو علي الفارسي، المتوفى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وهو في الحقيقة قد أنكر وجود مثل هذه الألفاظ في أصل الوضع أيضًا؛ لكنه لا يمنع أن يكون

مثل هذه الألفاظ قد وجدت في اللغة ؛ إما بسبب تداخل اللغة بعضها في بعض، أو بسبب التطور الذي أصاب بعض الألفاظ نتيجة استعمالها في غير ما وضعت له على سبيل المجاز.

ثم إن هذا الاستعمال قد اشتهر وأصبح في درجة الحقيقة ؛ فتعددت المعاني لذلك.

والحق أن هناك اختلافًا كبيرًا بل تضاربًا واضحًا في آراء علماء اللغة في وجود المشترك اللفظي في العربية، وفي أسبابه أيضًا كما يقول الدكتور أمين محمد فاخر في كتابه (الألفاظ المشتركة في العربية دراسة معجمية إحصائية)، فإذا كان إنكار ابن درستويه وأبي علي الفارسي ومن تبعهما لوقوع المشترك اللفظي في العربية راجعًا إلى أنه يستحيل تعدد الواضع ؛ فإن الكثير من العلماء قد ذهب إلى أن من أسباب وقوعه في العربية تعدد الواضع، وربما يرجع هذا إلى أن هؤلاء يرون في نشأة اللغة أنها من وضع البشر، وليست توقيفية من عند الله، وإلى هذا أشار السيوطي فقال، حين تحدث عن المشترك اللفظي: "واختلف الناس فيه ؛ فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع، لجواز أن يقع من واضعين، بأن يضع أحدهما لفظًا لمعنى، ثم يضعه الآخر لمعنًى آخر، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادة المعنيين، وهذا على أن اللغاتِ غير توقيفية".

كما أشار السيوطي إلى أن الإبهام على السامع، الذي أنكره من درستويه قد يكون عند بعض العلماء هدفًا في ذاته لدى المتكلم، حين يستعمل لفظًا ويقصد منه معنى بعيدًا عن ذهن السامع، حيث يكون التصريح والتوضيح سببًا للمفسدة، كما روي عن أبي بكر الصديق > وقد سأله رجل عن النبي ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: من هذا؟ قال: "رجل يهديني السبيل". فمعنى السبيل هنا هو سبيل الله الذي هو طريقُ الهُدَى الذي دعا إليه، فكل ما أمر الله به من الخير ؛ فهو من سبيل الله، أي: من الطريق إلى الله، ولكن أصل السبيل الطريق، وما وضح منه، وهو المعنى المتبادر إلى ذهن السامع.

وقد أحصى الدكتور فاخر قدرًا كبيرًا من الألفاظ المشتركة في العربية، ورآها من باب الاشتراك الصحيح، حين أخرج من هذا الباب كل ما من شأنه أن يخرج عما وضعه العلماء واتفقوا عليه في تحديد معنى المشترك اللفظي؛ فأخرج منها -من الألفاظ المشتركة- ما اختلف فيه المعنى بسبب اختلاف ما تعلق به من مفعول أو غيره، وكذلك بسبب اختلاف المصدر أو اختلاف ما أضيف إليه اللفظ، أو ما وصف به، ونحو ذلك. مثل: أَذِنَ له في الشيء إذنًا: أباحه له، وأَذِنَ له عليه: أخذ له منه الإذن، وأَذِنَ به إذنًا: علم به، وأَذِنَ له أَذَنًا: استمع.

وأخرج مما جمعه أيضًا ما تقاربت معانيه بسبب رجوعها في الأصل إلى معنى واحد، إما لاختلاف الصيغة من معجم إلى معجم آخر، أو رجوع المعاني جميعها إلى معنى عام، مما يجعل هذه المعاني متقاربة من بعض مثل الأطيط، فهو في الأصل معناه الصوت، ولكنه يتفرع كما في المعاجم إلى صوت الرجل، والإبل من ثقل أحمالها، يقالُ: لا آتيك ما أطت الإبل. وكذلك صوت الجوف من الخَوى، وحنين الجذع؛ فكلها معان فرعية ترجع إلى المعنى العام الذي هو صوت.

وأخرج من الألفاظ المشتركة أيضًا ما اشترك في جميع الحروف والحركات إلا في حركة واحدة كـ: "البِرّ" بمعنى خلاف العقوق، والبَرّ بمعنى: خلاف البحر، والبُرُّ جمع بُرة من القمح، كما أخرج من المشترك أيضًا ما زيد فيه التاء، وهي غالبًا ما تكون للتأنيث، ومن ذلك مثلًا لفظ بدنة الذي هو بمعنى الناقة، أو البقرة تنحر بمكة؛ فهذا ليس مشتركًا مع لفظ بدن، الذي هو من الألفاظ المشتركة لدلالته على عدة معان، هي الجسد والمُسِن، والدرع القصيرة، كما أخرج كذلك من المشترك كل الألفاظ التي يجيء اختلاف المعاني فيها بسبب المجاز.

تغيُّر الدلالة وتطوُّرها

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى التغيُّر الدلالي، وأسبابه	٣٦٥
العنصر الثاني :	ـُرق التغيُّر الدلالي	٣٧٣

معنى التغيُّر الدلالي، وأسبابه

١ـ معناهُ:

إن التطور اللغوي، هو: التغيير الذي يطرأ على اللفظ، سواء من ناحية الصوت أو الدلالة، وعلى قواعد اللغة النحوية والصرفية، يُصيب هذا التطور القواعد المتصلة بوظائف الكلمات، وتركيب الجمل، وتكوين العبارة، ونحو ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف، كما حدث في اللغات العامية المنشعبة من العربية؛ إذ تجردت من علامات الإعراب، وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق، واختلفت مناهج تركيب العبارات.

وهنالك نوع آخر من هذا التطور يلحق الأساليب، كما حدث في لغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية أيضًا، إذ اختلفت أساليبها اختلافًا كبيرًا عن الأساليب العربية الأولى، وهنالك تطور يلحق معنى الكلمة نفسه، كأن يخصص معناها العام؛ فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص؛ فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي، ومعاني أخرى تشترك معه في بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم؛ فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما، وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازًا فيه، أو تستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول.

فهناك إذًا تطور صرفي، وآخر نحوي، وثالث دلالي.

إن اللغة كالكائن الحي ينمو ويؤثر ويتأثر، وهي تنمو وتستعمل وتنتقل من جيل إلى آخر؛ لتعبر عن أفكارهم وحياتهم، وهي في انتقالها تؤثر وتتأثر؛ فتموت ألفاظ وتحيا أخرى، وتضيق ألفاظ وتتسع أخرى بدلالاتها، وهذه صفات للغات

الحية، ودليل على حيويتها؛ فاللغة لم تخلق لتوضع في بطون الكتب المقفلة ولا في خزائن العرب، وإنما للاستعمال، والاستعمال يعرضها للمظاهر.

٢. أسبابُهُ:

إن الأسباب التي تؤدي إلى تغيير الدلالة؛ كثيرة؛ منها:

أولًا: كثرةُ استعمال اللفظ:

فكلما كثر استعمال اللفظ تعرض معناه للتغير؛ فيخصص معناه بعد أن كان عامًّا، أو يُعَمم بعد أن كان خاصًّا، أو يستعمل في معنى مجازي يصبح لطول العهد به حقيقيًّا، أو يستعمل اسمًا أو مصطلحًا علميًّا.

وقد رد الدكتور إبراهيم أنيس التطور الدلالي إلى عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته، منهما: الاستعمال، فالألفاظ تُستخدم عبر الأجيال، ونتيجة استخدامها يميل الناس إلى المعاني الخاصة بالألفاظ الهامشية، ويبقى آخرون يشتركون في استعمالها على معناها المركزي، ويرث الجيل التالي ما شاع من دلالات هامشية ومركزية، ومع توالي الأيام يتضخم الانحراف، وتصبح الدلالة الهامشية شائعة، ويبدو للجيل الوارث أن للكلمة معنيين أو دلالتين مع أن الرابط بينهما ضعيف، ومثال ذلك كلمة "الغروب" في أبيات الخليل بن أحمد:

يا ويحَ قَلبي مِن دَواعي الهَوى ❖ إذ رَحَلَ الجيرانُ عِندَ الغُروب

أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا ❖ ودمع عيني كفيض الغروب

كانوا وفيهم طفلة حرة ❖ تفطر عن مثل أقاحي الغروب

فالغروب الأولى في البيت الأول هي غروب الشمس، والغروب الثانية في البيت الثاني، هي جمع غرب، وهو: الدلو العظيمة، والغروب في البيت الثالث، هي جمع غرب. وهي الوهاد العظيمة، وإذا صفحت المعجم، وجدت كلمة الخالي تدل على معان متعددة، وانظر إلى لفظ "العين" حيث ورد في شعر لابن فارس يقول:

يا دار سُعدى بذات الضال من أضم ❖ سقاك صوب حيا من واكف العين

فالعين هنا سحابة تنشأ من قبل القبلة، ثم يقول:

إني لأذكر أيامًا بها ولنا ❖ في كل إصباح يوم قرة العين

فالعين هنا عين الإنسان وغيره، ثم يقول:

تدني معشقة منا معتقة ❖ تشجها عذبة من نابع العين

فالعين هنا ما ينبع منه الماء، ثم يقول:

إذا تمززها شيخ به ـاق ❖ سرت بقوتها في الساق والعين

فالعين هنا عين الركبة، ومعنى الطرق ضعف الركبتين، ثم يقول:

والزق ملآن من ماء السرور فلا ❖ تخشى توله ما فيه من العين

العين ها هنا ثقب يكون في المزادة، وتوله أي: تسرب، ثم يقول:

يُقسّم الود فيما بيننا قسمًا ❖ ميزان صدق بلا بخس ولا عين

العين هنا العين في الميزان وهو الميل فيه، ثم يقول:

وفائض المال يغنينا بحاضره ❖ فنكتفي من ثقيل الدين بالعين

العين هنا المال الناض، ثم يقول:

والمجمل المجتبى تفنى فوائده ❖ حفاظه عن كتاب الجيم والعين

يقصد بـ"العين" كتاب الخليل بن أحمد.

ولو تأملت الخال وتأملت معانيها في أي معجم من معاجم العربية، وجدت لهذا اللفظ معان متعددة؛ فقد يطلق على الشامة وعلى السحاب الممطر، وعلى البرق، وعلى الاختيال والتكبر، وعلى أخي الأم... إلى غير ذلك من المعاني.

ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس ظاهرة الطفرة الدلالية هذه بسوء فهم المعنى أصلًا ؛ إذ قد يكون اللفظ قليل الشيوع ، أو يقتصر استعماله على أساليب معينة ، ولا يقع في تجارب كثيرة فتصاب دلالته بشيء من الغموض ، ويصبح أكثر تعرضًا إلى الانحراف في الدلالة من الألفاظ المحددة الدلالة ، ويضرب لذلك مثلًا آخرَ من عالم الأطفال ؛ فالطفل حين يلعب مع زملائه قد يحتاج إلى اسم لجزء من أجزاء اللعبة ؛ فلا يستطيع الذهاب ليسأل عن اسم ذلك الجزء ، وإنما يطلق اسمًا مولدًا حسب فهمه ، وقياسًا على لفظة أخرى ، أو بناءً على عمل ذلك الجزء ؛ فيسمي "الفرملة" بالوقافة التي هي الكابح مثلًا ، ومثل هذا يحدث مع الجماعات.

وبالإضافة إلى سوء الفهم الناتج عن الاستعمال اللغوي الذي يترتب عليه مدلولات جديدة ؛ فإن بعض الألفاظ تتغير صورتها ، أو تبلى مثل كلمة "قماش" التي تدل في معجم (تاج العروس) على أراذل الناس ، أو ما وقع على الأرض من فتات الأشياء ، ويبدو أن هذا المعنى قد اندثر وحل محله معنى آخر ، هو النسيج ، ربما بسبب تداخل هذه اللفظة مع لفظة فارسية هي "كماش" بالكاف.

إذًا مدلول الكلمة يتغير تبعًا للحالات التي يكثر فيها استخدامها ؛ فكثرة استخدام العامي مثلًا في بعض ما يدل عليه ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله ، من ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ، ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية ؛ كالصلاة والحج والصوم ، والمؤمن ، والكافر ، والمنافق ، والركوع ، والسجود... إلى آخره.

فكل لفظة من هذه الألفاظ لها معنى ، ثم شاع استعمالها بعد الإسلام في معنى آخر ؛ فالصلاة في أصل معناها قبل الإسلام : الدعاء ، ثم شاع استعمالها في

الإسلام في العبادة المعروفة؛ لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى، والحج معناه في الأصل: قصد الشيء والاتجاه إليه، ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام؛ حتى أصبح مدلوله الحقيقي مقصورًا على هذه الشعيرة، وهكذا. ومن ذلك كلمة الرثِّ فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شيء، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يُلبس لكثرة استخدامها في هاتين الطائفتين.

وكثرة استخدام الخاص في معاني العامة عن طريق التوسع؛ تزيل مع تقدم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم. من ذلك "البأس" فهو في الأصل: الحرب، ثم كثر استخدامه في كل شدة، فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه.

وأيضًا "الورد" أصله: إتيان الماء وحده، ثم صار إتيان كل شيء وردًا؛ لكثرة استخدامه في هذا المعنى العام.

و"الرائد" أيضًا في الأصل معناه طالب الكلأ، ثم صار طالب كل حاجة رائدًا، وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي تؤدي غالبًا إلى انقراض معناها الحقيقي، وحلول هذا المعنى المجازي محله، من ذلك كلمات: المجد، والوغى، والغفران، والعقيقة.

فالمجد معناه في الأصل: امتلاء بطن الدابة من العلف، ثم كثر استخدامه مجازًا في الامتلاء بالكرم، حتى انقرض معناه الأصلي، وأصبح حقيقة في هذا المعنى المجازي، و"الوغى" انطلق من اختلاط الأصوات في الحرب إلى الحرب نفسها، و"الغفران" انتقل من الستر إلى الصفح عن الذنوب، و"العقيقة" انتقل معناها من الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه، إلى ما يذبح عنه عند حلقه ذلك الشعر.

وكثرة استخدام الكلمة في العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلي، ويكسبها معنى العموم والإطلاق فتصبح أشبه شيء بأداة من أدوات النفي، ككلمة أحد وديار وقط وأبدًا.

ثانيًا: الحاجةُ:

وقد رآها الدكتور إبراهيم أنيس عاملًا أساسيًّا يؤدي إلى هذا التطور، وقرنها بالاستعمال؛ فاللغة أداة تعبير عن أفكار الناس وحاجاتهم، وأفكار الناس وحاجاتهم في تطور مستمر وتغير، ففي العصر الجاهلي دخل العربيةَ ألفاظٌ من معظم اللغات التي كانت شائعة في التاريخ القديم، ممن خالط العرب كالمصريين القدماء، والفينيقيين والهنود والفرس، والحاجة هي التي ألحت على الناس والعلماء إيجاد ألفاظ تساير التقدم العلمي والحضاري، الذي دخل إلى العرب في العصر العباسي، وهي ذاتها التي تدفع الناس والمجامع اللغوية لوضع ألفاظ تعبر عن حاجاتهم.

وقد أدت حركة الترجمة إلى ابتكار مصطلحات كثيرة دخل بعضها بعد تهذيب إلى العربية، وبقي بعضها على حاله، واستعمل حسب الحاجة، وبعضها تلبس في ألفاظ عربية؛ فجعلها تتسع لتشمل المعاني الجديدة، أو تنتقل من معنى قديم إلى معنى حديث، مما جعل دلالة الألفاظ تتغير، ومن أمثلة ذلك: "الدبابة" فقد كانت هذه اللفظة مستخدمة في إحدى صيغها منذ العصر الجاهلي، ثم أصبحت تدل على آلة حربية في زمن الحروب الصليبية، ثم أصبحت تدل في العصر الحديث على الآلة المعروفة.

ويمكن أن تختار بعض الألفاظ من الصحف أو الكتب، وترجع إلى المعاجم المختلفة لترى عددًا من المعاني، وهذه المعاني الموجودة لم تأت عبسًا، وإنما

بسبب العوامل التاريخية، والاستعمال والحاجة للألفاظ، ويتبين عند مقارنتك معنى الكلمة في العصر الحاضر بمعناها في العصور الغابرة؛ لتدرك مدى التطور الذي ألم بها، ويمكن أيضًا أن تنظر في المعجم الواحد؛ لترى تحت المادة الواحدة معاني كثيرة لبعض الألفاظ، وهذه المعاني لم تظهر دفعة واحدة بسبب التراكمات التاريخية، والثقافية والاجتماعية، التي يمكن أن تؤدي إلى التغير في هذه الدلالات عبر العصور. لاحظ: "السيارة" و"الطيارة" و"الجريدة" و"الصحيفة"، "المحافظة"، "القاطرة"... إلى آخره، ألفاظ أحياها الناس وخلعوا عليها دلالات جديدة تعبر عن حاجاتهم، انظر إلى المعاجم لترى دلالات هذه الألفاظ في القديم والحديث.

ثالثًا: العوامل التي تتعلق بمبلغ وضوح الكلمة في الذهن:

فكلما كان مدلول الكلمة واضحًا في الأذهان قل تعرضه للتغير، وكلما كان مبهمًا غامضًا كثر تقلبه، وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف، ومن العوامل كذلك عوامل تتعلق بأصوات الكلمة؛ فقد يتغير صوت لفظ ليس له علاقة بلفظ آخر؛ فإن ذلك يؤدي إلى اتفاق بينهما من حيث الصورة الصوتية، ويتسبب ذلك في تغيير معناه لاشتباه النطق، واختلاف المعنى على المتكلم، إن ثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها، وتغيرها يذلل أحيانًا السبيل إلى تغيره.

رابعًا: عوامل تتعلق بالقواعد اللغوية:

فأحيانًا تؤدي بعض قواعد اللغة إلى تغيير المعنى؛ فتذكير كلمة "ولد" مثلًا في العربية -ولد صغير- قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالمذكر؛ ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئًا فشيئًا من هذا النوع؛ حتى أصبحت لا تطلق في كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من الذكور، مع أن الولد في العربية الفصحى

يطلق على الذكر والأنثى سواء، ولكن تذكير هذا اللفظ ربط مدلوله في الذهن بنوع الذكور.

خامسًا: عوامل تتعلق بانتقال اللفظ من لغة لأخرى:

بسبب انتقال ما يدل عليه، أو للحاجة إليه في العلوم والفنون، أو لغير ذلك، وربما يستعمل بمعنى يختلف عن مدلوله في اللغة الأصلية؛ فيتعرض للتغيير والتبدل.

سادسًا: عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف:

فكثيرًا ما ينجم عن هذا الانتقال تغير في معاني المفردات، وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق، ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام المفردات في غير ما وضعت له، على طريق التوسع أو المجاز؛ فقد يكثر استخدام الكلمة مثلًا في جيل ما في بعض ما تدل عليه، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلي بعض العلاقات؛ فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد.

سابعًا: أن الشيء نفسه الذي تدل عليه الكلمة قد تغيرت طبيعته، أو عناصره، أو وظائفه، أو الشئون الاجتماعية المتصلة به:

فـ"القطار" كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل، على نسق واحد تستخدم في السفر، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعًا لتطور وسائل المواصلات؛ فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية، و"البريد" كان يطلق على الدابة التي تُحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعًا لتطور الطرق المستخدمة في

إيصال الرسائل؛ فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر.

ثامنًا: اختلاف طبقات المجتمع:

فكل فريق من المجتمع يفهم بعض ألفاظ اللغة على نحو خاص، أو يدخل عليها بعض التغيير الذي يناسبه، والتغيير الاجتماعي نفسه يؤدي إلى تغيير الدلالة؛ فإذا تقدم المجتمع صناعيًّا أو عمرانيًّا أو ثقافيًّا، إلى غير ذلك من مظاهر حياته، فإن ذلك يتبعه تغير في مدلولات بعض الألفاظ، والحالة النفسية أيضًا تؤدي إلى تغيير الدلالة؛ فبعض الألفاظ تكتسب معاني جديدة، تنجم عن آثار نفسية تسيطر على المتكلمين.

طرق التغير الدلالي

إن التغير الدلالي يأخذ أشكالًا عديدة:

أولًا: تخصيص الدلالة:

إن اللفظة توضع للدلالة على شيء أو فعل يتعارف الناس عليه؛ فحين نقول: "كتاب" تتولد في أذهاننا صورة معينة تأخذ شكل كتاب، ومع ذلك فهي ما زالت عامة، إذ يمكن أن يكون الكتاب كتاب الولد، أو المدرسة، أو الكتاب المصور، أو عقد الزواج، أو القرآن الكريم إلى آخره؛ فإذا أردنا تحديد دلالة الكتاب أو تخصيصها؛ نقول: كتاب الطالب، فإذا أردنا التخصيص أكثر، قلنا: كتاب فلان باللغة العربية. ويمكننا إدخال صفات وإضافات تخصص دلالة الكتاب تخصيصًا تامًّا، وكما أن الكتاب قد تخصصت دلالته بهذه الطريقة؛ فإنه يمكن تخصيص الألفاظ بطرق أخرى دون إضافات. وذلك أن يتعارف الناس على دلالة معينة للفظة، ومع مرور الزمن تصبح دلالة اللفظة واضحة محددة.

فمثلًا "العيش": تدل على الحياة وأسبابها، ولكنها في مصر تدل على الخبز، الذي هو من أسباب الحياة، وكلمة "حريم" كانت تدل على كل محرم، وأصبحت تدل على النساء، و"جامع" كانت تدل على صفة المسجد، فيقولون: المسجد الجامع، وهي الآن تدل على المسجد نفسه، والصفات كريم، وحسن، وعزيز... إلى آخره انتقلت لتدل على العلمية، وفاكهة كانت تدل على الثمار كلها، ثم تخصصت إلى ما هو معروف الآن.

إن معنى الكلمة يضيق بمرور الزمان؛ فتتحول دلالتها من معنى كلي إلى معنى آخر جزئي، وتكثر ظاهرة التخصيص الدلالي هذه في مجال المصطلحات العلمية، حيث تجرد الكلمة من دلالاتها المتعددة؛ لكي تدل على معنى معين في بيئة علمية خاصة، ومن ذلك كلمة: "أمر" وهي تعني في بيئة الحاسبات الآلية بيان بعملية يطلب إلى الحاسب تنفيذها. والكلمة عند العرب بمعنى الطلب، وهو ضد النهي، وهذا معنى عام، ثم أصابه التخصيص؛ لأنه يدل على طلب محدد وموجه إلى الحاسب الآلي خاصة، ولك أن تنظر إلى كلمات كثيرة في كتب اللغة ومعاجمها؛ لترى أنها قد انتقلت من معنى عام إلى خاص؛ فبعد أن كان معناها متسعًا صار ضيقًا.

فـ"المأتم" كان يطلق على النساء إذا اجتمعن في خير أو في شر، ويُطلق الآن في الاجتماع في مصيبة الموت خاصة، و"القراري" كان يطلق على الخياط فقط، ثم صار يطلق على كل صانع، هنا انتقل من الخاص إلى العام، ثم نراه ينتقل من الدلالة على كل صانع إلى الدلالة على الصانع الماهر فقط، فيكون بذلك قد انتقل من العام إلى الخاص، وهكذا يتردد اللفظ بين العام والخاص. و"الركعة" كانت تدل على كل قومة من القيام، ثم استعملت في الشرع للدلالة على هيئة مخصوصة في الصلاة، إن الناس في تعاملهم اللغوي يميلون ويفضلون الدلالات

الخاصة؛ لسهولة التعامل بها، ويعمدون أحيانًا إلى الألفاظ ذات الدلالة العامة، ويستعملونها استعمالًا خاصًّا، كما مر من أمثلة، وكما في كلمة "العيال" التي أصبحت تدل على الزوجة، ولكنها أخذت تتجه حاليًا لتتخصص في الدلالة على الأولاد أنفسهم، مع أنها أصلًا تدل على كل ما يعال في الأسرة. وكلمة "meat" في اللغة الإنجليزية تطلق على الطعام عمومًا، ولكنها تدل الآن على اللحم، فانتقلت من معنى عام إلى معنى خاص.

ثانيًا: تعميم الدلالة:

فكما أن بعض الألفاظ يتخصص بدلالات معينة، فإن بعضها الأقل تتسع دلالته، وأكثر مظاهره في لغة الأطفال لقلة ثروتهم اللغوية يطلقون أحيانًا اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملابسة؛ فقد يطلقون اسم حمار على الحصان، أو البغل، أو البقرة، وهناك بعض الألفاظ تستعمل بعموميتها؛ لتنقل ما في مجموعها من معان ودلالات إلى السامع؛ فكلمة البأس التي كانت تدل على القوة والحرب والشجاعة، تطلق الآن على كل شدة بما في ذلك المرض، والسمك كثير الأنواع، ولكننا لا نحفظ من أنواعه إلا القليل، ولهذا نسمي كل الأجناس سمكًا.

وكما أن بعض الصفات تخصصت في المظهر الأول من مظاهر تطور الدلالة، نجد أن بعض الأعلام قد اتسعت دلالتها؛ لتدل على الصفة بعامة، ومنها الأسماء المقترنة بشهرة، مثل: حاتم؛ فنقول: جاء حاتم، ونقصد الكريم.

ثالثًا: انحطاط الدلالة:

فقد تفقد بعض الألفاظ شيئًا من رونقها وهيبتها في ذهن الناس؛ لكثرة دورانها وشيوعها ولأسباب سياسية، واجتماعية ونفسية، فعلى مستوى العامل السياسي، فقدت بعض الألقاب السياسية كثيرًا من هيبتها بعد إلغاء الرتب

والألقاب في مصر، بعد ثورة سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف؛ فأصبحت الألقاب "باشا" و"بك" و"أفندي"، و"سيد" ذات قدر ضئيل بعد أن كانت مرموقة، ثم عادت لتظهر في هذه الآونة من جديد، وبخاصة كلمة "باشا".

ومن الألقاب التاريخية التي أصابها الابتذال كلمة "حاجب"، التي كانت تدل على مقام رئيس الوزراء في الدولة الأندلسية، ولكنها تدل الآن على البواب.

أما على مستوى العامل النفسي العاطفي، فكثيرًا ما تتغير ألفاظ مرتبطة بالغريزة الجنسية، أو المقابح أو العورات، وتحل محلها ألفاظ عامة غامضة، وقد كنى القرآن عن العلاقة الجنسية بألفاظ كريمة، منها الحرث في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والدخول في قوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، والملامسة في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ﴾ [المائدة: ٦]، والرفث في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والمباشرة في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والإفضاء في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] كما عبر عنها أيضًا بالنكاح في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥]، وقد أخذت لفظة النكاح في أذهان العامة معنى يثير الحرج، مع أنها استُخدمت في القرآن مع مشتقاتها ثلاثًا وعشرين مرة بمعنى الزواج غالبًا.

ومما يتصل بالحرج ما تثيره دلالات أسماء الأعضاء الجنسية مما يجعلها في معظم اللغات تتخذ عددًا من المسميات؛ لتحل محل الأسماء الصريحة المبتذلة.

وهنالك أمثلة أخرى دالة على ابتذال الألفاظ التي تدل على القذارة وتبدل مسمياتها، من ذلك ما يتعلق بالتبول والتبرز ومكانهما؛ فإن الذوق الاجتماعي

يمج هذه الألفاظ، ويعبر عنها بكلمات غامضة، فإذا ما اتضحت حلت محلها لفظة أخرى، ولو كانت أجنبية، لاحظ كلمة "الكنيف" الذي هو مكان الغائط والبول؛ فقد تبدلت المسميات كما يلي: الخلاء، الكرسي، بيت الراحة، بيت الأدب، المِرحاض، دورة المياه، التواليت، الحمام، دبلوسي.

ومن الذوق الاجتماعي تسمية الأشياء بأسماء مضادة كالسليم للملدوغ، والمعافى للمريض، والهلاك وهو الذهاب للموت، وكلمة "الأعور"بدأت تبتذل في عصرنا لتصبح معيبة، مع أنها وضعت للدلالة على قوة البصر، وأيضًا المعاقون، صار يعبر عنهم الآن بذوي الاحتياجات الخاصة، ومن أشهر الألفاظ التي كانت تدل على معنى سام ثم انحدرت لتدل على صفة رذيلة هي كلمة طول في طول اليد، إذ كانت تدل على السخاء والكرم، وبها وصف النبي ﷺ زوجه عائشة حين سأله بعض أزواجه: أينا أسرع لحاقًا بك يا رسول الله، فقال # : ((أطولكن يدًا))، لاحظ أن كلمة "طول اليد" الآن تطلق على السارق، ومثلها: نئوم الضحى التي كانت تدل على العزة والرفاهة، بينما تدل في المجتمع العصري الآن على الكسل والخمول.

رابعًا: رُقِيُّ الدلالة:

فكما يصيب الألفاظ انحطاط؛ فإنه يصيبها رقي أيضًا في الدلالة؛ ولكنه أقل حدوثًا وشيوعًا من الانحطاط، فالبيت يدل على بيت الشعر، وهو الآن يدل على البيت المستقل الجميل، ومثل ذلك كلمة "رسول" التي كانت تدل على أي شيء يحمل رسالة، أو أي شخص موفد من قبل الحاكم، ثم أخذت تتخصص وترتقي لتدل على الرسول صاحب الرسالة السماوية، وكلمة "السفرة" كانت تعني طعام المسافر، وهي تعني الآن الطعام الفاخر الذي يعرض على طاولة فخمة، وتدل أيضًا في بعض المجتمعات على الطاولة نفسها.

خامسًا: تغير مجال الاستعمال:

هنالك ألفاظ تخرج دلالتها عن المألوف والواقع إلى شيء مجازي؛ فاليد جزء من الإنسان، ولكننا نقول: يد الباب ويد الإبريق، والرِّجل جزء من الإنسان، ولكننا نقول: رِجْل الطاولة، ورِجل الكرسي، والعين جزء من الإنسان، ولكننا نقول: عين الإبرة، وعين الماء، وعين القبيلة. وينصرف الناس إلى هذا النمط من الاستعمال لتوضيح الصورة أو الدلالة؛ وكثيرًا ما يعمد الأدباء والموهوبون إلى إيجاد صور مجازية توضح أفكارهم، وتجذب انتباه السامعين جذبًا جميلًا.

انظر إلى تصوير أبي ذؤيب الهذلي للمنية إذ يقول:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ❖ ألفيت كل تميمة لا تنفع

فهي حيوان كاسر لا ينفع معه أي سلاح.

وجانب آخر من تغير مجال الاستعمال بالإضافة إلى المجاز: هو توليد المعاني للمشابهة؛ فلفظ البرطيل يدل لغة على حجر طويل عظيم، وهو الآن مرادف للرشوة في بعض البيئات، والرطانة كانت تدل على الإبل، وحركتها وأصواتها، وهي الآن تدل على الكلام الأعجمي، أو غير المفهوم، والقلق مأخوذ من الحركة والاضطراب، وهو الآن مصطلح نفسي يدل على حالة من عدم الاستواء، والشنب هو بريق الأسنان، وهو الآن الشارب.

إن تغير دلالة الألفاظ يُثري اللغة الواحدة، ويبقيها حية على مر العصور، ويجعلها كالنجم النابض، وإذا تأملت شعر المخضرمين الذين عاشوا فترة في الجاهلية، وفترة في الإسلام، سترى تغيرًا في دلالات ألفاظ شعرهم، فالألفاظ التي جاءت في شعرهم قبل الإسلام، تختلف دلالاتها عن الألفاظ نفسها التي استخدمت بعد الإسلام، حين أضفى الإسلام عليها دلالات شرعية؛ فقد كان

لمجيء الإسلام آثار بعيدة المدى في حياة العرب، وعاداتهم ومعتقداتهم، ولغتهم، وأعطى نزول القرآن نموذجًا جديدًا إلى هذه اللغة، دفعها إلى حضارة جديدة. ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الحضارة الإسلامية مادة لغوية جديدة، وقد أطلق العلماء عليها الكلمات الإسلامية.

وأذكرك بشعر حميد بن ثور الهلالي الذي تضمن قدرًا من هذه الكلمات الإسلامية، معظمها كانت تحمل دلالة عامة قبل الإسلام، ثم تخصص معناها بعد الإسلام. واستعملها شاعرنا بهذا المعنى الخاص، وبعضها استخدمها حميد بالمعنيين معًا، قال حميد يهجو الربيع العامري، وذلك حين كان واليًا على اليمامة، أتى بكلب عَقَرَ كلبًا آخر فأقاده، يقول حميد:

شهدت بأن الله حق لقاؤه ❖ وأن الربيع العامري رقيع

أقاد لنا كلبًا بكلب ولم يدع ❖ دماء كلاب المسلمين تضيع

فلفظ المسلم "لم يكن" ذا دلالة دينية في شعر حميد قبل إسلامه، وقبل مجيء رسول الله ﷺ، ثم صار له هذا المعنى الديني الذي تضمنه شعر حميد.

والمَشعر كان يطلق على موضع فيه حمر أو أشجار، ثم بمجيء الإسلام أصبح يدل على مناسك الحج وعلاماته وآثاره وأعماله، وكل ما جعل علمًا لطاعة الله ﷻ كالوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح، وغير ذلك والنسك كان يدل على مطلق التطهير، يقال: نسك الثوب إذا غسله بالماء وطهره، ثم أصبح يدل على الذبيحة والدم يهريقه بمكة المكرمة، وتلك عبادة وطاعة يتقرب بها إلى الله في أثناء فريضة الحج، وفي ذلك تطهير للمؤمن. والهَدي انتقل بمجيء الإسلام من مطلق الهدي، إلى ما يهدى إلى مكة المكرمة من النَّعم.

وعن دلالة الألفاظ الثلاثة هذه -أعني: المشعر والنسك والهدي- قال حميد يرثي عثمان بن عفان > :

تمرّ بنا الأيام تترى وإنّما ❖ نُساق إلى الآجال والعيْنُ تنظرُ

إني ورب الهدايا في مشاعرها وحيث يقضى نذور الناس والنسك

وقال:

فلما قضينا النسك من كل مشعر ❖ خرجن عجالَى وقعهن رشيق

والنذر الذي جاء في بيت حميد كان يدل في الجاهلية على مجرد التزام خير أو شر، يقال: نذرت على نفسي -أي: أوجبت- وبمجيء الإسلام أصبح يدل على ما ينذره الإنسان؛ فيجعله على نفسه نحبًا واجبًا من عبادة، أو صدقة أو غيرها:

إني ورب الهدايا في مشاعرها ❖ وحيث يقضى نذور الناس والنسك

الحلال والحرام، كان الحلال قبل الإسلام يدل على مطلق الإباحة، ويدل الحرام على مطلق المنع، ثم أصبح بمجيء الإسلام يدل الحلال على ما أحله الله والشرع، والحرام على ما حرمه الله والشرع، قال حميد:

بمثوى حرام والمطي كأنه ❖ قنًى مسند هدت لهن خريق

القنا جمع قناة أي: العصا، وجاء من الحلال لفظ تحل، قال حميد:

خلوب لألباب الرجال بدها ❖ حِماها حرام أن تحل محاجره

وجاء من الحرام لفظ محرمة، قال حميد في رثاء عثمان:

والهاتك ستر ذي حق ومحرمة ❖ فأي ستر على أشياعهم هتكوا

والمعصية كانت تدل على مطلق العصيان، ثم أصبحت تدل في الإسلام على عصيان الله، قال حميد يرثي عثمان موجهًا حديثه إلى القَتلة العاصين:

السافكي دمه ظلمًا ومعصية ❖ أي دَم لاهُدوا من غيهم سفكوا

أنواع المعنى

عناصر الدرس

العنصر الأول	: المعنى المفهومي	٣٨٣
العنصر الثاني	: المعنى الإيحائي	٣٩٠
العنصر الثالث	: المعنى التعبيري	٣٩١
العنصر الرابع	: المعنى الاجتماعي "الأسلوبي"	٣٩٥

المعنـــــــى المفهـــــــومي

لم تتفق كلمةُ العلماء على حَصْر أنواع المعنى ؛ إذ فرَّق علماء الدلالة بين أنواع متعددة من المعنى لا بد من ملاحظتها قبل التحديد النهائي لمعاني الكلمات ، وقد اختلفوا في حصر هذه الأنواع ؛ لذلك فإننا نلتقط -وفق منهجنا. هذه الأنواع.

المعنى المفهومي ، هو : المعنى الأساسي للكلمة ، ويسمى كذلك بالمعنى الأولي ، ويسمى -أيضًا. بالمعنى المركزي ، ويسمى -أيضًا. المعنى التصوري ، ويسمى -أيضًا. المعنى الإدراكي.

وهذا المعنى هو العامل الرئيسي للاتصال اللغوي ، والممثل الحقيقي للوظيفة الأساسية للغة : وهي التفاهم ونقل الأفكار ، ومن الشرط لاعتبار متكلمين بلغة معينة أن يكونوا متقاسمين للمعنى الأساسي ، كما يقول الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه (علم الدلالة).

ويملك هذا النوع من المعنى تنظيمًا مركبًا راقيًا من نوعٍ يمكن مقارنته بالتنظيمات المشابهة على المستويات الفونولوجية والنحوية ، ومثَّل لذلك باعتماد المعنى على ملامح التضاد أو المغايرة من ناحية ، وعلى أساس التركيب التكويني أو التشكيلي من ناحية أخرى ؛ فكما أن الملامح المضادة تميز الأصواتَ فونولوجيًّا ؛ فكذلك تميز المعاني التصورية في الدلالة أو في السمات ، ومثل لذلك بكلمة "امرأة" التي يمكن أن يكون من ملامحها أنها إنسانٌ بالغٌ وليستْ ذَكَرًا ؛ فهي تتميز عن كلمة "ولد" التي تملك من الملامح الإنسانية والذكورية بينما لا تملك ملمح البلوغ.

أما الأساس الثاني -ويعني : به الأساس النحوي- فبناء عليه تحلل الوحدات اللغوية الأكبر إلى وحدات أصغر ، أو تجمع الوحدات الأصغر في وحدات لغوية

أكبر، وكما يستخدم هذا المنهج في النحو لتحليل الجملة يمكن استخدامه في السيمانتيك؛ لتحليل المعنى الأساسي أو المعاني الأساسية.

إذًا هذا المعنى المفهومي أو الإدراكي أو المركزي يعتمد على الأصوات ويعتمد على النحو، وحينما نقول النحو؛ فلا نتجاهل الصرف.

إذًا يُسهم الجانب الصوتي ويُسهم الجانب الصرفي ويُسهم الجانب النحوي في تكوين هذا المعنى الأساسي أو المعنى المفهومي؛ ولكي أدلك على أهمية العنصر الصوتي في بناء المعنى الأساسي، أقول لك: إن الوحدات الصوتية حين تتسق وفق نظام لغوي -وهو هنا اللغة العربية- فإن هذه الوحدات تعطي معنًى؛ فالكاف والتاء والباء تنتظم في جذر الكاف والتاء والباء؛ لتدل على الكتابة، وحينما تنضاف إليها وحدة صوتية واحدة، ابتداء من الحركة مثل الفتحة، وانتهاء بالمقطع مثل الألف والسين والتاء؛ فإن هذه الوحدة الصوتية تعطي معنًى إضافيًّا، أي: أنها تحدد الدلالة.

فالجذر الكاف والتاء والباء يدل على الكتابة، ولو أدخلنا الحركة مثل الفتحة مثلًا لدلت "كَتَبَ" على الكتابة من شخص مذكر في زمن ماضٍ، ويتفق على هذا المعنى كل الناطقين بالعربية، ولو قلنا: "كُتِبَ" لدلت الوحدة الصوتية الجديدة -وهي هنا الضمة التي تلت الكاف، مع الكسرة التي تلت التاء- وما تبعها من تغيير على معنى آخر وهو الكتابة من مجهول في الزمن الماضي. وبمعنى آخر؛ فإن الوحدة الصوتية الجديدة جددت المعنى؛ نقلته من معنى محصور في فاعل معلوم يُحدِثُ كتابة إلى فاعل مجهول يُحدِثُ هذا المعنى، ولو قلنا: "كاتَبَ" لدلت الزيادة الصوتية على تبادل شخصين الكتابة في زمن ماضٍ. ولو قلنا: "استكتب"؛ لدلت الزيادة الصوتية -أعني بها: الألف والسين والتاء- على طلب شخص الكتابة في الزمن الماضي، والذي حدد هذا المعنى هو الزيادة الصوتية.

وقد لفت نظرنا إلى أهمية الأصوات في تكوين المعنى علماؤنا القدماء، ومنهم العلامة أبو الفتح عثمان بن جني؛ حيث تُختار أحيانًا أصوات قوية لتدل على معانٍ صلبة، وتختار أحيانًا أصوات ضعيفة للدلالة على معانٍ لينة، وقد ضرب -رحمه الله- أمثلة لهذا بالخضم: لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء، والقضم: للصلب اليابس؛ ولعلك تتذكر ما قاله بصدد الأز والهز: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]؛ فـ"الهز" هنا بالهاء، يناسب حال مريم -عليها السلام- في أثناء المخاض؛ بينما حين قال: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

فـ"الأز" هنا بالهمز، يناسب أز الشياطين على الكافرين؛ لذلك جاء الهمز مناسبًا للمعنى القوي بينما جاء الهز مناسبًا للمعنى الضعيف، والهمزة صوتيًّا أقوى من الهاء؛ فالهمزة صوتٌ -على ما رآه كثير من القدماء والمحدثين- مجهورٌ يهتز معه الوتران الصوتيان، والهاء صوتٌ مهموسٌ لا يهتز معه الوتران الصوتيان بالقدر الذي يحدث في الهمزة، والهمزة صوتٌ شديدٌ ينغلق معه الممر الصوتي فوق الحنجرة؛ بينما الهاء صوت رخو أو مفتوح لا ينغلق معه الممر الصوتي، والجهر صفة قوة، والشدة صفة قوة؛ بينما الهمس صفة ضعف، والرخاوة صفة ضعف أيضًا.

ولاحظ أيضًا الذِّل في الدابة ضد الصعوبة، والذُّل للإنسان وهو ضد العز، وكأن العرب اختاروا للفصل بين الضمة للإنسان والكسرة للدابة؛ لأن ما يلحق الإنسان أكبر قدرًا مما يلحق الدابة، واختاروا الضمة لقوتها للإنسان والكسرة لضعفها للدابة.

وعلى مستوى الجملة تبدو أهمية العنصر الصوتي أيضًا في تحديد الدلالة؛ فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] جاءت الضمة -

وهي وحدة صوتية- لتعين الفاعل الذي يقوم بالخشية، والفتحة -وهي وحدة صوتية- لتدل على من تقع عليه الخشية، بالإضافة إلى القرينة المعنوية التي تحدد المعنى، كما يقول الأستاذ عبد القاهر أبو شريفة في كتابه (علم الدلالة والمعجم العربي)، وكذا في الآية الأخرى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] تأتي الضمة في "رسولُه" -وهي وحدة صوتية- ؛ لتجعل البراءة فقط من المشركين، وجاءت أيضًا لتنبه إلى أن الرسول أيضًا بريء من المشركين.

ويتضح هذا الأمر -كما يقول الأستاذ عبد القادر أبو شريفة- في الأمثلة المصنوعة لعدم وجود قيد معنوي؛ فحين نقول: شكر زيد عمرًا، أو شكر عمرًا زيد، ما زال -مع اختلاف الموقع- وهو الفاعل زيدًا والمفعول به عمرًا، والذي دل على ذلك هو الحركة، مع ملاحظة أن التنوين وحدة صوتية؛ فإذا كان المعنى يعتمد على المادة الأصلية، وهو ركيزة أساسية والمادة الأصلية هي جذر الكلمة وأساسها الخالي من الزوائد، والمحتوي على المعنى الرئيسي الكلمة؛ فإن الوحدات الصوتية تشكله وتتممه، وهذا يجرنا إلى الحديث عن عنصر البنية الصرفية أيضًا.

فالتغييرات على المستوى الصرفي حين تطرأ على أبنية الألفاظ تؤدي معاني جديدة، وما التغيرات إلا وحدات صوتية تكون إما سابقة أو لاحقة أو داخلة في الكلمة، مثل: يضرب وضارب وضربت؛ فالياء المضارعة سابقة، والتاء في "ضربتُ" لاحقة، وألف "ضارب" داخلة في الكلمة أو حشو؛ فالدرس الصوتي يرتبط بالدرس الصرفي، والدرس الصرفي يعتبر مقدمة للدرس النحوي وملازمًا له؛ لأن اهتمام الصرف ببنية الكلمة إنما هو لاستعمالها في تركيب نحوي.

ومن المعروف أن لكل قسم من أقسام الكلام دلالةً، فالاسم إذا كان مصدرًا؛ فإنه يدل على الحدث مثل الكتابة والمعرفة، وإذا كان علمًا؛ فإنه يدل على شيء

ذات أو معنى كخالد وحسن ورجل وشجرة وهواء، والفعل يدل على الحدث في زمن معين: ماض، أو حاضر، أو أمر؛ وأما الحروف فهي أدوات تربط الكلام، ليس لها معنى محدد دون الجملة، بمعنى أن لها دلالة نحويةً، وأي تغيير في بنية الكلمة فإنه يؤثر في المعنى الذي تؤديه، وأبناء اللغة الواحدة يتعارفون ويرثون النظام اللغوي مما يجعل للتغيير دلالة واضحة؛ ولذلك نراهم يميزون بين "فعل" و"أفعل"؛ فحضر تفيد معنًى غير أحضر؛ فحضر يُفهَم منها -أو يفهم الشخص العربي منها أن شخصًا أو شيئًا ما قد حضر، أما أحضر فإننا نحس أن شخصًا ما قام بإحضار شيء.

وقد تنبه ابن جني إلى أهمية العنصر الصرفي حين فرق بين مَفعل ومِفعل؛ إذ جعل الميم المفتوحة تدل على الحدث: وهو المصدر، كما تدل على الثبات، في مقابل الميم المكسورة التي تدل على اسم الآلة غير الثابت، قولهم للسلم: مِرقاة، وللدرجة: مَرقاة؛ فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقي، وكسر الميم مما يعتمل عليه به؛ كالمطرقة، والمئزر، والمنجل، وفتحة ميم مَرقاة تدل على أنه مستقر في موضعه؛ كالمنارة، والمثابة.

هكذا أرشدنا ابن جني إلى الفارق الدلالي بين الأمرين بناء على الوحدة الصوتية الصرفية.

ومن ذلك أيضًا ملاحظته أن العرب تصف بالمصدر؛ فيقولون: رجل عدل، بدلًا من قولهم: رجل عادل، وهذا هو الأصل -كما يقول الدكتور عبد القادر أبو شريفة- أو قولهم: رجل شر، بدلًا من شرير؛ وإنما انصرفت العرب عن الأصل في بعض الأحوال إلى أن وصفت بالمصدر لأمرين: أحدهما: صناعي مادي، والآخر: معنوي.

أما الصناعي فليزيدك أنسًا بشبه المصدر للصفة، وأما المعنوي فلأنه إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل؛ وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه، هذا كلام ابن جني. وبمعنى آخر: أصبح الرجل مبالغًا في وصفه بالعدل أو الشر كأنه مخلوق من أحدهما لكثرة اعتياده فعل الشر أو فعل العدل، وابن جني يقرر قاعدتين هما: إنابة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول، والمبالغة في دلالتهما حين يستعمل بدلًا منهما.

والعنصر النحوي أو التركيبي يساعدنا أيضًا علىَ فهم وظيفة كل كلمة في التركيب، والإعراب في اللغة العربية يقوم بدور أساسي في تحديد الوظائف النحوية للكلمات من خلال حركاته التي تفرق بين كلمة وأخرى بالاشتراك مع العنصر الصرفي، الذي يميز بين الاسم والفعل والحرف؛ فحين نقول: "بلَّغ محمدٌ الرسالةَ"، تكون الجملة على الأصل: فعل ففاعل فمفعول به، ويفهم السامع الخبر، ولكن لو قال القائل: "محمدٌ بلَّغَ الرسالةَ"؛ فإنه خرج عن الأصل في الترتيب لهدف، وهو التركيز على الفاعل؛ فأخرجه من موقعه وقدمه إلى بؤرة المعنى، وجاءت الجملة: "بلَّغَ الرسالةَ"، متممةً للمعنى مخبرةً عن محمد، ولو قال القائل: "الرسالةُ بَلَّغَ محمدٌ"؛ فإن "الرسالة" تقدمت إلى بؤرة المعنى؛ فهذه المعاني الجديدة حصلت بسبب التركيب الجديد.

ومن الأمثلة التي تبين أهمية التركيب في تحديد وظائف الكلمات -كما يقول أبو شريفة- صيغة "سائل"، التي تحير السامع في مدلولها؛ أهي اسم فاعل من سأل، أم من سال، أم هي اسم، أم أنها فعل أمر؟ وهنا لا بد من التركيب الذي يحدد معناها؛ فحين نقول: سأل سائل، يتجه معناها إلى شخص عادي يسأل، وإذا قلنا: أعطيت السائل درهمًا؛ كان هذا السائل متسولًا أو محتاجًا، وإن قلتَ:

حالات المادة ثلاث، وعددت السائل منها؛ دل على أنها مشتقة من سال، وإن قلت:

سائل العلياء عنا والزمانا ❖ ....

فإنك تعني: اسأل؛ فهي فعل أمر.

والفعل الماضي يدخل من حيث الصياغة على أن الحدث قد وقع في الزمن الماضي؛ ولكن تركيب الجملة قد يجعل الماضي يتحول إلى المستقبل في مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١- ٣]؛ فالفعل جاء ماضيًا؛ ولكنه من حيث المعنى أصبح يدل بسبب الشرط: ﴿إِذَا﴾ على المستقبل، وكذلك الفعل رأى؛ لأنه معطوف عليه. أما الفعل الناقص كان؛ فنقول في إعرابه: فعل ماض ناقص؛ وبسبب المعنى فإنه يدل على الاستمرار؛ لأن الله تواب.

والفعل المضارع يرتبط بالزمن الحاضر، ومن المحتمل أن يدل على المستقبل؛ ولكن التركيب يجعل دلالته تتحدد لتدل على شيء ثابت؛ فإن قلت: "يقرأ الطالب الآن"، دلت على الزمن الحاضر، وإن قلت: "يقرأ الطالب غدًا"؛ دلت على المستقبل؛ كأنك تقول: سيقرأ، ومن جهة أخرى إذا دخلت عليه "لم"؛ غيرت دلالته الزمنية لتشير إلى الماضي، نحو قولك: "لم أدرس"، أي: ما درست حتى الساعة، وعلى عكس ذلك إذا دخلت "لن"؛ فإنها تدل على الزمن المستقبل، كقولك: "لن أدرس".

والفعل الأمر أيضًا معناه: طلب عمل الفعل على وجه الإلزام للمخاطب؛ فحينًا تقول: "اجلس"، تأمر المخاطب بالجلوس، ولكن التركيب يحدد وقت الجلوس ما إذا كان الآن أم في المستقبل، كقولك: احضر غدًا.

ومن جهة أخرى قلنا -والقول لعبد القادر أبي شريفة-: إن الفعل الأمر يعني: طلب العمل على وجه الإلزام؛ لكن أي إلزام في قولنا: اللهم صل على محمد، أو ربنا اغفر لنا؟ فالسياق أو القرينة المعنوية تجعل الأمر يخرج عن المعنى الحقيقي إلى معنى آخر كالدعاء في المثالين السابقين.

إذًا التركيب النَّحْوي مهمٌّ جدًّا في تحديد المعنى، وتتعاون العناصر الصوتية والصرفية والنحوية لتحديد هذا المعنى.

المعنى الإيحائي

هو: المعنى الذي يتعلق بكلمات ذات مقدرة خاصة على الإيحاء؛ نظرًا لشفافيتها، وينقل الدكتور أحمد مختار عمر عن العالم "أولمن" تأثيرات هذا النوع من المعنى؛ حيث حصر "أولمن" هذه التأثيرات في ثلاثة: هي التأثير الصوتي، والتأثير الصرفي، والتأثير الدلالي:

أمَّا التأثيرُ الصوتيُّ: فرآه نوعين:

الأول: تأثير مباشر.

والآخر: غير مباشر.

التأثير المباشر: وذلك إذا كانت الكلمة تدل على بعض الأصوات أو الضجيج الذي يحاكيه التركيب الصوتي للاسم، ويمكن التمثيل له ببعض الكلمات العربية كصليل السيوف، ومواء القطة، وخرير الماء.

وأما النوع الثاني -وهو التأثير غير المباشر-: فمثل القيمة الرمزية للكسرة التي ترتبط في أذهان الناس بالصغر أو الأشياء الصغيرة.

أما التأثير الصرفي: فيتعلق بالكلمات المركبة والكلمات المنحوتة؛ كالكلمة العربية: "صهصلق" من صهل وصلق، و"بحتر" من بتر وحتر.

وأما التأثير الدلالي: فإنه يتعلق بالكلمات المجازية.

المعنى التعبيري

لكي تفهم المعنى التعبيري أوقفك أولًا على ما يسمى بالوحدة الدلالية "Semantic Unit".

وتختلف وجهات النظر اللغوية حول تعريف هذه الوحدة؛ فمنهم مَن قال: إنها الوحدة الصغرى للمعنى، ومنهم من قال: إنها تتكون من الملامح التمييزية، وبعضهم اعتبرها هي النص؛ فبعض العلماء ينظر إلى النص على أنه الوحدة الأساسية للمعنى اللغوي؛ فالنص بالنسبة لعلم الدلالة كالجملة بالنسبة لعلم النحو، هكذا يرى بعض العلماء.

ويرى بعض العلماء أن الوحدة الدلالية تتكون من مستويات متعددة، وقد قسمت هذه الوحدة إلى أربعة مستويات أو أربعة أقسام رئيسية: هي الكلمة المفردة، ثم ما هو أكبر من الكلمة -أي: التركيب. ثم ما هو أصغر من الكلمة، وهو المورفيم المتصل، ثم ما هو أصغر من المورفيم وهو الصوت المفرد.

ومن وجهة نظر بعض العلماء الذين يؤمنون بهذا التقسيم تعد الكلمة المفردة أهم الوحدات الدلالية؛ لأنها تشكل أهم مستوى أساسي للوحدات الدلالية؛ حتى اعتبرها بعضهم الوحدة الدلالية الصغرى.

أما الوحدات الدلالية الأكثر شمولية، وهي المتركبة من وحدات على مستوى الكلمة، فنعني بها: تلك العبارات أو التراكيب التي لا يُفهم معناها الكلي بمجرد فهم معاني مفرداتها وضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، وفي هذه الحالة يوصف المعنى بأنه تعبيري ويدخل تحت هذه الوحدة: الأنواع الثلاثة الآتية: التعبير، التركيب الموحد، المركب.

فمثال التعبير: كل التعبيرات المكوَّنة من تجمع من الكلمات يملك معاني حرفية، ومعنى غير حرفي، مثل له الدكتور أحمد عمر بالتعبير العربي: "ضرب كفًّا بكفٍّ"، الذي يحمل معنى تحير.

أما التركيب الموحد: فهو يختلف عن الكلمة المركبة التي يقصد بها الكلمة المكونة من مورفيم حر، بالإضافة إلى مورفيم متصل أو أكثر، أو المكونة من مورفيمين متصلين أو أكثر، وقد عرِّف التركيب الموحد هذا بأنه: ما يتكون من اثنين أو أكثر من الصيغ الحرة، أو ما يتكون من مجموعة كلمات يتصرف تجمعها ككل بطريقة مختلفة عن الطبقة الدلالية للكلمة الرئيسية، ومثل له الدكتور مختار عمر أيضًا بـ"البيت الأبيض" الذي لا يشير إلى مبنى ولكن إلى مؤسسة سياسية؛ وعلى هذا فحين يصنف دلاليًّا لا يمكن وضعه مع الكلمات التي تدل على الإقامة: كالبيت والقصر والكوخ؛ ولكن يجب أن يوضع ضمن المجال الذي يتعلق بالمؤسسات الحكومية.

أما المركبات أو التعبيرات المركبة: فتختلف عن التركيبات الموحدة في أن الكلمة الرئيسية فيها ما تزال تنتمي إلى نفس مجالها الدلالي، وأما الجملة فيعتبرها بعض اللغويين من أهم وحدات المعنى؛ بل يعتبرها بعضهم أهم من الكلمة نفسها، وعند هؤلاء لا يوجد معنى منفصل للكلمة؛ وإنما معناها في الجملة التي ترد فيها، فإذا قلت: إن كلمة أو عبارة تحمل معنى؛ فهذا يعني أن هناك جملًا تقع فيها الكلمة أو العبارة، وهذه الجمل تحمل معنى.

أما الوحدة الدلالية التي تعد أقل من كلمة؛ فتتمثل في المورفيم المتصل، ويشمل ذلك السوابق واللواحق؛ فالسوابق مثل أحرف المضارعة، واللواحق مثل الضمائر المتصلة.

أما الوحدة الدلالية التي تعد أقل من مورفيم فمثل دلالة الضمة على المتكلم: كتبتُ، والفتحة على المخاطب كتبتَ، والكسرة على المخاطبة كتبتِ، ومثل دلالة الضمة على البداوة والكسرة على الحضارة في اللغة العربية؛ فإذا رويت لنا كلمة بروايتين إحداهما تشتمل على ضم في موضع معين من هذه الكلمة والرواية الأخرى تتضمن الكسر في الموضع نفسه من الكلمة؛ رجحنا أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمي إلى البيئة البدوية، وأن المشتملة على الكسر تنتمي إلى البيئة الحضارية.

فكلمة "أسوة" التي تنطق بضم الهمزة وبكسرها: أُسوة وإِسوة، وبهما قرئ في القرآن الكريم، وكذلك "قُدوة" بضم القاف وكسرها أيضًا: قِدوة، روايتان ذكرتهما المعاجم العربية؛ فقد مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفي المسمى بالضمة على مقياس "دانيال جونز"؛ لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية؛ فحيث كسرت القبائل المتحضرة؛ وجدنا القبائل البدوية تضم، والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان؛ لأنهما من أصوات اللين الضيقة -ولعلك تعرف معنى هذا من ثقافتك الصوتية.

ومثل هذا يقال عن ميل البداوة إلى الأصوات الشديدة والحضارة إلى الأصوات الرخوة، مثل: فاضت نفسه، وفاظت نفسه، فالضاد صوت شديد والظاء صوت رخو، واللفظان يدلان على الموت، وكذلك تميل البداوة إلى الأصوات المجهورة، بينما تميل الحضارة للأصوات المهموسة، كقراءة ابن مسعود: "عتى حين"، في ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥].

معنى المورفيم:

المورفيم: هو أصغر وحدة لغوية ذات معنى، وقد درسه المحدثون تحت ما سموه بعلم المورفولوجيا أو علم الصيغة أو البنية، والمعاني التي يعبر عنها المورفيم هي

معانٍ وظيفية تحدد نوع الكلمة من حيث الاسمية والفعلية، أو تحدد نوعها من حيث التذكير والتأنيث أو تحدد عددها من حيث الإفراد والتثنية والجمع... وغير ذلك من المعاني والوظائف التي تؤديها الإضافات أو الإلصاقات المحدودة للصيغ الصرفية، والمتمثلة في السوابق واللواحق والأحشاء المسماة أيضًا بالدواخل.

فإذا تأملت "استخرج"؛ فإنه يمكنك تحليل هذا البناء إلى عدة وحدات: هي الألف والسين والتاء وتعد سابقة، وهي تعبر عن مورفيم الطلب، ثم لاحظ الجذر الثلاثي: الخاء والراء والجيم، وهو يدل على المعنى الأصلي، ثم لاحظ الصيغة كلها، وهي تدل على الزمن الماضي.

ومن الواضح أن أي وحدة من تلك الوحدات لا يمكن تقسيمها إلى وحدات متشابهة ذات معنى؛ ومن ثم فإن كل واحدة منها تعد مورفيمًا، وفي علم الصرف مورفيمات لها أسماء خاصة؛ فالطلب مورفيم وتعبر عنه صيغة استفعل، والصيرورة مورفيم وتعبر عنه صيغة انفعل، والمطاوعة مورفيم وتعبر عنه صيغة أفعل، والتعدي واللزوم مورفيم ويعبر عنهما فعل، والافتعال مورفيم وتعبر عنه صيغة افتعل، والتكسير مورفيم وتعبر عنه صيغ التكسير، والتصغير أيضًا مورفيم وتعبر عنه صيغ التصغير: فعيل، وفعيعل، وفعيعيل، والوقف أيضًا يعد مورفيمًا ويعبر عنه بعدم الحركة.

ولا تقف المورفيمات عند الصيغ الصرفية؛ وإنما تتخطاها إلى حركات الإعراب والإلحاقات وغيرها...

وقد وقف الباحثون على صور للمورفيمات في اللغات المختلفة، وأهمها: نوعان أساسان:

الأول: المورفيم الحر: وهو الذي يمكن أن يأتي مستقلًّا، مثل الضاد والراء والباء في "ضربت"... وغير ذلك مما يسمى بالأصل أو الجذر: الخاء والراء والجيم، جذر الفاء والتاء والحاء جذر... وهكذا.

الثاني: المورفيم المتصل أو المقيد: وهو الذي لا يأتي مستقلًّا بنفسه؛ وإنما يستعمل دائمًا مع غيره مثل التاء في البناء السابق: ضربتُ، وغير ذلك مما يسمى بالسوابق واللواحق أو الأعجاز، والدواخل أو الأحشاء.

وأشهر السوابق أو الصدور في العربية: حروف المضارعة، وهمزة التعدية، والألف والسين والتاء في الاستفعال، والتاء المفتوحة في تفعل وتفاعل، والتاء والميم في تمفعل كتمنطق... وغير ذلك من كل ما جاء في أول الكلمة؛ ليؤدي معنى صرفيًّا معينًا.

وأشهر اللواحق أو الأعجاز في العربية: الضمائر المتصلة، ونون الوقاية، وحركات الإعراب وحروفه، وعلامات التأنيث، وغير ذلك من كل ما ألحق بآخر الكلمة وأدى معنى وظيفيًّا نحويًّا أو صرفيًّا.

وأشهر الدواخل أو الأحشاء في العربية: تاء الافتعال، والتضعيف في مضعف العين من الثلاثي، والفاء المكررة من نحو هدهد، وغير ذلك من كل حشو جاء في وسط الكلمة ليؤدي معنى صرفيًّا معينًا فيها. وشرط الحشو: أن يكون بين حرفين أصليين، وتشمل جموع التكسير كثيرًا من الصدور والأحشاء والأعجاز؛ كما تحتوي على كثير من التغيرات الداخلية.

المعنى الاجتماعي "الأسلوبي"

لقد أدرك اللغويون العرب أن اللغة ظاهرة اجتماعية يعبر الناس بها عن أفكارهم، ويتخير الإنسان عادة ألفاظه وينظمها في جمل حسب ما يحس به

داخليًّا ؛ كالرغبة أو الكره، وحسب الظروف الاجتماعية المحيطة بكل ما فيها من بشر وأشياء حسية ومعنوية ؛ فتعبيره أمام جمهور مثقف يختلف عن تعبيره أمام غير المثقف ؛ ولهذا قالوا في علم البلاغة : لكل مقام مقال.

والألفاظ تعيش مع الناس وتنتقل من جيل إلى جيل، وهي بانتقالها تكتسب دلالات اجتماعية يتعارف الناس عليها ؛ فقد يتسع مدلولها وقد يضيق ويتخصص، وقد يصبح اللفظ مبتذلًا. والثقافة المشتركة بين السامع والمتكلم ضرورية ؛ حتى يتفهم الطرفان ويدركَا المعنى.

ومع أهمية العنصر الاجتماعي في تحديد المعنى إلا أنه يصعب وضع قواعد لتحديد الدلالة الاجتماعية ؛ لاختلاف العناصر الاجتماعية وسعتها.

وقد حاول العالم الإنجليزي "فيرث" تحديد أطر عامة رآها عناصر أساسية تؤثر في فهم الحدث اللغوي على المستوى الاجتماعي، وهي المظاهر الوثيقة الصلة بالمشاركين والسامعين، وتتضمن : كلام المشاركين وأفعالهم وتصرفاتهم في أثناء الكلام - وأيضًا الأشياء الوثيقة الصلة بالموقف - ثالثًا : أثر الحدث الكلامي. وهو بهذا يضيف إلى العناصر الصوتية والصرفية والنحوية عنصرًا جديدًا : وهو سياق الحال، أو المقام، أو السياق غير اللغوي، ويراه مفيدًا في تحليل الحدث اللغوي ومنعكسًا على المستويات السابقة.

وقد أشار ابن جني إلى أهمية سياق الحال في المعنى، وقد سبق بما قاله -كما سبق نظراؤه من علماء العربية القدامى- سبقوا كل أصحاب هذه النظرية السياقية، سواء كانوا من علماء اللغة أو الاجتماع من الغرب أو العرب.

لقد أشار ابن جني إلى أهمية سياق الحال في المعنى حين عقد بابًا عنوانه : باب : في أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها،

تحدث فيه عن شغف العرب بلغتهم وتعظيمهم لها واعتقادهم أجمل الجميل فيها، وقد عقب على بيت الشاعر الذي يقول:

تقول وصكت وجهها بيمينها ❖ أبعلي هذا بالرحى المتقاعس

وهو من البحر الطويل للشاعر نُعيم بن الحارث بن يزيد السعدي، يقول ابن جني: فلو قال حاكيًا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟ من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة؛ لكنه لما حكى الحال فقال: "صكت وجهها"؛ علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير شاهد لها؛ ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، ولو قيل: ليس المخبَر كالمعاين، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: "وصكت وجهها"؛ لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها.

فابن جني هنا يشير إلى أهمية الحدث الكلامي: "قالت: أبعلي" كما يشير إلى الحدث غير الكلامي: "وصكت وجهها"؛ كما يشير أيضًا إلى أثر الحدث الكلامي؛ فمن شاهدها وسمعها كان أشد تأثرًا بها.

وفي سياق تأكيد أهمية المشاهدة للظروف المحيطة بالحدث الكلامي، رأى أن الحمالين والحمامين والوقادين ومن يليهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده، ثم زاد الأمر وضوحًا حين قال: أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر؛ فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه، فيقول له: يا فلان، أين أنت؟ أرني وجهك، أقبل عليَّ أحدثك، أما أنت حاضر يا هناه. فإذا أقبل عليه وأصغى إليه؛ اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه... أو نحو ذلك؛ فلو كان استماع

الأذن مغنيًا عن مقابلة العين مجزئًا عنه ؛ لما تكلف القائل ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه، وعلى ذلك قال الشاعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ❖ من العداوة أو ودًّا إذا كانا

وهو من البحر البسيط ذكره الجاحظ في (البيان والتبيين) وقبله:

والعين تنطق والأفواه صامتة ❖ حتى ترى من ضمير القلب تبيانا
من العداوة أو ودًّا إذا كانا ❖ العين تبدي الذي في نفس صاحبها

ثم يقول ابن جني: وقول الهذلي أبو خراش خويلد بن مرة:

رَفَوني وَقالوا يا خُوَيلِدُ لا تُرَع ❖ فَقُلتُ وَأَنكَرتُ الوُجوهَ هُمُ هُمُ

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلًا على ما في النفوس، وعلى ذلك قالوا: رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة.

كما أشار ابن جني أيضًا إلى أهمية تعبيرات وجه المتكلم للمتكلم والمشاهد معًا، حين تدل على دلالات تساعد المتكلم على الاختصار، والمشاهد على فهم المراد؛ إذ يقول: وكذلك إذا ذممت إنسانًا ووصفته بالضيق قلتَ: سألناه وكان إنسانًا... وتزري وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا أو نحو ذلك.

كما ضرب أمثلة أخرى لقيام الحركة والإشارة مقام اللفظ حين قال: ومن ذلك - أي: ما حذف من الأفعال وأنيب عنه غيره-: ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة، نحو قولك إذا رأيت قادمًا: خيرَ مقدم، أي: قدمت خير مقدم. فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب، وكذلك قولك لرجل يهوي بالسيف ليضرب به عمرًا: القرطاس والله، أي: اضرب عمرًا، وأصاب القرطاس، فَهَا ونحوه لم يرفض ناصبًا لثقله؛ بل لأن ما ناب عنه جارٍ عنده مجراه ومؤدٍّ تأديته، وقد ذكرنا في كتابنا الموسوم بالتعاقب من هذا النحو ما فيه كافٍ بإذن الله.

انتهى كلام ابن جني -رحمه الله.

ونلحظ أن الإشارة في نظرية ابن جني تتسع لتشمل: الإشارات والإيماءات والتلويحات والحركات الجسمية... ونحوها، وهو يتلاقَى بهذا مع ما ذهب إليه قبله الجاحظ الذي أرسى مبادئ علم الحركة الجسمية، والتي تعد الإشارة من أهم أركانه.

وتأكيدًا للفكرة نفسها -وهي أهمية المشاهدة في الحدث الكلامي- يقول ابن جني: وقال لي بعض مشايخنا -رحمه الله-: أنَا لا أحسن أن أكلم إنسانًا في الظلمة، ونجد في تراثنا وعند علمائنا القدماء ما يشير إلى أهمية السياق غير ما ذكره الجاحظ وابن جني؛ فها هو ابن القيم -المتوفى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة- يشير إلى السياق وأهميته، ويعده من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم؛ فمَن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظراته؛ لأنه هو الذي يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، كما ذكر أن عناصر السياق أو الألفاظ لا تُقصد لذواتها؛ وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم؛ فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق عُمِلَ بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو إيماءة، أو بدلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مطردة لا يخل بها.

الأضداد والترادف

عناصر الدرس

العنصر الأول	: معنى الأضداد، وأشهر المؤلفات فيها	٤٠٣
العنصر الثاني	: آراء العلماء في الأضداد، ووقوعها في القرآن الكريم	٤٠٨
العنصر الثالث	: أسباب نشأة الأضداد	٤١٥
العنصر الرابع	: معنى الترادف، وشروطه عند من قال به	٤٢٠

معنى الأضداد، وأشهر المؤلفات فيها

١. معنَى الأضدادِ:

إذا وجد لفظ يدل على معنيين متباينين متضادين، فإن ذلك يسمى بالمتضاد، ولا نعني بالأضداد ما يعنيه علماء اللغة المحدثون من وجود لفظين يختلفان نطقًا ويتضادان معنًى؛ كالقصير في مقابل الطويل، والجميل في مقابل القبيح؛ وإنما نعني بالأضداد مفهومها القديم -الذي ذكرته الآن-: وهو اللفظ المستعمَل في معنيين متضادين.

وأسوق أمثلة مما وقع منه في الكلام الفصيح: لفظ آدم يدل على البياض والسواد، تأمل قول حميد بن ثور وهو الشاعر المخضرم الموثوق في شعره، يصف ناقة قوية موثقة الخلق متصلة الفقار، تراها كأنها عظم واحد، بيضاء تصرف بأنيابها، عظيمة الوسط والبطن ضامرة الصدر، وسريعة:

أُجُدٌ مداخلةٌ وآدَمُ مُصلِقٌ ❖ كَبداءُ لاحِقةِ الرَّحا وَشَميذَرُ

وتأمل قوله أيضًا يصف نسوة تنحين عن مكان سهل كثير الدهس أو رمل تغيب فيه الأرجل تجمعت فيه الخيل في حيزٍ واحدٍ، وذلك بعد أن شربن بأيديهن التي أصبحت جلدها أسود من شدة الحر ولهيب الشمس:

تنبذن من وعث الكتائب ❖ بعدما شرعن بأيدٍ أدمها كل آدم

قارن لفظ آدم في البيتين؛ تجد حميدًا استخدمه بمعنى البياض في البيت الأول، بينما استخدم اللفظ نفسه بمعنى السواد في البيت الآخر.

وتأمل لفظ "عفا" في قول الشاعر نفسه في ربع عفا ودرس؛ حيث عدت عليه ريح باردة ساقت عليه التراب، يقول:

عفا الربع بين الأبرقين ودعدعت ❖ به حَرْجَفٌ تزف البرى وتسوق

الأبرقان: هما أبرقا حجر اليمامة الذي هو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللوى للقاصد مكةَ، و"دعدعت" أي: مشت في الْتِواء وبطء، لاحظ معنى "عفا" هنا؛ فعفا هنا يدل على الدرس؛ بينما استخدمه بمعنى آخر، ولاحظه حين يتحدث عن ناقة كثر شعر ظهرها وطال فغطى دبرها:

عفت مثلما يعفو الطليح وأصبحت ❖ بها كبرياء الصعب وهو ركوب

"الطليح" يعني: البعير الهزيل؛ إذًا جاء اللفظ في البيت الأول -وهو عفا. بمعنى الدرس؛ بينما جاء اللفظ نفسه في البيت الآخر بمعنى الكثرة.

وانظر لفظ "ولى" أيضًا في شعر حميد نفسه حين دل على الإقبال وعلى الإدبار، يقول حميد يصف جملًا استقبل أكمةً بخفه:

عَبَنٌ مَرِيط الحاجبين إذا خدا ❖ على الأُكْم ولاها حذاءً عثمثما

"الجمل العبن": الضخم عظيم الجسم، و"مريط الحاجبين": خفيف شعرهما، و"العثمثم": القوي الشديد، ولاحظ اللفظ نفسه حين قال حميد يصف جمالًا تجري بسرعة:

تنازعن سيرًا يوم ولّت جماها ❖ تسيب نِزاعًا لا يغالب أقدما

إن اللفظ دل على الإقبال في البيت الأول؛ بينما دل على الإدبار في البيت الآخر.

وقد استشهد الأزهري ومعه السجستاني لمعنى الإقبال بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وبقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، كما استشهد لمعنى الإدبار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وبقوله تعالى: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [البقرة: ١١١]، إذا رجعت إلى (تهذيب اللغة) للأزهري، و(لسان العرب) لابن منظور في مادة الواو واللام والياء، ستجد هذا.

وانظر إلى لفظ "خفي" في ديوان الشاعر نفسه، تجده يدل على الظهور واللمعان تارة كما يدل على الخفاء تارة أخرى، قال حميد يصف برقًا ظهر ولمع، ويشبهه بالطير حين تفتح عيونها وتغمضها، كأنها تجلي بذلك قذاها؛ ليكون أبصر لها:

خفا كاقتِذاء الطَّيرِ وَهنًا كأنَّهُ ❖ سِراجٌ إذا ما يَكشِفُ اللَّيلُ أظلَما

وانظر اللفظ نفسه في قوله:

وقلن أتيت اليوم ما ليس خافيًا ❖ وبادهت أمرًا كنت قدمًا تحاوله

إنك تجد اللفظ في البيت الأول يدل على الظهور واللمعان؛ بينما يدل في البيت الآخر على الخفاء.

والظن دل في شعر حميد على الشك كما دل على اليقين والعلم، انظر إليه وهو يتحدث عن محبوبته:

وَما لي بها عِلمٌ سوى الظنِ والَّذي ❖ إلى بَيتِهِ تُزجى حَوافٍ وَظُلَّعُ

تُزجى: أي تُساق، والظُّلع: الإبل تغمز وتعرج في مشيتها.

وانظر إليه وهو يتحدث بأنه يصل السيف بالخطا والخطا بالسيف إذا عَلِمَ أن سيفه قاصر:

ووصل الخُطا بالسيف والسيف ❖ إذا ظن أن السيف ذو السيف قاصر

إنك تجد اللفظ في البيت الأول يدل على الشك؛ بينما يدل على اليقين والعلم في البيت الآخر.

وقد استشهد بعض العلماء لدلالة الظن على الشك بقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وبقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢] أي: توهموا ذلك، واستشهدوا باليقين بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وبقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، وبقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨].

وانظر أيضًا إلى لفظ المُقْوَرِّ في شعر حميد؛ حيث دل على السمين والضامر، قال حميد في جمل سمين ضخم عالٍ كأن بطانه وضع على جبل:

وقربن مقورًّا كأن وضينه ❖ بنيقٍ إذا ما رامه الغفر أحجما

"الوضين": بطان البعير العريض المنسوج الذي يشد به الرحل، و"النيق": هو الجبل العالي، و"الغفر": جمع أغفر: وهو الظبي، إذًا اللفظ -لفظ المقور- يدل على الجمل السمين، ثم يقول حميد في ناقة سريعة لضمور جلدها:

بموقرة الألياط أما نهارها ❖ فسبت وأما ليلها فذميل

فاللفظ هنا يدل على الضمور، وذكر بعض علماء العربية أن المقور في لغة العرب بمعنى المهزول، أي: الضامر، وعند الهلاليين بمعنى السمين، واستشهدوا ببيت حميد بن ثور الهلالي، ومن هؤلاء العلماء: السجستاني في "أضداده"، وابن الأنباري في "أضداده" أيضًا، والصاغاني في "أضداده"، وابن سيده في "مخصصه"، وابن منظور في "لسانه".

وانظر أيضًا لفظ "دُون"؛ حيث جاء في ديوان حميد دالًّا على الأمام وعلى الوراء، قال يصف قطاة ضربت في الأرض تطلب الرزق لأطفالها الصغار وبعدت عنهم، ثم عندما بدأت في العودة رأت نفسها تواجه أمامها صحراء شاسعة لا تدركها العيون:

وتأوي إلى زُغْب مساكين دونها ❖ فَلًا ما تخطاه العيون مهوب

إذًا لفظ "دون" دل هنا على الأمام ؛ بينما يقول ويتحدث عن ذئب ظل يراءي الجيش ويمشي وراءه ؛ حتى تغيَّب موطنه وهو نخل لبني اليشكر، وحجزت بينهما من وراءه أرض ذات حزونة :

فظل يراعي الجيش حتى تغيبت ❖ خباش وحالت دونهن الأجارع

الخباش هنا : هو المكان الذي به نخل بني اليشكر.

هذه الأمثلة كل مثال فيها دل على معنيين متضادين، واستخدم الشاعر أحدهما في موقف واستخدم الآخر في موقف آخر.

٢ـ أشهرُ المؤلفات فيها :

أما التأليف في هذه الظاهرة ؛ فيتضح في الكتب المستقلة التي خصصها العلماء لهذه الكلمات التي من هذا القبيل ؛ كما يتضح أيضًا في الكتب الجامعة ؛ حيث خصص العلماء في ثناياها فصولًا وأبوابًا لها.

فممن ألَّف في الأضداد تأليفًا مستقلًّا : ابن الأنباري -المتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة من الهجرة- ، ونشر كتابه أكثر من مرة في بلاد الشرق والغرب، وممن ألف فيه أيضًا : الأصمعي -المتوفى سنة ست عشرة ومائتين- وأبو حاتم -المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين- وابن السكيت، -المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين- والصاغاني -المتوفى سنة خمسين وستمائة- وقد طبعت كل هذه الكتب. وقطرب -المتوفى سنة ست ومائتين- وحقق كتابه ونشر في مجلة "إسلاميكا"، سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألفٍ من الميلاد، وألف فيه أيضًا أبو الطيب اللغوي -المتوفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة- ، وقد حقق الكتاب ونشر سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألفٍ للميلاد، كما ألف فيه ابن الدهان -المتوفى سنة تسع وستين وخمسمائة- ، ونشر عام اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف في النجف...

كل هذه الكتب وصلت إلينا بحمد الله ونشرت، وهناك مؤلفات أخرى لم تصل إلينا، منها (الأضداد) للتوزي المتوفى سنة ثلاثين ومائتين، وثعلب المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين، وابن فارس المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

آراء العلماء في الأضداد، ووقوعها في القرآن الكريم

١ـ آراءُ العلماء في الأضداد:

اختلف العلماء في وجود هذا النوع؛ فمنهم مَن أنكره ومنهم من أثبته، أما المنكرون فهم قلة، وعلى رأسهم ابن درستويه -المتوفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة-، الذي ألف كتابًا في إبطال الأضداد كما ذكر السيوطي في (المزهر)، وقد عرفنا أن ابن درستويه من المنكرين للمشترك اللفظي أيضًا، ولجأ المنكرون إلى الأضداد إلى بعض الأدلة العقلية لتأييد رأيهم.

الدليلُ الأولُ: أن النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد؛ لأن المشترك يجب فيه إفادة التردد بين معنييه، والتردد في النقيضين حاصل بالذات لا من اللفظ.

الدليلُ الثاني: أن وجود الأضداد يعد نقصًا في العرب وفي لغتهم.

ويرى ابن دريد أن الأضداد لا تكون كذلك إلا في لغة واحدة؛ إذ يقول الشعب الافتراق، والشعب: الاجتماع، وليس من الأضداد؛ إنما هي لغة قوم، وقد أفاد بهذا أن شرط الأضداد: أن يكون استعمال اللفظين في المعنيين في لغة واحدة.

كما روى ابن سيده الأندلسي: أن أحد شيوخ أبي علي الفارسي كان كذلك ينكر الأضداد التي حكاها أهل اللغة: أن تكون لفظة واحدة لشيءٍ وضده، ويذهب أنصار هذا الرأي الأخير إلى أن التضاد في المعاني ينشأ أولًا في لهجات مختلفة، ثم تستعير كل لهجة المعنى المستعمل عند الأخرى، وبذلك يجتمع

المعنيان المتضادان في هذه اللهجة عن طريق تلك الاستعارة؛ فإذا وقع الحرف على معنيين متضادين؛ فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما؛ ولكن أحد المعنيين لِحَيٍّ من العرب والمعنى الآخر لحي غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء.

قالوا: فالجون: الأبيض، في لغة حي من العرب، والجون: الأسود، في لغة حي آخر، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر، ومن الطبيعي أن الكلمة من كلمات الأضداد لم توضع للمعنيين المتضادين في أول الأمر؛ وإنما وضعت لأحدهما، ثم جدت عوامل مختلفة أدت إلى نشأة المعنى الثاني المضاد للمعنى الأول.

وقد فطن إلى ذلك بعض علماء اللغة مثل ابن الأنباري؛ إذ يقول في كتابه (الأضداد): إذا وقع الحرف على معنيين متضادين؛ فالأصل لمعنى، واحد ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع.

وقد وقف القالي على المعاني الأصلية لبعض الكلمات؛ فأنكر لذلك كونها من الأضداد وقال: الصريم: الصبح؛ سمي بذلك؛ لأنه انصرم عن الليل، والصريم: الليل؛ لأنه انصرم عن النهار، وليس هو عندنا ضدًّا. وقال: النطفة: الماء، تقع على القليل منه والكثير، وليس بضد.

ولم تسلم العربية من هجوم الشعوبيين عليها بسبب ما فيها من الأضداد؛ إذ ظن أهل البدع والزيغ والازدراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم، وعند اتصال مخاطباتهم، غير أن هذا رأي باطل -كما يذكر محقق كتاب (أضداد أبي الطيب اللغوي)- لا يرجع إلى حقيقة أو صواب؛ بل يرجع إلى حقدٍ وضغينة على العرب في نفوس هؤلاء الشعوبيين من غير العرب؛ لأن مرد الأمر في مسألة الأضداد في اللغة إلى سياق

الكلام وتعلق أوله بآخره، وإلى قرائن الحال التي يكون فيها الناس أثناء التخاطب.

وما درى هؤلاء أن كلام العرب يصحح بعضه بعضًا ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه؟ فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين؛ لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنًى واحد؛ لذلك أثبته كثير من العلماء، ويصعب حصرهم.

ومنهم مَن رد على منكري الأضداد، ومن هؤلاء ابن الأنباري، الذي يقول في كتابه: إن كلام العرب يصحح بعضه بعضًا ويرتبط أوله بآخره... إلى آخر ما قال.

ومنهم أيضًا ابن فارس الذي يقول: وأنكر ناس هذا المذهب، وأن العرب تأتي باسم الواحد لشيءٍ وضده، هذا ليس بشيء؛ وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهندًا والفرس طرفًا هم الذين رووا أن العرب تسمي المتضادين باسم واحد، وقد جرَّدنا في هذا كتابًا ذكرنا فيه ما احتجوا به.

وقد انضم معظم علماء الأصول إلى جمهرة اللغويين في إثبات هذه الظاهرة.

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه: (فصول في فقه العربية): أننا لا نود أن ننساق وراء المؤلفين في الأضداد من اللغويين العرب؛ فنعد كل ما أتوا به من كلمات هذه الظاهرة صحيحًا؛ فإننا مثلًا لا نرى شيئًا من التضاد في استعمال كلمة الضعف بمعنى المثل أو المثلين، أو استعمال كلمة المثل بمعنى المماثل أو الضعف، أو استعمال الكأس بمعنى الإناء أو الشراب الذي يوضع فيه، أو استعمال الأحفاظ بمعنى الأمتعة أو الإبل التي تَحمل هذه الأمتعة، أو استعمال الظعينة بمعنى الهودج أو المرأة في الهودج، أو استعمال الراوية بمعنى المزادة أو

البعير الذي يحملها، أو استعمال المُعسر للجارية التي دنت من الحيض عند قيس، أو التي ولدت أو تعنست عند الأزد، أو استعمال طبخ للطبخ في القدر، أو الشوي في التنور.

يقول: ومثل ذلك كثير في كتب الأضداد، وبعضه -في الحقيقة- من باب المشترك اللفظي لا من باب الأضداد... كما اشترط اتحاد الكلمة ومتعلقاتها في المعنيين، قال: لأن أي تغيير فيها أو في متعلقاتها يخرجها عن كونها بذاتها تحتمل المعنيين المتضادين. ومثل لذلك: بظاهر عنك بمعنى: زائل، وظاهر عليك بمعنى: لازم، وأخرج هذا من كلمات الأضداد، كما أخرج راغ علي بمعنى: أقبلَ، وراَغ عَنْ بمعنى: ولّى، كما أخرج من الأضداد: تَرِب الرجل: بمعنى: افتقر، وأترب بمعنى: استغنى.

وقد استند في إخراجه هذه الأمثلة بقول ابن الأنباري: وهذا عندي ليس من الأضداد؛ لأن ترب يخالف أتربَ؛ فلا يكون ترب من الأضداد؛ لأنه لا يقع إلا على معنًى واحد.

وقد صرح أبو الطيب اللغوي بأن شرط الأضداد: أن تكون الكلمة بعينها تستعمل في معنيين متضادين من غير تغيير يدخل عليها، كما أخرج الدكتور رمضان عبد التواب من الأضداد ما ترك اللغويون العرب الاستشهادَ على أحد معنييه؛ لأنه لم يثبت في كلام العرب أنه استُعمل بهذا المعنى، مثل: قسط التي تعني عدل أو جار؛ فالمعنى الأول لا دليل عليه، أما الثاني فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٥]، كما استبعد من كلمات الأضداد تلك التي صحفها اللغويون أو حرفوها، ففي (أضداد ابن الأنباري): قال بعض العرب: بردت من الأضداد، يقال: برد الشيء على المعنى المعروف، ويقال: برد الشيء: إذا أسخنه، واحتجوا بقول الشاعر:

عافت الشربة في الشتاء فقلنا ❖ برديه تصادفيه سخينا

يقول الدكتور: ولا شك أن هذا تحريف لعبارة: "بل رِديه"؛ فقد قال ابن الأنباري تعليقًا على ذلك: قال أبو بكر: وحكى لي بعض أصحابنا عن أبي العباس أنه كان يقول في تفسير هذا البيت: " بل رديه" من الورود؛ فأدغم اللامَ في الراء فصارتَا راءً مشددةً: "برِّديه". وقال أبو الطيب في التعليق على البيت: قال قُطرب: معنى "برديه" في هذا البيت: سخنيه، وقال أبو حاتم: هذا خطأ: إنما هو: "برديه" من الورود؛ ولكنه أدغم اللام في الراء كما يقرأ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين: ١٤]، قال أبو الطيب: وهذا الصحيح وبه يستقيم معنى البيت.

ومن التصحيف قول أبي الطيب اللغوي: يقال: أشدف الليل إذا أظلم، وأشدف الصبح إذا أضاء؛ فإنه مما لا شك فيه أن هذا تصحيف لكلمة أسدف، والسُّدفة: بمعنى الظلمة والضوء.

ثم يرى الدكتور رمضان أن مجموعة صالحة تبقَى بعد هذا من كلمات الأضداد في العربية، ولا شك في أن الأصل فيها كلها دلالتها على معنًى واحد، ويرى أن هناك عواملَ كثيرة أدت إلى التضاد فيها، مع ملاحظة أن التطور في المعنى الأصلي للكلمة أو في صورتها على نحو يؤدي إلى التضاد فيها، قد يحدث في لهجة من اللهجات العربية، ويروَى لنا ذلك على أنه من خصائص تلك اللهجة، وقد تستعيره اللغة المشتركة ويعيش فيها جنبًا إلى جنب مع المعنى الأصلي، وحينئذٍ لا يروي لنا اللغويون شيئًا عن اللهجة التي تم فيها مثل هذا التطور، بل قد يحدث أن تعرَّب كلمة من الكلمات الأعجمية؛ فيخصص معناها عند قبيلة معينة، ويصير هذا التخصيص في اتجاه مضاد عند قبيلة أخرى.

ولكنه لا يمنع ورود أمثلة من التضاد قد تم فيها التطور في داخل اللغة العربية نفسها، بتأثير عوامل متعددة سنذكرها إن شاء الله.

٢- وقوعُها في القرآن الكريم:

أما بالنسبة لوقوع الأضداد في القرآن الكريم؛ فقد سَلَّمَ به نفر من العلماء؛ إذ يبدو أن جزءًا من اهتمام اللغويين بالتأليف في الأضداد يعود إلى ورود بعضها في القرآن الكريم؛ وقد كشف عن ذلك صراحة أبو حاتم السجستاني الذي يقول في صدر كتابه (الأضداد): حملنا على تأليفه أنا وجدنا من الأضداد في كلامهم والمقلوب شيئًا كثيرًا؛ فأوضحنا ما حضر منه؛ إذ كان يجيء في القرآن الظن يقينًا وشكًّا، والرجاء خوفًا وطمعًا، وهو مشهور في كلام العرب؛ فأردنا أن يكون لا يرى من لا يعرف لغات العرب أن الله ﷻ حين قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] مدح الشاكِّين في لقاءِ ربهم؛ وإنما المعنى: يستيقنون، وكذلك في صفة من أوتي كتابه بيمينه من أهل الجنة: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] يريد أني أيقنت ولو كان شاكًّا لم يكن مؤمنًا.

وأما قوله: ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] فهؤلاء شكاك كفار، كما يبدو أن التعرض لألفاظ الأضداد القرآنية وتفسيرها كان بدافع الرد على الشعوبيين، الذين كانوا يرمون العرب بكل نقيصة، ويرمون لغتهم بأنها خلت من الحكمة، وافتقرت إلى الدقة والبلاغة في إطلاق الألفاظ وتحديد المعاني، ويتهمونها بالعجز عن التعبير بشكل واضح ومحدد عما يراد منها، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الأنباري في أضداده، أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب.

فالدفاع عن ظاهرة الأضداد في اللغة العربية دفاع بالضرورة عما ورد منها في القرآن الكريم كذلك، وكثير من المفسرين ومعظم من ألفوا في الأضداد، يعطون ألفاظ الأضداد الواردة في القرآن الكريم عناية خاصة، ومن الألفاظ التي قيل بتضادها في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] قال أبو عبيدة: يقال: عسعس الليل، إذا أقبل وإذا أدبر، وقد أنكر أبو حاتم وجود التضاد في هذا اللفظ، وقال: قد تقلد أبو عبيدة أمرًا عظيمًا، ولا أظن ها هنا معنى أكثر من الاسوداد: ﴿عَسۡعَسَ﴾: أظلم واسودَّ في جميع ما ذكر.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] قال الأصمعي: المقوي الذي لا زاد معه ولا مال، وفي موضع آخر في غير القرآن - أي: في كلام العرب: المقوي: الكثير المال، والمقوي: الذي له دابة قوية وظهره قوي.

ومثال ثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣] قال الأصمعي: يقال: أسررت الحديث: كتمته، وأسررته: أظهرته، ويتفق أبو عبيدة مع الأصمعي في دعوى التضاد هذه، وكان يفسر أسر بمعنى أظهر، كتفسير الأصمعي.

ولكن أبا حاتم السجستاني يرفض هذا الرأي قائلًا: ولا أثق بقوله في هذا، والله أعلم.

فعلى رأي الأصمعي وأبي عبيدة يكون القرآن الكريم، قد استعمل لفظ الإسرار بمعنى الإظهار مرة كما في الآية السابقة، ومرة بمعنى الإخفاء؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وفي قوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ [التحريم: ٣]

يقول الدكتور أحمد مختار عمر: وقد اخترت من عشرات الأمثلة القرآنية التي قيل بوجود تضاد فيها: الأمثلة الثلاثة السابقة ليمثل كل نوع منها نوعًا خاصًّا؛ فالمثال الأول استعمل فيه اللفظ بمعنييه المتضادين جميعًا على سبيل الاحتمال، والمثال الثاني استعمل اللفظ فيه بأحد معنييه فقط؛ وحيث كان هو اللفظ الوحيد في القرآن الكريم؛ فإن هذا يعني أن القرآن قد استعمله في أحد معنييه المتضادين، والمثال الثالث استعمل فيه اللفظ بأحد معنييه فقط، وحين استعمل القرآن الكريم اللفظ نفسه في مواقع أخرى في ضد معناه الأول؛ يكون القرآن الكريم قد استعمل اللفظ بمعنييه المتضادين على سبيل التوزيع.

أسباب نشأة الأضداد

السبب الأول: عموم المعنى الأصلي:

قد يكون المعنى الأصلي للكلمة عامًّا ثم يتخصص هذا المعنى في لهجة من اللهجات؛ كما يتخصص في اتجاه مضاد في لهجة أخرى؛ فكلمة "الطرب" معناها في كتب الأضداد: الفرح والحزن، والأصل في هذا المعنى خفة تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع، والمأتم عدت من الأضداد؛ لأنها تدل -عند بعض العلماء، كأبي حاتم وقطرب: على النساء المجتمعات في فرح وسرور؛ كما تدل على النساء المجتمعات في غم وحزن ومناحة، والأصل في ذلك عموم المعنى؛ فالمأتم: النساء يجتمعن في الخير والشر.

و"السدفة" يذكر اللغويون أن تميمًا تطلق هذه الكلمة على الظلمة؛ ولكن قيسًا تطلقها على الضوء، ومعنى هذه الكلمة في الأصل عامٌّ؛ لأن أصل السدفة: الستر؛ فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوؤه ظلمة الليل، وكأن الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار.

و"الصريم" يطلق على الليل كما يطلق على النهار، يقول أبو حاتم: الصريم: الليل إذا انصرم من النهار، والصريم: النهار إذا انصرم من الليل، وإذا كان الليل ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع.

و"الصارخ" معناه في اللغة: المغيث والمستغيث، والمعنى العام في كل من المعنيين: هو الصراخ؛ لأن المغيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة؛ فأصلهما من باب واحد.

و"الجون" معناه: الأسود في لغة قضاعة، والأبيض في لغة غيرهم، وهذه الكلمة معربة عن الفارسية وهي فيها بمعنى: اللون، وقد عربت هذه الكلمة بمعناها الأصلي في كلمة زرجون بمعنى الخمر، وقال السيرافي: زرجون: فارسي معرب شبه لونها بلون الذهب؛ لأن "زر" -في الفارسية-: الذهب، و"جون": اللون، وهم مما يعكسون المضاف والمضاف إليه عن وضع العرب.

السبب الثاني: التفاؤل:

التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان التي تسيطر على عاداته في التعبير إلى حد كبير، فإذا شاء المرء التعبير عن معنًى سيئ؛ تشاءم من ذكر الكلمة الخاصة به وفر منها إلى غيرها؛ فجميع الكلمات التي تعبر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث، يفر منها الإنسان ويكني عنها بكلماتٍ حسنة المعنى قريبة إلى الخير؛ فالمفازة معناها في العربية: المنجاة والمهلكة، واشتقاق الكلمة من الفوز يؤكد أصالة المعنى الأول؛ أما إطلاقها على المعنى الثاني فهو على سبيل التفاؤل.

وقد فطن إلى هذا علماؤنا الأقدمون؛ فقال أبو حاتم السجستاني: وإنما قيل للعطشان: ناهلٌ على سبيل التفاؤل كما يقال: المفازة: للمهلكة، على التفاؤل،

ويقال للعطشان: يا ريان، وللملدوغ: سليم، أي: سيسلم، وقال ابن الأنباري: واختلف الناس في اعتلال لها؛ لِمَ سميت مفازة على معنى المُهلكة، وهي مأخوذ من الفوز؟ قال الأصمعي وأبو عبيدة وغيرهما: سميت مفازة على جهة التفاؤل لِمَن دخلها بالفوز، كما قيل للأسود: أبو البيضاء، وقيل للعطشان: ريان.

ومن أمثلة هذا أيضًا: السليم: يطلق في العربية على الصحيح وعلى اللديغ، واشتقاقه من السلامة يؤكد أصالة المعنى الأول؛ أما إطلاقه على اللديغ؛ فهو على التفاؤل بسلامته وبرئه من علته، وإن كان الدكتور إبراهيم أنيس يذهب إلى أن كلمة السليم تطلق على الملدوغ على جهة التهكم.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: الناهل: تطلق على الريان وعلى العطشان، والنهل: مشتق من ورود الماء والشرب، والحافل تطلق على الممتلئ وعلى الخالي، يقال: ناقة حافل: إذا ذهب اللبن من ضرعها؛ فلم يبقَ منه إلا اليسير، وناقة حافل: إذا امتلأ ضرعها باللبن، وأصل الحفل في اللغة: الجمع الكثير، فدلالة الحافل على الضرع الممتلئ الذي تجمع فيه اللبن دلالة أصلية، أما إطلاقه على الضرع الخالي فهو من باب التفاؤل.

والبصير: تطلق إلى يومنا هذا على المبصر وعلى الأعمى، وأصل دلالتها على المبصر لا تحتاج إلى دليل؛ أما إطلاقها على الأعمى فهو من باب التفاؤل له بصحة البصر، والمسجور: يطلق على المملوء والفارغ، والظاهر أن إطلاقها على المملوء أصل -كما يرى الدكتور رمضان عبد التواب. وعلى الفارغ تفاؤلٌ بامتلائه.

السبب الثالث: التهكم والسخرية:

فهذا يؤدي إلى قلب المعنى أيضًا، وتغيير الدلالة إلى ضدها في كثير من الأحيان؛ فالتعزير في العربية يدل على التعظيم، وهذا هو الأصل ومنه قوله تعالى:

﴿ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] غير أنها تستعمل في معنى التأديب والتعنيف واللوم تهكمًا واستهزاءً بالمذنب، كما إن إطلاق العاقل على الجاهل إطلاق فيه تهكم.

ومن المعروف أن التقريظ: هو مدح الحي، على العكس من التأبين الذي هو: مدح الميت؛ لكن قد ورد استعمال كلمة التقريظ بمعنى: الذم، من باب التهكم والسخرية بالمذموم. واستعمال القشيب بمعنى الجديد في قولهم: ثوب قشيب، استعمال شائع، وقد حكى قطرب استعماله بمعنى: الثوب الخلِق، وإذا صح أن هذا المعنى ورد عن العرب؛ كان على سبيل التهكم والسخرية من الثوب الخلِق.

السبب الرابع: الخوف من الحسد:

وهو يشيع القبائل البدائية الاعتقاد في السحر والإصابة بالعين؛ حيث يفر المرء - في مثل هذه البيئة- من وصف الأشياء بالحسن والجمال؛ حتى لا تصيبها عين الحسود.

السبب الخامس: التطورُ اللغويُّ:

قد يحدث في بعض الأحيان أن توجد كلمتان مختلفتان لهما معنيان متضادان؛ فتتطور أصوات إحداهما بصورة تجعلها تنطبق على الأخرى تمامًا؛ فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة تنطبق على الأخرى تمامًا؛ فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة لها معنيان متضادان، وهذا التطور اللغوي يسمى أحيانًا بالتطور الصوتي.

ومن أمثلته قول بني عقيل: لمقت الكتاب، أي: كتبته، وقول سائر قيس: لمقته، أي: محوته. وإذا عرفنا أن ابن منظور يقول: نمق الكتاب ينمقه نمقًا: كتبه؛ فإننا نرجح أن النون أبدلت لامًا في نطق بني عقيل، فَهُمَا من الأصوات المتوسطة في

العربية التي يحدث فيها الإبدال كثيرًا، وبذلك تطابق الفعل مع نظيره بمعنى محا؛ فتولد التضاد.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: تلحلح: بمعنى أقام وثبت، وبمعنى: زال وذهب؛ فإن هذا المعنى الثاني، كان في الأصل لكلمة أخرى هي: تحلحل، ثم حدث قلب مكاني؛ فقدمت اللام وأخرت الحاء.

السبب السادس: المجاز والاستعارة:

ومن أمثلته: "الأمة" بمعنى: الجماعة والفرد، فالفرد لا يقال له: أمة إلا على التشبيه بالجماعة على وجه المبالغة، فيقال عن هذا العالم أو ذاك: كان أمة واحدة، يعني: أنه كان في رجحان عقله وحده ذكائه يعادل جماعة بأسرها؛ فاستعير له لفظٌ يطلق في العادة على الجماعة.

السبب السابع: احتمال الصيغة الصرفية للمعنيين:

وهذا كثير في العربية كصيغة فعول تأتي بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، وكذلك فعيل وفاعل، وكذا عندما يشتق اسم الفاعل والمفعول من افتعل الأجوف أو المضعف، كمختار ومرتد؛ لاحظ شكور وغفور وكفور: وزن ذلك فعول بمعنى فاعل كما تستعمل بمعنى مفعول، مثل: رسول بمعنى: مرسل، وناقة سلوب: بمعنى مسلوبة الولد، وعلى ذلك ذعور، بمعنى: ذاعر ومذعور، وركوب: بمعنى راكب ومركوب، وزاجر بمعنى زاجر ومزجور، والأكولة بمعنى: الآكلة والمأكولة. ولاحظ أيضًا سميع وعليم وقدير: فعيل بمعنى فاعل، كما تأتي بمعنى مفعول. دهين بمعنى مدهون، وكحيل بمعنى مكحول، وجريح بمعنى مجروح، وطريد بمعنى مطرود، وغريم بمعنى الدائن والمدين، والكَرِيُّ بمعنى المكترِي والمكترَى، والقميص بمعنى القامص والمقموص، والتبيع بمعنى التابع والمتبوع.

تلك هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى نشأة الأضداد في العربية.

معنى الترادف، وشروطه عند مَن قال به

١ـ معنى الترادف:

إن فكرة الترادف قد كانت من جملة الظواهر اللغوية الأولى، التي تنبه إليها العلماء والدارسون العرب في وقتٍ مبكر نتيجة ملاحظتهم للواقع اللغوي، ولم تكن هذه الفكرة غريبة عن الحس اللغوي العام، وقد اتضحت عندهم بعد تدوين مفردات اللغة ومحاولة تصنيفها ودرسها، ونتيجة النظر والتأمل في هذه المفردات؛ لاحظ العلماء عدة ظواهر لغوية كالاشتراك والأضداد والقلب والإبدال وكذا الترادف، فشرعوا يصنفونها ويبحثون فيها.

ومعنى الترادف هو: الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد.

وقد علمت أن سيبويه قد قسم كلام العرب حين قال: اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، فاختلاف اللفظين باختلاف المعنيين مَثَّلَ له بجلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد مثل له بذهب وانطلق، وهذا هو القسم الذي نركز عليه، ومثل لاتفاق اللفظين والمعنى مختلف بوجد من الموجدة، ووجد من وجدان الضالة. ثم تأثر به مَن أتى بعده من العلماء.

والتقسيم الذي جاء فيه: اختلاف اللفظين والمعنى واحد قد مثل له بقوله: "ذهب وانطلق". فهذا الضرب من الألفاظ هو الذي سُمي فيما بعد بالألفاظ المترادفة، وواضح أن الترادف هو من هذا القبيل. إن هذا النص من النصوص اللغوية المهمة التي أشارت إلى فكرة الترادف في اللغة من غير تحديد، وأصبح من الشهرة بمكان

في كتب اللغة اللاحقة، إذ تناقل تقسيم سيبويه هذا كثير من العلماء والدارسين من بعده، وذلك بشيء من التصرف والزيادة والشرح، فقد عرض له قطرب والمبرد وابن فارس والأنباري وابن الأثير والسيوطي وغيرهم.

فالألفاظ المختلفة الدالة على معنى واحد، مثل: قَعَدَ وجَلَسَ وذَهَبَ ومَضَى وانْطَلَقَ، والبُرّ والحِنْطَة، وظَنّ وحَسِبَ، كُلٌّ هذا تعارفوا عليه فيما بعد بالترادف. إذ يقول ابن الأنبار -بعد أن ذكر الأضداد والمشترك اللفظي-: "وأكثر كلاهم يأتي على ضربين آخرين؛ أحدهما: أن يقع اللفظان المختلفان على المعنيين المختلفين". كقولك: الرجل والمرأة والجمل والناقة، واليوم والليلة، وقَامَ وقَعَدَ وتَكَلَّمَ وسَكَتَ، وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به، والضرب الآخر أن يقع اللفظان المختلفان على المعنى الواحد، كقولك: البُر والحِنطة والعِير والحمار والذئب والسيدُ، وجَلَسَ وقَعَدَ وذَهَبَ ومَضَى".

وإذا كان سيبويه قد عَبَّرَ عن فكرة الترادف باختلاف اللفظين والمعنى واحد، فقد تمثلت عند الأصمعي، باسم: "ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه" الذي عنون به أحد كتبه، وقد ظهر هذا الكتاب بهذا العنوان: (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه). بتحقيق ماجد حسن الذهبي. وقد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ست وأربعمائة وألف من الهجرة، وهذا يوافق سنة ست وثمانين وتسعمائة وألف من الميلاد.

وأسوق بعض أمثلة الأصمعي في كتابه، يقال: "سمعت هينمته وهمهمته، وهو الصوت تسمعه ولا تفهمه، ويقال: عيال فلان يتكففون ويسألون، ويقال: قميص واسع اليد، وواسع الكُم، ويقال: كتم فلان الشهادة. وكمى الشهادة وخمرها، ويقال: عَطَسَ يَعْطُسُ عُطَاسًا وعَطْسًا، وكَدَسَ يَكْدُسُ كُدَاسًا، والكداس والعطاس سواء.

وهذه الفكرة دعت الأصمعي إلى أن يؤلف كتابًا، وقد أطلعتك على أمثلة منه: وهو (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه)، ثم اهتم بها أيضًا أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب سماه كتاب (الأسماء المختلفة للشيء الواحد)، وهو أحد الكتب التي ينقسم إليها كتاب (الغريب المصنف)، وقد ذكر كثيرًا من الألفاظ المختلفة الدالة على معنى واحد تحت هذا العنوان.

كما أفرد صاحب (الغريب المصنف) في كتابه أبوابًا كثيرة، وفي مواضع متفرقة لذكر أسماء الخمر والعسل والسيف، وأسماء الزوجة والداهية والنفس والسباع والضباع والثعالب والأسد والذئب والعطية، وأسماء القصير والطويل والمجنون... وغيرها، يُضاف إلى هذا كله ما نجده في كتب النوادر من مترادفات.

وقد ألَّف علي بن عيسى الروماني كتابًا خاصًّا في الألفاظ المترادفة، وطبع سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة؛ كما ألف الفيروزآبادي صاحب (القاموس المحيط) كتاب (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)، وكان أبو عبد الله بن خالويه الهمذاني يحفظ للسيف خمسين اسمًا، وللأسد خمسمائة، وللحية مائتين؛ لذلك أيد وقوع المترادف في العربية كثير من اللغويين: كقطرب، وأبي زيد، والأصمعي، وابن السكيت، وعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، وقدامة بن جعفر، والرُّماني... وغيرهم في القديم والحديث.

ولذلك جوز أكثر العلماء وقوعه في اللغة الواحدة: كالحِنطة والبر والقمح، والريب والشك، والشرعة والمِنهاج، والسر والنجوى، والبث والحزن، والقسم والحلف، وفضل وآثر، وبعث وأرسل؛ بينما أنكر وقوعه في اللغة العربية نفر من العلماء، واعتبروا أن وضع كلمتين أو أكثر بمعنى واحد لغو ونقص يتنزه عنه الواضع الحكيم.

٢. شروطُ الترادف عند من قال به:

إن المحدثين قد اشترطوا شروطًا معينة لا بد من تحقيقها؛ حتى يتسنى الحكم بالترادف، وعلى ضوئها يمكن أن يلتمس الترادف في اللغة النموذجية سواء في القرآن الكريم أو في النصوص الأخرى من شعر وغيره.

وهذه الشروط هي:

أولًا: الاتفاق التام بين الكلمتين في المعنى لأفراد البيئة الواحدة.

ثانيًا: انتماء الكلمتين أو الكلمات إلى بيئة لغوية واحدة؛ كلهجة واحدة مثلًا، وتعتبر اللغة النموذجية الأدبية بيئة واحدة.

ثالثًا: انتماء الكلمتين أو الكلمات إلى عصر واحد.

رابعًا: ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ آخر.

٣. أسبابُ حدوثِ الترادف:

أولًا: تداخلُ اللهجات:

وذلك بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، والأخرى الاسمَ الآخر للمسمى الواحد من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان ويخفى الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر.

ثانيًا: تداخلُ اللغات:

ويتحقق في تلك الألفاظ التي اقترضتها العربية من اللغات الأجنبية، التي كانت تجاورها في الجاهلية وصدر الإسلام.

ثالثًا: التطورُ الصوتي:

حيث تطور بعض أصوات الكلمة الواحدة على الألسنة؛ فتنشأ صور أخرى لها؛ فتعد من المترادفات.

رابعًا: تناسي صفات الاسم الواحد، فتصبح أسماءً، ولا يلحظ الكاتب أو الشاعر ما كانت عليه:

وقد خالف إجماع القوم على القول بالترادف في العربية بعض اللغويين الذين اهتموا بالفروق بين الدلالات، وغالوا في ذلك غلوًّا كبيرًا؛ كأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، وأبي علي الفارسي، وأبي هلال العسكري، وابن فارس، وأبي منصور الثعالبي؛ فها هو أبو هلال الحسن العسكري، -المتوفى بعد سنة خمس وتسعين وثلاثمائة- يؤلف كتابه (الفروق) وهو يحتوي على ثلاثين بابًا؛ حيث لاحظ فرقًا بين معاني تقاربت بين كل لفظين فيما يأتي: العلم والمعرفة، الفِطنة والذكاء، الإرادة والمشيئة، الغضب والسخط، الخطأ والغلط، الكمال والتمام، الحسن والجمال، الفصل والفرق، العام والسنة، الزمان والمدة... رأى فرقًا بين كل زوجين مما ذكرت.

ومع أني أسلم بأن بعض الألفاظ تحمل فروقًا معنويةً، إلا أني لا أنساق مع هؤلاء المبالغين، وأنكر الترادف جملةً؛ لأن إحساس الناطقين باللغة كان يعامِل بعض هذه الألفاظ معاملة المترادف.

٤- فوائدُ الترادفِ:

أولًا: تكثير الطرق إلى الإخبار عما في النفس، فإنه ربما نسي الإنسان أحد اللفظين، أو عسر عليه النطق إذا كان ألثغَ -مثلًا. ولولا المترادفات تعينه على قصده لَمَا استطاع ذلك.

ثانيًا: التوسع في سلوك طرق الفصاحة، وأساليب البلاغة في النَّظْم والنثر.

ثالثًا: قد يكون أحد المترادفين أجدى من الآخر؛ فيكون شرحًا للآخر الخفي وتبيينًا له.

إن الترادف مما امتازت به اللغة العربية وطالت به غيرها من اللغات، ومظهر من مظاهر اتساع اللغة، وعظمها، وثرائها، ونموها.

هذا، وبالله التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (**الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى**)

أبو عبيد القاسم بن سلام النحوي الهروي البغدادي، مصر، شبين الكوم، دار الولاء، ١٩٩٣م.

٢. (**الأضداد في اللغة**)

أبو بكر محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنباري، القاهرة، المطبعة الحسينية، ١٣٢٥هـ.

٣. (**البلغة في شذور اللغة**)

لويس شيخو، وأوغست هفنر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م.

٤. (**تاج العروس من جواهر القاموس**)

محمد مرتضى الزَّبيدي، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٩٤م.

٥. (**تنبيهات عليِّ بن حمزة على ما في الغريب المصنف من أغلاط**)

أحمد طه حسانين سلطان، القاهرة، دار البشرى، ١٩٩٨م.

٦. (**تهذيب اللغة**)

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.

٧. (**الخصائص**)

أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٠م.

٨. (سر صناعة الإعراب)

أبي الفتح عثمان بن جني، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥م.

٩. (الصاحبي)

أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٧م.

١٠. (الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية)

أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

١١. (ظاهرة المشترك اللفظي وظاهرة غموض الدلالة)

أحمد نصيف الجنابي، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٤م.

١٢. (العباب الزاخر واللباب الفاخر)

رضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني؛ تحقيق: فير محمد حسن، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٨م.

١٣. (المعجم الوسيط)

إعداد: إبراهيم أنيس وآخرون، دار المعارف، ١٩٩٤م.

١٤. (علم الدلالة والمعجم العربي)

عبد القادر أبو شريفة، دار الفكر، ١٩٨٩م.

١٥. (علم الدلالة)

إبراهيم محمد عبد الحميد أبو سكين، الزقازيق، دار الزهراء للطباعة، ٢٠٠٣م.

١٦. (**علم الدلالة**)

أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ١٩٨٨م.

١٧. (**علم اللغة**)

علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٢م.

١٨. (**الغريب المصنف في اللغة**)

أبو عبيد القاسم بن سلام النحوي الهروي البغدادي، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٨م.

١٩. (**فصول في فقه العربية**)

رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ١٩٧٣م.

٢٠. (**فقه اللغة وسر العربية**)

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، مكتبة لبنان، ١٩٩٧م.

٢١. (**القاموس المحيط**)

أبو إسحاق إبراهيم الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

٢٢. (**كتاب العين**)

أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار البحار، ١٩٩٩م.

٢٣. (**كتاب جمهرة اللغة**)

أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م.

٢٤. (**الكنز اللغوي في اللسن العربي**)

أُوغست هفنر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٠٣م.

٢٥. (**لسان العرب**)

محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠م.

٢٦. (**ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه**)

أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: ماجد حسن الذهبي، دار الفكر، ١٩٨٦م.

٢٧. (**مجمل اللغة**)

أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

٢٨. (**محاضرات في المعاجم العربية؛ تاريخها، حاضرها، مستقبلها**)

أبو السعود أحمد الفخراني، إبراهيم البسيوني الصعيدي، مصر، مكتبة الكرنك، ١٩٩٦م.

٢٩. (**المحيط في اللغة**)

أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ١٩٩٤م.

٣٠. (**المخصص**)

أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي المعروف بابن سيده، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٠١م.

٣١. (**المصباح المنير**)

أحمد بن محمد بن علي الفيومي، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.

٣٢. (**المعاجم العربية؛ مدارسها ومناهجها**)

عبد الحميد محمد أبو سكين، القاهرة، دار الفاروق الحديثة، ١٩٨٨م.

٣٣. (**المعجم العربي: نشأته وتطوره**)

حسين محمد نصار، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٨٨م.

٣٤. (**المعجم العربي: دراسة ونقدًا**)

شعبان عبد العظيم عبد الرحمن، القاهرة، مطبعة الأمانة، ١٩٨٢م.

٣٥. (**المعجم الكبير**)

مجمع اللغة العربية، دار الكتب، ١٩٧٠م.

٣٦. (**معجم مقاييس اللغة**)

أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م.

٣٧. (**مقدمة الصحاح**)

أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011